الإسرائيليون مَن هُم؟

دراسة نفسيّة

دكتور قدري حفني

مكتبة مدبولي

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى ذكرى الشهيدة المصرية

إنتصار إسماعيل

صباح الجمعة ١٧ سبتمبر ١٩٨٢
مستشفى عكا ــ بيروت

كلمات قبل البداية

أن ما بين يدى القارىء ليس كتاباً بالمعنى المألوف، وأن اتخذ صورة الكتاب بأبوابه وفصوله. إنها مجموعة من الدراسات تجمع بينها وحدة القلم، ووحدة الموضوع. ولكنها انجزت فرادى عبر حقبة امتدت من اوائل السبعينيات حتى أوائل الثمانينيات. ولم تتح فرصة النشر العام لأى منها فيما عدا دراسة «تجسيد الوهم» التى كانت باكورة منشورات مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية عام ١٩٧٢.

ولقد آثرت أن تنشر هذه الدراسات بصورتها التى كتبت بها دون تعديل مسجلا لكل دراسة تاريخ اعدادها. ويرجع هذا التفضيل إلى سببين:

أولا: ان ثمة ظاهرة تعانى منها حياتنا الفكرية كأشد ما تكون المعاناة، وخاصة كلما اقترب الفكر من مجال القضايا ذات الطابع السياسى. وأعنى بهذه الظاهرة ما يمكن أن نطلق عليه ـ إذا ماشئنا تعبيراً مهذباً ـ «الانتقائية». أى أن يعود الكاتب إلى ما سبق أن كتب ونشر فينتقى منه ما يتفق مع ما يتصوره رائجا مطلوبا للمرحلة. مسقطاً منه مالم يعد صالحاً لها. معتمداً على ضعف ذاكرة القارىء. ماضيا يهلل فرحاً ويردد دون ملل «الم أقل لكم؟!!». ولذلك فقد فضلت أن أشرك معى القارىء فى أن ننظر معاً إلى تلك الدراسات لنتبين هل ثمة ما يتطلب تعديلا؟

ثانيا: لقد مضت على كتابة هذه الدراسات سنوات طوال حافلة بالأحداث التى كان يمكن أن تضيف إلى هوامش الكتاب كما هائلا من التفاصيل ولكن ماذا عن الجوهر؟ هل ثمة ماغيرته تلك الاحداث فى التكوين السيكلوجى الاسرائيلى؟ أو فى مجمل الاستراتيجية العربية حيال الصراع؟ وهما القضيتان اللتان تمثلان جوهر دراساتنا. لا أظن.

ممارساتنا العربية مازالت تدور ــفى مجملهاــ داخل اطار اللاحرب اللاسلم. قوانا الثورية مازالت ــفى مجملهاــ متمسكة بمواقعها الدفاعية تهدد منها ولا تتقدم عنها. مازلنا بعد محجمين عن ممارسة الهجوم بالسلام. ومازلنا أيضاً بعيدين عن ممارسة الهجوم بالحرب. ومازالت مبرراتنا فى الحالتين كما هى لم تتغير كثيراً. ومازالت الاحداث من حولنا تؤكد كل يوم حقيقة أن مناخ اللاسلم اللاحرب هو المناخ الأمثل لازدهار القوى العدوانية الإسرائيلية، بل وقوى التخلف والقهر العربى أيضاً.

ولكن، ترى هل نشهد هذه الأيام مايمكن أن يكون بداية لتغيير مقبل؟ هل يمكن أن تكون الانتفاضة الفلسطينية التى مازالت مستمرة بمثابة تلك البداية المرتقبه؟ إلى أين يمكن أن تؤدى عودة مصر إلى العرب أو عودة العرب إلى مصر؟ وماهو موقع هذا كله من نذر التغيرات المحتملة فى استراتيجيات القوتين الاعظم؟ شواهد عديدة وهامة قد تنبىء بتغير فى دينامية الصراع. ولكن فى أى اتجاه؟ أم أن تيار اللاسلم اللاحرب سينجح فى احتواء كل شىء كالمعتاد؟ هذا هو السؤال!!

تبقى بعد ذلك كله شكر واجبه. لقد كانت غالبية تلك الدراسات فى البداية مجرد أوراق تداولها العديد من الاصدقاء والابناء.

ولقد اثارت حماس الكثيرين منهم سلباً أو ايجاباً . تحمس البعض لها ـبل ولصاحبها ـ حماساً بالغاً . وتحمس البعض ضدها حماساً بالغاً كذلك . ولقد اتيحت لى فرصة الحوار الجاد والعميق مع الكثيرين ممن شرفت باختلافهم أو باتفاقهم معى فى بعض ما طرحته أو حتى فى مجمله . فلهم جميعاً أعترافى العميق بالفضل ، ودعوتى المخلصة لمزيد من الحوار.

والله الموفق ،،،،

قدرى حفنى

القاهرة يونيو ١٩٨٨

السلام الهجومى

* محاولات لتزييف الوعى العربى
* الصراع العربى الاسرائيلى بين النخبة والشارع
* الفلسطينيون والجماهيرية والحوار
* عرب ما قبل كامب دافيد.. والصراع
* مقدمات عصر كامب دافيد
* كامب دافيد والإمكانيات الجماهيرية
* استراتيجية السلام الهجومى

محاولات لتزييف الوعى العربى

اسرائيل هى قدر الأمة العربية ، ونحن قدرها ، أو علينا أن نسعى لكى نكون كذلك . ولا مهرب لفرد أو لشعب من ملاقاة قدره . قد يلاقيه مسلما راضيا مرضيا لو كان القدر إلهياً محتوماً . وقد يلاقى شعب قدره الدنيوى مستسلماً منهزماً خاضعاً ، وقد يلاقيه مندفعاً منبتاً أهوجاً . وقد يلاقيه متحدياً مستبسلاً مقاوماً . وقد يلاقيه أيضاً أو يلتقى به متجاهلاً إياه . مغمضاً عينيه . منغلقاً على ذاته ، مستسلماً لخيالاته الوردية سائراً إلى حتفه بظلفه . ولكنه ملاق قدره لا محالة .

والقدر الإسرائيلى الذى نتحدث عنه شاءته لنا قوى عاتية كثيرة . وما زالت تلك القوى حريصة على ما شاءته لنا . وستظل حريصة عليه ما لم تنضب المنابع المادية لتلك المشيئة فى منطقتنا العربية . وهو ما لا يبدو وشيكاً على أية حال . ولسنا فى معرض الحديث عن تلك القوى وقصتها معنا ومع منطقتنا فهو أمر يتجاوز كثيراً حدود سطور قليلة كهذه وكل ما نود أن نخلص إليه فى هذا المقام هو أن تلك القوى العاتية قد حرصت ـــ ضمن ما حرصت عليه لتحقيق أهدافها ـــ على تضليل العقل العربى وتزييف صورة القدر الإسرائيلى لديه بحيث تطيش محاولاتنا للتعامل معه ومواجهته . وللحقيقة فإن الكثيرين منا قد ابتلعوا الطعم ، وساهموا مقتنعين متحمسين فى ترويج صورة أو أخرى من تلك الصور الزائفة للقدر الإسرائيلى . ولعل ما أغراهم بذلك أنها صورة أحكم

أصحابها صياغتها. وتنوعت أشكالها وتعددت بحيث يمكن أن تجد هوى ورضى، وقناعة وإطمئناناً، بل ويمكن حتى أن تستثير فى العقل العربى انفعالا بها، وحماسا لها، أيا كان الإنتماء الفكرى لصاحب هذا العقل.

فالعربى الليبرالى قد تستهويه صورة «إسرائيل الديمقراطية» التى تسمح لأبنائها بحرية التظاهر والإضراب. والعربى الإشتراكى قد تجتذبه صورة الكيبوتز الإسرائيلى. وتلك العلاقات التاريخية القائمة بين أحزاب إسرائيلية وأحزاب اشتراكية فى أوروبا. والعربى المتدين — أيا كانت ديانته — قد يرى فى إسرائيل تجسيدا لفكرة الدولة الدينية، وإمكانية قيامها من حيث المبدأ فى العصر الحديث. والعربى الأكاديمى قد يرى فيها — أى فى صورة إسرائيل — مثالا للتقدم العلمى والتكنولوجى. وحتى العربى الرومانسى الحالم، لم ينسه صناع الصور الزائفة، فالإسرائيليون هم الأبناء المساكين للهولوكوست النازى الرهيب الذين لاقوا عذاباً لم يلاقه بشر غيرهم. وخرجوا من أتون المحرقة النازية يلتمسون وطنا يأويهم دون أن يفقدوا قدرتهم على التعمير والإبداع، بل وحتى القتال أيضاً. أما العربى الذى لم يجد ضالته فى أى من هذه الصور فقد بقيت له فى الجعبة صورتان أخيرتان عليه أن ينتقى منهما ما يناسب ذوقه، له أن يختار صورة إسرائيل الضعيفة الهزيلة، الغارقة فى الطوفان العربى، والتى لابد وأن تندثر يوما بحكم التاريخ وبفعل تناقضاتها الداخلية، ودون حاجة إلى جهده أو جهد غيره. فإذا لم تجد هذه الصورة أيضاً هوى فى نفسه فلينظر إذن إلى صورة إسرائيل الجبارة ذات القوة التى لا تقهر، ذات القنابل الذرية والتكنولوجيا المدمرة، والقدرة غير المحدودة على بلوغ ما تريد.

ويتوقع صانعو القدر الإسرائيلى ألا يبقى أمام العقل العربى وقد انهالت عليه كل تلك الصور، إلا خيارات محدودة إما أن يؤخذ بالنموذج الإسرائيلى الوردى، منبهراً بما يحمله من ألوان التقدم والحضارة. مستنزفاً قواه الذاتية فى محاولة الركض وراءه والسعى إلى محاكاته منشغلا بذلك عن مواجهته والتصدى له. وإما أن يتعاطف العقل العربى مع النموذج الإسرائيلى المأساوى فتستغرقه محاولات التبرير والتفسير منشغلا بذلك أيضاً عن أية مواجهة أو تصدى. وإما أن يطمئن للنموذج الإسرائيلى المتهالك. موفراً جهده فى مواجهته. صارفاً هذا الجهد فى غير ذلك من الأوجه. تاركاً للتاريخ وحده مهمة التصدى والحسم. وإما أن يفزعه النموذج الإسرائيلى العنيف فزعا يكاد أن يهلكه. فينكفىء على ذاته عاكفا على نقدها بلا هوادة. متحسرا على تاريخه الزاهر. منصباً بلعناته على يهود الأرض جميعاً. حالماً بمعركة فاصلة ستقع يوما لا محالة.

ولا يعنى زيف تلك الصور أنها خلو من الحقيقة تماماً فصناعها ليسوا بهذه السذاجة أو الغفلة. الحكومة الإسرائيلية تسمح بالمظاهرات والإضرابات. هذه حقيقة. ولكنها ليست كل الحقيقة. فهى تسمح بذلك لليهود وليس للعرب. ومن ثم فان الصورة تتضمن جانباً من الحقيقة ولكنها تجتزئ تلك الحقيقة من محيطها. الكيبوتز الإسرائيلى لا يعترف بالملكية الخاصة. هذا صحيح إلى درجة ما ولكنه أيضاً لا يمثل الحقيقة كلها فالكيبوتزات لا تمارس دعوتها للملكية العامة خارج حدودها ، والكيبوتزات تختلف وتتباين من حيث انتماءاتها الحزبية الأيديولوجية. والكيبوتزات تكاد أن تكون مغلقة تماماً على الاشكنازيم. وفضلا عن ذلك فإن مجموع أبناء الكيبوتزات لا يمثل أكثر من ٥ ٪ من يهود إسرائيل. مرة أخرى فالصورة تتضمن جانباً من

الحقيقة ولكنه جانب فحسب. صحيح أيضاً إن ثمة علاقات تاريخية بين أحزاب إسرائيلية وأحزاب إشتراكية أوروبية. ولكن صحيح كذلك أن الصورة الراهنة لتلك العلاقات لا تمثل الطابع السائد للنموذج الإسرائيلي. كما أن تلك الأحزاب الإسرائيلية المعنية تمثل قطاعا فحسب من الاشكنازيم الاسرائيليين أصحاب التاريخ الأوروبى. ومن ثم فإنهم يرتبطون بما هو أقرب إلى إنتماءات أقرانهم من الأوروبيين. وفضلا عن ذلك فإن الإشتراكية، الأوروبية المقصودة بالحديث ليست بالضرورة تلك الاشتراكية التى يحلم بها العقل العربى.

والأمر كذلك بالنسبة لصورة «إسرائيل الدولة الدينية». صحيح أن اليهودية هى الدين الرسمى فى إسرائيل. ولكن صحيح أيضاً أن الخلافات بين رجال الدين من الإشكنازيم وأقرانهم من السفارديم واضحة جلية. بل إن الخلافات بين رجال الدين ورجال الدولة فى إسرائيل لا تقل — إن لم تزد عن نظيرتها فى غيرها من الدول الدينية والعلمانية على حد سواء— أما صورة «إسرائيل مثال التقدم العلمى والتكنولوجى» فإنها تحوى أيضاً جانباً من الحقيقة فالتكنولوجيا فى إسرائيل متقدمة دون شك. ولكنها ليست بمجال تكنولوجيا إسرائيلية متميزة، بل إنه العلم الغربى والتكنولوجيا الغربية. وإذا كان الأمر كذلك. وإذا لم يكن بد من إختيار مثال أو نموذج. فالأصل أولى من الفرع. وكذلك صورة الإسرائيليون أبناء الهولوكوست النازى الرهيب صحيـــح أن الكثير من يهود ألمانيا وأوروبا قد تعرضوا ضمن غيرهم لعسف نازى بشع. ولكن صحيح كذلك أن الهولوكوست كان ظاهرة ألمانية أوروبية، ومن ثم فإنه لم يشمل يهود الأرض جميعاً. وصحيح أيضاً أن أولئك اليهود الذين مستهم مباشرة عذابات النازية منذ ما يزيد عن الثلاثين عاماً ليسوا حالياً سوى قلة ضئيلة سواء فى إسرائيل أو فى

خارج إسرائيل. وصحيح كذلك أن غالبية يهود إسرائيل اليوم من السفارديم والشرقيين والسابرا وليس فيهم بالقطع من عانى من ذلك الهولوكوست الألمانى الشهير. وكذلك الحال بالنسبة لصوره إسرائيل المتهالكة الممزقة من الداخل صحيح أن التجمع الإسرائيلى يضم أبناء أكثر من فئة قومية وصحيح أن التناقضات الإسرائيلية الداخلية بالغة الحدة. ولكن صحيح كذلك أن السلطة الإسرائيلية لا تكف عن محاولة استخدام كافة السبل للتهدئة من حدة تلك المتناقضات، وأن سبيلها الأساسى لبلوغ ذلك هو الحرب مع العرب. كذلك فإن الولايات المتحدة الأمريكية حريصة على وحدة إسرائيل ضماناً لبقائها. وفضلا عن ذلك كله فإن الإنسان صانع تاريخه، والتاريخ لا يتحرك بمعزل عن أبناء العصر. وتبقى بعد ذلك صورة أخيرة هى «إسرائيل القوة التى لا تقهر». وهى بدورها تحوى جانباً لا يستهان به من الحقيقة. ولكن أليس من الحقيقة أيضاً أن الولايات المتحدة الأمريكية هى المصدر الرئيسى للقوة العسكرية الإسرائيلية؟ ثم أليس صحيحاً كذلك أن صراعاً كالصراع العربى الإسرائيلى لا يمكن أن تحسمه القوة العسكرية وحدها أياً كان تفوقها؟ ثم ألا يمدنا تاريخنا القريب بأكثر من نموذج واحد لإمكانية التصدى القتالى للجيش الإسرائيلى؟

خلاصة القول إذن أن تلك الصور جميعاً، رغم تباينها واختلافاتها تتفق فى أمر محدد هو أنها تنتقى جزءاً من الحقيقة محاولة أن تعممه على الظاهرة بأكملها، وهنا مكمن الخطر. فقبول الصورة كما هى يؤدى إلى التردى فى منزلق التزييف كما أن رفضها كاملة يؤدى إلى التردى فى منزلق التجهيل وهما أمران كلاهما مر وخطر. وليس من سبيل إلى تلافيهما إلا بالحرص على تحصيل أكبر قدر ممكن من المعرفة الموضوعية بإسرائيل. معرفة تحاول أن تضع كل شىء فى حجمه الواقعى دون

تجاهل أو تضخيم. وإذا كان السعى للمعرفة الموضوعية بالآخرهدفاً انسانياً دائماً. وإذا كانت المعرفة الموضوعية بالخصم واجباً ضرورياً. وإذا كانت المعرفة العربية الموضوعية بإسرائيل تعد ــ منذ بداية الصراع ــ جانباً أساسياً من جوانب المواجهة. فإن تلك المعرفة قد أصبحت مسألة حياة أو موت بالنسبة لنا بعد أن دخل الصراع العربى الإسرائيلى مرحلته الجديدة الراهنة: مرحلة عصر ما بعد كامب ديفيد.

الصراع العربى الإسرائيلى بين النخبة والشارع

إننا نعيش جميعاً عصر ما بعد كامب دافيد. يستوى فى ذلك من يرون فيها الخير كل الخير، ومن يرونها شراً خالصاً. الجميع يعيشون نفس العصر مهما تباينت رؤاهم له، وهى متباينة بالفعل وإلى آخر مدى. فالبعض يرون فى كامب دافيد ذريعة تبرر انعزال مصر عن بقية أمتها العربية. داعين إلى البحث عن «أصدقاء» جدد، و «أعداء» جدد أيضاً. كما لو كان الإنتماء القومى مجرد صداقة تنعقد وتنفض وفقاً لأهواء أصحابها. وكما لو كان العداء القومى مجرد مشادة عابرة يمكن أن تذوب فجأة لتبدأ مشادات جديدة مع أطراف جدد. والبعض يرى فى كامب دافيد ذريعة تبرر عزل مصر عن بقية الأمة العربية. متوهمين أنهم بذلك يزيحون من على أكتافهم عبئاً ثقيلاً، ويفسحون لأنفسهم الطريق لقيادة الأمة العربية بعد خلوه من ذلك المنافس العتيد. ناسين أو متناسين أن الجميع ما زالوا فى سفينة واحدة. وأن الموجة القادمة ــ إذا لم نحسن الاستعداد لها ــ سوف لا تبقى منا ولا تذر. والبعض يرى فى كامب دافيد نهاية «سعيدة» للصراع مع إسرائيل. كما لو كان صراعاً مصرياً ــ إسرائيليا خالصاً يمكن أن ينتهى بإتفاق يبرمه الطرفان المتصارعان مهملين بذلك حقيقة أن مصر جزء من العالم العربى ومهملين كذلك حقيقة العلاقة الوثيقة المتشابكة بين إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. ومهملين فى نهاية الأمر أن

الصراع المصرى ـ الإسرائيلى لا يعدو أن يكون جزءاً من الصراع العربى ـ الإسرائيلى الذى لا يعدو بدوره أن يكون جزءاً من صراعات القوى الكبرى على المنطقة. والبعض لا يكاد يرى فيها شيئاً له دلالة، مجرد خيانة عابرة، سرعان ما تمضى وتندثر آثارها. متجاهلين كل ما خلقته كامب دافيد، من واقع جديد، الخاسر هو من يغمض عينيه عنه محاولاً العودة بالعجلة إلى الوراء.

والبعض ـ ونحن منهم ـ يرى فى كامب دافيد بداية لمرحلة جديدة من مراحل الصراع العربى ـ الإسرائيلى. مرحلة تختلف إختلافاً جوهرياً عن مراحل الصراع السابقة بقدر ما هى إمتداد جدلى لتلك المراحل. ويتمثل هذا الإختلاف الجوهرى فى بروز إمكانية جديدة لإكتساب الصراع طابعاً جماهيرياً حوارياً، بعد أن كان قاصراً أو يكاد على الطابع السلطوى العسكرى. والإستثناء الوحيد فى هذا الصدد هم «الفلسطينيون» فقد كان دورهم فى الصراع ومنذ البداية، وبحكم ظروف تاريخية عديدة يتسم بحتمية تواجد الطابع الجماهيرى الحوارى إلى جانب الطابع العسكرى السلطوى.

الطابع الجماهيرى للصراع:

إننا لا نقصد باكتساب الصراع طابعاً جماهيرياً، مجرد إعلام «الجمهور بمجرياته وتاريخه»، و «توعيته» بأبعاده وتطوراتها. ولا نقصد به فحسب «ضرورة السعى للتعرف الموضوعى على رؤية الجماهير لطبيعة الصراع». بل ولا حتى مجرد إشراك الجمهور فى مناقشة الأمور المتعلقة بالصراع، فكل ذلك رغم ضرورته ووجاهته لا يعنى حتى فى حالة ممارسته على الوجه الأكمل وإستجابة الجمهور

لكل ذلك إستجابة كاملة. لا يعنى أن الصراع قد توافر له الطابع الجماهيرى بالمعنى الذى نقصده.

إن «الجماهيرية» التى نعنيها إنما هى إفراز حتمى لظروف إجتماعية تاريخية محددة. ويقتصر دور النخبة فى هذا الصدد على دفع هذا الطابع الجماهيرى والإسراع به أو السعى إلى قمعه وإعاقته. ولكنها لا تستطيع بحال أن تضفى ثوب الجماهيرية على ما لا تتوافر له شروطها. كما أنها لا تستطيع أن تنزع هذا الثوب عن صراع توافرت له شروط الجماهيرية.

إن جوهر «الجماهيرية» يتمثل فى إقدام الجماهير بشكل حر وتلقائى على ممارسة دور لها فى الصراع. ولا يتحقق مثل هذا الإقدام إلا بتوافر شرطان متكاملان: ــ

أولا:

أن يكون موضوع الصراع من تلك الموضوعات التى تمس صالح أو مشاعر أو آمال الجماهير. والجماهير التى نقصدها فى هذا السياق ــوفى غيره أيضاًــ هم أولئك البسطاء من غير الخبراء والعلماء والمتخصصين أو السياسيين الملتزمين فهؤلاء جميعاً يمثلون جانباً من النخبة فى أى مجتمع.

ثانيا:

أن يكون موضوع الصراع من تلك الموضوعات التى تفرض نفسها بحكم طبيعتها على الممارسات اليومية للجماهير وذلك بحيث تكون الممارسة اليومية المعتادة لكل فرد هى فى حد ذاتها تعبيراً عن موقف إختاره بالفعل تجاه هذا الصراع. ومن ثم تصبح جماهيرية الموضوع نابعة من داخله وليست منحة سلطوية يملك مانحها أن يمنعها. ولعل ذلك

الطابع المميز لهذه الخاصية هو ما يصعب من مهمة النخبة أو السلطة
ما إستهدفت إعاقة الطابع الجماهيرى للصراع. وفى نفس الوقت
ييسر عليها تلك المهمة إذا ما استهدفت الدفع به إلى الأمام.

والأمثلة التى توضح مدى تمايز و تكامل هذين الشرطين عد
متنوعة. ويكفى أن نشير على سبيل المثال إلى نموذجين إنتشار الأسلـ
النووية لا يمس مصالح الجماهير فحسب، بل إنه يهدد وجودها أصلا
ولكنه رغم ذلك لا يفرض نفسه بحكم طبيعته على الممارسات اليوم
المعتادة للأفراد. ولذلك فإن إضفاء الطابع الجماهيرى عليه رغم ضرو
ذلك ليس بالمهمة اليسيرة، أما موضوع «الفتنة الطائفية» مثلاً فإ
جانب أنه يمس مشاعر تلك الجماهير، فإنه يفرض نفسه بحكم طبي
على الممارسات اليومية للأفراد، حتى أنه قد يشمل إختياراتهم لنو
ما يرتدون من ملابس، ونوعية ما يستخدمون من تعبيرات لفظية.
إلى آخره.

الطابع الحوارى للصراع:

أما الطابع الحوارى للصراع فإنه الوجه الآخر لطابعه الجماهير
الذى تحدثنا عنه. ونحن لا نعنى بالحوار فى هذا السياق ذلك الحـ
النخبوى الذى تشهده أروقة الأمم المتحدة ودهاليزها أيضاً. أو كذ
الذى نشهده أحياناً ويغيب عنا كثيراً بين قيادات التنظيمات السياسـ
المتصارعة أو المتحالفة أو كذلك الذى نسمع أصداءه وقد نرى بعضاً
نتائجه خارج قاعات التفاوض ولقاءات القمم.. إلى آخره فتل
الحوارات جميعاً، ورغم أهميتها البالغة. وضرورتها الملحة فى كثير
الأحيان، إنما تتسم بخاصيتين تبعدانها عما نقصده:

الخاصية الأولى:

إن تلك الحوارات بحكم إنتماء أصحابها إلى النخبة إنما تنعقد وتنفض بقرارات سلطوية.

الخاصية الثانيه:

أن الجانب الأكبر والأهم من سياق مثل تلك الحوارات يتم غالباً وبحكم الضرورة في غرف مغلقة حيث يتولى المتخصصون مهام الإعداد لتلك اللقاءات، وإدارتها وصياغة نتائجها.

إن ما نقصده بالطابع الحوارى للصراع هو أن تطرح مجريات الصراع في سياق تاريخى معين إمكانية الحوار بين جماهير الاطراف المتصارعة. وتتسع هذه الامكانية وتضيق وفقا لحجم التواجد المكانى المشترك لجماهير تلك الاطراف المتصارعة.

ولا بد لنا هنا من تفرقة واضحة بين تعبيرى «الحوار» و«التعاون» فكثيراً ما يختلط أمرهما على البعض. الحوار خاصية إنسانية عرفها الإنسان حتى قبل أن يعرف لغته المنطوقة حيث كان تبادل الأفكار ـ أى الحوار ـ يتخذ صوراً غير لغوية شتى. ومنذ بدء الخليقة وحتى الآن ما زال البشر يتحاورون عبر كافة وسائل الإتصال المتاحة. الجميع يحاورون الجميع. ولكن هناك حوار، وحوار. نحن نحاور الأصدقاء لكى نشد أزر بعضنا البعض، ولكى يدعم كل منا الآخر. ولكن نتعلم منهم ونعلمهم. ونحن نحاور أيضاً غير المصنفين ممن لا نعرف آراءهم على وجه التحديد، ذلك لكى نتبين مواقفهم. محاولين استمالتهم إلى جانبنا. ونحن كذلك نحاور الخصوم بهدف فرز الأصدقاء المحتملين من بين صفوفهم، فضلاً عن إضعاف الحجج التى يستخدمونها ومن ثم الحد من تأثيرها بين صفوفنا نحن. أهداف الحوار إذن تتباين: هناك حوار تعاونى، وهناك حوار صراعى، وهناك حوار تصنيفى.

والفوارق بين هذه الأنواع من الحوار غنية عن البيان. بل لعل شيئاً لا يربط بينها سوى إستخدامها جميعاً لوسائل الإتصال المتاحة.

ونخلص من ذلك إلى أن الحوار مع الآخر أيا كان لا يعنى بالضرورة تعاوناً معه ولا حتى قبولا بوجوده بصورته وبأفكاره الراهنة.. وإلا لما كان هناك حوار مثلا بين المتدينين والملحدين عبر التاريخ. أو بين العمال وأصحاب الأعمال. ومن ناحية أخرى فإن الحوار مع الآخر مهما بلغ هذا الحوار من الحرارة والصدق لا يعنى بالضزورة تسليم أى من طرفى الحوار بأن حوارهما يمكن أن يكون نهاية لتصارعهما فالأمر يتوقف فى النهاية على طبيعة موضوع الحوار.

إن الطابع الجماهيرى للصراع لا يستبعد بجال دور السلطة أو النخبة فى محاولة إدارة مجرياته وفقا لرؤاها ومصالحها وكذلك فإن الطابع الحوارى لا ينفى بجال الدور الحاسم للقوى المادية فى تحديد مساره طالما كان موضوع الصراع إجتماعى إقتصادى فى جوهره. بل لعلنا لا نجاوز الحقيقة كثيراً إذا ما أكدنا أن ليس ثمة وجود واقعى لما يمكن أن يسمى بالصراع الفكرى «الخالص» بين القوى الاجتماعية التاريخية. وتكامل الأوجه الأربعة «للعملية» الصراعية هو ما ينبغى السعى إلى بلوغه والحرص على تطويره. فطغيان الطابع الجماهيرى وحده يفقد العملية الصراعية إمكانيات التنظيم وشمولية النظرة ويؤدى إلى الإبطاء فى حسم الصراع حسماً نهائياً. كذلك فإن طغيان الطابع السلطوى ــ مهما كانت ثورية السلطة ــ يفقد العملية الصراعية إمكانية الإستمرار وواقعية النظرة، وقد يؤدى إلى إجهاض العملية الصراعية تماماً بتمكين الطرف الآخر من تحقيق أهدافه. وكذلك الحال بالنسبة لتكامل الدور الحوارى مع دور القوى المادية فى العملية الصراعية. فالمحاور الذى لا يأخذ فى إعتباره طبيعة موازين القوى المادية مهما كان

الحقَ في جانبه ومهما كانت براعة حجته، مآله فى النهاية إلى اليأس والاستسلام. وكذلك فإن المقاتل الذى يسقط الحوار من ترسانة أسلحته، مهما كانت موازين القوى فى صالحه، إنما يحكم على معركته بالفشل على المدى البعيد.

الفلسطينيون.. والجماهيرية.. والحوار

لقد كان الدور الفلسطيني في الصراع ــوما زالــ أقرب الأدوار إلى التكامل الرباعي المنشود بين القتال والحوار والجماهير والقيادة، وذلك بحكم الظروف التاريخية للصراع العربي ــالإسرائيليــ وإن كان التكامل التام بين تلك الأوجه جميعاً أمر يفوق طاقة البشر بعامة وليس الفلسطينيون وحدهم. ويعنينا في هذا الصدد إبراز أمرين يؤكدان ما سبق أن ذهبنا إليه:

الأول:

إن الطابع الجماهيري لم يكن نتيجة قرار فوقي إتخذته القيادة الفلسطينية، بل أنه أمر إقتضته طبيعة الصراع فليس ثمة فرد فلسطيني يستطيع ــحتى ولو إختار وحاولــ أن ينأى بوعيه وبممارسته اليومية عن هذا الصراع. إنه مطالب دائما بإتخاذ موقف ما في هذا الصدد بصرف النظر عن مضمون هذا الموقف سلبا أو إيجابا. ويرجع «الفضل» في ذلك إلى طبيعة الاحتلال الإسرائيلي الإستيطاني التي أدت إلى الشتات الفلسطيني كما أدت من ناحية أخرى إلى تبلور القيادة الفلسطينية ومؤسساتها خارج الأرض الفلسطينية، بل وخارج التواجد المكاني لقطاع كبير من الشعب الفلسطيني. ومن ثم فإن القرار القيادي الفلسطيني. لا يستمد شرعيته بالدرجة الأولى من دستورية الهيئة التي أصدرته، بل من مدى صدق تعبيره عن الشعب

الفلسطيني. كذلك فإن القرار القيادى الفلسطيني. لا يستمد قدرته على الإلزام من القوة السلطوية التنفيذية للهيئة التى أصدرته. بل من مدى إقتناع الجماهير الفلسطينية به. إن منظمة التحرير الفلسطينية تملك أن تتخذ قراراً ولكنها لا تملك أن تجبر فلسطينياً فى عكا أو نابلس أو غزة على الخروج فى مظاهرة مثلاً كما أنها لا تملك أن تعاقب فلسطينيا خرج على قرار لها فى يافا أو القدس أو رفح بأن تسجنه أو تسحب جواز سفره. بل أنها توكل إلى جماهيرها الفلسطينية المقتنعة بقرارها أن تتولى تنفيذه بل وأن تتولى عقاب الخارج عليه. ومن هنا نبعت حتمية التكامل بين دورى السلطة وجماهيرها فى الساحة الفلسطينية.

الثانى:

أن الطابع الحوارى لم يكن كذلك نتيجة قرار إتخذته القيادة الفلسطينية. بل أن القرارات التى إتخذتها القيادة الفلسطينية فى هذا الصدد إنما كانت تعبيراً شجاعاً ناضجاً عما اقتضته مجريات الصراع الفلسطينى الإسرائيلى ودفعا لمجريات هذا الصراع نحو الأمام وترجع جذور هذه الضرورة إلى بداية قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ حاملة فى أحشائها بذور نقيضها الاستراتيجى متمثلا فيما أطلق عليه بعد ذلك «ظاهرة عرب ١٩٤٨» لقد حافظ. «عرب ١٩٤٨» على هويتهم العربية رغم الإحتلال الاسرائيلى وما فرضه عليهم من عزلة ومن إجراءات قمعية ولم يكن لهم أن يحققوا ما حققوه من نجاح مذهل فى هذا الصدد إذا ما استسلموا لعزلتهم وانغلقوا على أنفسهم. إنهم لم يكفوا طوال هذه الأعوام الطويلة عن محاولة التحرك داخل التجمع الإسرائيلى رغم ما هو مفروض عليهم من قيود. لم يكفوا عن محاولة التماس الثغرات التى تسمح لهم بالتعبير عن هويتهم. لم يكفوا عن

....

التماس الأصدقاء أو حتى أشباه **الأصدقاء بين** صفوف التجمع الإسرائيلى . لم يقاطعوا الانتخابات الإسرائيلية حتى بعد أن حالت السلطات دونهم ودون أن تكون لهم قائمتهم الانتخابية الخاصة فاعطوا أصواتهم لمن وجدوه الأقرب إليهم وإن لم يكن منهم . ولم يكن نجاحهم فى كل ما حاولوه بالشىء الذى يستهان به ، ولم يكن الثمن الذى دفعوه بالشىء القليل . ولم يكن ذلك الثمن قاصراً على ما لاقوه ويلاقونه مع قمع إسرائيلى .بل أن الثمن الأفدح الذى يدفعونه إنما يرجع إلى عدم تفهم العرب خارج فلسطين لممارستهم تفهما واضحا خالطين فى ذلك بين مفهومى «الحوار» و «التعاون» . ولعل من يرى منا اليوم انتفاضاتهم فى الناصرة وبير سبع وغيرها احتجاجا على مذابح صابرا وشاتيلا فى لبنان لا يصبح فى حاجة إلى برهان على سلامة ممارستهم السابقة .

ولقد إمتدت ظاهرة «عرب ١٩٤٨» لتشمل الفلسطينيين من أبناء الضفة الغربية وقطاع غزة . ومع توافر شرط التواجد المكانى الواحد لطرفى الصراع أصبحت الظاهرة أكثر إثارة لقلق السلطات الإسرائيلية . لقد إستوعب الفلسطينيون فى الضفة والقطاع «خبرة عرب ١٩٤٨» . بسرعة فائقة ولم يقعوا فى المنزلق الإسرائيلى الذى يدفعهم إلى الخلط بين «التعاون» و «الحوار» . رافضين التعاون فى دعم تنظيمات روابط القرى مثلا . ولكن دون أن يكفوا لحظة ـــ رغم إختلاف ظروفهم ـــ عن التماس الأصدقاء والحوار معهم . وشهد العالم على سبيل المثال مظاهرات مشتركة تضم إلى جانب الفلسطينيين يهودا إسرائيليين يحتج فيها الجميع على إغلاق جامعة بيرزيت فى الضفة الغربية .

وجاء الغزو الإسرائيلى الأخير للبنان . وحوصرت بيروت وحوصرت فيها قيادة منظمة التحرير الفلسطينية . ومن قلب القتال المشتعل ،

ووسط سيول القنابل الإسرائيلية ، **يرتفع صوت** أبو عمار ليحى بيانا أصدره ثلاثة من مشاهير الحركة اليهودية هم جولدمان وفرانس وكلوتزنيك . بل تمتد يد رمز الثورة الفلسطينية لتشد على يد أورى أفنيرى اليهودى الإسرائيلى فى نهاية حوارهما فى بيروت المحاصرة . بل ويجد أبو عمار وقتا لحديث يدلى به للصحفى الإسرائيلى كابيلوك . ذلك هو الحوار الذى نعنيه والذى فرضت ضرورته مجريات الثورة الفلسطينية واستوعبت قياداتها أبعاد هذه الضرورة واستجابت لها . ولسنا فى حاجة بعد ذلك إلى أن نكرر أن هذا النوع من الحوار لم يكن بديلا للقتال ولكنه كان مكملا له بل نابعا من أحشائه .

عرب ما قبل كامب دافيد.. والصراع

كانت تلك هى أهم ملامح الدور الفلسطينى فى الصراع. أما الدور العربى غير الفلسطينى فقد اتسم بملامح جد مختلفة. قد تتباين بين قطر عربى وآخر. ولكنها تتفق بدرجة أو بأخرى فى عدة خطوط عامة لعل أهم ما يعنينا منها فى هذا الصدد هو تقييد حجم المعلومات المتاحة للجماهير عما يجرى فى إسرائيل. وقد كان لهذا التقييد مبرراته ونتائجه على المستويين الجماهيرى والسلطوى على حد سواء. أما مبررات هذا التقييد فقد كانت تتخذ فيما نرى الصورة التالية: أننا نواجه عدوا شرسا له جيش نظامى قوى مدجج بالسلاح. تسنده قوة دولية عظمى هى الولايات المتحدة الأمريكية. وتدعمه المنظمات اليهودية فى العالم بأسره. ويستند إلى تاريخ طويل من التآمر والخديعة. ويتبنى فكرا معاديا أحكمت صياغته. ومن ثم فإن السبيل الوحيد للتصدى له يتمثل فى الحرب العسكرية النظامية التى ينبغى الإعداد لها بما يتناسب مع القوة الخارقة للعدو ولمن يساندونه. ويقتضى ذلك الإعداد بطبيعة الحال ستارا كثيفا من الإنتقائية والسرية. وإلى أن نستكمل إستعداداتنا للمعركة، فعلينا أن نحمى أبناء شعبنا من الدعايات المعادية. والطريقة المثلى لذلك هى أن نحول تماما دون وصول «فكر العدو» إليهم سواء كان عن طريق الإذاعات أو الجرائد أو الكتب أو الإتصال الشخصى. وامتد تعبير «فكر العدو» واتسع

ليشمل غالبية ما يكتب عن إسرائيل بأقلام غربية (ومن أدرانا أن تلك الكتابات ليست جزءا من المخطط الإسرائيلى العالمى!!) بل وليشمل هذا الخطر أيضاً غالبية مايكتب فى الخارج عن اليهود (ما الفرق بين اليهود والإسرائيليين!!). وهكذا اختلط كل شيء بكل شيء. وضاعت الحدود بين «الفكر» و «المعلومات» وبين «اليهود» و«الإسرائيليين» ولكنها لم تضع أبدا بين السلطة والجماهير. بل على العكس فقد تمايزت الأدوار بينهما تماما. فللسلطة ولنخبتها المنتقاة حق الحرب (على مستوى إتخاذ قرارات الحرب النظامية). وحق المعرفة (على مستوى أجهزة الاستخبارات وغيرها). وكلاهما وجهان لعملة واحدة. أما الجماهير فحرومة من كلاهما. فهى محرومة من حقها فى ممارسة الحرب (سواء على مستوى إتخاذ القرار أو على مستوى ممارسة الحرب الشعبية). ومحرومة كذلك من حقها فى معرفة عدوها. ولم يترك للجماهير فى هذا الصدد سوى حق «التأييد» تأييد ما تتخذه السلطة ونخبتها من قرارات بشأن مواجهة «العدو» ومن ثم فقد استقر فى وعى قطاعات عريضة من الجماهير أنه ما من سبيل لمواجهة إسرائيل إلا بالقتال العسكرى المنظم. والقتال كما نعلم جميعا فرض كفاية. يقع على عاتق فريق من أبناء الأمة دون غيرهم باعتبارهم الأقدر عليه والأكثر تأهيلا له. وليس معقولا أن يكلف به أبناء الأمة جميعا. وكان طبيعيا أن يجرى على المعرفة ما جرى على القتال. بمعنى أن تتحول هى أيضا -وهذا هو أخطر ما فى الأمر- إلى فرض كفاية. أمر ضرورى نعم. ولكن له أصحابه من أهل الاختصاص الذين يقومون بالمعرفة عوضا عنا.

ولم يعد ثمة ما يثقل كاهل الجماهير فى الأمر كله «اللهم إلا أنهم وقود الحرب!!». أما فيما عدا ذلك فرجال السلطة كفيلون بحمايتهم

تماما. يحمونهم من وقوع أعينهم على سلعة إسرائيلية. ومن تسلل شخص إسرائيلى أيا كان إلى صفوفهم. ومن تسرب كتاب أو مقال من إسرائيل أو عن إسرائيل إلى عقولهم. ومن وصول الإذاعة الإسرائيلية إلى آذانهم. وهكذا ظلت الجماهير حماسها متأجج لمواجهة إسرائيل وأجهزة الإعلام تزيد ذلك الحماس إشتعالا. ومعرفتها تكاد تكون صفرا بما يجرى فى إسرائيل وأجهزة السلطة تضيف إلى جهلها تضليلا إلى أن وقعت قارعة ١٩٦٧. وأيقظت القارعة جماهيرا عريضة أصبحت بين يوم وليلة لا تتوقف عن السؤال «لماذا؟». لماذا حدث ماحدث؟ ولم يكن ممكنا لأحد أن يجيب عن السؤال الملح ــ أيا كانت وجهة نظره ــ إلا إذا ما أحاط إجابته بقدر من التعريف بإسرائيل والإسرائيليين. وهكذا تفجرت حاجة الجماهير للمعرفة. ولم يكن بد من أن يفتح الباب بحذر شديد لتلبية هذه الحاجة. ولسنا بصدد التعرض بنقد أو بتصنيف لتلك المحاولات. فلذلك موضع آخر. كل ما يعنينا فى هذا الصدد هو أن نسجل تدفق قدر من المعلومات عن إسرائيل على العقل العربى. وأن نسجل أيضا أن هذا القدر المحدود قد ظل فى الجانب الأكبر منه يخلط وبشكل أكثر إصراراً بين اليهودية والصهيونية. ويدمج الإسرائيليين بالصهاينة. وخلاصة القول أن شيئاً أساسياً لم يتغير فى ديناميات الدور العربى غير الفلسطينى فى الصراع. وظللنا جميعا ندور فى فلك السياسة الشهيرة المرسومة: اللاحرب واللاسلم. حتى بدأت مقدمات عصر كامب دافيد فى إتيان ثمارها.

مقدمات عصر كامب دافيد

لم يبدأ عصر كامب دافيد فى ساعة محددة من يوم ٢٥ أبريل عام ١٩٨٢ حين انسحب آخر جندى إسرائيلى من أرض سيناء المصرية حاملا معه علمه وذكرياته. ولم يبدأ هذا العصر فى سبتمبر ١٩٧٨، حين تم توقيع معاهدة كامب دافيد، ولا فى ٥ سبتمبر ١٩٧٨ حين بدأت محادثات كامب دافيد. بل إن البداية التاريخية لم تكن يوم ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ حين حطت طائرة رئيس جمهورية مصر العربية فى مطار بن جوريون الاسرائيلى. أن عصر كامب دافيد لم يبدأ بفكرة إنبثقت فجأة فى ذهن رئيس مصر الراحل محمد أنور السادات. بل أن لهذا العصر مقدمات تضرب بجذورها القديمة إلى بواكير قيام دولة إسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٤٨. كما أن بشائرها القريبة تبدأ فيما نرى مع مطلع عام ١٩٦٥ حين بدأت البذور الأولى لتخلخل سياسة اللاسلم واللاحرب.

أ ـ المقدمة الأولى: يناير الفلسطينى

مع نهاية أخر ليالى ديسمبر عام ١٩٦٤ وبزوغ فجر الأول من يناير ١٩٦٥ شهدت المنطقة العربية أول عملية عسكرية يقوم بها الفلسطينيون عبر الحدود الإسرائيلية. وقد كانت عملية متواضعة بالمقاييس العسكرية سواء من حيث عدد المشاركين فيها أو حجم ما نجم عنها من خسائر على الجانب الإسرائيلى. ولكن أخطر دلالاتها التاريخية قد تمثل فى

كونها تجسيد عملى لقيام منظمة فتح. وقد كان ذلك فيما نرى بمثابة الخطوة الأولى على طريق كسر سياسة اللاحرب واللاسلم. كيف؟

(١) لقد كان الغطاء الأيديولوجى الفلسطينى بل والعربى لسياسة اللاحرب واللاسلم يتمثل أنذاك فى فكرة أساسية هى «الوحدة العربية طريق تحرير فلسطين». ومن خلال رواج هذه الفكرة والترويج لها أصبح هم الأمة العربية الأساسى وشاغلها الأكبر هو الوحدة وكيف تتم؟ وما هو شكلها النهائى؟ إندماجية أم فيدرالية أم كونفدرالية؟ وما هو مضمونها؟ هل الاشتراكية شرط لها؟ أم هى الشرط للاشتراكية؟ ومن يرأس من داخل دولة الوحدة المرتقبة؟ وأنهك العقل العربى نفسه فى حل تلك المعضلات الفكرية العويصة. وأصبح العدو الرئيسى للثورة العربية هم أعداء الوحدة العربية الذين ينبغى الإطاحة بهم أولا للبدء فى تحرير فلسطين. وبدا للبعض أن أخطر هؤلاء الأعداء إنما هم أولئك العرب من الاشتراكيين والماركسيين الأمميين وأنه لابد من استئصال شأفتهم لينفتح الطريق أمام وحدة عربية صحيحة وشاملة. وبدا للبعض الآخر أن أخطر هؤلاء الأعداء إنما هم أولئك العرب من «الرجعيين» و «اليمينيين» وعملاء الاستعمار، وأنه لابد من القضاء عليهم أولا ليمضى ركب الوحدة دون عائق. ولم يضيع أحد وقته فشرع كل طرف أقلامه بل وأسلحته للقضاء على الطرف العربى الآخر. وتراكمت الأولويات لتسبق «فلسطين» بدعوى أنها جميعا شروط لتحريرها «فى النهاية». وراح الفلسطينيون فى خضم تلك التيارات يفتشون بين المدن العربية عن عاصمة تصلح لتكون هانوى العرب. وجاءت واقعة يناير ١٩٦٥ لتضع حدا لهذا الضياع مجسدة شعارا جديدا هو «تحرير فلسطين طريق الوحدة»

محدثة بذلك شرخا عميقا فى **الغطاء الفكرى** لسياسة اللاسلم واللاحرب .

(٢) لقد اعتمدت سياسة اللاسلم واللاحرب على مقولة مؤداها أن الحرب النظامية هى السبيل الوحيد لتحرير فلسطين . وأن أية محاولة لممارسة حرب غير نظامية فى هذا الصدد لا يمكن أن يستفيد منها إلا الجانب الإسرائيلى كمبرر لإجهاض المحاولات العربية الدائبة «لتشكيل الجيوش العربية النظامية» . كما أن تلك المحاولات لا يمكن أن تؤدى إلى شىء على الإطلاق نظرا لجبروت الوجود الاسرائيلى وإستحالة اختراقه بأية عمليات محدودة ومغامرة . وجاءت عملية يناير ١٩٦٥ لتمثل الرد العملى على هذه المقولة : ثمة نوع آخر من الحرب يمكن ممارسته فى مواجهة إسرائيل . حرب لا تشترط بالضرورة موافقة والتزام القوى العظمى الموردة للسلاح الثقيل ولا تشترط بالضرورة إعتماد المليارات لشراء الطائرات وإنشاء المطارات . حرب لا تعتمد نتائجها فى المقام الأول على القوة العسكرية . حرب يمكن أن تحاول الخروج ولو بدرجة محدودة عن نطاق اتفاق إرادات القوى على تبنى سياسة اللاحرب واللاسلم .

وكان طبيعيا والأمر كذلك أن تنهال الهجمات من كل صوب على تلك النبتة الصغيرة ، فحماة سياسة اللاحرب واللاسلم لم يغفلوا عن دلالة ما يجرى رغم صغر حجمه . ولم تكن تلك الهجمات بالشىء الهين . فأصحاب سياسة اللاحرب واللاسلم عتاة أقوياء ولهم ترسانة لا تنضب من الأسلحة ومن الأفكار . ولم تمض سوى عدة أيام من الصمت المذهل حتى إنهالت سيول الهجوم من كل صوب . فأصحاب عملية يناير ١٩٦٥ لا يمكن أن

يكونوا فى نظر البعض إلا إخوانا مسلمين متعصبين . ولا يمكن أن يكونوا فى نظر البعض إلا عملاء للاستعمار والصهيونية . وصنفهم البعض ضمن «عملاء» الناصرية ، أو وكالة المخابرات المركزية الأمريكية . أو الشيوعية الدولية . وأنهم فى النهاية أعداء للحركة الوطنية الفلسطينية . وكان منطقيا والأمر كذلك أن تجمع الأطراف العربية المعنية جميعا على ضرورة قمع تلك النشاطات المشبوهة «لعدم إعطاء إسرائيل ذريعة لمهاجمة البلدان العربية» وسرعان ما وضعت تلك الضرورة موضع التنفيذ الفعلى وسقط الشهيد أحمد موسى أول شهداء فتح خلال عودته من عملية فدائية داخل حدود إسرائيل . وتوالى بعده الشهداء الفلسطينيون يدفعون للقوى العظمى من دمائهم ثمن محاولة استقلال القرار الفلسطينيى ، ومحاولة كسر حصار اللاحرب اللاسلم بالسعى إلى ممارسة الحرب والحوار معا . وعلى الطريق من الشهيد أحمد موسى (الأردن ١٩٦٥) إلى الشهيد سعد صايل (لبنان ١٩٨٣) . سقط الألاف من الشهداء وما زالت القائمة مفتوحة ما لم يسلم الفلسطينيون بما هو مطلوب منهم ومن كافة دول المنطقة الالتزام الدقيق بسياسة اللاحرب اللاسلم .

ب ــ المقدمة الثانية : أكتوبر المصرى

شهدت ظهيرة السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ بداية جولة جديدة من جولات الصراع العربى الاسرائيلى . جولة تميزت كيفيا عن بقية الجولات السابقة ، ليس من حيث نتيجتها العسكرية فحسب . بل ــ وهو الأهم ــ من حيث دلالتها الاستراتيجية وما تعنيه من كسر

لسياسة اللاحرب اللاسلم. وقد تمثلت تلك الدلالة فيما نرى في أمرين:

(١) لقد إعتمدت سياسة اللاحرب اللاسلم كما سبق أن أشرنا في أكثر من موضع على ترسيخ فكرة «إسرائيل التي لا تقهر» ولم يأل أصحاب تلك السياسة جهدا في سبيل ترسيخ تلك الفكرة وابراز أن يد الجيش الإسرائيلي تطول كل سنتيمتر على إتساع الأرض العربية عامة والمصرية خاصة. فالعربدة الإسرائيلية من السويس إلى أبي زعبل. ومن بحر البقر إلى نجع حمادي. ومن دير ياسين إلى قبية إلى خان يونس إلى غزة. وهي القاعدة المطلقة الصحيحة التي لا ينبغي أن تغيب أبدا عن العقل العربي. وما عدا ذلك من نقاط مضيئة متناثرة ليست سوى الاستثناءات العابرة التي لا تعني شيئا إلا تأكيد وجود القاعدة. وجاءت حرب أكتوبر لتهدم تلك القاعدة التي حرصوا على بنائها في العقل العربي لقد أجبر الجيش الاسرائيلي للمرة الأولى في تاريخه على التراجع تحت الضغط العسكري عن أرض سبق أن احتلها بالقوة المسلحة. ولم يكن ذلك التراجع بالأمر الذي يمكن إخفاؤه أو الحيلولة دون انطباعه في أعمق أعماق العقل العربي. فلقد شهدت عيون مائة مليون عربي حصون خط بارليف وقد دكت. وشهدت تلك العيون جنود مصر من أبناء الفلاحين الذين شوهت سمعتهم الحضارية قبل العسكرية يعبرون قناة السويس مجبرين جنود ذلك الجيش الذي لا يقهر على الفرار أو رفع الأعلام البيضاء.

(٢) لقد تمثلت سياسة اللاحرب اللاسلم على الصعيد العملي في الحيلولة دون الحرب بالتضخيم من أعبائها والتهويل من نتائجها ثم

اتهام من يلتمس له مخرجا بالمغامرة وعدم المسئولية . ويتمثل الوجه الآخر لسياسة اللاحرب اللاسلم على الصعيد العملى أيضا فى الحيلولة دون السلام بالتضخيم من سلبياته والتهويل من نتائجه ثم إتهام من يلتمس له مخرجا بالخيانة والعمالة والاستسلام . وإذا كان يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ قد شهد تخلخلا للوجه الأول من وجهى عملة اللاحرب اللاسلم . فقد شهد يوم السادس عشر من نفس الشهر بداية تخلخل وجهها الثانى حين أعلن الرئيس الراحل محمد أنور السادات فى خطاب له أمام مجلس الأمة المصري أنه مستعد لحضور مؤتمر سلام دولى بإشراف الأمم المتحدة لضمان سلام دول المنطقة جميعا . خلاصة القول أن الدلالة الثانية لحرب أكتوبر قد تمثلت فى تجسيدها للتكامل بين هذه الحرب والامكانية الموضوعية لحوار متعادل مع الطرف الآخر.

لقد كانت حرب أكتوبر بوجهيها تمثل أقصى حد من الخطورة والتهديد لسياسة اللاحرب اللاسلم . ولم يستطع صناع هذه السياسة التزام الصمت أو السكون . بل أنه لم يعد فى طاقتهم الالتزام بلعبتهم المفضلة «تحريك الخيوط من بعيد» وأسفرت تلك القوى العاتية عن وجهها خلال الثغرة الأمريكية الإسرائيلية أو عملية العبور المضاد للجيش الإسرائيلى . أما على المستوى الفكرى فقد انهالت سيول الهجوم من كل صوب محاولة تشويه ما جرى فى أكتوبر فهو ليس إلا تمثيلية لا معنى لها . أو مؤامرة إسرائيلية أمريكية مصرية . بل لقد بلغ الأمر إلى حد وصف كل ما جرى باعتباره حل فى الإطار الامبريالى . ويكفينا هنا أن نقارن بين الهجوم على ما جرى فى يناير ١٩٦٥ . وبين الهجوم على ما جرى فى أكتوبر ١٩٧٣ ، لنكشف تشابها بل تطابقا مريبا بين الهجومين : محاولات التحجيم والتهوين من شأن ما

جرى هى بعينها. ومحاولات احتوائه هى بعينها أيضا. بل وحتى الاتهامات الموجهة لأصحابه تكاد أن تكون هى بنصها بل وتكاد أن تكون مرتدية نفس الثوب «الثورى» المهلهل.

كامب دافيد والإمكانيات الجماهيرية

لم يكن التوقيع على معاهدة كامب دافيد قراراً بإغلاق ملف قضية الصراع العربى الإسرائيلى. ولم يكن حكما نهائيا فيها. بل كان ــ فيما نرى ــ قراراً بإحالة القضية برمتها إلى الجماهير. وسوف نحاول هنا ألا نقف طويلا أمام نوايا من وضعوا توقيعهم على المعاهدة وما كان يدور فى أذهانهم آنذاك. ولن نحاول حتى أن نبحث فى مبرراتهم للتوقيع عليها. ولا فى دوافعهم الحقيقية لهذا التوقيع كلها أمور هامة دون شك وجديرة بكل إهتمام. ولكن الأهم منها والأجدر بالدراسة فى رأينا هو تأثير ما جرى على الجماهير العربية ودورها فى الصراع العربى الإسرائيلى. لقد كان الدور العربى فى الصراع يتميز ــ كما سبق أن أشرنا ــ بغلبة الطابع السلطوى العسكرى على الطابع الجماهيرى الحوارى. وجاءت كامب دافيد لتوفر إمكانية ــ بل لتخلق ضرورة ــ تصاعد الطابع الجماهيرى الحوارى تصاعدا جوهريا مقتربا بذلك من التكامل مع الطابع العسكرى السلطوى. ولعلنا نستطيع فى هذا الصدد أن نسوق الإيجابيات التالية:

أولا: لقد بدأ تهاوى المشجب الإسرائيلى التقليدى القديم الذى استخدمته قوى القهر والظلام فى عالمنا العربى طويلا، فاتقنت استخدامه أيما إتقان. كان لأى حاكم عربى كائنا من كان أن يرفع عقيرته بالعداء لاسرائيل ليكتسب صفة الثورية

وليصبح له أن يعسف بمن يشاء وقتما يريد وكيفما يريد ملتحفا بالعباءة الثورية الفلسطينية متهما كل من يجرؤ على نقده بخيانة القضية المقدسة قضية فلسطين. ولم لا أليس كغيره معاديا لإسرائيل، داعيا إلى تحريرها صارخا باسم فلسطين وعروبتها. وظل الأمر هكذا حتى وضع السادات توقيعه على معاهدة كامب دافيد. موقعا بذلك على رسالة ضمنية مؤداها إعلان بداية النهاية الموضوعية لعصر المشجب الإسرائيلي ولقد وصلت الرسالة إلى أصحابها وفهموا محتواها وكان ردهم عليها ــ وما زال ــ عنيفا بالغ العنف.

ثانيا: لقد أصبحت إسرائيل للمرة الأولى فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى فى متناول أيدى أكثر من نصف جماهير الأمة العربية أى فى متناول جماهير الشعب العربى المصرى والفلسطينى وقد كان الأمر قبل ذلك قاصرا على الشعب العربى الفلسطينى وحده. فلقد أصبح الصراع العربى الإسرائيلى يفرض نفسه على الحياة اليومية المعاشة لجماهير الشعب المصرى بقدر حجم التواجد الإسرائيلى فى مصر. لقد أصبح فى متناول المصريين سلعا إسرائيلية. وسفارة إسرائيلية. بل وبشرا إسرائيليين. وأصبح على رجل الشارع فى مصر أن يحدد له موقفا من هذا كله على المستوى الفردى. هل يقبل شخصيا أن يشترى سلعة إسرائيلية؟ هل يوافق على السكن فى شقة مجاورة لشقة يسكنها إسرائيليون؟ هل يقبل السفر إلى إسرائيل لو كان ثمة مبرر لذلك؟. وبعبارة أخرى فقد إكتسب الصراع على الساحة المصرية إمكانية أن يكون صراعا جماهيريا. وأصبح وارداً للمرة الأولى فى مصر أن يرتفع شعار يدعو الجماهير إلى

مقاطعة المنتجات الإسرائيلية إلى جانب أصوات تدعو الجماهير ولو بشكل غير مباشر إلى إدانة هذا الشعار. وإذا كان لذلك من معنى فإنه يعنى أن الجماهير قد أصبحت للمرة الأولى هى صاحبة القضية على مستوى الفعل والممارسة.

ثالثا: أصبحت هناك إمكانية موضوعية للحوار المباشر بين الإسرائيليين والمصريين سواء فى الشارع المصرى أو فى الشارع الإسرائيلى. وأصبح للمصرى إذا ما التقى بإسرائيلى أن يستثمر هذه الإمكانية لو شاء. وبطبيعة الحال فإن النطاق الموضوعى لهذه الإمكانية محدود بحجم التواجد البشرى المكانى المشترك لطرفى الصراع وهو حجم بالغ الضآلة إذا ما قورن بنظيره على الساحة الفلسطينية. ولكن تواجده أمر بالغ الدلالة أيضا وهو ما سيرد تفصيله فيما بعد.

رابعا: أصبحت هناك إمكانية موضوعية لتبلور الصراعات فى الشارع الإسرائيلى بعد أن كانت الحرب تمثل عنصر التوحيد الرئيسى لهذا الشارع. صحيح أنه كان ثمة اتجاهات سلامية بل وحتى معادية للصهيونية داخل صفوف هذا التجمع منذ بدء تكوينه. ولكن تلك الاتجاهات لم تتخطى كثيراً حدود قطاع ضئيل داخل النخبة الإسرائيلية. وجاءت كامب دافيد لتخلق إمكانية جديدة لتحول تلك الإتجاهات إلى تيار جماهيرى.

خامسا: أتاحت كامب دافيد للجماهير العربية إمكانية التعرف الموضوعى المباشر على ما يجرى فى الساحة الإسرائيلية. ومن ثم أصبح ممكنا تحويل صورة إسرائيل من المستوى الزائف الأسطورى الذى تحدثنا عنه فى البداية إلى مستوى واقعى يضع

كل شيء فى حجمه الصحيح. ويصدق ذلك على الأفراد الإسرائيليين وعلى البضائع والتكنولوجيا الإسرائيلية على حد سواء أصبح ممكنا للمواطن العربى أن يرى بعينيه قيام المظاهرات فى مواجهة السلطة الإسرائيلية وأن يرى بعينيه أيضا كيف تواجه تلك السلطة المتظاهرين العرب بالرصاص فى نابلس العربية. وكيف تواجه المتظاهرين اليهود بالحوار ثم بالأيدى العارية فى ميت ياميت قبل أن تستعيدها مصر. أصبح ممكنا لهذا المواطن أن يرى مباشرة أكثر من نموذج للصراع بين الدين والدولة وبين رجال الدين الإشكنازيم ورجال الدين السفارديم فى إسرائيل وأصبح له أن يوقن بممارسته اليومية البسيطة أن السلعة الإسرائيلية ليست شيئاً خرافياً خاصة إذا ما قورنت بالسلع اليابانية أو الألمانية أو الأمريكية وجميعها متوافر فى الأسواق العربية جميعاً. والأهم من ذلك كله أنه قد أصبح ممكنا لمواطننا أن يسقط بنفسه تلك الغلالة الأسطورية التى حرصت الدعايات الصهيونية على إضفائها على الفرد الإسرائيلى. ليكشف أن يهود إسرائيل لا يقضون ليلهم ونهارهم باكين على حائط المبكى. ولا مستعيدين لذكريات الهولوكوست وإن كان منهم من قد يفعل ذلك. لقد أصبح ممكنا باختصار أن تتحول صورة «الفرد الإسرائيلى الأسطورى» إلى أفراد من البشر تختلف صورهم وتتباين بل وقد تتصارع أيضا.

سادسا: أتاحت كامب دافيد للجماهير العربية وللمرة الأولى منذ بداية الصراع إمكانية اللقاء بعرب الداخل أو عرب ١٩٤٨. وتحمل هذه الإمكانيات معان ثلاثة بالغة الخطر والدلالة فعلى الجانب

الإسرائيلى تتأكد من جديد حقيقة أن الإنتماء العربى غير قابل للذوبان مهما طال الاحتلال العسكرى وعلى الجانب العربى يتأكد من جديد إلى جانب هذه الحقيقة أن ثمة تجسيداً مادياً ملموساً لعروبة فلسطين المحتلة. أما على الجانب الفلسطينى فإن هذا اللقاء يتيح للمرة الأولى إمكانية التواصل البشرى بين عرب الداخل وبين الأمة العربية على أرضها وخارج حدود فلسطين المحتلة.

سابعا: أضافت كامب دافيد إمكانية موضوعية جديدة للتمايز بين «الإسرائيليين» و «اليهود» وخاصة يهود الولايات المتحدة الأمريكية فيما يتعلق بالموقف من الصراع. لقد كان الحرص الصهيونى على إلغاء مثل هذا التمايز يجد سنده القوى فى «تعرض الأمن الإسرائيلى للخطر» مشيرا إلى ما كان يسمعه العالم دائما من دوى لطبول الحرب العربية القادمة ذلك الدوى الذى كان له من الضجيج ما يكفل تغطية الاستعدادات الإسرائيلية التى لم تنقطع للحرب تلو الأخرى ضد العرب ولم تقتصر تلك الآفاق الجديدة للتمايز بين «الإسرائيلين» «اليهود» على مجرد تباين المواقف بدرجة أو بأخرى بين الفريقين. بل أن الأثر الأهم إنما يتمثل فى رأينا فى بداية تخلخل أسطورة اللوبى اليهودى، الذى يصنع السياسة الأمريكية. وإنكشاف حقيقة أن ذلك اللوبى اليهودى إنما تصنعه وتحركه السياسة الأمريكية لخلق مبرر لتطابق سياستها مع السياسة الإسرائيلية دائما. فمن خلال تأكيد هذه الأسطورة تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية أن تمضى فى تبنيها ورعايتها ودعمها لإسرائيل إلى أقصى مدى وتستطيع فى نفس

الوقت آن تيسر لمن شاء من العرب أن يبتلع هذه السياسة مستعينة بمقولة «أن الولايات المتحدة الأمريكية إنما تقدم على ما تقدم عليه تحت تأثير وضغط ذلك اللوبى اليهودى الرهيب. الذى يحول دون الولايات المتحدة والتعبير عن حبها غير المحدود للعرب وللعروبة وللدول العربية.

استراتيجية السلام الهجومى

تشهد الأمة العربية فى الآونة الراهنة من الوقائع والأحداث ما يؤكد أن ثمة ضرورة ملحة لتبنى استراتيجية جديدة تتفق مع معطيات هذه المرحلة الجديدة من مراحل الصراع العربى الاسرائيلى مرحلة عصر ما بعد كامب دافيد وتشير هذه الوقائع والأحداث إلى أن كل شىء قد بلغ ذروته .

(١) لقد أدى الانسحاب الاسرائيلى من سيناء إلى زيادة حدة التناقض داخل صفوف التجمع الإسرائيلى. فتزايدت القوى الداعية للسلام تزايدا ملحوظاً وإن لم تصل إلى حد السيادة بطبيعة الحال. ومن ناحية أخرى فقد تزايدت حدة القوى الداعية للعنف تزايدا مخيفا. ووصل الأمر إلى ذروته بقوى العنف والسلام على حد سواء خلال الغزو الإسرائيلى الوحشى للبنان حيث بلغت قوى العنف ذروتها فى مذابح معسكرى صابرا وشاتيلا الفلسطينيين كما وصلت قمة الحركة السلامية الإسرائيلية ذروتها فى المظاهرات اليهودية الإسرائيلية التى اجتاحت إسرائيل والتى لم يشهدها تاريخ إسرائيل قبل ذلك قط حيث بلغ عدد المشاركين فيها ما يقرب من ٣٥٠ ألف يهودى إسرائيلى أى حوالى عشر مجموع السكان.

(٢) إن الدعوة إلى ممارسة الحوار كجزء من استراتيجية السلام الهجومى والتى بدأتها مصر بزيارة السادات للقدس وصلت إلى ذروتها بلقائى أبو عمار ــ أفنيرى أبو عمار ــ كابيلوك فى بيروت المحاصرة. ومن ناحية أخرى فإن الدعوة المقابلة لرفض الحوار والتى بدأتها إسرائيل بإقامة دولتها ١٩٤٨ قد بلغت ذروتها أيضًا خلال ذلك الحصار بتمسك إسرائيل بموقفها من رفض أى حوار مع الفلسطينيين حتى ولو كان بهدف إخراجهم من لبنان. وإصرارهم على أن يتم ذلك التفاوض الضرورى من خلال طرف ثالث بل وإدانتها لمن أقدم من الإسرائيليين أو حتى من غير الإسرائيليين على اللقاء مع منظمة التحرير الفلسطينية بصرف النظر عن الهدف من هذا اللقاء.

(٣) إن التمايز بين «اليهود» و«الإسرائيليين» قد بلغ ذروته أيضا خلال الحصار الإسرائيلى لبيروت وتمثلت تلك الذروة، فى ذلك النداء المفتوح الذى حمل توقيعات جولدمان وفرانس وكلوتزنبك والذى أدان بوضوح التصرفات العسكرية الإسرائيلية. والذى استجابت له منظمة التحرير الفلسطينية بالترحيب بل وبدعوة الموقعين الثلاثة إلى الالتقاء بقادة المنظمة. ومن ناحية أخرى فقد بلغ الخلط بين «اليهود» و«الإسرائيلين» ذروته أيضا متجسدة فى الهجوم المسلح على معبد يهودى فى روما (٩/ ١٠/ ١٩٨٢) راح ضحيته مجموعة من اليهود الأوروبيين.

والسؤال الآن هو كيف يمكن أن تستثمر إيجابيات عصر ما بعد كامب دافيد فى إدارة الصراع لصالحنا؟. وهل من سبيل للحيلولة دون تحول كلمات النقد الثورية إلى طبول حرب جوفاء؟ وهل من

سبيل للحيلولة دون تحول **شعارات مناصرة الشعب** الفلسطينى إلى شعارات معادية للسامية لا تخدم إلا العدوانية الإسرائيلية؟ هل من سبيل يكفل لنا سلامة التميز بين الأعداء والأصدقاء؟ لقد إنكشف عجز وعقم استراتيجية اللاحرب اللاسلم. وتجسد قصور استراتيجية السلام الدفاعى عن الاستثمار الكامل لإيجابيات العصر الجديد. وأصبحنا فى حاجة ملحة لتبنى استراتيجية جديدة هى استراتيجية السلام الهجومى.

وتقوم هذه الاستراتيجية الجديدة على عدد من الأسس والمنطلقات النظرية نستطيع أن نوجزها فيما يلى:

(١) الثقة بلا حدود فى وعى وقدرة الجماهير العربية على تبين ما هو متفق مع مصالحها الأساسية. دون حاجة إلى وصاية نخبوية متعالية تدمغ الجماهير بالسذاجة والغفلة والوعى الزائف. وتدعى لنفسها حق احتكار معرفة وتحديد ما هو فى صالح تلك الجماهير.

(٢) الثقة بلا حدود فى أن الحق التاريخى والحقيقة العلمية فى جانبنا نحن العرب ومن ثم فإن من حق جماهيرنا العربية أن تثق فى نفسها وأن تقدم على ما تختاره من ممارسات دون خوف أو وجل.

(٣) إن المناخ الأمثل لإزدهار الممارسات العدوانية الإسرائيلية وسيادة المناخ العدوانى داخل التجمع الإسرائيلى هو ما تكفله سياسة اللاحرب اللاسلم التى تهدد ولا تقاتل.

(٤) إن السلام لا يقل خطورة على الممارسة العدوانية الإسرائيلية عن الحرب. وكلاهما لا يحقق المصالح الاستراتيجية للقوى العظمى.

(٥) إن الإستقلالية النسبية لإتخاذ قرارات السلام تفوق نظيرتها بالنسبة

لقرارات الحرب التى تخضع بدرجة كبيرة لإرادة القوى العظمى باعتبارها ـــعلى الأقل ـــ المصدر الوحيد للأسلحة .

(٦) إن الحوار أيا كان نوعه لا يعنى بالضرورة إعترافا أو تسليما بالوضع الراهن للطرف الآخر بل يعنى على العكس سعيا لتغيير هذا الوضع .

(٧) إن الموضوع الأساسى المطروح حاليا . ولفترة طويلة قادمة ـــ لأى حوار عربى إسرائيلى ـــ هو « الشعب الفلسطينى »

(٨) إن الحوار باعتباره السلاح الرئيسى فى استراتيجية السلام الهجومى ينبغى ألا يقل تقديرنا له عن تقديرنا لأى سلاح قتالى هجومى سواء من حيث انتقاء كوادره أو من حيث إعدادهم وتدريبهم .

(٩) إن استراتيجية السلام الهجومى لا ينبغى أن تقتصر على جبهة المواجهة المصرية الإسرائيلية فحسب بل لابد لها وأن تنتشر بالحوار لتشمل المواجهة العربية الإسرائيلية على كافة جبهاتها .

ولعلنا نستطيع بعد ذلك أن نوجز بعض الخطوات التنفيذية التى نراها تكفل البداية الصحيحة لهذه الاستراتيجية :

أولا : توفير أكبر قدر ممكن من المعرفة الموضوعية بمجريات الأمور على الجانب الإسرائيلى مع التركيز على الإذاعة والتليفزيون باعتبارهما الوسيلتين الأكثر انتشارا بين الجماهير.

ثانيا : تدعيم الحوار بشكل مكثف مع عرب ١٩٤٨ والبحث فى الشكل المؤسسى المناسب لضمان إستمرارية وسيولة الإتصال بهم .

ثالثا : تشجيع الحوار العلنى الإعلامى مع كافة القوى الإسـرائيلية الأقل تشددا .

رابعا : إعداد كوادر مدربة للحوار الهجومى تزود بشكل مكثف ومستمر بأهم القضايا المطروحة على الساحة فضلا عن الإهتمام برفع كفاءتها فيما يتعلق بفنيات الحوار.

القاهرة فى أكتوبر ١٩٨٢

الباب الأول

التجمع الصهيونى
بين النظرة الخرافية والنظرة الموضوعية

العقل العربى والتجمع الإسرائيلى
الفكر العلمى والتجمع الإسرائيلى
الفكر الصهيونى والتجمع الإسرائيلى
نحن .. والحقيقة ، والحق

تم اعداد هذا المقال فى أكتوبر ١٩٧٧ .

العقل العربى والتجمع الإسرائيلى

لقد صمت الفكر العربى طويلا عن إعمال النظر فى التجمع الإسرائيلى، وما يجرى فيه. صحيح أن الساحة لم تخل من محاولة هنا، أو أخرى هناك. ولكن ظل الطابع الغالب هو الصمت والتجاهل وتحول العقل العربى خلال ما يقرب من ربع القرن إلى نوع من الإستكانة لهذه الجهلة. مطمئنا إلى مسلمات فكرية زائفة. عازفا حتى عن محاولة التيقن من مدى صدقها. وظل الأمر كذلك حتى قارعة يونيو ١٩٦٧ التى كان ينبغى أن تجرف فيما جرفته ـ وقد جرفت الكثير ـ ذلك الزيف الفكرى الذى عاشه العقل العربى طويلا. ولكن ما حدث لم يكن على هذه الصورة تماما. لقد إهتزت المسلمات الفكرية العتيقة. وكان إهتزازها عنيفا حقا. ولكنها لم تسقط تماما. ولم تتوارى، ولم تجتث جذورها، لعله هول المفاجأة وبشاعتها ولعلها الطمأنينة التى طالت لصحة هذا الفكر الزائف. أو لعل الأمر راجع إلى ما لهذا الفكر من جذور عميقة ممتدة تضرب فى أعماقنا إلى بعيد.

ولا يعنى ذلك بحال أن صمت الفكر العربى ظل على حاله ولا أن التجاهل الفكرى للكيان المزعوم ظل كما هو. فلم يكن حجم الكارثة ليسمح بإستمرار أى من الصمت أو التجاهل بل لقد أصبح الصمت ضجيجا. وتحول التجاهل إلى إهتمام لا حد له. وتبدلت الصورة من النقيض إلى النقيض. وأصبح القزم الجبان المذعور، عملاقا

مرعبا مفترسا. وأصبح **الفارس المقدام الشامخ**، هزيلا مرتجفا متداعيا. وانتقل الفكر العربى من تضخيم الذات والتهوين من شأن العدو، إلى تجريح الذات والتضخيم من شأن العدو. ورغم ما قد تبدو عليه الشقة من إتساع بين الصورتين، فكلتاهما ــفيما نرىــ تنهل من نبع فكرى واحد. وكلتاهما تقوم على نفس الأسس الفكرية، وتتبع نفس المنهج فى تحليل الواقع.

وآن للعقل العربى بعد أكتوبر ١٩٧٣ أن يعبر أزمته وأن يلتمس لنفسه المنهج الفكرى الصحيح فى النظر إلى الواقع. ذاتا، وعدوا، وصديقا، ولم يكن ذلك، ولن يكون، بالأمر اليسير بل أنها لمعركة عنيفة ضارية، لا تزال مشتدة الأوار، حامية الوطيس فالمنهج الفكرى العتيق يتبث بمواقعه رغم كل ما أحدثه وما حدث له. بل إنه ليسعى إلى كسب مواقع جديدة رغم ما حدث والمنهج الجديد يحاول أن يلتمس له طريقا، وأن يجد له مكانا رغم كل ما تعرض ويتعرض له.

وما دمنا نحاول بدراستنا هذه أن نقترب من فهم بعض خصائص التجمع الإسرائيلى، فإن علينا أن نحاول أولا أن نحدد لأنفسنا موقعا من هذه القضية الأساسية التى تحكم نظرة الفرد إلى ما يحيط به من ظواهر، فعلى أساس من هذه القوانين العامة الشاملة يتحدد تفسير المرء للعالم الموضوعى، وتنبؤه بمسار ظواهره، ومن ثم يتحدد أسلوب تعامله معها.

الفكر العلمى والتجمع الإسرائيلى

يقوم الفكر العلمى بعامة على عدد من المسلمات أو الأفكار الرئيسية، سوف نعرض تباعا لما يخص موضوعنا منها، محاولين ما يمكن

أن تسهم به كل من تلك المسلمات أو الأفكار فى فهمنا لخصائص التجمع الإسرائيلى .

أولا : الفكر وليد الواقع الإجتماعى وليس العكس.

لقد إتخذت هذه المسلمة صورا عديدة فى ترات الفكر العلمى . ولعل أقرب هذه الصور إلى موضوعنا هى تلك المقابلة بين ما يعرف بالبناء التحتى ، وما يعرف بالبناء الفوقى وتعنى تلك المقابلة ببساطة أن الأفكار والمعتقدات والآراء السياسية والقانونية والأخلاقية والجمالية والفلسفية ، وما إلى ذلك من أشكال الوعى الإجتماعى لا يمكن إلا أن تكون تعبيرا عن واقع إجتماعى مادى يتمثل فى البناء التحتى . ورغم أن العلاقة بين البنائين علاقة معقدة متبادلة . وليست بالعلاقة الإنعكاسية البسيطة . إلا أن البناء التحتى يظل هو الأساس دائما .

وإذا ما سلمنا بأن « الشخصية القومية » أو « التكوين السيكلوجى للجماعة » أو « الشعور القومى » إنما هى جميعا أبنية فوقية لابد لها من بناء تحتى يفرزها وتتفاعل معه ، فإن ذلك يعنى مباشرة أنه لا يمكن أن يكون ثمة وحدة سيكلوجية بين أفراد جماعة بشرية معينة إلا بقدر تشابه الظروف الإجتماعية والإقتصادية والتاريخية المحيطة بتلك الجماعة .

وإنطلاقا من هذا الفهم وحده ينكشف زيف الإدعاء بوجود ما يسمى « بالسيكلوجية اليهودية » أو « بالسلوك اليهودى » أو « بالقومية اليهودية » وما إلى ذلك من تعبيرات يشيع ترددها فى كتابات الصهاينة .

إننا لا نستطيع أن نسلم بوجود واقع تاريخى مادى متصل منذ نشأة الديانة اليهودية حتى اليوم ، يجمع بين اليهود السوفييت واليهود العرب ، وبين يهود اليمن ويهود ألمانيا مثلا .

وعلى ذلك فإن علينا أن نسلم من منطلق علمى بأن عادات وتقاليد وقيم اليهود من أبناء مصر مثلا أقرب بالتأكيد إلى الطباع المصرية منها إختلفت عنها إذا ما قورنت بعادات وتقاليد وقيم اليهود من أبناء تشيكوسلوفاكيا مثلا مهما كانت نقاط التشابه بينهم. أن اليهودى الألمانى أقرب إلى المسيحى الألمانى منه إلى اليهودى من أبناء جنوب أفريقيا. لقد عاش اليهود ظروفا متباينة إقتصاديا واجتماعيا وسياسيا. وبقدر تباين هذه الظروف لم يكن بد من أن تتباين أفكارهم وتكويناتهم الإجتماعية وخصائصهم النفسية.

ورب من يتساءل، فلنسلم بهذا كله، ولكن ألا يعيش يهود الوطن المحتل اليوم فى ظل ظروف مادية مشتركة؟ ألَا يعنى ذلك أنه قد أصبح لهم تكوينهم الفكرى والسيكلوجى الموحد؟

إن الفهم العلمى للعلاقة المتبادلة بين البناء التحتى والبناء الفوقى يبين أن التغيرات التى تطرأ على البناء الفوقى تتخذ معدلا أبطأ كثيرا من نظيرتها التى تطرأ على البناء التحتى، وبالتالى فإنه بعد أن يتم تغير الظروف الموضوعية، تظل الأبنية الفوقية محتفظة بخصائصها لفترة تاريخية. ولو حاولنا تطبيق ذلك فى مجال سيكلوجية الجماعات بعامة لاتضح لنا أن ثمة قناة تربط بين البناء التحتى ــ أى الظروف المادية المعاشة ــ والبناء الفوقى، أى شخصية الجماعة. وأن هذه القناة إنما تتمثل أساسا فى عملية التنشئة الإجتماعية ثم فيما يرتبط بها من عمليات الإتصال. وذلك يعنى أن تغير الظروف المادية المحيطة بتجمع بشرى معين لا يمكن أن يؤدى بشكل إنعكاسى فورى إلى تغير التكوين السيكلوجى لأفراد هذا المجتمع. بل أن الأمر يتطلب أن يبلغ تغير تلك

الظروف المادية الحد الذى تتغير عنده أساليب التنشئة الإجتماعية السائدة (1). ولذلك فالسؤال المطروح ينبغى أن يتخذ فى الحقيقة الصورة التالية: هل توحدت بالفعل أساليب التنشئة الإجتماعية التى نمارس فى التجمع الإسرائيلى؟

ثانيا: ظواهر الكون مترابطه:

يقوم المنهج العلمى ـ ضمن ما يقوم عليه ـ على إستحالة فهم أى ظاهرة من ظواهر الطبيعة أو المجتمع إذا ما نظرنا إليها منعزلة خارج ما يحيط بها من ظواهر أخرى. وإلتزامنا بهذه القاعدة العلمية إنما يعنى فى مجال بحثنا أمورا عديدة أهمها:

أ ـ إننا لا نستطيع أن نفهم الموقف من «اليهود» فى مجتمع معين وفى مرحلة تاريخية معينة فهما صحيحا، دون الإحاطة ببقية العوامل فى هذا المجتمع. بعبارة أخرى فإننا لا نستطيع أن نتحدث عن موقف مجتمع معين من اليهود بمعزل عن خصائص المرحلة الإقتصادية الإجتماعية التى يمر بها، ولا حتى بمعزل عن طبيعة علاقاته ببقية المجتمعات. وبذلك فإن الحديث عن «معاداة السامية» كخاصية سيكلوجية مجردة مطلقة قابلة للقياس والمقارنة، شأنها فى ذلك شأن بقية الخصائص والسمات النفسية، أمر يبعد تماما عن قواعد المنهج العلمى.

---

(1) قدرى حفنى، تجسيد الوهم: دراسة سيكلوجية للشخصية الإسرائيلية، مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية، القاهرة، 1971، ص46 ـ 63.

ب- إننا لا نستطيع أن نفهم أيضا موقف يهود مجتمع معين من مجتمعهم فى مرحلة تاريخية معينة، فهما صحيحا، دون الإحاطة بطبيعة موقعهم المادى من البناء الإقتصادى الإجتماعى القائم وطبيعة العلاقات التاريخية المتبادلة بينهم وبين بقية القوى الإجتماعية القائمة. وبذلك فإن الحديث عن «الموقف اليهودى من المجتمع» أو من «التاريخ» أو من «البشرية» أمر يبعد تماما عن قواعد المنهج العلمى.

ج - إننا لا نستطيع أن نفهم «السيكلوجيات» أو الأبنية الفكرية المتعددة القائمة فى التجمع الإسرائيلى إلا فى إطار من فهم العوامل الإقتصادية والإجتماعية والتاريخية والسياسية المتفاعلة فى هذا التجمع، فضلا عن الإحاطة بطبيعة العلاقات بين جماعاته والقوى العالمية والمحلية المؤثرة. ولعل هذه الإحاطة وحدها هى التى تتيح لنا تفسيرا للعديد من النتائج المتناقضة التى يتوصل إليها العديد ممن نصدوا بالدراسة لهذا التجمع.

د - إننا لانستطيع بحال أن نفصل بين مجمل الموقف الإسرائيلى وما يحتمل أن يطرأ عليه من تغيرات، وبين موقفنا العملى من هذا التجمع أو بينه وبين مجريات الصراع العربى الإسرائيلى عامة.

ثالثا: التغير شامل، والتطور مستمر:

يبرز المنهج العلمى ضرورة أنه لا ينبغى أن نتناول ظواهر الطبيعة والمجتمع من حيث علاقاتها وتكيفاتها المتبادلة فحسب، بل أيضا من

زاوية حركتها وتغيرها وتطورها. أى من حيث ظهورها وإختفائها وذلك باعتبار أن الكون فى حالة دائمة من الحركة والتغيير.

والتزامنا بهذه القاعدة فيما يتعلق بموضوعنا، يعنى أمرين أساسيين:

أ ــ ألا تنزلق إلى القول بوجود خصائص «يهودية» ثابتة، كانت وظلت كما هى منذ كان اليهود، وستظل هكذا ما دام ثمة يهود.

ب- ألا ننزلق كذلك إلى تناول التكوينات الإجتماعية أو الإقتصادية أو الفكرية القائمة حاليا داخل التجمع الإسرائيلى كما لو كانت ثابتة على مر الزمن، بل ينبغى أن نضع فى إعتبارنا دائما تلك التكوينات جميعا فى حركة وفى تغير مستمرين.

رابعا: التحول الشامل، نتاج لتغيرات طفيفة متتالية:

يبرز المنهج العلمى حقيقة أن تراكم التغيرات الكمية التدريجية التى قد لا تبدو على السطح، يؤدى بالضرورة فى لحظة معينة، إلى تغيرات جذرية كيفية، وإلى تحول من كيف قديم إلى كيف جديد.

ويتيح لنا تمثلنا لهذا القانون العلمى ــ فيما يتصل بموضوعنا ــ أن ننبه لأمور ثلاثة:

أ ــ أنه لا ينبغى لنا أن نهمل أى تغير يطرأ على التجمع الإسرائيلى مهما كان ضئيلا ومحدوداً فتراكم تلك التغيرات الضئيلة والمحدودة ــ إذا ما كان متفقا مع حركة التاريخ. كفيل بأن يحدث تغيرا كيفيا فى لحظة معينة.

ب ـ أنه لا ينبغى لنا أن نتوقع تغيرا مفاجئا وجذريا فى طبيعة الكيان الإسرائيلى فإذا ما حدث ذلك فإن المفاجأة إنما ترجع إلى قصورنا ـ أو تقصيرنا ـ فى متابعة ما سبق هذا التغير حتما من مؤشرات وتغيرات طفيفة مهدت لوقوعه .

ج ـ أنه لا ينبغى لنا أيضا أن نقلل من دلالة أى تغير يطرأ على الموقف العربى تجاه التجمع الإسرائيلى، سلبا أو إيجابا، مهما كان حجمه . فتكرار وتراكم التغيرات الطفيفة فى إتجاه معين لابد وأن يؤدى فى النهاية إلى تغير كيفى فى طبيعة الموقف برمته .

خامسا : التغير نتاج للصراع :

ليس ثمة ظاهرة طبيعية كانت أو إجتماعية تخلو من تناقض . ومن تفاعل هذه التناقضات تتولد حركة الظواهر وتطورها جميعا . ومن ثم فإن الفهم الصحيح لأية ظاهرة إجتماعية أو طبيعية إنما يبدأ بإكتشاف التناقضات التى تحكم مسارها . غير أن الوقوف عند حد حصر وتسجيل تلك التناقضات لا يعنى فى حد ذاته شيئاً ذا بال . أن أية ظاهرة ـ خاصة لو كانت ظاهرة إجتماعية ـ تموج بما لا حصر له من تناقضات متشابكة . وتصبح الخطوة الأهم ـ منهجيا وعمليا ـ هى تحديد أى تلك التناقضات هو التناقض الرئيسى الذى يحكم بقية التناقضات جميعاً، والذى يحكم بالتالى حركة هذه الظاهرة ويحدد مسارها .

والذى لا شك فيه أن التجمع الإسرائيلى كظاهرة إجتماعية يموج بالعديد من التناقضات وأن من هذه التناقضات ما قد نجد نظيرا له فى تجمعات بشرية أخرى ومنها أيضا ما يختص به التجمع الإسرائيلى بحكم ظروف تكوينه . وإذا كان إنكار التناقض وتجاهله يمثل تجاوزا

تاما عن قواعد المنهج العلمى، فإن النظر إلى المتناقضات جميعا كما لو كانت منساوية التأثير، يمثل تجاوزا لا يقل خطرا عن إنكارها نماما.

علينا إذن لفهم التجمع الإسرائيلى فهما علمياً أن نستكشف أى تناقضاته هو التناقض الرئيسى: أهو التناقض بين أحزابه السياسية المختلفة؟ أهو التناقض بين شبابه وشيوخه؟ أهو التناقض بين أغنيائه وفقرائه أم أنه التناقض بين الأصول الحضارية المتباينة التى يضمها؟

نلك هى القواعد أو المسلمات الخمس للمنهج العلمى فى تحليل الظواهر. آثرنا أن نبدأ محاولتنا بتحديدها دون أن نخوض كثيراً فى تأصيلها نظرياً، مخافة أن يخرجنا ذلك كثيرا عن موضوعنا الرئيسى. ولم نشأ أيضاً أن نخوض كثيراً فى تطبيقات المنهج العلمى على الخصائص التفصيلية للتجمع الإسرائيلى، فذلك هو موضوعنا الرئيسى، وليست تلك سوى بدايته. ولم نكن نستهدف بهذه البداية سوى أن نلقى الضوء مسبقا على المنهج الذى سوف نتبعه فى محاولتنا هذه. خاصة وأن إختلال المنهج قد لعب –فيما نرى– وما زال دورا لا يستهان به سواء فى تشوش الفكر العربى، أو فى إعاقة الفعل العربى فيما يتعلق بالموقف من التجمع الإسرائيلى. نقول هذا لأن الحديث عن المنهج يبدو لدى البعض تزيدا لا مبرر له، بل وتقاعساً عن الخوض المباشر فى تفاصيل الموضوع محل البحث.

ورب من يتسائل مستفسرا أو مشككا، أهو المنهج العلمى الذى نتحدث عنه، أم أنه منهج علمى قد نقبل به ونسير على دربه، وقد نختلف معه فنلتمس لنا منهجا علمياً سواه؟ وهنا ينبغى أن نتوقف لنؤكد أن ما نطرحه هو المنهج العلمى. وأن القول بتعدد المناهج العلمية على هذا المستوى العام إنما هو من قبيل إستخدام التعبير فى غير محله

المناسب. قد تتعدد أساليب الوصول إلى الحقيقة بتعدد موضوعات البحث، وقد تتنوع الأدوات وتتباين بتباين العلوم وتنوع فروعها. ولكن ثمة إطار عام يجمع بين تلك الأساليب والأدوات، ويكون بمثابة المرجع الذى نعود إليه جميعا لنختبر مدى صدقها وكفاءتها. ذلك الإطار العام هو ما نعنيه بالمنهج العلمى.

ورب من يتسائل أيضا، وهل ثمة من يختلف مع مثل هذه القضايا العامة؟ والإجابة نعم. إننا لنخطىء خطأ بالغاً إذا ما حسبنا أن التيارات الفكرية جميعا تستهدف الوصول إلى الحقيقة فحسب. إن منها بطبيعة الحال ما يسعى لبلوغ الحقيقة فيخطىء الطريق. ومنها أيضا ــ وهذا هو الأهم ــ من يتنكب الطريق. لأن بلوغ الحقيقة ليس من مصلحته فى شىء، إذا لم يكن متعارضا معها أو مهددا لها. ومثالنا الواضح على ذلك هو الفكر الصهيونى.

الفكر الصهيونى والتجمع الإسرائيلى

يقوم الفكر الصهيونى فى جوهره على مسلمة رئيسية مؤداها أن اليهود كيان واحد متجانس ممتد فى الزمان والمكان، وأن ثمة ما يسمى بالمشكلة اليهودية التى تتمثل فى نشتت اليهود واضطهادهم، وأن الحل الوحيد لهذه المشكلة هو عودة اليهود إلى أرض الميعاد أى إلى فلسطين.

ويترتب على القبول بهذه المسلمة الصهيونية التسليم مباشرة بعدد من القضايا الفرعية، يعنينا منها ما يلى:

أ ـ رغم أنه لامفر من التسليم بأن البشرية قد شهدت عبر تاريخها من التغيرات الإقتصادية والإجتماعية والسياسية بل والجغرافية أيضا ما لا ينكره أحد، إلا أن البهود ـ من وجهة نظر الصهيونية ـ قد حافظوا تماما على تمايزهم عبر ذلك التاريخ الطويل. وبالتالى فإن يهود اليوم هم إمتداد حضارى مباشر وغير منفصل لليهود الفدامى. أى ليهود التوراة. أى أن اليهود ـ وفقا لهذا المفهوم ـ يمثلون كيانا حضاريا ممند زمانياً لم يتأثر جوهره بما طرأ أو يطرأ على العالم المحيط به من تغيرات. وأن كل ما قد يبدو من اختلاف بين يهود اليوم، ويهود الأزمان الغابرة، إنما هو قشور لا تتجاوز السطح إلى الجوهر.

ب ـ رغم أنه لا مفر كذلك من التسليم بأن الظروف التى أحاطت باليهود منذ الشتات، وحتى قيام الكيان الصهيونى، بل وبعد ذلك أيضا، وحتى اليوم ظروف متباينة أشد التباين حضاريا وإقتصاديا واجتماعيا وسياسيا، إلا أن ثمة ما يربط دائما بين اليهود جميعا فى شتى أنحاء الأرض، مهما تباينت

الظروف المحيطة بهم قد تتمثل تلك الرابطة لدى البعض فى الديانة اليهودية ، وقد يراها غيرهم متمثلة فيما يلقاه اليهود من عنت واضطهاد. وقد يراها آخرون متمثلة فى غير هذا وذاك ، إلا أن الصهاينة جميعا يتفقون على أن ثمة رابطة أقوى وأعلى من تباين الظروف المادية تربط بين اليهود جميعا . أى أن اليهود وفقا للفكر الصهيونى يمثلون كيانا حضارياً ممتد مكانياً لا يتأثر جوهره بما يحيط بأفراده من ظروف مادية. وأن كل ما قد يبدو من إختلاف بين الجماعات اليهودية المتباينة ، إنما هو قشور لا تتجاوز السطح إلى الجوهر.

ويخلص الفكر الصهيونى من هذا التصور إلى تأكيد أن لليهود خصائصهم المتميزة عبر الزمان وعبر المكان ولا يحول ذلك بطبيعة الحال دون وجود اختلافات بين المفكرين الصهاينة وبعضهم البعض حول مظاهر التميز هذه. وتتراوح تلك الأفكار بين الغموض والوضوح ، وتتعدد مجالاتها فتنصب حينا على التفوق العقلى لليهود ، وحينا على تمايزهم الجسمى ، وحينا على خصائصهم الإنفعالية ، وهكذا .

يقول ليونارد فاين فى كتابه المنشور عام ١٩٦٧ والمعنون «السياسة فى إسرائيل (١)» أن «مفهوم اليهودى فى حد ذاته يثير إحساساً لا يمكن تلافيه بالقرابة المشتركة والتاريخ المشترك» ويقرر ليفين عضو الكنيسيت الإسرائيلى عن حزب أجودات إسرائيل فى عام ١٩٧٠ (٢) ....

1. Fein, L.J. Politics in Israel, Boston 1957.

(٢) شهادات يهودية ، منظمة التحرير الفلسطينية : مركز التخطيط ، ٢٧/ ١/ ٧٦ .

«...أننا لسنا شعباً كباقى الشعوب، ولسنا ديناً ككل الآديان، إننا شعب خاص، شعب الله، شعب التوراة». أما سيسيل روث فى كتابه «تاريخ اليهود (١)» فرغم عدم دفاعه صراحة عن فكرة نقاء العنصر اليهودى، فإنه يتبنى فكرة أن «النمط اليهودى» يتميز بقصر قامته، وإنحنائه. أما القول بأن ما يميز اليهود عن سواهم هو تفوقهم العقلى، فلعل خير معبر عنه هو المؤرخ الإسرائيلى هوارد موللى ساخار فى كتابه المنشور عام ١٩٦٣ والمعنون «مسار التاريخ اليهودى الحديث» (٢). حيث يشير ساخار فى مستهل فصل من كتابه إختار له عنواناً له دلالته وهو تأثير اليهود على الحضارة الغربية، إلى قصة قصيرة نشرها هوجو تور البروتستانتى المذهب النمسوى الجنسية عام ١٩٢٦ بعنوان مدينة بلا يهود. وتروى القصة حكاية حاكم قرر استبعاد اليهود من الحياة فى العاصمة نظرا لسيطرتهم على كافة مجالات الحياة فيها، ونفذ ذلك بالفعل. فإذا بالمدينة تكاد تتحول إلى موات، البنوك تقفل أبوابها. والمسارح ودور الباليه تنهى نشاطها. وكذلك الحال بالنسبة للمستشفيات والمكتبات ودور النشر بل والمحاكم أيضاً ويبلغ الشلل ذروته إلى حد يجبر الحاكم على التراجع عن قراره وإعادة اليهود إلى الحياة العامة. ويرى ساخار فى هذه القصة «استبصارا عميقا» بحالة اليهود فى وسط أوروبا آنذاك. ثم يمضى دون كلل فى عرض الأرقام والنسب المئوية الدالة فى رأيه على أن مكانة اليهود العلمية تفوق ما تكفله لهم نسبتهم العددية بأضعاف مضاعفة مرجعا ذلك إلى أن «... أهم الصفات التى تميز العقلية اليهودية عن غيرها هى الرغبة فى الإبداع، وصياغة الأفكار الجديدة، والوقوف فى وجه الأفكار

---

1. Roth, C. A short history of the Jewish People, East & West liberary, 1969.
2. Sacher, H.M. The course of modern Jewish history, Dalta, 1969.

القديمة». ويؤكد ساخار أن تفوق اليهود فى مهن معينة فى وسط أوروبا لم يكن بالأمر الراجع إلى المصادفة مطلقا، وليس أيضا إلى مجرد الظروف السياسية، والإقتصادية فحسب بل أن الأمر يرجع أساسا إلى ما يتميز به اليهود من خصائص فريدة تنبعث من سبب يكمن فى الديانة اليهودية نفسها. بإعتبارها ديانة ترى أن هذا العالم هو نهاية المطاف، ولذلك –ووفقا لما يرى ساخار– فقد ارتبطت الكهانة بالعلم بحيث أصبحت الدراسة نوعا من العبادة بالمعنى الحرفى.

لقد آثرنا أن نعرض –على سبيل الاستشهاد فحسب– لعدد من النماذج التى توضح حرص الفكر الصهيونى على تأكيد أن لليهود خصائصاً تميزهم عن غيرهم مهما تباعدت بينهم شقة المكان. إن مثل هذا التأكيد يعد ركنا أساسيا من الأركان التى تقوم عليها الدعاوى الصهيونية فيما يتعلق بأحقية الكيان الإسرائيلى –بإعتباره دولة اليهود– فى الحديث بإسم اليهود فى العالم كله. أما الركن الثانى الذى تقوم عليه دعاوى الصهيونية –والذى سبق أن أشرنا إليه– فيتمثل فى إدعاء تاريخ موغل فى القدم للتجمع الإسرائيلى الراهن فليس ثمة صهيونى على الإطلاق لا يحرص على اصطناع مثل هذا التاريخ. ولذلك الحرص –فيما نرى– مبررات عديدة، لعل أهمها:

أ – أن إكتساب التجمع الإسرائيلى الصهيونى الراهن ذلك التاريخ الطويل الممتد، إنما يعنى فى نفس الوقت إكسابه شرعية تاريخية لإستيطان فلسطين، وبالفعل فإن إلحاح الصهاينة على إصطناع تاريخ «إسرائيل» قد مكنهم –على

مستوى الإدعاء الفكرى ــ من تبرير الإستعمار الإستيطانى لفلسطين. ومن تبرير دعوة يهود العالم للهجرة إليها. فقد أصبحت «الهجرة اليهودية» إلى فلسطين هى «عودة اليهود إلى أرض الميعاد». وأصبح «الإحتلال الإسرائيلى لأرض فلسطين» تحريرا لأرض إسرائيل التاريخية الكبرى من أيدى المغتصبين.

ب- يلعب التركيز على فكرة الإمتداد التاريخى هذه دورا بارزا فى محاولات توحيد التجمع الإسرائيلى التى يقوم بها أصحاب السلطة فيه من الإشكنازيم.

ج- بعبارة أخرى فإن إمتداد التاريخ إنما يعنى ضمنا وحدة هذا التاريخ، وبالتالى وحدة أصحابه نفسيا وإجتماعيا وحضاريا. فإذا بدت بينهم فرقة ما فهى لا تعدو أن تكون أمر عارض لا يلبث أن يتلاشى ببذل شيء من الجهد. ومن ثم فإن تدعيم فكرة الإمتداد التاريخى هذه يمكن أن ييسر ــ من وجهة النظر الصهيونية ــ عملية الإندماج بين يهود التجمع الإسرائيلى.

د ــ نعد فكرة الإمتداد التاريخى للتجمع الإسرائيلى، من الأفكار الرئيسية التى تقوم عليها دعوة الصهيونية ليهود العالم للهجرة إلى فلسطين المحتلة، ولذلك فإن التركيز الصهيونى على هذه الفكرة إنما يستهدف الإسهام فى إبرار وحدة اليهود فى كافة أنحاء العالم، وبالتالى كسب نضامنهم مع التجمع الإسرائيلى.

لقد بدأ سيسيل روث كتابه الذى أشرنا إليه أنفا، والمعنون «تاريخ اليهود» ([1]) بفصل يحمل عنوانا بالغ الدلالة هو «إسرائيل من حوالى عام ١٦٠٠ قبل الميلاد إلى عام ٥٨٦ ميلادية» وينحو هوارد مورلى ساخار ([2]) نفس المنحنى تقريبا، فى كتابه المشار إليه أيضا، والمعنون «مسار التاريخ اليهودى الحديث». أما ترود فايس روز مارين ([3]) فإنها تزيد الأمر وضوحا فى كتابها المعنون «إنتصار اليهود فى صراع البقاء»، فتعرض لفكرة غريبة عن اليهودية، مؤداها أنها دين وقومية فى نفس الوقت، وأن اللغة العبرية هى أول مقومات الأمة اليهودية، وأن ثانى تلك المقومات هو الولاء الحضارى، ويقول بنتوفتش ([4]) فى كتابه فلسطين «أن عراقة الصهيونية، إنما تعود إلى زمان هدم الهيكل، ووقوع الشعب اليهودى فى أسر نبوخذ نصر». وليست تلك أيضا سوى نماذج قليلة نعرضها على سبيل الإستشهاد فحسب.

ذلك هو الإطار العام لتصور الصهيونية لليهود وللتجمع الإسرائيلى. وهو بالفعل أنسب الأطر الفكرية ــ إذا لم يكن الإطار الفكرى المناسب الوحيد ــ للدفاع عن قيام الكيان الصهيونى وإستمراره أيضا. ولنرجىء مؤقتا محاولة التصدى لتفنيد ما يتضمنه هذا الإطار من دعاوى. ولنحاول أولا أن نختبر مدى إتفاق هذا الإطار العام مع قواعد المنهج

1. Roth, Cicil op. cit.
2. Sacher, Horward Morely op. cit.
3. Weiss-Rosmarin, T. Jewish Survival, The Philosophical Liberary, 1949.
4. Bentwich, N. Palestine, Victor Golla, Z., 1934.

العلمى التى أشرنا إليها آنفا. وذلك يقتضينا أن نبدأ **برد دعاوى هذا** الإطار إلى أصولها الفكرية المنهجية العامة.

أولا: الواقع الإجتماعى وليد الفكر وليس العكس:

تقوم المقولة الصهيونية فى هذا الصدد على نقيض ما يقوم عليه المنهج العلمى. فبينما ينطلق المنهج العلمى من التسليم ابتداءاً بأن الفكر إفراز للواقع الإجتماعى المادى المعاش ينطلق الفكر الصهيونى من مسلمة مضمونها أن الصهيونية كفكرة هى القوة الخالقة لذلك الواقع الإجتماعى الذى يجسده التجمع الإسرائيلى على أرض فلسطين.

ثانيا: الفصل بين الظواهر المرتبطة، وإنكار التأثير المتبادل بينها:

تقوم المقولة الصهيونية فى هذا الصدد أيضا على نفيض ما يقوم علبه المنهج العلمى - كما أشرنا - من استحالة فهم أى ظاهرة فهما صحيحا فى عزلة عما يحيط بها، فإن الفكر الصهيونى يفوم على النظر إلى «اليهود» كجماعة لا يتأثر جوهرها بما يحيط بها من ظواهرها اجتماعية مهما تباينت ومهما كان تأثيرها.

ثالثا: إنكار النغير:

تتعارض المقولة الصهيونية - فيما يتصل بالنظرة إلى اليهود - تعارضاً تاما مع ما يقول به المنهج العلمى من أن الكون بكافة ظواهرة المادية والاجتماعية فى حالة تغير مستمر. فالفكر الصهيونى - كما أوضحنا - يستثنى اليهود من هذا القانون العلمى الشامل.

رابعا: الاسبعاد المبدئى لفكرة التناقض:

تتعارض المقولة الصهيونية فى هذا المجال أيضا تعارضا تاما مع

مسلمات المنهج العلمى. فالفكرالصهيونى لا يقبل مطلقا بإمكانية أن يكون ثمة تناقض أساسى فعال بين اليهود وبعضهم البعض، ومن ثم بين أى يهودى والصهيونية.

نحن، والحقيقة، والحق

إن حرص الصهاينة على اصطناع مثل هذا المنهج الميتافيزيقى فى نظرتهم لليهود وللصهيونية وللتجمع الإسرائيلى، حرص مفهوم تماما وله ما يبرره. فهو المنهج الوحيد الذى يكفل لهم تجنب مواجهة الحقيقة. والذى ييسرلهم أيضاً اغتصاب الحق العربى. كل ذلك مفهوم ومبرر. ولكن ترى ماالذى يبرر لنا نحن العرب ومعنا شرعية الحق وعلمية الحقيقة على حد سواء، أن نقع فى حبائل مثل هذه المقولات المثالية -ولا نقول الصهيونية- التى تتعارض مع قواعد المنهج العلمى، فضلا عن تناقضها مع الحق الفلسطينى العربى؟ هذا هو السؤال.

يكفى المواطن العربى أن يطل ولو إطلالة عابرة على ما أخرجته -وما زالت تخرجه- المطابع العربية من كتب تتناول موضوع التجمع الإسرائيلى، بل يكفيه أن يتصفح مجموعة أعداد من الصحف العربية، بل حتى يكفيه أن يولى سمعه أو نظره لجانب من مواد الإعلام العربى مسموعا أو مرئيا ليتضح له أن ثمة إتجاها فكريا عربيا لا يختلف كثيرا فى منطلقاته المنهجية عن نظيره الصهيونى فى تناول قضايا التجمع الإسرائيلى. ولقد نختلف فى تقدير مدى حجم هذا الإتجاه أو إنتشاره أو تأثيره. ولكنا لا نظن أن أحدا يخالفنا فى أنه إتجاه فكرى قائم بالفعل. وعلى أى حال فسوف نسوق بعد قليل أمثلة تدلل على ما نقول. ولنحدد أولا ما نراه من أوجه تطابق بين هذا الإتجاه وبين

التصور الصهيونى المقابل، والتى نستطيع أن نجملها فى المسلمات التالية : ـــ

أ اليهود هم اليهود منذ كانوا حتى الآن وإلى الأبد مهما تباعدت الشقة الزمانية بين أجيالهم.

ب ـ اليهود هم اليهود فى كل مكان مهما تباعدت الشقة المكانية بين جماعاتهم.

جـ ـ لليهود خصائصهم الفريدة المميزة التى تجعل منهم جماعة تختلف عن بقية البشر.

د ـــ لا فرق هنالك على الإطلاق بين «اليهودى» و «الإسرائيلى» و «الصهيونى» بل إنها جميعا مسميات لجوهر واحد.

هـ ـــاليهود فى النهاية هم محركوا التاريخ البشرى من خلال منظماتهم العالمية السرية.

وقبل أن نمضى فى عرض نماذج تدلل على وجود هذا الإتجاه الفكرى العربى، نجد لزاما علينا أن نؤكد من جانبنا، أن وجود هذا الفكر، لا يعنى بحال أنه نتاج لمؤامرة صهيونية على الإطلاق. وإلا فقد وقعنا بدورنا فى أسار المقولات الصهيونية. أن هذا التيار الفكرى هو يقينا إفراز عربى خالص، وتعبير موضوعى ـــعلى مستوى الفكرـــ عن الأزمة الحضارية التى يعيشها عالمنا العربى المعاصر. هذه الأزمة التى فرضت وتفرض العديد من أوجه الجنوح عن الفكر العلمى. وللحقيقة فقد حرص القائمون على التجمع الإسرائيلى من الصهاينة على الالتزام بفكرهم هذا المثالى غير العلمى ولكنهم نجحوا ـــإلى حد كبيرـــ فى أن يلزموه حدودا لا يتجاوزها إلى بقية ممارستهم العملية وخاصة تلك

المتصلة بقضايا الصراع العربى الإسرائيلى. أما على الجانب العربى فإننا لم نستطع الحيلولة دون إمتداد المظاهر الفكرية لأزمتنا الحضارية إلى مجال التصدى لمحاولة فهم طبيعة التجمع الإسرائيلى فهماً علمياً صحيحاً. لقد نجح صهاينة التجمع الإسرائيلى ـ إلى حد بعيد ـ فى التعامل مع الخلافات بين العرب واستثمارها لصالحهم، رغم ما يقول به الفكر المثالى الصهيونى من انقسام البشر جميعا إلى يهود وأغيار وإن كلا من الفريقين يمثل كيانا أقرب إلى الإتساق. ذلك فى حين أننا لم ننجح على الوجه المرجو فى التعامل مع التناقضات القائمة داخل التجمع الإسرائيلى، رغم ما يقول به الفكر العلمى من حتمية وجود هذه التناقضات ومدى جوهريتها

ولسوف نقصر أمثلتنا فيما يتعلق بهذا التيار الفكرى العربى على المرحلة التالية لهزيمة يونيو ١٩٦٧. حرصا منا على الإيجاز من ناحية، وتأكيدا لما أشرنا إليه فى مستهل حديثنا من أن الهزيمة ـ رغم هولها ـ لم تستطع أن تجتث جذور ذلك الفكر الزائف.

يقول محمد فرج فى كتابه الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عام ١٩٦٧ م والمعنون «فلسطين عربية» (١)

«...ونحن لا نعنى بذلك أن الصهيونية كفكرة وجدت فى القرن التاسع عشر فقط، فهى فكرة قديمة تمتد جذورها إلى الوقت الذى شرد فيه اليهود من فلسطين فيما قبل الميلاد...».

ويقول عبده الراجحى فى كتابه الصادر عام ١٩٦٩ ـ والمعنون الشخصية الإسرائيلية (٢)

---

(١) محمد فرج «فلسطين عربية» المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٦٧، ص٣٦.

(٢) عبده الراجحى «الشخصية الإسرائيلية» دار المعارف القاهرة ١٩٦٩، ص٩.

«... لقد دأبنا جميعا فى الفترة الماضية (كذا) على التميز بين اليهودية والصهيونية... والواقع أننا بهذا وقعنا فى خطأ كبير. ذلك أن الدارس الموضوعى لحياة الشعب الإسرائيلى (كذا) يعلم أن هناك حقيقة هامة لا ينكرها باحث، بل لاينكرها الإسرائيليون أنفسهم، فضلا عن أنهم يعتزون بها، ويدعون لها، وهى أن الإسرائيلية واليهودية والصهيونية ألفاظ مترادفة لمعنى واحد».

ويقول على حسن الخربوطلى فى كتابه الصادر أيضا عام ١٩٦٩ والمعنون «العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود»(١). وهو من منشورات معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ويتضمن المحاضرات التى ألقاها المؤلف على طلاب المعهد بعد عامين من هزيمة ١٩٦٧، يقول الخربوطلى «... إن العقلية اليهودية تختلف فى تفكيرها واتجاهاتها عن عقلية البشر جميعا، وإن هذا الاتجاه قد أحدث تأثيره فى تاريخ العالم كله، وحاول أن يفرض طابعه على البشرية جمعاء لكى يضعها تحت طاعة حكماء اليهود. فإن السحر بجميع أسراره وأنواعه جاء من العقلية اليهودية، والإيمان بالأشباح وتقمص الأرواح، ومخاطبة الأرواح جاء من هذه العقلية، والعرافة والتدجيل والتكهن بالمستقبل والإيمان بالمسيح المنتظر وقراءة الكف والنجوم والطوالع، كل ذلك جاء من العقلية اليهودية».

ويحدد محمد عزه دروزه فى كتابه المعنون «تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم»(٢)، صفات اليهود التى يرى أنها ظلت تلازمهم منذ القدم

(١) على حسن الخربوطلى «العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود» معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٩، ص٣٦.

(٢) محمد عزه دروزه «تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم» المكتبة العصرية، بيروت ١٩٦٩م، ص٥٢.

بإنها «... تعصب شديد، وأنانية قوية، وأفق ضيق ... وظل يبد
منهم ويسيطر على سيرتهم سواء فى معاملتهم لغير ... أو فيما كانو
يزعمونه لأنفسهم من إختصاصات وإمتيازات» ويمضى ليؤكد أن لليهو
«جبلة خاصة» عرفت عنهم وعرفوا بها منذ قديم. وأن أخلاقهم متوارث
فيما بينهم جيلا عن جيل وعلى إمتداد القرون المتطاولة منذ أسفار العه
القديم.

ونستطيع أن نمضى طويلا فى إيراد العديد من الأمثلة التى تعبر ع
هذا الإتجاه. غير أننا سوف نكتفى بأن نختتم أمثلتنا بالوقوف وقف
متأنية أمام واحد من أبرز نماذج هذا الاتجاه وأصدقها تعبيرا عنه. وفي
حقيقة الأمر فإن أهمية هذا النموذج بالتحديد لا ترجع إلى حداثت
فحسب بل أيضا لأسباب أخرى لا تقل عن الحداثة خطورة:

١ - إنه يصدر عن قلم أكاديمى مارس وما زال يمارس الإسهام فى توجيه وتوعية أجيال من الدارسين العرب، مؤثراً بالتالى فى تشكيل وعيهم بقضية الصراع العربى الإسرائيلى.

٢ - إنه يصدر ضمن منشورات «معهد البحوث والدراسات العربية» التابع لجامعة الدول العربية وبالتالى فإن مجال تأثيره يشمل بالضرورة - فيما يشمل - أولئك الساعين نحو التخصص فى قضية الصراع العربى الإسرائيلى من الدارسين العرب ولا يقلل من ذلك بحال حرص المعهد على الإشارة فى آخر صفحات الكتاب إلى أن «كل الآراء

الواردة بهذا الكتاب تعبر عن رأى المؤلف ولا تحمل بالضرورة وجهة نظر المعهد أو أى جهة أخرى يرتبط بها المؤلف » .

٣ ــ إنه يصدر عن قلم له وجهة نظر ثابتة ومتسقة منذ عشية هزيمة يونيو ١٩٦٧ م حتى الآن .

٤ ــ إنه يصدر بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ م و ماحققته من إنجاز عربى .

ويدور الكتاب حول فكرتين رئيسيتين : أن ثمة مؤامرة يهودية عالمية هى بمثابة المحرك للتاريخ البشرى . وأن اليهود جنس مختلف عن بقية البشر، وأن لهم خصائص ثابتة تجمعهم مهما تباعدت بينهم شقة الزمان أو شقة المكان .

يقرر الكتاب (١) إن اليهود هم الذين « بثوا فى المجتمع الإسلامى نحل الرجعة والتناسخ والمثنوية ... مما ظهر أثره فى تمرد الموالى بخراسان ، وإسقاط الدولة الأموية ، ثم فى ثورة الزنج والقرامطة بالعصر العباسى ، فشــو الزندقة والإلحاد ، وانتعاش النحل الدخيلة على العقيدة الإسلاميـة » .

ويدعونا الكتاب إلى الإهتمام بتقصى « دور بنى إسرائيل فى إسقاط الخلافة الإسلامية وتمزيق أقطارها تركة منهوبة لأولياء اليهود من المستعمرين » (٢)، فلقد « تـواطـأت الصهيونية وأولياؤها الإستعماريون

(١) عائشة عبد الرحمن ، الإسرائيليات فى الغزو الفكرى ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٥ ، ص٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص٢٩ .

مع جماعة الدونمة التركية على عزل السلطان [illegible] يد الثانى»(1). ثم «لم تلبث معاهدة سايكس ــ بيكو التى عقدت عام [illegible] إن قضت بتوزيع تركة الدولة العثمانية على المستعمرين ورثة ثأر الصليبية وأولياء اليهود» (2).

أما بالنسبة للحروب الصليبية، فإن الصليبيين كان من ورائهم جميعا عصابات اليهود، سدنة خزائن المال فى أوروبا، والقابضون على الخيوط المحركة لقادة الصليبية والإستعمار (3).

وكذلك كان الأمر بالنسبة للاحتلال الفرنسى للجزائر الذى كان يحمل فى ظاهره علم المطامع الاستعمارية لدولة أوروبية كبرى، تريد أن تنافس بريطانيا العظمى فى السباق على مناطق السيطرة والنفوذ... ولحساب يهود فرنسا فى الواقع، كان اجتياح المستعمرين لأرض الجزائر وقبضتهم على كل مواردها الإقتصادية. وقد تركوا لورثة نابليون مظاهر السيادة وزهو السلطة...(4).

كذلك فإن الإحتلال البريطانى لم يكن فى حقيقته سوى مؤامرة يهودية، إذ يقول الكتاب: «اليهود كانوا كذلك وراء العملية الرهيبة لإحتلال مصر قبل ربع قرن من إتفاقية سايكس ــ بيكو: فتحت بيوتهم

المالية بفرنسا فمولت الدعاية لمشروع حفر قناة السويس... ثم تآزر يهود أوروبا على اصطياد الخديوى إسماعيل بقروض أغروه بها للإنفاق على

(1) المرجع السابق، ص ٣٠.
(2) المرجع السابق، ص ٣١.
(3) المرجع السابق، ص ٣٣.
(4) المرجع السابق، ص ٣٩.

الإحتفال الباذخ بإفتتاح قناة السويس... حتى إذا استغرقته الديون... ولم يبق لمصر ما تبيعه للدائنين كانت رقابة صندوق الدين على المالية المصرية إحتلالا إقتصادياً يهودياً محضاً، أفضى إلى الحاق مصر بأوروبا على قصف مدافع البوارج الحربية الإنجليزية لثغر الإسكندرية سنة ١٨٨٢ م، ثم إغتصاب أرض الكنانة وضمها إلى محميات التاج البريطاني سنة ١٩١٤ م...(١).

وليس ذلك –من وجهة نظر الكتاب– بالشيء الكثير بالنسبة «...لمحنة العالم بسيادة قوة الوثنية المادية لليهودية العالمية، التي جعلت من ساسة العصر وقادة الدول وموجهي مصائر الشعوب أحجاراً في اليد الخبيثة على رقعة الشطرنج (٢).

وعلى أي حال فإن الأمر لا يقتصر على عالمنا العربي وحده. لقد استطاعت اليد الخبيثة أن تسخر الاستعمار لحسابها، وفي وهمه أنه يثأر للصليبية –حتى في الهند والصين وأندونيسيا– وأن تجند الدول الكبرى لخدمة الوثن اليهودي، وفي وهمها أنها تتقاسم مناطق النفوذ والإستغلال وتمد سلطانها على أقطار الأرض (٣).

لقد نجح «اليهود» إذن في خداع الدول الاستعمارية الكبرى وتضليلها، ودفعها إلى إقامة الأمبراطوريات الاستعمارية المترامية الأطراف، لمجرد خدمة مصالح اليهود، وتنفيذا لمخطط المؤامرة اليهودية.

وليس غريبا والأمر كذلك أن تكون الدعوة إلى القومية العربية جزءاً مرحليا من هذا المخطط اليهودي الأخطبوطي بدأ باسقاط الدولة

(١) المرجع السابق، ص٤٠.
(٢) المرجع السابق، ص٥٦.
(٣) المرجع السابق، ص٥٦.

العثمانية، وطويت مآثر ماضيات الدولة التى شهدها التاريخ تحمل لواء الإسلام عزيزا منتصرا إلى قلب أوروبا... ليشهد بعدها شعوب وطننا تركة منهوبة لورثة فريدريك بارباروس، وفيليب أوجست، وريتشارد قلب الأسد، ولويس التاسع الأسير القديس، ومن ورائهم جميعا عصابات اليهود سدنة خزائن المال فى أوروبا، والقابضون على الخيوط المحركة لقادة الصليبية والإستعمار (١).

ويبلغ الكتاب ذروته فى عرض تتابع خطوات «المؤامرة اليهودية» على العرب حين يقول تحت عنوان «هكذا سرنا على الدرب الذى خط لنا «رضينا بالعروبة شعاراً قوميا فى مرحلة التحضير لنهاية الخلافة الإسلامية. ثم لما إن صارت باعث نخوة، نسخوا كل ما نشروا فينا من عطاء (حضارة العرب) وأغرونا بأن نستبدل بها وطنية العصبيات الشعوبية الموروثة، ثم لما أرهف إحساسنا بمهانة الإستعباد الذى لا يجوز على ورثة حضارات بابل وآشور والفراعنة والفينيقيين والبربر، نسخوا من أنفسنا هذه أيضا وأرهقونا بعقدة النقص تجاه الشرقية العتيقة، والعربية البدوية، والإسلامية السلفية وأخذنا بفتنة العصرية العربية المتحضرة وتوزع انتماؤنا إلى شتى المدارس والثقافات (٢).

ولا يفوت الكتاب أن يحمل المؤامرة اليهودية العالمية مسئولية انتمائنا إلى الجنس السامى حيث يقول «وفى دراستنا لشخصية الأمة: جنسا ولغة، القى اليهود إلينا من إسرائيلياتهم بذرة السامية ثم تركوا لنا أن نتعهدها نحن بالرى والإنبات حتى أتت أكلها السام (٣).

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٦٥.

ويمضى الكتاب مدينا لهذه الفكرة مبينا «أخطارها» موضحا الفروق العرقية بيننا وبين اليهود، يقول الكتاب «ونلقى عالم اليوم، ونحن نحمل بالسامية التى تنمينا واليهود إلى أرومة واحدة، أوزار هؤلاء الذين عرفتهم الدنيا والتاريخ أعداء للبشر. ونواجه صراع البقاء وعلى أصولنا ظل يهودى قبيح تنكره طبيعتنا وأعراقنا ويرفضه تاريخنا، ويأباه التنافر من سجايانا المشهود لها بالنخوة والكرم والمرؤة والشرف، وغرائزهم المنحطة التى تأصلت فيهم بالوراثة قرونا وأحقابا. وتنفيه دماؤنا التى لو سيط بها دم يهودى تزايلن حتى ما يمس دم دما (١)..

ويحدد الكتاب موقفا واضحا حاسما من الدمج بين اليهودية والصهيونية والإسرائيلية، مدينا بنفس الحسم أى محاولة للفصل بينها، يقول الكتاب «ونحن نتطوع فنقدم للعالم وثائق اعترافنا بأبناء عمومتنا، أحدثها فيما قرأت، مقال للسيد محمود دياب نشر فى اليوم السابع من شوال سنة ٣٩٢ هـ فى العدد ٣٠٢ من مجلة العالم الإسلامى التى تصدر بمكة المكرمة، منزل الوحى، ومهد النبوة ومثابة حجهم. وعنوان المقال لافت: صلة إسرائيل بأرض فلسطين صلة وهمية والفكرة فيه أن إسرائيل التى ينفى الكاتب صلتها بفلسطين، هى جماعات الطارئين عليها ممن يدينون بالصهيونية أما غيرهم من اليهود الاصليين فهم منا وان حاولت الصهيونية العالمية أن تفرق بيننا؟... اللهم عفوك ورحمتك. عالم اليوم ليس بحيث يجوز عليه هذا المنطق فى التفرقة بين يهود ويهود، والقول بأن الطارئين منهم لا صلة لهم بالقدامى (٢).

خلاصة ما يريد الكتاب قوله هو أنك أينما وليت وجهك شرقاً أو غرباً فاليهود أمامك، وحيثما نقبت فى تاريخنا أو تاريخ غيرنا فأصابع

---

(١) المرجع السابق، ص٨٠.

(٢) المرجع السابق، ص٨١.

اليهود واضحة فاعلة، وأيا كان الفكر الذى تتبناه أو يتبناه غيرك فأنت واقع لا محالة فى حبائل اليهود سواء كنت قوميا عربيا أو ماركسيا أمميا أو حتى شعوبيا فرعونيا أو فينيقيا، وحتى لو التزمت بالفكر الإسلامى وحده فالحذار الحذار فلقد تسربت الإسرائيليات إلى كثير من كتب التراث والتفسير قديمها وحديثها على حد سواء[1]. ولابد لك من صحبة دليل متخصص يصحبك ليجنبك مواطن الزلل، على ألا يكون هذا الدليل المتخصص ممن مستهم المؤامرة اليهودية. حقا اللهم عفوك ورحمتك. ما زال للمنهج المثالى غير العلمى مكانا مرموقا فى الفكر العربى المعاصر بعد كل ما حدث. ولذلك فإن علينا من البداية أن نطرح ـــ من وجهة النظر العلمية ـــ تعريفا محددا لما نعنيه بمصطلح «التجمع الإسرائيلى».

يسعى الصهاينة بلا هوادة إلى تمييع الحدود بين الاسرائيلى والصهيونى واليهودى حتى أن المؤتمر الصهيونى السابع والعشرين الذى إنعقد عام ١٩٦٨، يقرر بوضوح أن محاولة التفريق بين الصهيونية وبين الشعب اليهودى محاولة إجرامية لتضليل الرأى العام [2]. ويقول ليفى أشكول فى كلمة له فى هذا المؤتمر «إن الصهيونية هى أم الثورة اليهوديـــة. فهى التى جاءت بى وبمن سيأتى بعد ذلك إلى أرض إسرائيل. نحن يهود، إذن نحن صهيونيون. فأعداؤنا لا يربطون العداء للسامية بالصهيونية عبثا. وفى الوقت الذى يتعرضون لنا يقولون إنهم ليسو ضد اليهود ولا سمح الله بل ضد الصهيونية فقط، الصهيونية تتماثل فى نظرهم مع اليهودية» [3].

---

(١) المرجع السابق، ص٨٣ـ١٧٢.

(٢) المؤتمر الصهيونى السابع والعشرون ١٩٦٨٠، مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

(٣) المرجع السابق ص٥٠٥.

ولقد ورد فى مقدمة قرارات المؤتمر الصهيونى المشار إليه ما نصه «أهداف الصهيونية هى: وحدة الشعب اليهودى فى وطنه التاريخى أرض إسرائيل بالهجرة من جميع البلاد. تدعيم أرض إسرائيل القائمة على نبوة الأنبياء فى العدل والسلام. المحافظة على خاصية الشعب بتطوير التربية اليهودية والعبرية وبث القيم الروحية والتربوية اليهودية. الدفاع عن حقوق اليهود فى جميع الأماكن التى يقيمون بها (١).

ذلك بالتحديد هو ما يسعى إليه الصهاينة. ونستطيع أن نوجز ما نراه من تمايز بين اليهودية والإسرائيلية والصهيونية فى الحقائق العلمية التالية:

الحقيقة الأولى: ليس كل صهيونى إسرائيليا... ولا العكس.

على الرغم من أن الصهيونية تقوم ــ فكرا وممارسة ــ على دعوة اليهود لاستيطان فلسطين كوطن قومى، إلا أن التجمع الإسرائيلى حتى اليوم لا يضم صهاينة العالم جميعا. ويكفى أن نلقى نظرة سريعة إلى بيانات الجدول رقم «١» الذى يضم نتائج عملية الإحصاء التى تمت تنفيذا لقرار اللجنة التنفيذية الصهيونية الذى اتخذ فى يوليو ١٩٦٩، وقد انتهت عملية الإحصاء هذه فى يونيو ١٩٧١ م. وتشير أرقام الجدول إلى أعداد اليهود الذين تم تسجيلهم فى عضوية المنظمة الصهيونية العالمية فى مختلف البلدان ــ خارج إسرائيل ــ التى تسمح قوانينها بنشاط صهيونى منظم.

---

(١) المرجع السابق، ٩٨١.

الجدول رقم (١) (١)

عدد أعضاء المنظمة الصهيونية العالمية

عام ١٩٧١

اسم البلد	عدد الأعضاء	اسم البلد	عدد الأعضاء
النمسا	١٥٠٢	زامبيا	١٥٦
أستراليا	١٢٤٥٤	اليونان	٤١٥
أوراجواى	٨٤٠٠	المكسيك	٣٣٥٠
إيطاليا	٣٥٠٠	أميركاالوسطى	٩٢٧
اكوادور	١٥٠	النرويج	٢٣٥
الأرجنتين	١٩٦٦٠	نيوزيلندا	٣٤٧
الولايات المتحدة	٦٤٥٦١٦	فنلندا	٣٢١
بوليفيا	٢٥٠	براجواى	١٣٠
البرازيل	١١٥٠٠	بيرو	١١٠٠
بريطانيا	٦٩٥٠٠	تشيلى	٢٠٠٠
المانيا	٢٥٣٠	فرنسا	٤١٠٦٠
الدانمارك	١٢٣٩	كولومبيا	١٣٥٠
جنوب أفريقيا	٢٣٠٠٠	كندا	٣٢٠٠٠
الهند	٧٠٢	روديسيا	١٧٨٦
هولندا	٢٣٦٨	السويد	٣٠٧٤
ايرلندا	٧٢٥	سويسرا	٥٠٠٠
فنزويلا	١٨٠٠		

(١) هانى عبد الله، «المؤتمر الصهيونى الثامن والعشرين» شئون فلسطينية أبريل ١٩٧٢م، ص٣١ ــ ٣٢.

تشير بيانات الجدول السابق إلى أن ثمة ٨٩٨ر١٤٦ صهيونيا عاملا منظما يوجدون خارج التجمع الإسرائيلى الراهن. وتثير هذه الحقيقة جدلا لا ينقطع بين صهاينة «الداخل» وصهاينة «الخارج». أما الصهاينة خارج التجمع الإسرائيلى فيحاولون جهدهم إبراز أهمية ما يقومون به كصهاينة من مواقعهم خارج التجمع الإسرائيلى، ومدى حيوية هذا الدور سواء بالنسبة للصهيونية أو بالنسبة لوجود التجمع الإسرائيلى ذاته، ومدى ارتباط فعاليتهم بوجودهم فى الخارج، أما الصهاينة داخل التجمع الإسرائيلى فإن لهم رؤية مختلفة، إنهم يرون أن جوهر الصهيونية إنما يتمثل فى هجرة اليهود إلى التجمع الإسرائيلى ومن ثم فإن أولئك الذين يحجمون عن الهجرة، إنما يتنكرون لصهيونيتهم. ولقد شهد المؤتمر الصهيونى الثامن والعشرون الذى انعقد فى القدس فى يناير ١٩٧٢ واقعة توضح المدى الذى بلغه هذا الخلاف، فلقد تقدم يحييئيل ليكيط زعيم شباب حزب العمل الاسرائيلى باقتراح مؤداه «إننا نريد أن نفرض على كل صهيونى واجب الهجرة إلى إسرائيل. فليتوقفوا عن الحديث عن الهجرة وليهاجروا فعلا. وفى طليعتهم الزعماء ليكونوا قدوة حية للشباب اليهودى. إننا نقترح عقوبات أيضا: الزعيم الصهيونى الذى لا يهاجر إلى إسرائيل خلال أربع سنوات من انتخابه لا ينتخب مرة أخرى لأى منصب صهيونى». ولقد أثار هذا الإقتراح الذى باركته الأوساط الصهيونية الإسرائيلية ردة فعل عنيفة لدى ممثلى المنظمات الصهيونية التى تعمل فى الخارج، وخاصة المنظمات الصهيونية الأمريكية الممثلة فى المؤتمر حتى أن رئيسة منظمة هداسا النسائية وهى إحدى المنظمات الصهيونية الرئيسية فى الولايات المتحدة قد أعلنت أن منظمتها قد تضطر

للانسحاب إذا ما جرت محاولة لوضع مثل هذا الإقتراح موضع التنفيذ الفعلى ([1]).

التجمع الإسرائيلى إذن لايضم كل صهاينة العالم. وثمة صهاينة يهود يتعصبون لصهيونيتهم كأشد ما يكون التعصب ورغم ذلك فانهم يمانعون فى الهجرة إلى إسرائيل كأشد ما تكون الممانعة. ترى علام تدل هذه الحقائق التى تتفق تماما مع ما ينبئنا به المنهج العلمى؟ إنها لتؤكد أن الصهيونية تيار فكرى سياسى. وما دام الفكر أيا كان نوعه، ومهما كان تقديرنا لتأثيره، لا يعدو أن يكون نتاجا للظروف الإجتماعية المادية، فإنه بذلك لا يمكن له وحده أن يحدد سلوك الأفراد، وبذلك فإن الفكر الصهيونى ــ رغم شراسة الدعاية له ــ لم يكن ليقنع اتباعه مهما غلوا فى تعصبهم له بالهجرة من بلاد الرخاء إلى التجمع الإسرائيلى.

وإذا كان صحيحا أن الجنسية الإسرائيلية لا تغطى صهاينة العالم جميعا. فإنه لصحيح كذلك أن ثمة يهودا يحملون الجنسية الإسرائيلية ورغم ذلك فإنهم يختلفون مع الفكر الصهيونى من منطلقات متباينة، وبدرجات متفاوتة. وقد يبدو ذلك غريبا من وجهة النظر المثالية غير العلمية ولكن فلننظر الى بعض الأمثلة الواقعية.

١ ــ جماعة الناطوراه كارتا:

وهى جماعة صغيرة الحجم من اليهود الفلسطينيين الذين ظلوا فى فلسطين منذ الزمن القديم، وهذه الجماعة ترفض الصهيونية من منطلق دينى يهودى ولا تعترف بدولة إسرائيل، وتعتبرها ثمرة «الغطرسة

---

(١) «المؤتمر الصهيونى بعد ٧٥ عاماً» نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ملحق العدد رقم ٤ ١٦٠/٢/ ١٩٧٢، ص٩٩.

الآثمة» لأنها قامت على يد نفر من الكافرين الذين خرقوا مشيئة الله بعملهم وتدخلوا فى صنعه بدلا من انتظار الماشيح الموعود. فالماشيح المنتظر ــفى رأى هذه الجماعةــ هو وحده القادر على إقامة الدولة حيث تكون «مملكة للكهنة والقديسين» ولكن اللادينيين أقدموا على اغتصاب مهمته والتبكير بها. ولقد سارع أعضاء هذه الجماعة غداة قيام الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ م الى إبلاغ الأمم المتحدة برأيهم فى ضرورة تدويل القدس. وما زالت هذه الجماعة تقطن بأكملها فى حى «ميئا شعاريم» بالقدس.

٢ ــ حزب ماكى:

وقد ظل هذا الحزب الإسرائيلى معاديا للصهيونية حتى عام١٩٦٥م حين تغير موقفه منذ ذلك الحين وانشق عليه من اختلفوا معه فى هذا التغيير وقد كان هذا الحزب فى فترةعدائه للصهيونية يرفض الإعتراف بالعلاقة بين إسرائيل ويهود العالم، ويطالب بإنشاء دولة للفلسطينيين طبقا لقرار التقسيم.

٣ ــ حزب راكاح:

وقد تشكل هذا عام ١٩٦٥ م نتيجة لانشقاق حزب ماكى. ويعارض حزب راكاح الصهيونية صراحة. ويعتبرها حركة رجعية تسيطر عليها البرجوازية اليهودية، وتستغلها الامبريالية العالمية للسيطرة على الشرق الأوسط. ولقد أدان راكاح العدوان الإسرائيلى عام١٩٦٧م وطالب بالانسحاب الفورى من جميع الأراضى المحتلة. وقد ورد فى مقررات المؤتمر السادس عشر لهذا الحزب والذى انعقد فى مطلع عام ١٩٦٩م أنهم «يدحضون على الدوام النظرية اليهودية الرجعية ـعن وجود ما يسمى بالأمة اليهودية العالميةـ التى تفتقد أية صلة بالواقع والتى تدعى وكأن يهود العالم، الذين يعيشون فى بلدان مختلفة وفى ظل

أنظمة متباينة ، يشكلون أمة واحدة بغض النظر عن عدم وجود علاقات اقتصادية وجغرافية وثقافية ولغة وتقاليد واحدة . أى فى ظل غياب كل الشروط اللازمة لقيام الأمة » .

٤ ــ الماتزبن :

تنظيم سياسى إسرائيلى معاد للصهيونية ، تكون فى أوائل الستينات ويرى « الماتزبن » أن التجمع الإسرائيلى الاستيطانى قد أقامه الاستعمار وما زال يدعمه عسكريا وماليا لضرب حركات التحرر الوطنى .

ونستطيع أن نمضى فى سرد قائمة من أسماء الجماعات والتيارات الفكرية المعادية للصهيونية أو المختلفة معها على الأقل والقائمة بين يهود الكيان الصهيونى ورغم صغر حجم هذه الجماعات نسبيا فإن وجودها ذاته يعد دليلا حاسما على وجود يهود إسرائيليين معادين للصهيونية بل أن عداء بعض هذه المنظمات للصهيونية قد وصل إلى حد أن « مجلس السلام من أجل إسرائيل وفلسطين » ــ وهو إحدى هذه التنظيمات ــ قد أقام حوارا مع بعض أطراف منظمة التحرير الفلسطينية انطلاقا من أن المجلس يؤيد قيام دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس . وقد أدى ذلك إلى تقديم آرييه آلياف ــ وهو أحد من شاركوا فى هذا الحوار من أعضاء المجلس ــ إلى المحاكمة والادانة .

بل أن بعض هذه التنظيمات قد تخطى فى عدائه للصهيونية مجرد القبول بالحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية إلى حد المشاركة فى النضال المسلح ضد الكيان الإسرائيلى ، ومثالنا فى هذا الصدد هو ذلك التنظيم الذى عرف باسم الجبهة الحمراء ، والذى قدم أحد أعضائه

ويدعى اهود اديف إلى المحاكمة حيث أدين بتهمة التخريب وعلى أى حال فإن ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية والقائد العام لقوات الثورة الفلسطينية فى خطابه الذى ألقاه على مسمع من العالم فى الجمعية العامة للأمم المتحدة، فى دور انعقادها العادى التاسع والعشرين، لم يفته أن يصف اهوداديف بالمناضل اليهودى يقول ياسر عرفات (لقد وقف المناضل اليهودى اهوداديف فى المحكمة العسكرية الإسرائيلية قائلاً: أنا لست مخرباً... أنا من المؤمنين بإقامة الدولة الديمقراطية على هذه الأرض. وهو الأن فى غياهب سجون الزمرة العسكرية الصهيونية مع زملائه.

خلاصة القول إذن أن الصهيونية تيار فكرى يسرى عليه ما يسرى على غيره من التيارات الفكرية وأن الإسرائيلية جنسية يسرى عليها ما يسرى على سواها من مفاهيم تتصل بالتشريع والقانون*.

(*) لعل قارئنا يود الاستزادة فيما يتصل بمدى ونوعية المفارقة بين الصهيونية والإسرائيلية، أنظر:
ـ أسعد رزوق «إسرائيل والحركة الصهيونية فى منظار بن جوريون وجولدمان».
شئون فلسطينية ١٥٠، ١٩٧٢، ١٢٧.
ـ عبد الحفيظ محارب «ظاهرة الفهود السود فى إسرائيل: أسبابها، وأصولها، شئون فلسطينية ٤٠، ١٩٧١، ١٤٢.

ـ «المتمردون على الخدمة العسكرية فى إسرائيل» شئون فلسطينية، ١٦، ١٩٧٢، ١٣٧.
، «اليسار الإسرائيلى الجديد/ سيح» شئون فلسطيية، ١٩، ١٩٧٣، ٥٦.
ـ، قدرى حفنى «دراسة فى الشخصية الإسرائيلية، الاشكنازيم» جامعة عين شمس ـ مركز بحوث الشرق الأوسط، ١٩٧٥، ٨٦.

ـ ليلى سليم القاضى، (المنظمة الاشتراكية الإسرائيلية ماتسبن)، منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركز الأبحاث، ١٩٧١.
، مقابلة مع مسئول فى المنظمة الاشتراكية الإسرائيلية، شئون فلسطينية، ٢، ١٩٧١، ٩١.

الحقيقة الثانية: ليس كل يهودى صهيونيا... ولا العكس:

تدل النتائج النهائية للاحصاء الذى أجرته اللجنة التحضيرية للمؤتمر الصهيونى الثامن والعشرون ــ والتى سبقت الإشارة إلى بعضها ــ على أن مجموع الذين تم تسجيلهم فى عضوية المنظمة الصهيونية العالمية بلغ ٨٩٨ر١٤٦ عضوا فى حين يبلغ عدد اليهود فى البلدان التى شملها الاحصاء المذكور ٤٥٠ر٢٨٩ر٨ يهوديا.

ولقد يظن البعض أن الحديث عن يهودى غير صهيونى انما هو من قبيل المماحكة اللفظية ليس إلا. أو لعله من قبيل اصطياد استثناءات فردية متناثرة لا دلالة لها وقد يتصور البعض أن اليهود جميعا قد قابلوا الصهيونية بالترحاب منذ بدايتها وحتى اليوم بصرف النظر عن إنتمائهم للمنظمة الصهيونية العالمية.

والحقيقة -تاريخيا- ان ثمة معاداة يهودية للصهيونية بدأت مع بداية الصهيونية ذاتها. ويكفى أن نشير فى هذا المقام إلى البيان الصادر عن هيئة الحاخامات الألمان احتجاجا على دعوة هرتزل لعقد المؤتمر الصهيونى الأول: يقول هذا البيان «إن الدعوة إلى عقد مؤتمر صهيونى، وإذاعة جدول أعمال هذا المؤتمر أدت إلى بث تصورات خاطئة ومضللة عن مضمون التعاليم اليهودية، وحول الأمانى والتطلعات التى تجيش فى نفوس معتنقيها، وهذا مما يرغم الهيئة الموقعة أدناه على إصدار البيان التوضيحى التالى:

أولا:

إن مساعى الذين يسمون أنفسهم بالصهيونيون، وهى المساعى الرامية إلى تأسيس دولة قومية يهودية فى فلسطين، تتنافى مع العقائد

المتعلقة بانتظار مجيء المسيح فى اليهودية، وكما توجد هذه العقائد والتعاليم فى الكتاب المقدس، وفى المصادر المتأخرة للديانة اليهودية.

ثانيا:

إن اليهودية تلزم معتنقيها بالعمل فى خدمة الوطن الذى ينتمون إليه بكل إخلاص وتفان، والدفاع عن مصالحه القومية من صميم القلب وبجميع الطاقات والامكانيات.....

ويختتم البيان بالدعوة إلى الابتعاد عن المحاولات والمساعى الصهيونية الوارد ذكرها أعلاه، وبنوع خاص الابتعاد كليا عن المؤتمر الصهيونى الذى يصرون على عقده رغم كل التحذيرات والتنبيهات التى أطلقت ضد الفكرة والدعوة».

لقد كانت تلك هى البداية. ومنذ ذلك الحين وحتى الأن ظل ثمة رفض يهودى للصهيونية، قد يتفاوت تأثيره من حين لآخر، وقد تتباين منطلقاته النظرية. ولكنه ظل قائما دوما، إلى الحد الذى لا يستطيع معه غلاة الصهيونية إنكار وجوده، وإن لم يكفوا عن إدانته بشراسة. أن صهيونيا مثل «يسرائيل جولد شتاين» يقول فى خطابه فى المؤتمر الصهيونى السابع والعشرين «من المحتمل أن يهاجر إلى إسرائيل يهود غير صهيونيين لأسباب مختلفة...» (١). وتقول الصهيونية الاسترالية «هانا كسلر» فى خطابها فى هذا المؤتمر «إن كلمة صهيونى... أصبحت الأن كلمة مستنكرة لدى أوساط كثيرة فى إسرائيل وفى المنفى...» (٢).

---

(١) المؤتمر الصهيونى السابع والعشرون ١٩٦٨م مرجع سابق، ٤٦٣.

(٢) المرجع السابق، ٥٢٤.

وعلى أى حال فأننا نستطيع أن نميز فى إطار المعاداة اليهودية للصهيونية بين تيارات أربعة : [1]

١ ـ الرفض الأورتوذكسى:

ويرى أصحاب هذا التيار أن «عودة اليهود» من الشتات إلى «أرض الميعاد» لا يمكن أن تتم إلا بمعجزة الهية. وبالتالى فان الحركة الصهيونية بمحاولتها اتخاذ خطوات عملية لإقامة وطن «قومى» يهودى، إنما تتدخل فى أخص خصوصيات الإرادة الإلهية. أى إنها نوع من التجديف والهرطقة وتتجسد بقايا هذا الاتجاه فى جماعة الناطوراه كارتا التى سبق أن أشرنا اليها.

٢ ـ الرفض العلمانى الاندماجى:

ويرى أصحاب هذا التيار أن اليهود ليسوا قومية وأنه ليس ثمة تاريخ يهودى وبالتالى فإن حل المسألة اليهودية أو مشكلات اليهود كأقليات قومية لن يتأتى إلا عن طريق دمج أو اندماج تلك الأقليات اليهودية فى مجتمعاتها الأصلية. ويتمثل هذا الاتجاه فى «المجلس الأمريكى لليهودية». وهو تنظيم يهودى معاد للصهيونية تأسس عام ١٩٤٣ بهدف تشجيع اليهود فى الولايات المتحدة الأمريكية على الاندماج وقد هاجم المجلس اتجاه إقامة الدولة صهيونية سواء فى فلسطين أو فى غيرها، واعنبره اتجاهاً عنصرياً ضاراً بمصالح اليهود أنفسهم. وأعتبر أن فلسطين بلد من يعيشون فيها وليست بلد كل يهود العالم. وقد

---

(١) عبد الوهاب المسيرى، موسوعة المصطلحات اليهودية والصهيونية، مركز الدراسات الفلسطينية والصهيوبية الأهرام، ١٩٧٥م.

بلغت عضوية المجلس فى مطلع الستينات حوالى خمسة عشر ألفا من اليهود الأمريكيين.

٣ ـ الرفض الاشتراكى :

ويرى أصحاب هذا التيار أن حل المسألة اليهودية لا يتحقق إلا بحل طبقى شامل. ويتمثل هذا التيار حاليا فى الموقف الذى تتخذه قطاعات واسعة من اليسار الجديد فى دول الغرب والولايات المتحدة. فضلا عن موقف اليهود غير الصهاينة فى الدول الاشتراكية.

٤ ـ الرفض القومى الدياسبورى:

ويرى أصحاب هذا التيار أن اليهود يشكلون أقلية قومية. ولكنها أقلية تكونت من الدياسبورا (أى المهجر) ولذلك فإن حل المسألة اليهودية يكون من خلال تقبل هذه الحقيقة الأساسية والتعايش معها.

لعل ذلك يكفى للتدليل على حقيقة أن اليهودى ليس صهيونيا بالضرورة الحتمية وبقى النصف الآخر من المسألة هل كل صهيونى يهودى. إن الصهيونية كموقف فكرى تتمثل ـ كما أشرنا ـ فى التسليم بأن ثمة مشكلة يهودية وأنه لا حل لهذه المشكلة إلا بإقامة وطن قومى لليهود على الأرض الفلسطينية. واتخاذ هذا الموقف ـ فيما نرى ـ ليس بقاصر على اليهود وحدهم، بل إننا لنجد بين غير اليهود من يفوق فى تبنيه للفكر الصهيونى وتعصبه له، الكثير من الصهاينة من اليهود.

ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك فان باسان الأديب والكاتب المسيحى الديانة، الهولندى المولد، الأمريكى الجنسية، لقد اجتذبته الصهيونية فى أعقاب زيارته لفلسطين عام ١٩٢٥ م حيث منح فى تلك السنة لقب المواطن الفخرى لمدينة تل أبيب. وأبدى نشاطاً عملياً

متزايداً فى تأييد الصهيونية والدعوة لها من خلال الحرب العالمية الثانية ، فضلا عن إصداره عام ١٩٤٣ م كتابه المعنون (١) : الحليف المنسى ، الذى يتبنى فيه بصراحة وحماس الدعوة إلى تدعيم إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين. ولقد استحق باسان ـــ وبحق ـــ تقدير المؤتمر الصهيونى السابع والعشرين باعتباره « صهيونيا متحمسا ، وصديقا مخلصا لدولة إسرائيل كافح من أجل الصهيونية بصفته أديبا وفى النشاط العام أيضا (٢) كذلك فقد أبدى المؤتمر نفس التقدير لعدد آخر من الصهاينة غير اليهود. ولعل سورنس كان يشير إلى شىء من هذا القبيل خلال حديثه عن جذب الصهيونية لليهود ولغير اليهود ، مفسرا ذلك بإن الصهيونية قد تجذب اليهود لأنها تقدم لهم موطنا قوميا ، وقد تجذب غيرهم لأنها تكفل لهم تخلصا من اليهود. ورغم أننا لا نسلم تماما بما يذهب إليه سورنس (٣) إلا إننا نتفق معه فى إبرازه لوجود صهاينة من غير اليهود*.

---

1. Van Passan, P. The forgotten alley Dial Press, 1943.

(٢) المؤتمر الصهيونى السابع والعشرون ، ١٩٦٨ ، مرجع سابق ص١٠٧٣.

3 Sorensen R. 'Our Common humanity', J. J. Lynx, (ed.), The future of the Jews : A symposium, Drummonol, 1954.

(*) لعل قارئا يود الاستزادة فيما يتصل بمدى ونوعية المفارقة بين الصهيونية واليهودية :

ــ أسعد رزوق المجلس الأمريكى لليهودية : دراسة فى البديل اليهودى للصهيونية ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، ١٩٧٠.

ــ إسماعيل راجى الفاروقى: الملل المعاصرة فى الدين اليهودى» معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٨.

ــ داودد تلحمى ، لقاء مع مكسيم رودنسون ، شئون فلسطينية ٩٠/ ١٩٧٢/ ٨٥.

ــ رودنسون ، مكسيم ، « عالم الصهيونية » الطليعة (القاهرية) أغسطس ١٩٦٧ ، ١٢.

ــ ــــــــــ ، « إسرائيل والعرب ومستقبل النزاع » الهلال ، أكتوبر ٦٨ ، ٤.

ــ ــــــــــ ، الصهيونية بين الاستغلال والتبعية ، الطليعة (القاهرية) يونيو ١٩٧٠ ، ١٥٨.

ــ عبد القادرياسين ، « عصبة مكافحة الصهيونية فى العراق » ، شئون فلسطينية ١٥/١٩٧٢/١٥٨.

=

الحقيقة الثالثة : ليس كل يهودى إسرائيلياً ... ولا العكس

اليهودية ديانة وعلى الرغم من أنها بحكم النصوص ديانة لا تبشيرية إلا إنها ، بحكم الواقع الاجتماعى التاريخى قد تعرضت لما تتعرض له الديانات جميعا من موجات إعتناق وارتداد على حد سواء. فثمة جاليات يهودية كاملة تركت اليهودية وانقطعت علاقتها بها تماما ، كالجالية اليهودية الصينية التى تلاشت تماما ، أو بالأحرى تلاشت يهوديتها باعتناق أفرادها للكونفوشيوسية (١) كما أن ثمة مجموعات بشرية كاملة قد اعتنقت اليهودية فى وقت متأخر نسبيا ، كالخزر الذين كانوا يشكلون دولة مستقلة فى جنوبى البحر الأسود ، واعتنق حكام هذه الدولة الديانة اليهودية فى القرن الثامن الميلادى ، ثم لم تلبث أن أصبحت اليهودية هى الديانة الرسمية للخزر (٢). كذلك فقد تحول حاكم اليمن فى القرن الخامس الميلادى لليهودية ، وظلت مملكته نصف يهودية حتى عام ٥٢٥ أى حتى سقوطها فى أيدى الأحباش والبيزنطيين (٣).

تلك هى بعض حقائق التاريخ . أما لو نظرنا إلى حاضر التجمع الإسرائيلى فلسوف يتضح لنا على الفور أمرين :

أولا :

إن الكيان الصهيونى بحدوده التى إغتصبها عام ١٩٤٨ م كان يضم

= (١) ـ ماجدة نعمة ، منظمة ميثاق إبراهام: ظاهرة اليهودية المعادية للصهيونية ، شئون فلسطينية ، ٧ ، ١٩٧٢ ، ٢٢١ .

2 Rhee, SN. Jawish asslilation: The case of chinese Jews: Comporative studies and history, 15, 1973, 115.

(٣) محمد عمارة ، إسرائيل : هل هى سامية ؟ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر (القاهرة) ١٩٦٧ ، ص٦٨ .

4 Roth C. A. Short history of Jewish people, op. cit, p. 149.

١٦٩ ألفا من العرب الفلسطينيين من غير اليهود، الذين وصل عددهم إلى ما يجاوز نصف المليون تقريبا. أى إنهم يمثلون حوالى ١٨٪ من يهود التجمع الإسرائيلى. وذلك يعنى ضمن ما يعنيه إن التجمع الإسرائيلى ليس بقاصر على اليهود وحدهم.

ثانيا:

لعله من الحقائق المعروفة إن التجمع الإسرائيلى لا يضم يهود العالم، وإن اليهود كانوا وما زالوا أقليات متفرقة متناثرة. ولكن ترى ما هى نسبة اليهود الذين نجح التجمع الإسرائيلى فى جذبهم إليه؟ فلنلق بنظرة سريعة إلى توزيع اليهود فى عالم اليوم (أنظر جدول «٢»).

ويتضح من البيانات الإحصائية المنشورة أن يهود العالم يبلغون حوالى ١٤٫٣٧٠٫٦٥٠ ولا يضم التجمع الإسرائيلى إلا ٢٫٧٦٣٫٠٠٠ يهوديا، أى ١٩٪ من يهود العالم فحسب.

خلاصة ما انتهينا إليه أن المنطق العلمى يؤدى بنا إلى ضرورة التفرقة بين اليهود والصهاينة والإسرائيليين وأن الحقائق الموضوعية تؤدى بنا أيضا إلى نفس النتيجة وفضلا عن ذلك فإن الحق العربى إنما يتدعم ويقوى بإبراز هذه النتيجة الموضوعية العلمية.

وعلى أى حال فإن نظرة إلى بعض قرارات مجلس جامعة الدول العربية الخاصة بقضية فلسطين لتكشف لنا بوضوح أن ــ الفكر المثالى ــ غير العلمى لا مجال له فى الممارسة العملية أيا كان الممارسون وأيا كانت طبيعه ممارستهم. يشير القرار رقم ١٥٧١ الصادر فى الجلسة الخامسة من جلسات الدورة ٣١ التى انعقدت فى ٢٦ مارس ١٩٥٩ م إلى أنه «نظرا لأن الصهيونية تضلل بشتى الطرق الرأى العام فى أمريكا لاسيا الشمالية منها، ومن ذلك بث دعايات مغرضة غير متورعة عن

تفسير مزور لبعض نصوص سفر العهد القديم بقصد تبرير نظرية قيام إسرائيل، فإن الهيئة (هيئة خبراء الإعلام للدول العربية) توصى بما يأتى.....الاستفادة من مواقف (أ) اليهود غير الصهيونيين (ب) النوادى والجمعيات المناهضة للصهيونية (جـ) الشخصيات والمؤسسات الأمريكية المعروفة بصداقتها للعرب.

كذلك فقد تضمنت توصيات اللجنة الدائمة للإعلام العربى والتى قرر مجلس الجامعة الموافقة عليها بالقرار رقم (١٧٥١) الصادر فى أول الجلسة السادسة من جلسات الدورة ٣٥، المنعقدة فى أول أبريل بتوصية تنادى بضرورة التفريق فى كل مناسبة على لسان الرسميين وغيرهم بين اليهود والصهيونيين، ويجب أن تتجه الدعوة ضد الفريق الثانى لا الأول.

جدول رقم (٢)

توزيع اليهود فى العالم

الدولة	عدد اليهود	الدولة	عدد اليهود
الولايات المتحدة	٦ر١١٥ر٠٠٠	تركيا	٣٠ر٠٠٠
إسرائيل	٢ر٧٦٣ر٠٠٠	شيلى	٣٠ر٠٠٠
الاتحاد السوفيتى	٢ر٦٤٨ر٠٠٠	هولندا	٢٢ر٠٠٠
فرنسا	٥٥٠ر٠٠٠	سويسرا	٢٠ر٠٠٠
الأرجنتين	٥٠٠ر٠٠٠	السويد	١٥ر٠٠٠
بريطانيا	٤١٠ر٠٠٠	فنزويلا	١٥ر٠٠٠
كندا	٣٠٥ر٠٠٠	الهند	١٤ر٠٠٠
البرازيل	١٤٠ر٠٠٠	تشيكوسلوفاكيا	١٤ر٠٠٠
جنوب أفريقيا	١١٧ر٩٠٠	كولومبيا	١٣ر٠٠٠
رومانيا	٩٠ر٠٠٠	الحبشة	١٢ر٠٠٠
إيران	٨٠ر٠٠٠	أسبانيا	٩ر٠٠٠
المجر	٨٠ر٠٠٠	تونس	٨ر٠٠٠
أستراليا	٧٠ر٠٠٠	بولندا	٨ر٠٠٠
أوزجواى	٥٠ر٠٠٠	بلغاريا	٧ر٠٠٠
بلجيكا	٤٠ر٥٠٠	اليونان	٦ر٥٠٠
يوغوسلافيا	٣٧ر٠٠٠	بيرو	٥ر٣٠٠
إيطاليا	٣٥ر٠٠٠	روديسيا	٥ر٢٠٠
المانيا	٣٢ر٠٠٠		

(*) نقلاً عن الكتاب السنوى اليهودى، عام ١٩٧٣م.

الباب الثانى

تجسيد الوهم
دراسة سيكلوجية للشخصية الاسرائيلية

الكتاب الحائز على جائزة الدولة التشجيعية فى علم النفس لعام ١٩٧٢.

الفصل الأول: اختيار الطريق

الفصل الثانى: الطائر المهاجر

الفصل الثالث: البحث عن بوتقة

الفصل الرابع: تجسيد الوهم

تلخيص وتقييم

مراجع البحث

تعريف موجز بأهم الأعلام

نشرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى سبتمبر عام ١٩٧١م ضمن منشورات مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية التابع لمؤسسة الأهرام بالقاهرة.

الفصل الأول

اختيار الطريق

جوهر الوجود الإنسانى

اختيار الأسلوب

التنشئة الاجتماعية .. لماذا ؟

محاذير وحدود

جوهر الوجود الانسانى

ليس من شك فى أن الإنسان منذ وجد على هذه الأرض وسعى فى مناكبها وقضية المستقبل تستحوذ على القدر الأكبر من إهتمامه. وإذا ما أمعنا النظر لاتضح لنا أن اهتمامه هذا بالمستقبل لم يكن ترفاً ولا تزيداً، فظروف حياة الإنسان البدائى لم تكن لتسمح بترف ولا بتزيد. لقد كانت قضية «المستفبل» لديه قضية حياة أو موت أعنى حياته أو موته. المستقبل أمامه ملىء بالأخطار التى تتهدده من كل صوب وفى كل لحظة. كلها أخطار محتملة أى إنها قد تحدث وقد لا تحدث، فإذا ما حدثت فهو هالك لا محالة، وإذا لم تحدث فلسوف تمضى به الحياة. ولكن، أى حياة تلك التى يسودها القلق والترقب ويملؤها الفزع والرعب أيبقى فى مكانه؟ قد تنهمر عليه السيول فتجرفه، وقد تنفجر من تحته البراكين فتدمره، وقد لا يحدث شىء من ذلك على الإطلاق، أيخرج للصيد؟ قد يكون ذلك الحيوان القادم نحوه وحشا مفترسا لا قبل له بمواجهته وقد يكون صيدا سهلا فيه غذاؤه. أيأكل هذا النبات؟ قد يكون ساما فيقضى عليه، وقد يكون طيبا فيشبعه. قد

يكون مرا حنظلا لا يستساغ ، وقد يكون مقبولا شهيا فيه فائدة. ومئات من الأسئلة أو لنقل من المشاكل طرحت نفسها على الإنسان منذ وجد ، آخذه بخناقة ، دافعه به إلى دوامة من القلق تهدد وجوده ، وتكاد أن تقضى عليه .

ولم يكن من حل أمام الإنسان إلا أن يعرف ... أن يعلم ... لم يكن أمام الإنسان البدائى لكى يكفل أمناً لوجوده ولكى يضع بالتالى نهاية لقلقه ، لم يكن أمامه إلا أن يعرف أن يعلم . أن يعرف ما إذا كان معرضا لسيل جارف أو لبركان مدمر. أن يعلم أى الحيوانات تصلح لغذائه ، وأيها يصلح هو لغذائها . أن يعلم أى النباتات سام وأيها طيب ، أيها مر وأيها مستساغ . وبناء على معرفته تلك بالمستقبل يستطيع أن يتخذ قراراته . فإذا أدت به معرفته إلى أن مكانه سوف يتعرض لبركان أو لسيل أو لزلزال . اتخذ سبيله بعيدا عنه . وإذا أدى به علمه إلى أن ذلك النبات سام أى إنه سوف يفضى إلى موته إذا ما أكله ، أو أن طعمه سوف يكون مراً ، اجتنبه ولم يقربه . وإذا أدت به معرفته إلى أن ذلك الحيوان القادم نحوه سوف يتمكن من افتراسه اتخذ حذره منه .

كانت المعرفة لدى الإنسان البدائى تعنى الأمن والحياة وهى ما زالت كذلك حتى يومنا هذا بصورة أو بأخرى ولو تصورنا جوهر تلك « المعرفة » البدائية أو ذلك « العلم » البدائى ، لما وجدناه يختلف ، من

حيث جوهر العمليات السيكلوجية التى تحكمه ، ولا من حيث الدوافع الأصيلة التى تدفعه ، ولا حتى من حيث الأهداف التى يسعى إليها عن المعرفة والعلم فى أى عصر وفى أى مكان ولنتأمل كيف حصل ذلك الإنسان البدائى علمه ، أو كيف حصل معرفته ولماذا حصلها أو ما الذى فعله بها . لقد حقق الإنسان البدائى علمه بملاحظته لأحداث مضت . أحداث وقعت له أو لغيره ورآها ففسرها وتوصل إلى فهم لها ومعرفة بها . وتمكن بناء على تلك المعرفة وذلك الفهم من التوصل إلى تنبؤ بما سوف يحدث . وبالتالى أقدم على ما أقدم عليه وهو أكثر اطمئنانا وتجنب ما تجنبه وهو أكثر أمنا كانت تلك هى كيفية المعرفة ، وهدف المعرفة منذ وجد الإنسان . وما زالت تلك هى الكيفية حتى الآن وإن اختلفت الوسائل وتعددت ، وما زال ذلك هو الهدف وإن تباينت الصور واتسعت المجالات .

إذن فالعلوم جميعا مهما اختلفت ، وتعددت ، وتباينت صورها ومجالاتها ، لا تعدو أن تكون فى النهاية استقراءا لوقائع حدثت وتنبؤا بوقائع سوف تحدث . قد يتعمد الإنسان أن يحدث تلك الوقائع ليستخلص منها ما يستخلصه من تنبؤات ، كما يحدث مثلا فى بعض تجارب الكيمياء والطبيعة وقد ينتظر حدوث تلك الوقائع ويقوم برصدها ليصل الى تنبوءاته كما هو الحال فى دراسات علم الفلك وبعض فروع

الطب أيضا ، وقد يرجع إلى وقائع حدثت فيما مضى وانتهت وسجلها آخرون ليعيد تفسيرها واصلا بذلك إلى تنبؤاته كما يحدث فى علم التاريخ مثلا . وغير ذلك من السبل كثير يفوق الحصر. ولكن يبقى الخط العام واحداً. معرفة بما حدث وتفسير له ، وتنبؤ بما سيحدث ، واستعدادا له .

ولا تعنى وحدة الخط العام الذى يتخذه الإنسان فى سبيل وصوله إلى المعرفة واستفادته منها ، إهدارا للتمايز بين مختلف العلوم . فالعلوم تختلف من حيث مجالات تلك المعرفة المتخصصة التى تستهدفها . وإذا كان مجال العلوم الطبيعية هو دراسة ظواهر الطبيعة وهى بالتالى تنقسم إلى علوم تختص بالكيمياء والفلك وما إلى ذلك ، فإن مجال العلوم الإنسانية هو دراسة الظاهرة الإنسانية بهدف التنبؤ بمسارها . وهى بالتالى تنقسم إلى علوم تختص بالإقتصاد والإجتماع والتاريخ والسياسة ، وما إلى ذلك . فعلم الاجتماع –مثلا– يأخذ على عاتقه محاولة الوصول إلى معرفة القوانين العامة التى تحكم حركة المجتمعات نشأتها وذبولها ، تكتلها وتفككها ، تمايزها واندماجها ، وذلك بهدف التنبؤ بمستقبل أو بمسار تلك الحركة . والأمر شبيه بذلك أيضا بالنسبة لعلم الاقتصاد –مثلا– الذى يهدف الى محاولة الوصول إلى معرفة القوانين التى تحكم العلاقات الاقتصادية المتبادلة بين الأفراد وبعضهم ، وبين الجماعات وبعضها بهدف الوصول إلى تنبؤ بمستقبل أو بمسار تلك

العلاقات . وعلى ذلك فإن مهمة علم النفس هى محاولة الوصول إلى القوانين العامة التى تحكم سلوك الأفراد بهدف التنبؤ بمستقبل أو بمسار ذلك السلوك .

والحقيقة إنه لم يكن أحوج منا فى ظروف ما بعد يونيو عام ١٩٦٧م لمثل هذا الفهم لقضية المعرفة باعتبارها قضية وجود وأمن قبل أى شىء، وبإعتبارها أيضا معرفة بما حدث، وتفسير له، وتنبؤ بما سيحدث، واستعدادا له . وإذا كنا لانفتقد قدرا من التسليم بأهمية توفير ذلك الفهم المحدد للمعرفة فيما يتصل بمجال العلوم الطبيعية . أى تسليم بضرورة ما يسمى بالثورة التكنولوجية أو التقدم التكنولوجى باعتباره قضية وجود وأمن، فإننا فى حاجة إلى تأكيد أن تحقق مثل تلك المعرفة التكنولوجية سوف يكون قاصرا بالتأكيد إذا لم يواكبه تحقق قدر معقول من المعرفة بالإنسان . بل لعلنا لا نجاوز الحقيقة كثيرا إذا ما اعتبرنا إن المعرفة التكنولوجية آنذاك سوف تفقد قيمتها الإنسانية كلية .. إن قضية المعرفة بالإنسان ليست تزيدا ولا ترفا، بل هى أساسا قضية وجود الإنسان وأمنه . وهزيمة يونيو عام ١٩٦٧ م لم تكن —فيما نرى راجعة فحسب إلى تخلفنا التكنولوجى وتقدم الأعداء تكنولوجيا وإن كان ذلك عاملا جديرا بالنظر— بل أيضا إلى تخلفنا فى فهم الإنسان، أو بالتحديد فى «فهم العقلية الإسرائيلية» .

ترى ما الذى يحول دون الإنسان والمعرفة؟ ما الذى يجعل إنسانا يسعى إلى المعرفة وآخرا لا يقدم على ذلك السعى؟ ما الذى يجعل إنسانا يحصل معرفة خاطئة بينة الخطأ ومع ذلك يطمئن اليها ويستكين، وآخر يحصل معرفة لا تخلو من صواب ومع ذلك لا يكف عن محاولة تطويرها وإعادة اختبارها وانعام النظر فيها؟ ليس ثمة ما يفسر ذلك إلا إن المعرفة فى النهاية عملية صراع. صراع مع الجهل والتجهيل. صراع ـ شأنه شأن أى صراع آخر ـ تكتنفه احتمالات الإخفاق والفشل، وتلوح له احتمالات النجاح والتوفيق وإذا كان الجهل خطرا يهدد ذلك الصراع بالإخفاق، فإن التجهيل ـ أعنى فرض الجهلة ـ أشد خطورة وتهديدا. فالجهل بالشىء لا يعنى بالضرورة كفا لمحاولات معرفته، ولا يفرض قيدا على تلك المحاولات، بل لعله يكون دافعا ـ وهو يكون كذلك بالفعل ـ لبذل المزيد من محاولة المعرفة. أما التجهيل فخطورته إنه محاولة للإيهام بالمعرفة أو لتوهم المعرفة. محاولة قد يتعرض لها الإنسان من قبل الآخرين ممن يحاولون لسبب أو لآخر الحيلولة بينه وبين السعى للمعرفة وتحصيلها فلا يجدون أفضل من إيهامه بأنه يعرف، فينتفى قلقه، ويطمئن لذلك ويستكين. عازفاً عن بذل محاولة جديدة للمعرفة تكلفه جهدا وقلقا. ويمضى متمسكا بما يعرفه، أو بما يتوهم أنه يعرفه رافضا التخلى عنه، مستخلصا منه ما شاء من

تنبؤات، واضعا على أساسه ما شاء من خطط. ثم إذا بكل ذلك يتحطم على صخور الحقيقة.

مهمتنا إذن ــ أعنى مهمة المشتغلين منا بعلوم الإنسان ــ أن نبذل كل مافى طاقتنا لنحقق معرفة صحيحة بواقع الإنسان الإسرائيلى محاولين قدر ما وسعنا الجهد أن نخترق حواجز الجهل وأن نحذر مزالق التجهيل. وصحة معرفتنا بواقع الإنسان الإسرائيلى تتوقف على إتخاذ تلك المعرفة لمسارها الصحيح، أى أن تكون معرفة بما حدث وتفسير له، وتنبوء بما سيحدث، واستعداد له. وذلك يعنى ــ بعبارة أخرى ــ أن الدراسة الموضوعية لواقع الإنسان الإسرائيلى المعاصر لا يمكن أن تكتمل إلا فى ضوء تاريخ ذلك الواقع. أعنى أنه لا بد من قدر من النظر إلى الماضى يكفل فهم الحاضر بحيث يمكن آنذاك استشراف المستقبل، ويواجهنا هنا اختيار صعب، أو على الأصح تواجهنا ثلاثة مزالق للتجهيل ينبغى أن نأخذ حذرنا منها:

أولا: ينبغى أن نحذر من أن يشدنا الماضى بما تتميز به وقائعه من إكتمال بحيث يلهينا عن الحاضر وبالتالى يشوه تصورنا للمستقبل. أعنى أن يجتذبنا «تاريخ» الإنسان الإسرائيلى فنؤمل أن نجد فيه بغيتنا قافزين منه مباشرة إلى التنبؤ بالمستقبل دون أن نولى إهتماما كافيا للحاضر.

ثانيا: ينبغى أن نحذر أيضا من أن يجتذبنا الحاضر بما تتميز به وقائعه من حيوية ظاهرة بحيث يلهينا عن الماضى، ويحد من تصورنا للمستقبل. أعنى أن يجتذبنا الواقع الإسرائيلى المعاصر بما يعتمل فيه من أحداث يومية فنؤمل أن نجد فيه بغيتنا دون أن

نعير انتباها كافيا للماضى. مستخلصين منه مباشرة ما نود استخلاصه من تنبؤ بالمستقبل مما يحد من مدى ذلك التنبؤ.

ثالثا: ينبغى أن نحذر كذلك من أن يجتذبنا المستقبل بما يتميز به من أهمية عملية بحيث يلهينا عن الاهتمام بالماضى ويجعل تفهمنا للحاضر تفهما متسرعا مبتسرا. أعنى أن يشغفنا الحرص على استشراف مستقبل الإنسان الإسرائيلى والتنبؤ به بحيث نندفع إليه مسرعين دون أن نولى اهتماما كافيا لماضى ذلك الإنسان، ودون أن نمعن النظر فى حاضره وبالتالى تكون تنبؤاتنا ضربا من التخمين الذى لا يصمد طويلا أمام الواقع الموضوعى ولا حتى أمام الاختبار العلمى.

لابد لنا إذن من قدر من المعرفة بالماضى، وقدر من المعرفة بالحاضر وقدر من استشراف المستقبل بحيث لا يطغى أى منها على الأخر.

وهناك خطورة أخرى ينبغى أن ننتبه لها ونحذرها. إن هدفنا النهائى هو أن نلقى الضوء قدر ما نستطيع على الطابع العام لتصرفات الأفراد الإسرائيليين فى المستقبل. ولكن من الذى يملك التنبوء العلمى بذلك المستقبل؟ إن الأفراد فى أى مجتمع إنما يتصرفون استجابة لواقع اجتماعى معين، وكلما تغير ذلك الواقع الاجتماعى —وهو متغير دوما— تغيرت تصرفاتهم حياله ومن خلاله. على من إذن تقع مهمة تقديم التصور العلمى لمستقبل الواقع الاجتماعى الإسرائيلى؟ أى بعبارة أخرى على من تقع مهمة تقديم التصور العلمى لمستقبل إسرائيل كظاهرة؟ ينبغى أولاأن نحذر من أن ننزلق إلى القول —إدعاءاً— بأنها مهمتنا نحن المشتغلين بعلم النفس. فهى ليست بمهمتنا وحدنا، ولا ينبغى لنا أن ندعى غير ذلك ولا حتى أن نطمح إليه. إنها مهمة العلوم

الإنسانية جميعا. علينا جميعا أن تخوض التجربة وتتبع نفس الطريق. على المشتغلين بعلم الاقتصاد أن يقدموا تصورهم الموضوعى لمستقبل الاقتصاد الإسرائيلى. وعلى المشتغلين بعلم السياسة أن يقدموا لنا تصورهم الموضوعى للمستقبل السياسى للتجمع الإسرائيلى. ثم علينا أن نقدم تصورنا الموضوعى لاحتمالات سلوك الإنسان الإسرائيلى مستقبلا (١).

إن واجب الموضوعية العلمية يقتضينا أن نحذر أنفسنا من الانزلاق إلى إدعاء مهمة تتجاوز حدود تخصصنا العلمى، وواجب الأمانة العلمية يقتضينا أن نحذر غيرنا من الركون إلى ما قد نستطيع تقديمه من تنبؤات باعتبارها تنبؤات بمستقبل «إسرائيل» وهى لا تعدو ــ انصافا وحقا ــ إن تكون محاولة للتنبؤ باحتمالات سلوك الإنسان الإسرائيلى فى المستقبل الذى لا يملك تخصص علمى بمفرده إمكانية طرح تصور موضوعى له.

تبقى بعد ذلك مشكلة هامة تعترض الباحث فى العلوم الإنسانية بعامة وفى علم النفس بوجه خاص ــ وتعترض بالتالى تناولنا لما نحن بصدده. إن العلم مهما كان مجال تخصصه إنما يهدف إلى التوصل إلى القوانين العامة التى تحكم ما يتناوله من ظواهر كصيغة لتنبؤه بمستقبل تلك الظواهر. وإذا كان ذلك لا يعد مشكلة بارزة فى مجال العلوم الطبيعية فهو يمثل مشكلة ينبغى التنبه لها فى مجال العلوم الإنسانية.

---

(١) انظر: قدرى حفنى «تأملات سيكلوجية حول حرب أكتوبر»
حرب أكتوبر: دراسات فى الجوانب الاجتماعية والسياسية
القاهرة: المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ومركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بمؤسسة الأهرام، ١٩٧٤، ص٩٧ ــ ١١٥.

فالبشر أفراد أولا وأخيرا، وعمومية القانون تعنى بصورة أو بأخرى نفى أو تنحية الفروق الفردية ومن الناحية الأخرى فإن الإغراق فى تناول الفروق الفردية يعنى فى النهاية إهدار لعمومية القانون وبالتالى تقييدا لإمكانية التنبؤ. إنه اختيار صعب آخر. اختيار بين التعميم والتخصيص. ولابد [illegible] أخرى من قد من هذا وقدر من ذاك. لا بد من تجنب الإغراق فى الإهتمام بالتجمعات البشرية الصغيرة التى يمتلىء بها التجمع الإسرائيلى، حتى لا تغرقنا التفاصيل فتحد من عمومية ما قد نصل إليه من تنبؤات ولا بد أيضا من أن نحذر الإغراق فى التعميم حتى لا نصل إلى تصور لذلك التجمع الإسرائيلى المليء

اختيار الأسلوب

هدفنا إذن هو محاولة تحقيق أكبر قدر من الفهم العلمى الموضوعى «للشخصية الإسرائيلية» ودون دخول فى التفاصيل الفنية المعقدة لمفهوم «الشخصية» فإن ما نعنيه ببساطة هو أن نتوصل إلى العوامل السيكلوجية الاساسية التى تحدد سلوك رجل الشارع الإسرائيلى، واضعين فى اعتبارنا –قدر ما نستطيع– كافة ما سبق أن أشرنا إليه من مزالق ومخاطر تكتنف مهمتنا، خاصة ذلك المنزلق المتعلق بمحاولة الوصول إلى قدر من التوازن بين العمومية والخصوصية، أى بالتحديد ألا ننسى أن ما أطلقنا عليه اصطلاح «رجل الشارع الإسرائيلى» ليس فى الحقيقة رجلا واحدا، ولا حتى مجموعة واحدة بل مجموعات شتى

لقد اجتذبت قضية «سيكلوجية الشعوب» اهتمام علماء النفس منذ زمن بعيد [1]. بل لعل ذلك الاهتمام قد بدأ حقيقة خارج نطاق علم النفس كما نعرفه، وبالتحديد فإنه قد بدأ فى تخصص آخر غير تخصص علم النفس هو علم الانثروبولوجيا. أو بتحديد أكثر فى ذلك الفرع من الانثروبولوجيا الذى يهتم بدراسة الشعوب البدائية. ولكن سرعان ما

---

(١) انظر معالجة تفصيلية لتاريخ البحث فى سيكلوجية الشعوب، قدرى حفنى دراسة سيكلوجية فى الشخصية الإسرائيلية: الاشكنازيم رسالة دكتوراه، كلية الأداب – جامعة عين شمس، ١٩٧٤.

تخطى ذلك الاهتمام نطاق الانثروبولوجيا إلى علم النفس، كما تخطى مجال ذلك الاهتمام الشعوب البدائية ليشمل الشعوب الحديثة. ورأينا العديد من الدراسات التى تهدف إلى فهم سيكلوجية الشعب الألمانى أو الصينى أو اليابانى أو السوفيتى إلى آخره. ولم يبق الأمر قاصرا على مجرد الاهتمام النظرى الأكاديمى -ولم يكن ممكنا أن يستمر كذلك- بل سرعان ما تخطت تلك الدراسات أسوار الجامعات والأكاديميات العلمية لتخدم أغراضا عملية تطبيقية كانت محدودة فى البداية ثم لم تلبث أن اتسع نطاقها وتشعبت أوجه الإستفادة منها. ولعلنا لا نعدو الحقيقة اذا ما قلنا أن دراسات «سيكلوجية الشعوب» قد أصبحت بالفعل سلاحا حربيا هاما وحاسما ونعنى بالحرب هنا الحرب المسلحة لا ما يطلق عليه اصطلاحا الحرب النفسية، ولقد استخدم ضدنا هذا السلاح وعلى هذا المستوى بالتحديد فى مواجهتنا مع إسرائيل عام ١٩٦٧، وهو استخدام يستحق أن ننعم فيه النظر. لم يكن ذلك السلاح سرا عسكريا استطاعت مخابرات العدو أن تظفر به منا. ولم يكن صاروخا ولا طائرة ولا قنبلة. لم يكن سوى «سمة سلوكية» يكمن جذرها السيكلوجى فى أعمق أعماق تصرفاتنا اليومية البسيطة، أعنى سمة التشاؤم والتفاؤل. لقد اعتدنا أن نكره من يأتى إلينا بخبر سيىء، وأن نتحاشاه ونتجنبه، ونشيح عنه بوجوهنا، ومن الناحية الأخرى فقد اعتدنا أن نكره أن نحمل نحن خبراً سيئاً، وأن يتردد المرء منا كثيرا في أن يكون «نذير شؤم».. سلوك يبدو بسيطا نقدم عليه بلا غضاضة ودون أن نقف أمامه كثيرا. بل أننا كثيرا ما نقدم -بوعى أو بدون وعى- على تشجيع وتدعيم مثل تلك الاتجاهات على نطاق الأسرة بل وعلى نطاق المجتمع أيضا. «وسمة سلوكية» أخرى تبدو أيضا وكأن لاخطر لها بل لعل البعض قد يعتبرها مدعاة

للتفاخر، أعنى الخوف المفرط من الوقوع فى الخطأ. الخوف من المحاولة. سلوك ترسب فى أعماقنا نتيجة لخبرات يومية طويلة استمرت لمئات بل لألاف السنين، حتى أصبحنا نكاد نربى أبناءنا على تحاشى المحاولة والتجربة خوفا من الخطأ المحتمل «اذا ما صادفك موقف جديد.. أسأل قبل أن تتصرف» هذا هو ما نقوله لأطفالنا، وما قاله كبارنا لنا. وهو أمر يبدو لا غبار عليه وسلوك يبدو وكأنه أقرب إلى السلامة. ولعلنا أيضا نقدم — بوعى أو بدون وعى — على تدعيم مثل ذلك السلوك سواء على نطاق الأسرة أو على نطاق المجتمع. سمتان سلوكيتان بسيطتان، ولا يمكن اعتبارهما بحال سرا من الأسرار العسكرية، بل لا يمكن للوهلة الأولى تصور أنه يمكن أن تكون ثمة علاقة بينهما وبين أسلحة القتال. ولكن فلننظر إلى قول موردخاى هود قائد الطيران الإسرائيلى وهو يتحدث مفسرا إقدامه على «المغامرة» بإرسال الطائرات الإسرائيلية كلها تقريبا لمهاجمة الطائرات المصرية تاركا إسرائيل دون غطاء جوى، يقول: «لقد كان رأى خبرائنا أن الصورة لن تكتمل أمام من يملكون حق التصرف من القادة العسكريين فى مصر قبل نصف ساعة، وإنه سيمض نصف ساعة آخر قبل أن يقرر هؤلاء القادة العسكريون ماذا سيفعلون، وهذه الساعة كانت كل آمالنا وعلى أساسها تم ترتيب كل توقيتات خططنا» (٧٣ ص ٢٤٦)
لقد أقدم على المغامرة إذن وأمامه هاتان السمتان السلوكيتان التباطؤ فى إبلاغ الأنباء السيئة، والتردد فى التصرف حيال المواقف الجديدة. ذلك هو تفسيرنا لحديث موردخاى هود ونحن نختلف فى هذا التفسير مع القول بإن ذلك التباطؤ وذلك التردد لا يعدو أن يكون نوعا من «نقص الانضباط» فنحن نرى أن نقص الانضباط هذا ما هو إلا مظهر لسمات سلوكية أعمق جذوراً وأبعد تأثيراً ويكفى أن نتصور أن نبأ

طيبا قد حل محل نبأ الهزيمة. ألن يتخذ «نقص الانضباط» أنذاك طابع الإسراع فى التبليغ، بل الإسراع فى التصرف أيضا؟ ذلك هو الأكثر احتمالاً فالموقف آنذاك لم يكن ليعد بالموقف الجديد بل إنه الموقف الذى كان متوقعا.

إلى هذا الحد بلغت خطورة الدراسات السيكلوجية للشعوب، وليس غريبا والأمر كذلك أن تحظى بقدر كبير من إهتمام علماء النفس وغيرهم. ولو ألقينا نظرة فاحصة على القدر المتاح لنا من تلك الدراسات —وهو قدر كبير— بهدف استخلاص الخطوط المنهجية العامة التى اتبعها من تناولوا هذا الموضوع من الباحثين، لوجدنا أولا أن فى استطاعتنا أن نقسم تلك الدراسات إلى قسمين أساسيين متميزين:

أولا: دراسات قام بها باحثون ينتمون إلى نفس المجتمع القائمين بدراسته، أو على الأقل يقيمون فيه خلال دراستهم له. وهم بذلك يستطيعون استخدام ما يرونه ملائما لدراستهم من أدوات ووسائل تعتمد جميعها —غالبا— على الاتصال المباشر بأبناء ذلك المجتمع. فلهم أن يستخدموا ما شاءوا من اختبارات لقياس الاتجاهات ولقياس القيم السائدة وما إلى ذلك. ونستطيع أن نطلق على تلك المجموعة من الدراسات إسم «الدراسة عن قرب».

ثانيا: لدينا مجموعة أخرى من الدراسات قام بها باحثون لا ينتمون مطلقا إلى المجتمع الذى يدرسونه. ليس هذا فحسب بل غالبا ما يكون هناك ما يحول تماماً حتى دون مجرد اقترابهم من ذلك المجتمع اقتراباً مادياً مباشراً. وغالباً —أيضاً— ما تكون الحاجة إلى مثل ذلك النوع من الدراسات أكثر إلحاحاً وأشد خطراً.

وليس على الباحث إلا أن يقدم على دراسة ذلك المجتمع دون أن يحاول الاقتراب منه ، ولذا فلنا أن نطلق على تلك المجموعة من الدراسات التى تستهدف أيضا دراسة سيكلوجية الشعوب باسم «الدراسة عن بعد».

وتدخل دراستنا بطبيعة الحال فى نطاق المجموعة الثانية ، أعنى أنها لا بد وأن نكون دراسة عن بعد. ويبدو أنه من الأنسب والأمر كذلك أن نركز نظرتنا الفاحصة على القدر المتاح لنا من ذلك النوع من الدراسات بهدف استخلاص الخطوط المنهجية العامة التى اتبعها من تناولوا هذا الموضوع ، وما استخدموه من أدوات ، وما صادفوه من عقبات .

لقد فرضت طبيعة هذا النوع من الدراسات أساليباً محددة لتناول المادة بل إنها قد تركت أثرها أيضا على مناهج الباحثين واتجاهاتهم فى تفسير ما يصلون إليه من نتائج .

ومن أبرز الأساليب التى اتبعتها تلك الدراسات نستطيع أن نذكر سبعة أساليب هى : —

أولا : أسلوب دراسة التاريخ :

قد يقف الباحث ، وقد أعيته وسائل الاقتراب من المجتمع الذى يود دراسته ، وانقطعت سبل اتصاله به ، فلا يجد أمامه أنسب من تتبع تاريخ ذلك المجتمع ، مبتعدا فى تتبعه إلى أقصى ما يستطيع ومقتربا إلى النقطة التى حيل فيها بينه وبين الاقتراب منه محاولا — قدر المستطاع — أن يستنتج ما يجرى داخل ذلك المجتمع ، وما سوف يجرى فيه مستقبلا من خلال تصوره لامتدادات ما حدث فى تاريخه قبل ذلك مرتبا على استنتاجاته

وتنبؤاته تصورا لسيكلوجية شعب ذلك المجتمع. ويواجه مثل ذلك الأسلوب باعتراضات عديدة أهمها اعتراضين:

ـ إن التاريخ لا يسير فى خطوط مستقيمة وبالتالى لا يمكن لأحد اعتمادا على التاريخ وحده ومهما بلغت دقة دراسة ذلك التاريخ أن يستنتج احتمالات المستقبل بقدر كاف من الدقة.

ب ـ إن ذلك الأسلوب يصبح مضللا تماما فى حالة محاولة تطبيقه لفهم المجتمعات حديثة التكوين أو ما يمكن أن نطلق عليه اصطلاح «المجتمعات المصنوعة» كالمجتمع الإسرائيلى مثلا. فمحاولة استخدام مثل ذلك الأسلوب حينئذ يعنى تسليم الباحث ابتداء ودون مناقشة بأن لذلك «المجتمع المصنوع» تاريخه كمجتمع. وهى قضية لا يجب التسليم بها ببساطة وإلا انزلق الباحث إلى محاولة اصطناع تاريخ لذلك المجتمع المصنوع. أو بعبارة أخرى محاولة إفتراض وجود امتداد تاريخى قديم لذلك المجتمع وذلك هو ما نجده بالفعل فى عدد من الدراسات عن المجتمع الإسرائيلى، ولسوف نتعرض لذلك فيما بعد.

ثانيا: أسلوب دراسة العنصر البارز:

قد يلجأ الباحث فى سبيل محاولته النفاذ «عن بعد» إلى جوهر المجتمع الذى يستهدف دراسته إلى انتقاء عنصر بارز من عناصر التكوين الحضارى للمجتمع المعين وغالبا ما يكون ذلك العنصر نوعا من الايديولوجية التى يعلن ذلك المجتمع عن تبنيه لها وإن لم يكن ذلك هو الحال دائما حيث يلجأ بعض الباحثين

إلى إنتقاء ذلك العنصر من خلال طبيعة المجتمع الأيكولوجية أو المناخية أو ما إلى ذلك. ويركز الباحث جهده واهتمامه على كل ما يستطيع تجميعه من بيانات تتصل بذلك العنصر وآثاره المتعددة على الشخصية بشكل عام وليس بطبيعة الحال على مكونات الشخصية فى ذلك المجتمع بالتحديد الذى لا يستطيع منه اقترابا. ويمضى الباحث محاولا أن يقيم تصوره للبناء السيكلوجى لذلك الشعب على فهمه المتعمق ــ بدرجة أو بأخرى ــ لطبيعة ذلك العنصر الذى يسلم إبتداء بأنه العنصر الحاسم فى تكوين ذلك الشعب. ومن أبرز العناصر التى تناولتها دراسات من ذلك النوع عنصر الايديولوجية الاشتراكية مثلا كمدخل لفهم سيكلوجية الشعوب التى تعتنق تلك الايديولوجية. وعنصر الايديولوجية النازية كأساس لفهم سيكلوجية الشعب الألمانى. وكذلك عنصر الديانة التى يعتنقها شعب معين كسبيل لفهم سيكلوجية ذلك الشعب، كمحاولة اتخاذ دراسة الديانة البوذية بفرعيها ــ الماهايانية والهينايانية ــ أساسا لفهم سيكلوجية عدد من الشعوب كالشعب اليابانى والصينى وما إلى ذلك. ويؤخذ على مثل ذلك الاتجاه عدد من المآخذ أهمها:

أ ــ إن إنتقاء الباحث لعنصر بالذات ــ مهما بلغت أهمينه ــ ومحاولة تفسير التكوين السيكولوجى المعقد لشعب من الشعوب من خلال ذلك العنصر فحسب، إنما يؤدى إلى عزل ذلك العنصر ــ فى ذهن الباحث ــ عن بقية عناصر التكوين الحضارى فى المجتمع المعين. ولما كانت عناصر ذلك التكوين تعمل جميعا فى تفاعل دينامیکی وفى وقت

واحد، فإن عملية العزل هذه تهدد ولا شك الأساس الموضوعى لما قد يصل إليه الباحث من نتائج.

ب — إن ذلك الموقف الانتقائى من الباحث يؤدى به غالبا إلى تجميد حركة التاريخ عند نقطة معينه هى تلك التى تشكل عندها ذلك العنصر المنتقى وبلغ أوجه. وإذا بكل ما تلا تلك النقطة يصبح — لدى الباحث — مجرد تكرار لها أو وقوف عندها، وليس ذلك بطبيعة الحال من الحقيقة أو الموضوعية فى شىء

جـ — إن الباحث باختياره للعنصر الذى سوف يتخذه سبيلا لتحقيق بغيته، إنما يفرض علينا أن نسلم معه بأن ذلك العنصر هو العنصر الحاسم فى التكوين الحضارى — وبالتالى التكوين السيكلوجى لذلك الشعب، وهو أمر يجب أن يخضع أولا لكثير من التمحيص وإمعان النظر.

ولعل إطالتنا الحديث عن ذلك الأسلوب بالذات إنما ترجع إلى ما يتخذه من أهمية خاصة فيما نحن مقدمون عليه من محاولة للنفاذ إلى التكوين السيكولوجى الإسرائيلى. فلقد لجأ عدد من الباحثين العرب — فضلا عن غيرهم بطبيعة الحال — إلى انتقاء الديانة اليهودية كعنصر يفسرون من خلاله التكوين السيكلوجى الإسرائيلى المعاصر. ويكفى أن نقتبس من باحث مصرى معاصر عبارة تكاد تكون تعبيرا حرفيا عما نقصده، إذ يقول فى مقدمة بحث له عن الشخصية الإسرائيلية: «ونحن نركز هنا على مصدر نعتقده أهم المصادر لدراسة الشعب الإسرائيلى من حيث أن هذا المصدر هو منبع كل حركة

وأصل كل سلوك اسرائيلى لدى كل نظر سليم. وهذا المصدر هو الدين اليهودى باعتباره عقيدة لها معالمها الخاصة وشريعة لها آثارها الواضحة فى الحياة الإسرائيلية على مر العصور» (٦٧ ص ٨) ثم لا يلبث أن يقول فى موضع آخر متحدثا عن الدين اليهودى «هذا الدين هو الذى نؤكد أنه المنبع الأول لفهم الشخصية الإسرائيلية» (٦٧ ص ٤١) ويذكر باحث آخر بوضوح كامل «سبيلنا إذن إلى فهم اليهود سيكون بالرجوع إلى التراث الذى خلفوه وأول مصادر هذا التراث هو التوراة» (٦٩ ص ٢١). وليست تلك سوى أمثلة سقناها على سبيل الاستشهاد لا الحصر. والحقيقة -فيما نرى- أن ذلك الاتجاه فى التناول بالتحديد قد أصبح بمثابة النغمة الرئيسية السائدة لدينا فى نظرتنا إلى التكوين السيكلوجى الإسرائيلى. ولا شك لدينا فى أن الدين يلعب دوراً هاما لايمكن إنكاره فى ذلك التكوين، ولكن النظر إليه باعتباره منبعا لكل حركة «واصلا لكل سلوك إسرائيل» «وسبيلا إلى فهم اليهود» هو ما نعتبره -فيما نرى تحميلا للأمور بأكثر مما تحتمل، واقتصارا على عامل واحد ليس هو بحال، العامل الأساسى فى فهم التكوين السيكلوجى الإسرائيلى.

ثالثا: أسلوب دراسة الانتاج الأدبى:

وهو أسلوب شائع إلى [illegible] بير فى تلك الدراسات التى تهدف إلى فهم سيكلوجية [illegible]. ويقوم ذلك الأسلوب على التسليم بإن الإنتاج [illegible] شعب من الشعوب لا بد وأن يعكس بحكم طب[illegible] لخلق الأدبى نفسها قدرا من المكونات السيكلوجية [illegible] لك الشعب. وذلك الافتراض

فى مجمله صحيح تماما . ولدينا بالفعل دراسات عديدة اتخذت ذلك السبيل وتوصلت إلى قدر معقول من النتائج ولعل أقرب الأمثلة إلى موضوعنا تلك الدراسة التى نشرها هار كابى مدير المخابرات الإسرائيلى السابق عام ١٩٦٧ بعنوان « العوامل الأساسية فى هزيمة العرب خلال حرب الأيام الستة » والتى ذهب فيها إلى « أن ضعف الروابط الإجتماعية بين العرب وانعدام تماسكهم الاجتماعى هو السبب الذى أدى إلى هزيمتهم على أرض المعركة » (٧٤) مستعينا فى التدليل على ذلك بتحليل مضمون الأدب العربى القصصى الحديث . وقد استخلص الصورة السائدة للبطل فى هذا الأدب ، وتبين له أنه يتسم بالانعزال عن أقرانه وأن شعور الاغتراب يهيمن على عالمه النفسى . (٧٤) .

والإعتراض الأساسى الموجه إلى مثل هذه الدراسات هو إنه ليس أمامها إلا أن تقصر إهتمامها على المنشور من ذلك الأدب مهملة ما هو موجود بالفعل من إنتاج أدبى غير منشور لا يستطيع الباحث الذى يدرس المجتمع عن بعد أن يصل إليه . ولا يمكننا بحال أن نسلم بأن للأدب المنشور نفس خصائص الأدب غير المنشور وإلا ببساطة لما كان هناك أصلا مثل ذلك التقسيم . ولما كان « الأدب المنشور ــ بالرغم من أهميته الكبرى فى التحليل الاجتماعى ــ ليس عينة ممثلة للانتاج الأدبى فى حقبة تاريخية ما » (٧٤) فإن لنا أن نتوقع ألا تكون نتائج تحليله ذات أهمية كبيرة يمكن الركون إليها فى محاولة الوصول إلى فهم للتكوين السيكولوجى لشعب من الشعوب .

رابعاً: أسلوب تحليل مضمون الاتصال:

ويعنى إتباع ذلك الأسلوب أن يعمد الباحث إلى تحليل مضمون ما يسمى بمادة الاتصال. ولسنا بصدد الخوض فى تفاصيل طرق ذلك التحليل وهى عديدة متنوعة. ويكفينا أن نوضح ما يعنيه أصحاب ذلك الاتجاه من تعبير «مادة الاتصال». يتكون المجتمع الإنسانى من أفراد يشكلون بدورهم جماعات تختلف من حيث الحجم وطبيعة النشاط ومدى التأثير وأساليب الانتماء إلى آخره. وتقوم بين أفراد المجتمع الانسانى وبعضهم، وكذلك بين ما يضمه ذلك المجتمع من جماعات فرعية وبعضها طرقا للاتصال المتبادل، أو لنقل الأفكار والتأثيرات واستقبالها. ونعد اللغة من أهم طرق الاتصال هذه وأبعدها تأثيراً وإن لم تكن الطريق الوحيد وهناك من طرق الاتصال ماهو قاصر على الربط بين الأفراد وبعضهم، ومنها ما يمتد ليربط بين الجماعات وبعضها، ومنها كذلك مايقوم بوظيفة نقل الأفكار والتأثيرات على نطاق المجتمع ككل كالإذاعة والتليفزيون والصحف والسينما وما إلى ذلك. تلك هى «طرق الاتصال» أما مادة الاتصال فالمقصود بها تلك المادة التى تجرى فى طرق الاتصال هذه. وتناول تلك المادة هو ما يسمى بتحليل مضمون الإتصال.

وبذلك فإن مهمة الباحث الذى يتخذ من هذا الأسلوب وسيلة له ستكون نوعا من التسمع ـ اذا صح التعبير ـ على ما يجرى فى المجتمع المعين. وليس ذلك مجرد تشبيه فالعملية تقتضى فى كثير من الأحيان تسمعا فعليا إذا ما كان التحليل منصبا على المادة المذاعة وكثيرا ما يكون الأمر كذلك،

والفكرة الأساسية الكامنة وراء ذلك المنهج هى أن مادة الإتصال تحمل من الخصائص الجوهرية للتكوين السيكلوجى المشترك للمجتمع المعين ما يمكن التوصل إليه بدقة إذا ما خضع ذلك التحليل لأسلوب علمى موضوعى دقيق. ولقد تمت بالفعل دراسات عديدة استخدم فيها هذا الأسلوب بصور شتى تعددت فيه أساليب التحليل، كما تعددت أيضا صور المادة المحللة أعنى «مادة الاتصال» من برامج إذاعية إلى صحف إلى أغانى إلى مسرحيات إلى أفلام سينمائية وما إلى ذلك.

والاعتراض الجوهرى الموجه إلى مثل ذلك الأسلوب هو أننا إذا ما تناولنا بالتحليل شريحة معينة من مادة الأتصال فى فترة زمنية محددة، ومهما بلغ تحليلنا من الدقة والنفاذ، فإنه لن يعدوا أن يكون تحليلا لجانب واحد من جوانب الاتصال هو جانب الإرسال، بمعنى أن غاية ما يمكن أن يوصلنا إليه هذا الأسلوب هو معرفة نوع الأفكار والتأثيرات التى تود جماعة من جماعات المجتمع أو تنظيم من تنظيماته أن تطبع بها ذلك المجتمع. ويبقى أن نعرف استجابة الأفراد الذين تستهدف مادة الإتصال التأثير فيهم. ولعل ذلك هو الجانب الأهم والأكثر خطرا وهو فى نفس الوقت الجانب الذى لا يستطيع ذلك الأسلوب الوصول إليه.

خامساً: أسلوب دراسة المقتربين:

لايوجد ثمة مجتمع منفصل عما يجرى خارجه منغلق على نفسه تمام الانغلاق. فمهما بلغت درجة حرص المجتمع ـ لسبب أو لآخر ـ على إحاطة ما يجرى داخله بسياج من السرية فإن ذلك السياج يتعرض أحيانا لشيء من الخلخلة نتيجة لعديد من الظروف. وفى هذه الحالة قد نجد لدينا جماعة يمكن أن نسميها

جماعة المقتربين بمعنى أنهم أولئك الذين أتيح لهم نتيجة لظرف أو لآخر الاقتراب من ذلك المجتمع والنفاذ إليه لفترة تطول أو تقصر. وليس على الباحث حينئذ إلا أن يسارع إلى هؤلاء المقتربين محاولا أن يستخلص من مشاهداتهم وأحاديثهم ولقاءاتهم داخل ذلك المجتمع ما يتيح له تكوين صورة عن التكوين السيكلوجى لذلك الشعب. ولعل أقرب الأمثلة إلى مجال بحثنا هو ما بذله العلماء الأمريكيون من محاولة للتعرف على بعض السمات الرئيسية التى تميز شعوبا أخرى كالشعب الكورى أو الفيتنامى أو السوفيتى مثلا من خلال إجراء مقابلات منعمقة مع الجنود الأمريكيين الذين قضوا فترة كأسرى حرب داخل حدود تلك الدول، أو مع أفراد أمريكيين أيضاً كانوا يقيمون فى تلك المجتمعات ثم غادروها أو أبعدوا منها لسبب أو لآخر. وتتركز أهم الإعتراضات الموجهة إلى ذلك الأسلوب فى نقاط ثلاث:

أ ــ إن ذلك الأسلوب يعتمد فى النهاية على قدرة أولئك الأفراد المقتربين على التعبير عن أفكارهم، فضلا عن قدرتهم على التقاط ما له دلالة من مظاهر السلوك التى أتيح لهم رؤيتها والتجاوز عن سواها، ذلك بالإضافة إلى قدرتهم على التذكر. وكل تلك القدرات وغيرها موضع شك لدى البشر عموما، فكيف بها إذا وضعنا فى الاعتبار طبيعة خبراتهم فى تلك المجتمعات وهى ــ غالباً ــ خبرات مؤلمة أشد الألم؟ ألن يكون ذلك أدعى للتأثير على تلك القدرات؟.

ب ـ إن طبيعة إقامة هؤلاء فى تلك المجتمعات تفرض عادة أن تكون الاتصالات التى يتاح لهم إقامتها مع أبناء تلك المجتمعات، اتصالات محدودة ومصنوعة. بمعنى أنه فى حالة الأسرى مثلا لا يتاح لهم إلا الاتصال بفئة محددة من المجتمع فضلا عن أنه حتى تلك الاتصالات المحدودة لا تكون اتصالات طبيعية تلقائية بل اتصالات مصنوعة مخططة سلفا من الجانب الآخر.

جـ ـ إن مدة إقامة هؤلاء المقتربين فى تلك المجتمعات لا تبلغ من الطول ـ عادة ـ ما يتيح لنا قدرا معقولا من الإطمئنان إلى ما يستخلصونه خلالها.

سادسا: أسلوب دراسة المنعزلين:

وهو الأسلوب المقابل بشكل ما لأسلوب دراسة المقتربين. ففى ذلك الأسلوب الأخير ـ أعنى أسلوب دراسة المقتربين ـ كان الباحث يستقى معلوماته من أفراد ينتمون إلى نفس مجتمعه هو أو على الأقل لا ينتمون للمجتمع الذى يرغب فى دراسته. أما إذا ما اتبع الباحث أسلوب دراسة المنعزلين فإنه سوف يتجه فى استقاء معلوماته إلى أفراد من المجتمع الذى يستهدف دراسته، أو على الأصح كانوا ينتمون إليه وانقطعت صلتهم به لسبب أو لآخر ومضت على ذلك الانقطاع فترة تزيد أو تقل. كأن يقدم العلماء الأمريكيون مثلا ـ كما حدث بالفعل ـ على دراسة المكونات الرئيسية لسيكلوجية الشعب الصينى من خلال دراستهم لأبناء الحى الصينى فى نيو يورك مثلا. أو أن يقدم العلماء الأمريكيون ـ كما حدث بالفعل

أيضاً ــ على محاولة تبين معالم «الشخصية الكورية» من خلال دراستهم لسلوك الأسرى الكوريين.

ويؤخذ على ذلك الأسلوب بعامة إنه يفترض مقدما أن من يقوم بدراستهم يمثلون أفراد المجتمع الأصلى بدرجة تسمح للباحث أن يعمم النتائج التى يخلص إليها من دراسته لهم على أفراد ذلك المجتمع. وليس ذلك ــ فيما نرى ــ من الصحة فى شيء. فمجموعة الأفراد الذين كانوا ينتمون لمجتمع معين ثم نزحوا منه لسبب أو لآخر وأقاموا فى مجتمع آخر ــ واستقر بهم المقام فى مجتمعهم الجديد لا يمكن بحال أن يمثلوا أبناء مجتمعهم الأصلى لسبب بسيط يكمن فى مجرد نزوحهم منه فذلك النزوح من حيث دلالته السيكلوجية إنما يعنى أن سمات تلك الجماعة لا تتفق مع السمات الشائعة المشتركة بين أبناء المجتمع الأصلى بل أن ذلك الاختلاف قد يكون فى كثير من الأحيان أحد الأسباب التى أدت بهم إلى الأقدام على النزوح.

أما إذا انصبت دراسة الباحث على الأسرى، فالأعتراض يظل قائما، صحيح أن الشقة الزمنية لم تبعد كثيرا بهؤلاء عن مجتمعهم، وصحيح كذلك أنهم «لم ينزحوا من مجتمعهم مختارين». ولكنهم فى النهاية لا يمثلون ــ ولا يمكن لهم أن يمثلوا ــ سوى قطاع واحد محدد من أبناء ذلك المجتمع له خصائصه المحددة من حيث السن والنوع ومستوى اللياقة البدنية وما إلى ذلك ــ أى أنهم بعبارة أخرى، وإذا ما استخدمنا الاصطلاح الفنى ليسو سوى عينة متحيزة وليسو بالعينة الممثلة للمجتمع بأى حال.

سابعا: أسلوب دراسة التراث:

وفى هذه الحالة يستعيض الباحث عن اقترابه من المجتمع الذى يسود دراسته، بأن يعكف على فحص وتحليل النتائج التى توصل [illegible] غره من الباحثين الذين سمحت لهم ظروفهم بدراسة [illegible] مجتمع عن قرب. وهى محاولة مشروطة بشروط [illegible] سرطان:

١ ــ [illegible] يكون هناك دراسات كافية عن ذلك المجتمع وأن يكون فى استطاعة الباحث الحصول عليها.

٢ ــ أن يلتزم الباحث الحذر إلى أقصى حد خشية أن تضلله ما قد تحمله تلك الدراسات من تحيز أو قصور.

ذلك هو تصورنا وتصنيفنا لأهم الأساليب التى اتبعها الباحثون الذين تصدوا لمثل ما نحن بصدده. وهو تصنيف اجتهادى سواء من حيث التقسيم أو من حيث غالبية المسميات وحاولنا قدر ما وسعتنا المحاولة أن يكون شاملا وموضوعيا وعلى أى حال فلم يكن ممكنا ــ فيما نرى ــ أن نبدأ بحثنا دون أن نقدم على تلك المحاولة لنستبين طريقنا، وحتى يكون جهدنا من الناحية المنهجية متصلا بالجهود التى سبقته ولا نقول امتدادا لها.

وينبغى أن نشير أولا إلى أن ذلك التصنيف الاجتهادى لا يعنى بحال أن العالم أو مجموعة العلماء الذين كانوا يتصدون لبحث من هذا النوع كانوا يقصرون محاولتهم على إتباع أسلوب واحد دون آخر من تلك الأساليب التى أشرنا إليها، بل إن ما كان يحدث عادة هو إتباع أكثر من أسلوب فى بحث نفس المشكلة على أمل أن ينجح تجميع عدد من الأساليب معا فى تلافى أو فى تقليل مثالب كل أسلوب على

حدة. وكان ما يحدد عدد الأساليب المتبعة فى النهاية هو ــ غالبا ــ طبيعة المادة المتاحة للباحث فضلا عن اتجاهه الفكرى المسبق بطبيعة الحال.

ولنا بعد ذلك ملاحظة عامة تشمل غالبية تلك الأساليب وهى أنها إذا ما أحسن استخدامها وأمكن تلافى مثالبها قدر الإمكان سوف تتيح لنا وصفا للتكوين السيكلوجى الراهن لأبناء المجتمع الذى يستهدف الباحث دراسته أو بالتحديد الدقيق لجيل الراشدين منهم فى أغلب الأحيان ــ وبناء على ذلك الوصف وبقدر ما يتمتع به من صدق وموضوعية يمكن للباحث التنبؤ بسلوك أبناء ذلك الجيل مستقبلا فى ظل ظروف معينة. ولتلك النتيجة فائدتها التطبيقية بلا شك ولكنها فائدة تنتهى بإنتهاء ذلك الجيل أو بتعبير أدق بذبوله وتنحيه عن الضوء. وإذا ما جاز لنا أن نستعير تعبيرا سياسيا فإن مثل ذلك التنبؤ لا يمكن أن يكون سوى تنبؤ تكتيكى محدود المدى زمنيا.

ترى أليس ثمة طريق يمكننا من الوصول إلى قدر أكبر من التنبؤ؟ أو إذا ما استعرنا لغة السياسة مرة أخرى أليس ثمة طريق يمكننا من تنبؤات أقرب إلى الاستراتيجية أليس ثمة طريق يمكننا من خلاله أن نضع أيدينا ولو بقدر ما على تصور للمستقبل الاستراتيجى للتكوين السيكلوجى لشعب من الشعوب؟ فلنستبعد مؤقتا التفرقة بين الدراسة عن بعد والدراسة عن قرب. ولنفترض أنه قد أتيح لنا أن ندرس عن قرب مجتمعا ما، محاولين التوصل إلى فهم عميق لأسس التكوين السيكلوجى لأبنائه بهدف التنبؤ بالمسار الاستراتيجى لذلك التكوين مستقبلا. ولنفترض أيضا أنه قد أتيح لنا أن نختار ما شئنا من

الوسائل التى نراها كفيلة ببلوغنا تلك الغاية. أن علينا آنذاك أن نحقق هدفين محددين:

أولا: توفير ذلك الفهم الموضوعى العميق لأسس التكوين السيكلوجى للجيل الراهن

ثانيا: توفير قدر ما من التنبؤ الموضوعى بما سيكون عليه التكوين السيكلوجى للأجيال القادمة. ولابد من الإشارة أولا إلى أن الفهم الموضوعى للسمات الرئيسية للتكوين السيكلوجى للجيل الراهن –وهو شرط تنبؤنا بمسار ذلك التكوين مستقبلا– لا يمكن أن يتأتى على الوجه الأكمل إلا بفهم موضوعى أيضا لتاريخ ذلك الجيل.

ومن ناحية أخرى لا بد من الإشارة أيضا إلى حقيقة أن الأجيال القادمة لأى شعب من الشعوب ليست، ولا يمكن أن تكون –تكرارا للجيل المعاصر لذلك الشعب، وإلا فقدت الحضارة الانسانية إمكانية تقدمها، كما أن تلك الأجيال القادمة لا يمكن أيضا أن تنقطع السبل تماما بينها وبين الجيل المعاصر وإلا فقدت الحضارة الإنسانية صفة استمرارها لا بد لنا إذن من البحث عن الحلقة الر ئيسية التى تحكم تلك العلاقة الديناميكية المستمرة أبدا بين الماضى والحاضر والمستقبل فيما يتعلق بالتكوين السيكلوجى للأجيال القادمة وتتمثل هذه الحلقة –فيما نرى– فى عملية التنشئة الاجتماعية.

التنشئة الاجتماعية ... لماذا ؟

إذا كانت مهمتنا الأساسية هى ببساطة، وكما سبق أن أشرنا محاولة الإقتراب من رجل الشارع الإسرائيلى لتحقيق أكبر قدر ممكن من الفهم للعناصر الرئيسية لشخصيته بهدف التنبؤ بمسار وتطور تلك العناصر مستقبلا إلى أبعد مدى ممكن، فإن ذلك يعنى بصورة أخرى إننا مطالبون بالإجابة على العديد من التساؤلات بشأن رجل الشارع هذا: كيف يفكر؟ وماذا يحب؟ وماذا يكره؟ كيف يستجيب للعدوان؟ ما هى أبرز القيم السائدة لديه؟ كيف يتصرف فى المواقف العصيبة؟... إلى آخر مثل تلك التساؤلات أى أننا بصدد التعرف على الخصائص المشتركة لسلوكه كيف تكونت؟ وكيف أصبحت على ما هى عليه؟ وما هى احتمالات تطورها فى المستقبل؟ ولا بد لنا هنا من محاولة للفهم النظرى لكيفية تكوين الفرد لقيمه ومعاييره وعاداته وأنماطه السلوكية.

يميل الكثير من علماء النفس إلى إطلاق مصطلح «طابع الشخصية» للدلالة على ما يتوافر لدى الفرد من قيم وعادات وتقاليد وأنماط سلوكية وفكرية. ونظرة متأنية إلى أية جماعة إنسانية ــ بالمعنى العلمى لمصطلح الجماعة ــ لا بد وأن تكشف عن خاصتين بارزتين:

أولا : أن بين أفراد تلك الجماعة قدر لا يمكن التغاضى عنه من الاختلاف فى كافة نواحى التكوين السيكلوجى بحيث إننا لا يمكن أن نجد ــ فى أية جماعة إنسانية ــ شخصين متماثلين تمام التماثل من حيث التكوين السيكلوجى لكل منهما.

ثانيا إن بين أفراد تلك الجماعة قدر لا يمكن التغاضى عنه من التشابه فى كافة نواحى التكوين السيكلوجى أيضا. بمعنى أننا لا بد واجدون قدرا مشتركا بين كافة أفراد تلك الجماعة فيما يتصل بقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم وأن كان ذلك القدر يتفاوت من جماعة إلى أخرى كما يتفاوت أيضا من فرد إلى آخر من بين أعضاء نفس الجماعة.

هاتان الخاصيتان تتوفران فى كل الجماعات الإنسانية دون استثناء. وإذا كنا بصدد الحديث عن جماعة إنسانية كما هو الحال فى بحثنا فإن الخاصية الثانية ــ أعنى خاصية التشابه ــ لا بد وأن تشغل الجانب الأكبر من اهتمامنا كيف يحدث ذلك التشابه؟ ولماذا يختلف مقداره من جماعة إلى أخرى؟ ولماذا يختلف الأفراد أيضا من حيث درجة إقترابهم أو ابتعادهم عن النمط السائد فى الجماعة التى تضمهم؟ ولماذا تختلف عناصر ذلك التشابه أيضا من جماعة إلى أخرى؟ لماذا نجد جماعة أقرب إلى العدوانية وأخرى أقرب إلى الخنوع؟ لماذا نجد جماعة أشد تمسكاً بالتقاليد من غيرها؟ لماذا تحبذ جماعة معينة سلوكا معينا وتدفع أفرادها إلى أتباعه؟ ولماذا تنفر جماعة أخرى من نفس ذلك السلوك وتحرم على أفرادها ممارسته؟.

إن فهم دينامية ذلك التشابه يمثل فيما نرى أساس اختيارنا لعملية التنشئة الاجتماعية بالذات بوصفها مفتاحا لفهم التكوين السيكلوجى لشعب من الشعوب. ويكاد كافة علماء النفس أن يجمعوا على أن

العادات والتقاليد والقيم واتجاهات الرأى العام وما إلى ذلك أقرب إلى أن تكون جميعا أمورا يكتسبها المرء من بيئته الاجتماعية بمعنى أن المجتمع يقوم أشبه شيء بعملية «تعليم» لأفراده يعلمهم خلالها ما يود غرسه فيهم من عادات وتقاليد وقيم واتجاهات وما إلى ذلك. أن القول بأن «المجتمع» يقوم بذلك التعليم والوقوف عند ذلك الحد أمر فى حاجة إلى مزيد من التفسير. ترى كيف يتم ذلك التعليم.

إن نظرة فاحصة إلى المجتمع فى علاقته بأفراده تكشف لنا حتما عن حقيقة أن الفرد يخضع منذ لحظة مولده لتأثير عدد كبير من المنظمات الاجتماعية المتباينة الوظائف، والتى تقوم جميعا بالاسهام فى تشكيل ما يسمى بطابع شخصيته. ولسنا بصدد تعداد تلك المنظمات على سبيل الحصر، بل يكفى على سبيل المثال أن نشير إلى أن الوليد، ما أن يرى الحياة —بل حتى قبل أن يتمكن من رؤيتها بالمعنى العلمى— يخضع لأشد المنظمات الاجتماعية تأثيرا وخطرا على نمط شخصيته أعنى الأسرة بما تضمه من أدوار مختلفة للأب والأم والأخوة وغيرهم. ولا يقف دور الأسرة عند حد المحافظة على حياة الطفل وتلبية احتياجاته بل يتعداه بالضرورة إلى محاولة صياغة طابع شخصيته وفقا لما ترتضيه الأسرة، فتحرم عليه من السلوك والأفكار ما تراه سيئا وتحبذ له من السلوك والأفكار ما تراه جديرا بالتحبيذ ثم ما أن يشب الطفل عن الطوق حتى تتلقفه مجموعة الأقران التى تمارس أيضا تأثيرها عليه فى نفس المجال مستهدفة تحبيذ أنواع معينة من السلوك منفرة من أنواع أخرى وفى نفس الوقت تبدأ المؤسسات التعليمية فى ممارسة تأثيرها أيضا لنفس الهدف وبأساليب أكثر تنوعا واختلافا والأمر كذلك بالنسبة للمؤسسات الأيديولوجية، والمؤسسات الدينية، والمؤسسات الإعلامية، والمؤسسات التشريعية... ونستطيع أن نحصى الكثير والكثير من أسماء

تلك المنظمات التى تمارس تأثيرها فى تشكيل قيم وعادات وتقاليد واتجاهات الفرد. وكما تتعدد تلك المؤسسات تتعدد كذلك أساليبها فى الوصول إلى غاياتها. أو بعبارة أخرى فإنها تختلف من حيث ما تستخدمه من نظم للثواب والعقاب فللأسرة مثلا أساليبها المتعددة والمتميزة لدفع الطفل إلى إتباع سلوك معين والإقلاع عن سلوك آخر. وكذلك الحال بالنسبة لبقية التنظيمات الاجتماعية التى تمارس تأثيرا فى هذا الصدد، ولسنا فى حاجة إلى تفصيل تلك الأساليب التى تتراوح من حيث العقاب مثلا من الإعدام الفعلى، إلى مجرد عدم رد التحية وتتراوح من حيث الثواب من التأليه كما يحدث بالفعل فى بعض القبائل البدائية —إلى مجرد كلمة أو ايماءة تحمل معنى التشجيع. وداخل ذلك المدى البالغ الاتساع تتفاوت درجات الثواب ودرجات العقاب ويختلف تأثيرها. والأمر الذى يعنينا هنا هو تأكيد أن كل من تلك المنظمات تقوم فى النهاية بخلق نموذج مثالى تصورى لما تتطلبه فى الفرد المنتمى إليها. ويقدر نجاحها فى دفع الأفراد المنتمين إليها إلى تبنى ذلك النموذج واعتباره بمثابة مثلهم الأعلى —وهو نجاح يتوقف على عوامل عديدة ومتشابكة— تكون درجة تأثيرها فى هؤلاء الأفراد من حيث عاداتهم وقيمهم واتجاهاتهم وأنماطهم السلوكية.

ويواجهنا هنا عدد من التساؤلات. هل تتفق تلك المنظمات جميعاً فيما تحاول غرسه فى الفرد؟ هل أنواع السلوك التى تحبذها الأسرة هى نفسها التى تحبذها مجموعة الأقران؟ وهل العادات التى تنميها أسرة معينة هى نفس العادات التى تسعى أسرة أخرى فى نفس المجتمع إلى تنميتها؟ هل القيم التى تدعو إليها المؤسسات الأيديولوجية فى مجتمع معين هى نفس القيم التى تدعو إليها المؤسسات الدينية فى ذلك المجتمع؟ وهل الأفكار التى تدعو إليها منظمة ايديولوجية فى مجتمع معين

هى نفس الأفكار التى تدعو إليها منظمة أخرى؟ هل الأفكار التى تدعو إليها المؤسسات الإعلامية فى مجتمع معين فى نفس الأفكار التى تعمل على نشرها المؤسسات التعليمية فى نفس المجتمع، وهل الأفكار التى تدعو إليها مؤسسة إعلامية فى مجتمع معين هى نفس تلك التى تدعو إليها مؤسسة إعلامية أخرى فى نفس المجتمع؟ هل الأفكار التى تدعو إليها المؤسسات الدينية فى مجتمع معين هى نفس الأفكار؟

وحقيقة الأمر أنه لايوجد فى الواقع ثمة تماثل أو تطابق كامل بين تلك المنظمات جميعا فى هذا الصدد. بل إننا لانستطيع تصور وجود مثل ذلك التطابق حتى بين منظمتين منهما بل ولا حتى بين وحدتين تنتميان إلى نفس المنظمة. ولكننا نستطيع فى نفس الوقت أن نضع أيدينا على قدر من التشابه قد يتوافر بدرجة أو بأخرى بين كل منظمة وأخرى أو بين كل مجموعة من المنظمات ومجموعة أخرى. كما أننا نستطيع أيضا أن نجد قدراً من الإختلاف يزيد أو يقل بين كل منظمة أو أخرى أو بين كل مجموعة من المنظمات ومجموعة أخرى. ولو تصورنا جدلا أن هناك تطابقا كاملا بين تلك المنظمات الإجتماعية جميعا من حيث ما تستهدفه من تأثير على الأفراد، لكان لنا أن نتصور نتيجة لذلك قدراً هائلاً من التماثل بين هؤلاء الأفراد من حيث «طابع الشخصية» أو بعبارة أخرى يكون لنا آنذاك أن نتصور قدراً هائلاً من تمسك هؤلاء الأفراد بنموذج واحد للسلوك والتفكير والعادات والتقاليد والقيم وما إلى ذلك. وأن كنا حتى فى هذه الحالة المفترضة لا نستطيع القطع بأنه لن يكون ثمة خارج على ذلك النموذج المختار. فقد تلعب الخصائص الفردية المميزة دورها فى هذه الحالة ولكن ذلك الخروج لن يعدو أن يكون فى تلك الحالة خروجاً فردياً. ولانعنى بالفردية هنا أن من سوف يقدم عليه لن يكون سوى فرد واحد أو قلة من الأفراد.. إن ما نعنيه فى الواقع أمر

لا علاقة له بعدد الخارجين.. أن ما نعنيه بالدقة هو أن الخروج على المعايير فى نلك الحالة النموذجية المفترضة سوف يكون فردياً من حيث دوافعه ومسبباته وهو أمر يختلف نماماً عن الخروج الجماعى الذى سوف نناقشه فيما بعد.

إن ما يحدث بالفعل إذن هو عدم توافر ذلك التماثل النموذجى فى التأثير. فقد يلقى الفرد تشجيعا من أسرته على رد العدوان بالمثل فوراً، وقد تشترك معها فى ذلك مجموعة من الأسر. وقد تحاول أسر أخرى أو مجموعة أخرى من الأسر أن تنشىء أبناءها على التسامح فى رد العدوان الواقع عليهم. وقد تحاول أسرة ثالثة أو مجموعة ثالثة من الأسر أن تدفع أبنائها إلى الإلتزام بنمط معين من السلوك فى مواجهة العدوان هو اللجوء إلى السلطة مثلا. والأمر غنى عن البيان فيما يتعلق بالمؤسسات الدينية والأيديولوجية والإعلامية... وما إلى ذلك. والخروج على المعايير فى هذه الحالة لايكون خروجا فردياً بل خروج جماعى ومرة أخرى نحن لانقصد هنا عدد الذين يخرجون بل نقصد أن الخروج هنا يكون خروج جماعات بالمعنى العلمى لمصطلح الجماعة أو بعبارة أخرى فإن ما أسميناه بالخروج إنما هو فى حقيقة الأمر عملية توافر قدر من المعايير أو القيم أو العادات أو الأنماط السلوكية أو التفكيرية لمجموعة من الأفراد يشكلون جماعة فرعية أو بالمعنى الاصطلاحى جماعة مرجعية ـ تختلف فى هذا الصدد بدرجة أو بأخرى عن بقية أفراد الجماعة الأصلية (٥٤) ولا يقتضى الأمر بالضرورة أن تكون كافة قيم وتقاليد ومعايير وعادات وتصرفات تلك الجماعة الفرعية متعارضة تمام التعارض مع نظيرتها فى المجتمع الأصلى بل أن ما يحدث عادة هو توافر قدر ما من التشابك بين هذه وتلك. قد يكون لإحدى الجماعات الفرعية فى مجتمع ما قيمتها الدينية الخاصة مثلا والمختلفة عن القيم السائدة فى

المجتمع الأصلى ثم هى فيما عدا ذلك القطاع من السلوك المعبر عن تلك القيم الدينية لاتختلف عن الجماعة الأصلية فى شىء والأمر شبيه بذلك بالنسبة لبقية المعايير والأنماط السلوكية والتفكيرية وما إلى ذلك. ومن ناحية أخرى فإن الجماعات الفرعية التى يضمها مجتمع معين تتشابك عضويتها فى كثيرمن الأحيان فنجد مثلا أن من ينتمون إلى جماعة دينية خاصة قد تتعدد الجماعات الأيديولوجية التى ينتمون إليها والتى تضم فى نفس الوقت أفراداً ينتمون لجماعات دينية أخرى. ولاينفى كل ذلك إمكانية أن تظهر جماعة فرعية لاتقف عند حدود الأختلاف بل تتعداها إلى حد التناقض مع غالبية قيم وعادات ومعايير المجتمع الأصلى وفى هذه الحالة يحدث ما يمكن أن نسميه بتحلل المجتمع أو تفككه إذا ما كانت تلك الجماعات كثيرة العدد قليلة الحجم. أما إذا كانت تلك الجماعات ــ على العكس ــ قليلة العدد كبيرة الحجم بمعنى أن تتكون فى المجتمع مثلا ونتيجة لظروف تاريخية معقدة جماعتان فرعيتان كبيرتان تضمان غالبية أفراد المجتمع. فإننا نكون عندئذ بصدد ظاهرة انشطار المجتمع التى تأخذ فى كثير من الأحيان طابع الانفصال السياسى أو الصراع المسلح أو ما إلى ذلك.

وينبغى ألا ننسى بحال أن الفرد ينتمى إلى أكثر من منظمة أو جماعة اجتماعية فى نفس الوقت، وإن اختلاف تلك المنظمات أو تصارعها أو تناقضها إنما ينعكس فى صورة ما يعرف بصراع «الولاء» داخل الفرد، فقد تنمى أسرة معينة مثلا فى أحد أبنائها قيمة أخلاقية معينة ولتكن التعاون مثلا. وإذا بتلك القيمة تواجه نوعا من الرفض فى المدرسة التى يلتحق بها ذلك الفرد فى حين تلقى تدعيما من مجموعة الأقران ومن المؤسسة الدينية التى ينتمى إليها، وفى نفس الوقت ينقسم موقف المؤسسات الإعلامية منها بين التحبيذ والمهاجمة وتمارس تلك

المؤسسات جميعا تأثيراتها المتناقضة على الفرد فى نفس الوقت . ترى لأى القيم يخضع ؟ وأى المعايير يرتضى ؟ وأى العادات يتبع ؟ أن الأمر يحسمه فى النهاية مدى نجاح كل من تلك المنظمات الاجتماعية المتصارعة فى ترك بصماتها عليه . والمتوقع عادة أن ينحاز الفرد فى مثل ذلك الموقف الصراعى إلى جانب المنظمة الإجتماعية صاحبة التأثير الأكبر عليه . وإذا ما تساوت التأثيرات أو عجز الفرد لسبب أو لآخر عن حسم موقفه نشأ لدينا ما يعرف بالأفراد ذوى الولاء المزدوج وهى ظاهرة أقرب إلى أن تكون ظاهرة مؤقتة ولانعتقد أن الحديث التفصيلى فيها يدخل فى موضوعنا كثيراً .

إن مايعنينا هو أنه بقدر ما تتعدد تلك الجماعات الفرعية ، وبقدر ما يقل التزام أفراد المجتمع بمعاييره وقيمه وعاداته ، أو بعبارة أخرى ، بقدر ما ينفر افراد المجتمع الأصلى من تمثل النموذج التصورى الذى يقدمه لهم مجتمعهم ممثلا فى ذلك القدر المشترك من الاتفاق بين النماذج التى تقدمها منظماته الاجتماعية المختلفة ، وبقدر ما يتخذ ذلك النفور شكل تكوين الجماعات الفرعية ، يكون تقديرنا لتفكك أو لتحلل ذلك المجتمع . وعلى العكس فبقدر ما تقل تلك الجماعات الفرعية عددا وحجما وتأثيراً ، يكون تقديرنا لتماسك ذلك المجتمع ووحدته . وينبنى على أى من التقديرين تنبؤنا بمستقبل ذلك المجتمع بالإضافة طبعا إلى بقية العوامل الأخرى التى تحدد بقاءه أو اندثاره .

إن تماسك المجتمع أو تفككه ، بل أن وجوده نفسه إنما يرجع إلى عوامل شتى أهمها وحدة التاريخ ، ووحدة الأرض ، ووحدة الاقتصاد ، ووحدة اللغة ، ثم التكوين السيكلوجى المشترك وقد يكون ذلك التكوين السيكلوجى المشترك نتيجة العوامل الأخرى . ولكن ما يعنينا فيما نحن بصدده هو أن المجتمع لابد وأن يسعى دوما إلى تدعيم ذلك التكوين

السيكلوجى المشترك بين أفراده والمحافظة عليه . أى أن يسعى إلى خلق نوع من المعايير السلوكية المشتركة تجمع بين أفراده جميعا . أو بين القدر الأكبر منهم ضمانا لتماسكه وبقائه . ولقد أفضنا الحديث عن تعدد المنظمات أو المؤسسات الاجتماعية فى المجتمع وتباين أدوارها واختلاف تأثيراتها ولكن ترى ماهى العملية السيكلوجية التى يتم من خلالها تمثل الأفراد لتلك التأثيرات المتعددة المصادر، المتباينة الخصائص المختلفة الأهداف ، ماهى العملية السيكلوجية التى تمكن الفرد من صياغة ذلك النموذج التصورى الذى يرسمه المجتمع ؟ ما هى العملية السيكلوجية التى يتمثل فيها الصراع بين كافة تلك المؤسسات الإجتماعية والتى يتم فيها صهر ذلك الصراع والخروج منه بنتيجة محددة ؟ ما هى العلمية السيكلوجية التى يتم من خلالها الوصول إلى نتيجة تضع فى اعتبارها ما تسعى منظمات المجتع إلى غرسه ، وما تدفع إليه الخبرات الفردية الخاصة بالفرد وما تطالب به رغبات الفرد الشخصية الأصلية كل ذلك فى نفس الوفت ؟

تلك العملية السيكلوجية ــ فيما نرى ــ هى مايطلق عليه أهل التخصص اصطلاح «عملية التنشئة الاجتماعية» إنها عملية غرس قيم جديدة وسلوك جديد بما يناسب الموقف الاجتماعى وعضوية الجماعة ... إنها «عملية ... اكتساب الأدوار ــ أو بمعنى أكثر تخصيصا ــ اكتساب تلك العادات والمعتقدات والاتجاهات والدوافع التى تمكن المرء من القيام بكفاءة بالأدوار التى يتوقعها منه المجتمع» (٧ ص ٥) فالتنشئة الاجتماعية إذن هى تلك العملية التي تخلق للمجتمع صورته الموحدة وبذلك فإنها تتخذ موقفا محدداً من الفروق بين الأفراد لعل خير تعبير عنه هو القول بأنه «رغم صحة أنه لايوجد فردان متماثلان» وأن لكل شخص وراثته المفردة، وخبراته المتميزة، ونمو شخصيته الفريدة، فإن

التنشئة الاجتماعية لا تركز على سنل ىلك العملبات والأنماط الفردية بل تركز على التشابهات وعلى تلك المجالات من النمو المتـ' بتعلم الحضارة والمجتمع والتوافق معها (١٢ ص ٥).

وتسهم عملية التنشئة الاجتماعية بهذا المعنى فى مجالين هامين فيما **يتصل** بالتكوين السيكلوجى للمجتمع:

أولا: مجال التفاعل الأفقى — إذا صح التعبير — بين أفراد هذا المجتمع أى أنها العملية التى يتم من خلالها توحيد أو تفتيت الجيل المعاصر فى أى مجتمع.

ثانيا: مجال التفاعل الرأسى — إذا صح التعبير — بالنسبة لهذا المجتمع. أى أنها العملية التى يتم من خلالها محاولة الجيل الحالى غرس ما يود غرسه من قيم وأفكار فى الجيل التالى له. وكما أنه من غير المتصور أن تحرز تلك العملية نجاحا مطلقاً فى المجال الأفقى بل أن ذلك النجاح المطلق قد يؤدى إلى وأد التفاعل الاجتماعى المطلوب والمرغوب بين منظمات المجتمع المختلفة، فالأمر شبيه بذلك أيضا بالنسبة للمجال الرأسى ليس متصوراً ولا مطلوباً — من الناحية العملية أن ينجح الجيل الحالى فى أى مجتمع فى إعادة تشكيل الجيل القادم على صورته نجاحا مطلقاً لابد من أن يختلف كل جيل عن الجيل الذى سبقه بدرجة تزيد أو تقل من حيث التكوين السيكلوجى بالمعنى الذى أشرنا إليه. وتبقى عملية التنشئة الاجتماعية على أى حال بمثابة البوتقة التى يتم فيها خلق وحدة المجتمع أو تفككه، واتصال أجياله أو انفصالها.

وينبغى لنا هنا أن نفرق تفرقة واضحة بين ما يسمى بالطابع القومى

وبين عملية التنشئة الاجتماعية ونستطيع ـ دون أن نجاوز الحقيقة كثيراً ـ القول بأن العلاقة بينها أشبه بالعلاقة بين الأداة والنتاج النهائى بمعنى أن التنشئة الاجتماعية هى العملية التى يتم من خلالها تشكيل وضع الطابع القومى. فالطابع القومى « هو ذلك الجزء من الطابع الذى يكون مشتركا بين مجموعات اجتماعية بارزة. والذى ـ وفقاً لتعريف علماء الاجتماع المعاصرين ـ يكون نتاجاً لخبرة تلك الجماعات (٢١ ص ٥ /)وهو بذلك يمثل النتاج النهائى لتلك التفاعلات الاجتماعية المعقدة والتى تتم من خلال عملية التنشئة الاجتماعية وبعبارة أخرى فإنه إذا كان اصطلاح الطابع القومى بحكم أنه تعبير عن نتاج نهائى يكون أقرب إلى كونه مفهوما استاتيكياً ، فإن اصطلاح التنشئة الاجتماعية بحكم تعبيره عن عملية مستمرة يكون أقرب إلى كونه مفهوما ديناميكياً وبذلك فإن الإسلوب الأمثل ـ فيما نرى ـ لدراسة التكوين السيكلوجى لأبناء مجتمع ما هو تحليل عملية التنشئة الاجتماعية التى تجرى داخل ذلك المجتمع.

وتكتسب تلك الوسيلة ، أعنى تحليل عملية التنشئة الاجتماعية بهدف الوصول إلى أهم خصائص التكوين السيكلوجى لأبناء مجتمع ما ، تكتسب أهمية خاصة إذا كنا بصدد تناول ما يمكن التعبير عنه اصطلاحاً بالمجتمع « المصنوع » أى المجتمع الذى يتم خلقه بعملية أشبه ما تكون باستنبات نبات معين فى دفيئه خاصة ، وفى تلك الحالة يسهل على العالم المتخصص أن يرقب عملية النمو خطوة بخطوة وبقدر كبير من الدقة. والأمر لايختلف عن ذلك كثيراً فيما نحن بصدده ، فعملية التنشئة الاجتماعية إذا كانت تتم بيسر وبشكل تلقائى يجعل من الصعب ملاحظتها وتقييم نتائجها فى المجتمعات المستقرة ، فإنها فى المجتمعات المصنوعة تكون واضحة المعالم ، بينة الخطوط ، عالية الضجيج

وذلك لأنها تمثل البوتقة التى يتم فيها بالفعل «صنع» ذلك المجتمع. وهي تكتسب أهميتها الخاصة فى تلك المجتمعات بالذات من عدة أسباب أهمها:

أولا: إن تلك المجتمعات تضم شتاتاً من الأفراد المنتمين إلى مجتمعات شتى تختلف بقدر يزيد أو يقل من حيث قيمتها وعاداتها واتجاهاتها أو باختصار من حيث تكوينها السيكلوجي وليس من سبيل لصنع (مجتمع) من ذلك الشتات إلا من خلال تخطيط وتوجيه ومتابعة لعملية التنشئة الاجتماعية بالنسبة لأفراد ذلك المجتمع بهدف خلق التكوين السيكولوجي المشترك بينهم.

ثانياً: إذا كان وجود جماعات فرعية خارجة على المعايير السائدة فى مجتمع معين أمر يهدد ذلك المجتمع بشىء من التفكك، فإن عدم وجود مثل تلك المعايير أصلا أمر يهدد بالفشل تجربة صنع المجتمع من أساسها.

وليس هناك فيما نعلم من أقدم على محاولة من هذا النوع فى مجال علم النفس. أعنى محاولة تناول عملية التنشئة الاجتماعية بوصفها مفتاحاً لفهم التكوين السيكلوجي لشعب من الشعوب وليس بوصفها مجرد مظهر من مظاهر التكوين. وعلى أى حال فإن لذلك الأحجام مبرراته النظرية والعلمية التى لا مجال لتفصيلها ومناقشتها فى هذا المقام، وإن كان لابد أن نشير إلى مبررين بالذات يتصدران تلك المبررات العملية والنظرية:

أما المبرر الأول:

فهو مبرر عملى مؤداه إننا إذا ما كنا بصدد إعداد برنامج دعائى موجه للأعداء، أو حتى إذا ما كنا بصدد شن حرب مسلحة عليهم،

فإن مايعنينا فى المقام الأول هو توفير أكبر قدر ممكن من الفهم الموضوعى للتكوين السيكلوجى للجيل المعاصر لهذا العدو، وهو الجيل الذى سيواجهنا بالفعل فى ساحة القتال. وهو اعتبار يبدو مقبولا تماماً وإن كان لنا عليه ملاحظتان:

أولا: إنه لكى يتحقق فهم موضوعى كامل للتكوين السيكلوجى للجيل المعاصر فى أى مجتمع لابد من العودة بشكل أو بآخر إلى ماضيه أعنى إلى ماضى ذلك التكوين. وبعبارة أخرى فإن ذلك الفهم يستلزم بالضرورة ــ لكى يكتمل ــ القيام بتتبع لعملية التنشئة الاجتماعية التى أمكن من خلالها صياغة ذلك الجيل بتلك الصورة.

ثانيا: إنه يندر فى عالمنا المعاصر أن نرى مواجهة بين دولتين أو شعبين أو حتى جماعتين سياسيتين تستمر لجيل واحد ثم تنتهى وتندثر أثارها بعد ذلك وكأن لم يحدث شىء. بل أن مانراه عادة هو استمرار مثل ذلك الصراع لأكثر من جيل بل لعدة أجيال. ولعل صراعنا مع إسرائيل نموذج واضح لذلك وليس فى حاجة إلى مزيد من البيان.

أما المبرر الثانى:

وهو المبرر الذى يتصدر المبررات النظرية للأحجام عن تناول عملية التنشئة الاجتماعية بوصفها المدخل إلى فهم التكوين السيكلوجى لجماعة من الجماعات فيقوم على فكرة تنظر إلى عملية التنشئة الاجتماعية بوصفها مجرد عملية يقوم بها الجيل الحاضر محاولة منه لتشكيل التكوين السيكلوجى للجيل القادم وليس هناك مبرر لافتراض نجاح تلك المحاولة بحيث يمكنا التنبوء بسلوك الأجيال القادمة وفقاً

لمحاولات الأجيال الراهنة صياغة ذلك السلوك. ولذلك المبرر وجاهته المنطقية ولا شك. فهو يرى أن عملية التنشئة الاجتماعية حتى إذا ما تمت بنجاح فى الطفولة فإن نتاجها النهائى عند الرشد لن يكون صورة مطابقة لأهدافها بحال لأنه ما بين الطفولة والرشد تحدث أحداث كثيرة لابد وأن تترك طابعها على شخصية الفرد وهى أحداث لا تدخل بحال فى عملية التنشئة الاجتماعية بمعناها الاصطلاحى كوفاة أحد أفراد الأسرة أو حدوث كارثة طبيعية أو قيام حرب مفاجئة أو ما إلى ذلك. وعلى ذلك فإن ما يعنينا ــ وفقاً لتلك الفكرة ــ هو أساساً شخصية الراشد الذى سار فى مدارج النمو حتى اكتمل نضجه والذى تصبح مهمة تنبؤنا بسلوكه أكثر يسراً وأقرب إلى احتمال الصواب ولنا على ذلك المبرر ــ رغم وجاهته المنطقية ــ اعتراض جوهرى يمكننا صياغته على الوجه التالى:

أولا: إن التنبوء فى مجال السلوك الإنسانى مهما بلغت دقته تنبؤ احتمالى إذا صح التعبير وليس بحال تنبؤاً حتمياً كتلك التنبؤات التى تقدمها لنا العلوم الطبيعية. وإذا كان الأمر كذلك فإن تلك الاحتمالية تنسحب بالضرورة على أى محاولة للتنبوء بالسلوك الإنسانى يستوى فى ذلك الراشد والطفل.

ثانيا: ومن ناحية أخرى فإننا إذا ما سلمنا بأن عملية تشكيل أساس الشخصية لدى الفرد الإنسانى إنما تتم فى طفولته، فإن فى استطاعتنا آنذاك أن نقدم على الانطلاق من عملية التنشئة الاجتماعية للأطفال إلى التنبوء بسلوكهم عند الرشد فى حدود الاحتمالية المسلم بها دون حرج. وإذا ما لم نسلم بذلك ورأينا أن عملية التشكيل هذه عملية مستمرة تستوى أهميتها فى

الطفولة معها فى الرشد فإننا حينئذ لن نجد ثمة فروق بين الطفل والراشد فيما يتصل بقضية التنبوء هذه.

وفى الختام ينبغى أن نشير إلى أن دراستنا للتنشئة الاجتماعية فى إسرائيل شأنها شأن دراستنا فى أى مجتمع آخر لا تقف عند حد رصد المؤسسات التى تقوم بها ولا تسجيل المادة التى تقدمها تلك المؤسسات ولا استعراض الأساليب التى تتبعها ولا تسجيل نشاط تلك المؤسسات تفصيلاً، ان دراسة عملية التنشئة الاجتماعية لابد وأن ترمى فى النهاية للوصول إلى الأفكار الرئيسية التى تدور حولها المادة التي تقدمها تلك المؤسسات مستخدمة فى ذلك ما استخدمت من أساليب ـــ فتلك الأفكار الرئيسية هى التى تسهم فى تشكيل عناصر التكوين السيكلوجى فى النهاية وليست مجرد المؤسسات ولا الوسائل. ولنتناول نموذجا من بيئتنا يوضح ما نرمى إليه. لو قصدنا دراسة السمات المميزة لعملية التنشئة الاجتماعية كما تجرى فى قرية الصعيد مثلا، فإن تلك الدراسة لاينبغى لها بحال أن تقف عند حد تقرير إن أهم المؤسسات التى تقوم بعملية التنشئة الاجتماعية فى تلك القرية هى الأسرة والمسجد مثلا. ولاينبغى لها أيضاً أن تقف عند حد تقرير أن المادة التى يقدمها المسجد مثلا عبارة عن أفكار دينية تدور حول كذا وكيت من الموضوعات. كما أنه لاينبغى لها كذلك أن تقف عند حد حصر إعداد المترددين على المسجد ولا حتى قياس الاتجاهات الدينية الموجودة فعلا فى تلك القرية. كل ذلك قد يكون ضروريا ولكنه لايؤدى إلى شيء ذى خطر ولابد من الوصول إلى الأفكار الرئيسية التى يدور حولها كل ذلك أو بالتحديد إلى أشد الأفكار تأثيراً وتميزاً عن الأفكار السائدة فى المجتمع عموماً أو التى يسعى لتسييدها. ولقد تختلف الأساليب الموضوعية التى يمكن أن يستخدمها الباحث وصولاً إلى تلك

الغاية. ولكن لابد وأن يستهدف بلوغها. أعنى أنه لابد وأن يستهدف التوصل إلى أن أفكاراً مثل الثأر والتمسك بالأرض وتمييز الرجال وما إلى ذلك كأفكار، تمثل المحور المميز لعملية التنشئة الاجتماعية هناك وأنه على هدى تلك الأفكار تتم تنمية العادات والتقاليد والأفكار والقيم والأنماط السلوكية التى يتميز بها أبناء تلك القرية عن بقية المجتمع.

محاذير وحدود

ينبغى علينا ختاما لما نحن بصدده من تقديم للموضوع أن نشير إلى عدد من الصعوبات التى يتعرض لها من يتصدى لمثل ما نحن مقدمون عليه. وأهم تلك الصعوبات فيما نرى:

أولا: إن الدراسة العربية فى هذا المجال نادرة. بل إنها —فى حدود ما أسفر عنه تنقيبنا عنها— تكاد تكون معدومة بالفعل فيما يتعلق بعملية التنشئة الاجتماعية فى إسرائيل. وذلك يعنى أن الدراسة فى هذا المجال ستكون بحكم طبيعة الأمور دراسة رائدة تتحمل أخطار الريادة ومخاطرها وهى ليست بالأخطار القليلة ولا بالمخاطر الهينة.

ثانيا: رغم أن هناك عدداً لابأس به من البحوث التى أتيح لنا الاطلاع عليها قد قام به باحثون من خارج إسرائيل، إلا أن غالبية الدراسات قد قام بها يهود. وليست القضية هى احتمال تحيز فى وجهة النظر التى تحملها تلك الدراسات بل إنها لأعمق من ذلك بكثير. فأولئك الباحثين اليهود تربطهم بالتجربة الإسرائيلية علاقة بالغة التعقيد والصعوبة. ليست بعلاقة الانتماء الواضح ولا الرفض الصريح. ولعل خير مثال يدل على تأثير تلك العلاقة المعقدة على نظرة الباحث إلى موضوع بحثه ما

حدث حين عقد فى عام ١٩٥٧م لقاء بين عدد من العلماء الأمريكيين والإسرائيليين بهدف زيادة التعاون بين الفريقين. وتم اختيار موضوع تأثير النشأة فى الكيبوتزات الإسرائيلية على الشخصية موضوعاً للدراسة. وقيل فى تبرير ذلك الاختيار أن ذلك الموضوع يجمع بين الأهمية، والافتقار إلى الدراسة العلمية المنتظمة، والتعرض أيضاً للتحيز فى دراسته (٣٧) وكان ضمن المشتركين فى هذا اللقاء باحثة أمريكية يهودية هى «إيفا روز نفيلد» التى قامت فى نطاق البرنامج الذى أسفر عنه هذا اللقاء بتقديم دراسة عنوانها «عالم الاجتماع الأمريكى فى إسرائيل: دراسة ميدانية فى صراع الأدوار» قالت فيها إنه «لعله ليس مصادفة أن كافة علماء الاجتماع الذين ذهبوا لإجراء دراسة ميدانية فى الكيبوتزات وما شابهها كانوا جميعاً من اليهود. وربما كان ذلك مدعاة لمزيد من التناقض الوجدانى فى نفوس الباحثين وما يترتب عليه من شعور بالإثم لكونهم مجرد زوار» (٤٧) ثم لم تلبث أن قالت محددة طبيعية المأزق الذى يصبح فيه الباحث العلمى آنذاك أنه «ليس أمام الباحث إلا أن يتخلى عن دوره العلمى ويصبح عضواً فى الجماعة ـــ كما يصنع الانتروبولوجيون أحياناً ـــ أو أن يصبح متحيزاً للجماعة التى يفحصها (٤٧).

ثالثا: يضاف إلى ذلك صعوبة متعلقة بالمجتمع الإسرائيلى نفسه وهى إن ذلك المجتمع بعامة، وبشكل خاص أبناء الكيبوتزات فيه أميل إلى رفض التعاون مع الباحثين الاجتماعين بل لقد لوحظ أنه لايقدم على إقامة علاقة وثيقة بالباحث إلا أبناء الكيبوتزات الشواذ المرفوضين من الجماعة، حتى أن مدرسة فى

أحد الكيبوتزات قد ذكرت أنها حاولت عشرون مرة إقامة سلسلة من مقابلات تاريخ الحالة مع أبناء ذلك الكيبوتز، وكان المفحوص يقطع الاتصال بها فجأة بعد جلسة أو اثنين بحجة أنه ليس لديه ما يقوله (٤٧).

رابعاً: وهى صعوبة أقرب إلى أن تكون نوعا من القصور وتتمثل فى عدم المام الباحث باللغة العبرية وهى اللغة الأصلية لعدد كبير من البحوث المتعلقة بالموضوع والتى تم حقا ترجمة نسبة معقولة منها ولكن يبدو ــ وذلك مجرد إحساس تكون لدى الباحث خلال دراسته ــ أن جانباً كبيراً من البحوث المتعلقة بالتجربة الإسرائيلية لم يترجم إلى لغات أجنبية عن تلك اللغة، ذلك فضلا عن أن اللغة العبرية هى اللغة الأصلية للمجتمع محل الدراسة ويكفى ذلك وحده لتكون ضرورة أو على الأدق لتكون ميزة يمتاز بها الباحث فى تصديه لدراسة هذا المجتمع. ورغم أنه يبدو أن تلك الصعوبة تكاد تكون أمراً يشترك فيه الباحث مع أبناء تخصصه جميعاً إلا أن ذلك لا ينفى عنها صفة القصور ولا ينفى عنه صفة التقصير.

خامسا: ولعلها أخطر الصعوبات جميعا التى تواجه من يتقدم منا للتصدى لمثل تلك المهمة. فالأمر فى نهايته يتمثل فى أن باحثا مصريا يتصدى فى حدود تخصصه لدراسة التجربة الإسرائيلية. وبينه وبين تلك التجربة ما بين المصريين جميعا وبين إسرائيل من موقف غنى عن البيان. وذلك يقتضيه جهداً لاحد له لمغالبة نفسه والتغلب على تحيزاتها المسبقة حيال موضوع دراسته ويقتضيه فى الوقت نفسه جهداً لا يقل عن ذلك للاحتفاظ بالموقف الوطنى المحدد والمحسوم سلفا. صراع

لابد وأن يخوضه الباحث بين مقتضيات «التجرد العلمى» ومقتضيات «الالتزام الوطنى». بحيث لا يجتذبه الجانب الأول ـ أعنى جانب التجرد العلمى إلى الاقتصار على التسجيل دون التفسير، ولايدفعه الجانب الثانى ـ أعنى جانب الالتزام الوطنى إلى التعسف فى تفسير الوقائع، والحيلولة دون النظرة الشاملة إليها.

تلك هى أهم الصعوبات التى تعترض بالفعل سبيل الباحث المصرى فى دراسته للمجتمع الإسرائيلى. وهى لا تنفى بطبيعة الحال تعرضه للعديد من الصعوبات الأخرى التى تعترض طريق الباحثين فى مجال العلوم الإنسانية بعامة، والتى سبق أن أشرنا إلى بعضها فيما سبق

حددنا إذن هدفنا من الدراسة، وهو التوصل إلى فهم موضوعى للخصائص الرئيسية للتكوين السيكلوجى للمجتمع الإسرائيلى. وحددنا كذلك وسيلتنا لذلك الفهم وهى تحليل عملية التنشئة الاجتماعية فى إسرائيل. بقى أن نحدد تحديداً قاطعاً مجال تلك الدراسة، أو بعبارة أخرى بقى أن نحدد من هم الذين ينبغى أن تشملهم دراستنا ويقتضينا ذلك التحديد أن نورد بإيجاز عدداً من المسلمات المبدئية التى سيقوم عليها بحثنا، تاركين أمر تمحيصها والحكم على سلامتها أو خطئها للبحث نفسه، وأهم تلك المسلمات أو التحديدات هى:

أولا: إننا لسنا بصدد دراسة التكوين السيكلوجى لليهود تاريخيا، أى منذ نشأة الديانة اليهودية حتى يومنا هذا.

ثانيا: إننا لسنا بصدد دراسة التكوين السيكلوجى لليهود بعامة، أى لكل من يدينون بالديانة اليهودية اليوم فى كافة أنحاء العالم.

ثالثا: إننا لسنا أيضا بصدد دراسة التكوين السيكلوجى لكافة اليهود الذين تضمهم إسرائيل على تعدد أصولهم الحضارية.

إن ما نحن بصدده بالتحديد هو دراسة أهم خصائص التكوين السيكلوجى السائد فى إسرائيل اليوم. ولايعنى توصلنا إلى تلك الخصائص وحديثنا عنها إنها تشمل كافة اليهود المقيمين فى إسرائيل والذين ينتمون إلى تجمعات شتى يستحق كل تجمع منها ـ بالتأكيد ـ دراسة مستقلة لتكوينه السيكلوجى. فنحن نعنى بالتكوين السيكلوجى السائد ذلك التكوين الذى تتميز به الطبقة السائدة فى إسرائيل، والذى تسعى تلك الطبقة بحكم سيادتها إلى نشره وتدعيمه وغرسه فى نفوس الجميع، والذى يمكن بهذا المعنى فحسب اعتباره الطابع السيكلوجى السائد هناك.

ويجدر بنا أن نشير فى النهاية إلى أن تركيزنا على جوانب التشابه فى المجتمع الإسرائيلى بشكل أكثر من تركيزنا على جوانب الاختلاف فيه ماهو إلا أمر تقتضيه طبيعة موضوع البحث، وطبيعة المدخل الذى اخترناه إليه وليس بحال أمراً تفرضه أو توحى به طبيعة المجتمع الإسرائيلى.

الفصل الثانى

الطائر المهاجر

نقطة البداية

عنصر التمايز

عنصر الاضطهاد

الحياة فى الجيتو

الجيتو وجيل الحالوتس

نقطة البداية

سبق أن أشرنا فى مقدمة هذا البحث إلى أن صحة معرفتنا بواقع الإنسان الاسرائيلى إنما تتوقف على اتخاذ تلك المعرفة لمسارها الصحيح، أى أن تكون معرفة بما حدث وتفسيراً له، وتنبوءا بما سيحدث، واستعداداً له وبعبارة أخرى فإن تلك المعرفة تتطلب ــ كما سبق أن أوضحنا ــ قدراً من النظر إلى الماضى يكفل فهم الحاضر بحيث يمكن آنذاك استشراف المستقبل. ولكن ترى من أين نبدأ؟ أى نقاط الماضى نستطيع أن نعتبرها أنسب النقاط للبداية؟ وما هى الشروط التى ينبغى أن تحكم اختيارنا لها دون غيرها؟ إن أهم تلك الشروط فيما نرى ثلاثة:

أولا: ألا تكون مسرفة فى بعدها عن الواقع الإسرائيلى المعاصر ولانعنى هنا بالبعد بعد الشقة الزمنية بل نعنى أساساً بعد الصلة أو بعد السبب. وان كان ذلك النوع من البعد يرتبط ارتباطا وثيقا واضحا بالبعد الزمنى كأن نرجع بتاريخ اليهود المعاصرين مثلا إلى عصر السبى البابلى، أو ما قبل ذلك.

ثانيا: ألا تكون أيضا مسرفة فى قربها من الواقع الإسرائيلى المعاصر بحيث يكون من الأليق دمجها فى ذلك الواقع المعاصر واعتبارها جزءاً منه. كأن يقتصر تفسيرنا للأحداث المعاصرة فى إسرائيل على اتجاهات ساستها المعاصرون مثلا أو تاريخهم المباشر.

ثالثا: أن تكون جزءاً من تيار التاريخ الإنسانى المعروف والمكتوب والذى يحظى بقدر معقول من اتفاق المؤرخين بمعنى أنه طالما أننا لسنا من أهل الاختصاص فى التاريخ فلا مبرر لاختيار نقطة فى مسار التاريخ لاتحظى باجماع غالبية المؤرخين خاصة أننا سوف نرتب على تلك النقطة المختارة الشيء الكثير فى دراستنا ومن أمثلة تلك النقاط موضع الخلاف الاعتماد على ما يسمى ببروتوكولات حكماء صهيون فى تفسيرنا أو تناولنا للظاهرة الإسرائيلية.

قد يبدو للوهلة الأولى أن حديثنا هذا تزيد لا طائل وراءه. فلنبدأ من أى نقطة مادامت تنتمى للماضى بصوره من الصور بصرف النظر عن إسرافها فى البعد أو فى الاقتراب ماضين فى طريقنا صوب الحاضر. ولكن حديثنا فى الحقيقة مستوحى بالفعل من دراسات سبقت فى هذا الموضوع أعنى موضوع تاريخ إسرائيل وتردت فى عديد من المزالق سواء كان التردى بوعى من الدارسين أو بغير وعى منهم، وسواء صرحوا باختيارهم لهذه الواقعة التاريخية أو تلك نقطة لبداية بحثهم أم تركوا ذلك لفطنة القارئ كأمر غنى عن البيان، وسواء أكان ذلك التعرض لدراسة تاريخ إسرائيل هو فى حد ذاته موضوعا للدراسة، أو كان مدخلا لدراسة موضوع آخر.

لقد آثر الكثير من الباحثين ممن تعرضوا لدراسة تاريخ إسرائيل ــوبغض النظر عن هدفهم من تلك الدراسةــ أن يبدأ بحثهم من نقاط تاريخية موغلة فى القدم وصلت ببعضهم إلى عام ٦٠٠ (قبل الميلاد) (٢٤). وبغض النظر عما يستهدفونه من اختيار مثل تلك البداية الموغلة فى القدم فما يعنينا هو أن مثل تلك البدايات تحمل ضمنا تسليما بأن الظاهرة التى يتعرض لها الباحث ــأى إسرائيلــ تربطها

أواصر الصلة بتاريخ موغل فى القدم إلى هذا الحد وذلك يعنى بالتالى التسليم بأن الأفراد الذين تضمهم تلك الظاهرة الآن ــ أى الإسرائيليين ــ إنما يرجع تاريخهم إلى تلك النقاط الموغلة فى القدم أيضا ، أو بعبارة أكثر تحديد أن الإسرائيليين المعاصرين ليسوا الا امتدادا لذلك الجنس اليهودى القديم الذى حدثتنا عنه الكتب السماوية ولذلك فلا بأس فى أن نرجع موقفا يتخذه إسرائيليو اليوم إلى واقعة وردت فى أسفار العهد القديم . ولاضير فى أن نرجع تصرفاً يتخذه رجل الشارع الإسرائيلى عام ١٩٧٠م إلى رواية نقلتها إلينا التوراة عن سلوك الشعب اليهودى فى موقف معين حدث آنذاك .

ولابد لنا هنا من تفرقة بين التاريخ كواقع شخصى للأفراد ، والتاريخ كواقع مادى للأمم ، والتاريخ كواقع سيكلوجى ، فالتاريخ كواقع مادى لشعب من الشعوب هو تلك الأحداث المتتالية التى وقعت لذلك الشعب تاركة آثارها على أفراده . ومن خلال وحدة تلك التأثيرات يتحول ذلك الواقع المادى إلى واقع سيكلوجى بأن تقوم الأجيال المتعاقبة لذلك الشعب بنقل تلك التأثيرات فى وحدتها من جيل إلى آخر ومن هنا ينشأ ما يسمى بالإحساس بالتاريخ أو ما يمكن أن نطلق عليه التاريخ كواقع سيكلوجى . فنحن نقول مثلا « نحن هزمنا الهكسوس » فى حين أن أحدا منا لم يشهد ذلك الانتصار ولم يشارك فيه أى أن ذلك الانتصار لم يدخل ضمن أحداث التاريخ الشخصى لأى منا . أن ما حدث بالدقة هو أن واقعة الانتصار على الهكسوس كانت واقعا شخصيا للأفراد الذين عاصروها ، ونتيجة لارتباطها بما سبقها وماتلاها من أحداث وقعت لشعبنا تحولت إلى جزء من التاريخ كواقع مادى تاريخى لأمتنا ، ثم من خلال عملية التنشئة الاجتماعية التى اكتسبنا من خلالها عاداتنا وتقاليدنا وأنماط سلوكنا ، اكتسبنا أيضا أننا

مصريون أى إننا أصحاب ذلك التاريخ. أى إن التاريخ قد تحول من خلال عملية التنشئة الاجتماعية من واقع مادى إلى واقع سيكلوجى ولمزيد من التفسير لما نعنى بتلك التفرقة لنتصور فرداً ينتمى لحضارة معينة لها تاريخ معين، أقدم فى شبابه على الهجرة إلى وطن جديد له حضارة أخرى وتاريخ آخر. وأمضى صاحبنا ردحاً طويلاً من الزمن فى ذلك الوطن الجديد وأخذ ــ اضطراراً أو اختياراً ــ يشعر بحاجة إلى الانتماء إلى ذلك الوطن، وشيئا فشيئا تحول ذلك الإحساس بحاجته إلى الانتماء إلى إنتماء فعلى بحيث أصبح ذلك المواطن الجديد متوحدا بذلك الوطن الجديد. يحزن لما يصيبه من كوارث. ويفرح لما يحرزه من تقدم. يفزع من الهجوم عليه ويهب للذود عنه. ويستاء من التهجم عليه ويتصدى للدفاع عنه. مثل ذلك الشخص ترى ماذا يكون إحساسه بتاريخ وطنه الجديد؟ لابأس مطلقا فيما نرى من أن نعتبر تاريخ ذلك الوطن الجديد أصبح بالنسبة له واقعا سيكلوجيا. وإن لم يكن فى استطاعتنا بحال أن نعتبر أن ذلك التاريخ قد أصبح يمثل بالنسبة له واقعا ماديا. ورب من يتساءل، وما الفرق؟ التاريخ أحداث مضت وانقضت ولاسبيل لأن تمارس تأثيرها على الأفراد إلا كواقع سيكلوجى أليس كذلك؟ والإجابة على ذلك السؤال تدخل بنا فى صميم موضوعنا، أعنى قضية التنشئة الاجتماعية فالتاريخ يمارس تأثيره على الأفراد كأفراد من خلال نوع من التعلم تتكفل به عملية التنشئة الاجتماعية التى تجرى فى المجتمع. المجتمع يعلم أفراده أنهم ينتمون إلى ذلك التاريخ بعينه وليس إلى تاريخ سواه وفيما يتعلق بصاحبنا ووطنه الجديد فأنه قد أعيد تعليمه من جديد. أى إنه قد تعرض شيئا فشيئا لعملية تنشئة اجتماعية جديدة اكتسب من خلالها قيما جديدة. وعادات جديدة وأساليب جديدة للتفكير والسلوك. ومن خلال تلك

العملية نما شعوره بالانتماء لذلك الوطن الجديد، ونما احساسه السيكلوجى بتاريخ ذلك الوطن الجديد أيضا. ولا ينبغى لنا أن نتصور ذلك باعتباره عملية بسيطة تتخذ طريقها فى يسر، ولا أنه عملية أحادية الاتجاه بمعنى أن الفرد يتخذ من عملية تنشئته اجتماعيا موقف التلقى السلبى فالأمر أبعد مايكون عن ذلك. أن عادات وقيم وأفكار الفرد القديمة أعنى تلك التى اكتسبها فى وطنه القديم تظل تقاوم ذلك التغير الجديد ونادراً مايتم الأمر على الصورة التى آثرنا —تبسيطا— أن نصوره بها، ولكن ما يعنينا هو أنه حتى إذا ماسلمنا جدلا بامكان أن يتم الأمر على هذه الصورة بالفعل، فإن قضية إمكانه تظل متوقفه ومشروطة بنجاح عملية التنشئة الاجتماعية الجديدة التى تعرض لها هذا الفرد وذلك يعنى أن تحول التاريخ من واقع مادى إلى واقع سيكلوجى لايمكن أن يتم إلا من خلال عملية «تعليم» أو تنشئة اجتماعية. وبذلك فإننا لانستطيع ببساطة أن نسلم بإن هناك واقعا تاريخيا ماديا واحدا متصلا منذ نشأ اليهودية حتى اليوم يجمع بين اليهود السوفييت واليهود الأمريكيين واليهود اليمنيين واليهود الألمان مثلا. ولايوجد حتى بين أشد الكتاب الصهاينة تعسفا وتعصبا من يدعى مثل ذلك صراحة. كل ما هنالك أنهم حين يتحدثون عن تاريخ موغل فى القدم للإسرائيليين المعاصرين، فإنهم يتحدثون عن ذلك بوصفه واقعا تاريخيا سيكلوجيا. وذلك أمر يتنافى فيما نرى مع طبيعة الواقع التاريخى السيكلوجى إذ إننا لو سلمنا بأن التاريخ كواقع مادى لم يكن واحدا بالنسبة لليهود جميعا، فإن علينا أن نسلم بالتالى بأن تنشئتهم الإجتماعية لم تكن واحدة مهما بلغ حظها من التشابه. أن عادات وتقاليد وقيم اليهود من أبناء اليمن أقرب قطعا إلى قيم اليمنيين —مهما كان اختلافهم عنهم— من قربها إلى تقاليد وعادات وقيم اليهود من أبناء تشيكوسلوفاكيا —مهما كان اقترابهم منهم. اليهودى

الألمانى أقرب —فيما نرى— إلى المسيحى الألمانى منه إلى اليهودى من أبناء جنوب أفريقيا. ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى ما جاء فى كتاب تاريخ العصور الوسطى الصادر فى كمبريدج من أن يهود قرطبة وهم أكثر الجاليات اليهودية نفوذا فى أسبانيا، قد أخذوا عن العرب زيهم ولغتهم وعاداتهم (٦٠، ص ١٧)، وما ورد كذلك فى دراسة وانيتروب من إشارات إلى احتفاظ الأسرة الكردية اليهودية بعاداتها المميزة عن بقية الأسر اليهودية فى إسرائيل. ورغم ما انتهى إليه من القول بأن تلك الفروق آخذة طريقها إلى الذوبان فى إسرائيل، فأن ذلك الذوبان حتى لو سلمنا بحدوثه لا يعنى أن تلك الفروق لم تكن موجودة أصلاً (٥٥). ذلك هو الفهم الوحيد الذى يقدم تفسيراً علمياً لما يسلم الجميع بأن إسرائيل تعانى منه أشد المعاناة ألا وهو محاولة التقريب أو الدمج بين الجماعات العرقية المختلفة. ولعل ذلك موضوع جدير ببحث مستقل. لو سلمنا بكل ذلك لأصبح من التعسف الذى يبعد بنا قطعاً عن الصواب أن نصطنع لإسرائيل اليوم تاريخاً موغلاً فى القدم إلى هذا الحد وإن كان لمثل ذلك الاصطناع —فيما نرى— هدفاً وغاية لدى غالبية القائمين به سوف نتعرض لها فيما بعد.

القضية التى كان لابد لنا من حسمها أولا لنستطيع المضى فى دراستنا هى بالتحديد: هل أولئك الذين نواجههم اليوم فى صراعنا المصيرى مع إسرائيل هم امتداد مادى أو سيكلوجى لأولئك اليهود الذين حدثتنا عنهم الكتب السماوية؟ ويتوقف المسار الذى سوف يتخذه بحثنا على إجابتنا على ذلك السؤال. فلو كانت الإجابة بالإيجاب أى أن أولئك الإسرائيليين المعاصرين امتداد مادى أو سيكلوجى أو الاثنين معا لأولئك اليهود القدامى، كان علينا أن ننحو بدراستنا منحى محددا يستمد مادته من الكتب القديمة التى تعرضت

لنشأة الديانة اليهودية أو التى صاحبت تلك النشأة كالتوراة والتلمود وما إلى ذلك. أما إذا كانت الإجابة بالنفى أى إن أولئك الذين نواجههم اليوم فى إسرائيل ليسوا بحال مجرد امتداد لذلك «الجنس» اليهودى القديم لا ماديا ولا سيكلوجيا فإن علينا حينئذ أن نتصدى للبحث من جديد عن نقطة بداية لدراستنا. وواضح أننا قد أجبنا على ذلك السؤال بالنفى. ولكن ذلك لايعنى أن هناك إجماعاً على تلك الإجابة من قبل من تصدوا لذلك الموضوع بل أن الكثير من هؤلاء أميل إلى الإجابة بالإيجاب أى إلى اعتبار التاريخ الإسرائيلى متصلا منذ ظهور اليهودية حتى اليوم. ولا بأس من القاء نظرة سريعة على آراء هؤلاء وآراء المعارضين لهم لعلنا من خلال تلك النظرة نستبين طريقنا وصولا إلى نقطة مناسبة لبدايتنا.

تعتبر فكرة امتداد التاريخ الإسرائيلى إلى ذلك التاريخ الموغل فى القدم بمثابة حجر الزاوية لدى جميع المفكرين الصهاينة بلا استثناء فسيسيل روث يبدأ كتابه «تاريخ اليهود» (٢٤) بفصل يحمل عنوانا واضح الدلالة هو «إسرائيل من حوالى عام ١٦٠٠ ق. م إلى ٥٨٦ ق.م» وينحو هوارد مورلى ساخار نفس المنحى تقريباً فى كتابه «مسار التاريخ اليهود الحديث» (٢٥) أما ترود فايس روز مارين فإنها تزيد الأمر وضوحا فى كتابها «انتصار اليهود فى صراع البقاء» (٢٩) فتعرض لفكرة غريبة عن القومية مؤداها أن اليهودية دين وقومية فى الوقت نفسه وأن اللغة العبرية هى أولى مقومات الأمة اليهودية وأن ثانى تلك المقومات هو الولاء الحضارى. ويقول بنتوفتش فى كتابه «فلسطين» أن عراقة الصهيونية إنما ترجع إلى زمان هدم الهيكل ووقوع الشعب اليهودى فى أسر بنوخذ نصر (٢ ص. ٦) ويقول بن جوريون فى مذكراته «منذ آلاف السنين» ورغبة اليهود فى العودة إلى

إسرائيل لا تموت (٥٧ ص ١١٢) ولسوف يتضح فيما بعد أن ذلك الحرص من جانب الكتاب الصهاينة على اصطناع مثل ذلك التاريخ القديم لإسرائيل حرص مفهوم تماماً وله ما يبرره ولكن الظاهرة الجديرة بالتأمل حقا أن تلك الفكرة تلقى صدى واسعا لدى الكثير من مفكرينا حتى أنها قد أصبحت تكاد تشكل سمة مشتركة فى نظرتنا إلى الظاهرة الإسرائيلية تشمل حتى من يتناول تاريخ اليهود كمدخل لتناوله قضية أخرى كما فعل صبرى جرجس فى كتابه «التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى» (٦٥) والذى بلغ تمسكه فيه بتلك الفكرة حد أقدامه على مناقشة أفكار التحليل النفسى التى شهدها مطلع القرن العشرين باعتبارها تعبيراً عن فكر صهيونى بالغ القدم يمتد إلى آلاف السنين. وكذلك فقد كان التسليم بفكرة امتداد التاريخ اليهودى إلى الزمن الغابر القديم هو السائد أيضا فى أفكار عدد كبير ممن تناولوا القضية الفلسطينية. فيقول مثلا محمد فرج فى كتابه ـ الذى يسميه رغم ذلك ـ فلسطين عربية «ونحن لا نعنى بذلك أن الصهيونية كفكرة وجدت فى القرن التاسع عشر فقط، فهى فكرة قديمة تمتد جذورها إلى الوقت الذى شرد فيه اليهود من فلسطين فيما قبل الميلاد، وكان اليهود منذ هذا الوقت قد آمنوا بفكرة العودة إلى صهيون ورددوا هذه الفكرة فى صلواتهم وأناشيدهم» (٧١، ص ٣٦) أما عبد الراجحى فانه فى كتابه «الشخصية الإسرائيلية» يقول فى وضوح لا يقبل اللبس «لقد دأبنا جميعا فى الفترة الماضية على التمييز بين اليهودية والصهيونية... والواقع إننا بهذا وقعنا فى خطأ كبير، ذلك أن الدارس الموضوعى لحياة الشعب الإسرائيلى يعلم أن هناك حقيقة هامة لا ينكرها باحث بل لا ينكرها الإسرائيليون أنفسهم فضلا عن أنهم يعتزون بها ويدعون لها وهى أن الإسرائيلية واليهودية والصهيونية ألفاظ

مترادفة لمعنى واحد» (٦٧ ، ص ٩) وهكذا يصبح تمسك الإسرائيليين بدعاواهم واعتزازهم بها ودعوتهم لها مدعاة ومبرراً لأن ننظر نحن إلى تلك الدعاوى باعتبارها حقيقة هامة لا يصح أن ينكرها الدارس الموضوعى. هذا مع ملاحظة إن ذلك الكتاب قد صدر عام ١٩٦٩ م أى بعد أن مضى على نكسة يونيو عامان. أو ما يقرب من ذلك. ليست هذه سوى نماذج تعبر عن تلك الفكرة التى دعى إليها مفكروا الصهيونية لدافع واضح سوف نتناوله تفصيلا فيما بعد، وتبناها عدد كبير من كتابنا العرب لأسباب لا نشك لحظة فى أنها تختلف عن دوافع الإسرائيليين وأن كانت تحتاج ــ فيما نرى ــ إلى بعض التفسير. يبدو أن هؤلاء الباحثين قد أرادوا أن يضيفوا إلى سيئات وجرائم الإسرائيليين تراثا طويلا بالغ الضخامة من السيئات والجرائم التى تبدأ بالموقف من المسيح بل لعلها تبدأ بالخروج على موسى. ولم يتنبه هؤلاء الباحثون إلى ما أسدوه بالفعل إلى إسرائيل من خدمة جليلة بتأكيدهم أن لها ذلك التراث الطويل مهما كانت وجهة نظرهم هم فى مخازيه.

ويتخذ محمود بن الشريف فى كتيب له بعنوان «اليهود فى القرآن» موقفا متناقضا فيستشهد فى مقدمته بفكرة من كتيب لجمال حمدان بعنوان اليهود انثروبولوجيا يقول فيها أن يهود التوراة قد اختفوا كشبح (٧٢، ص ٩) وهو يستشهد بها مؤيداً لما تشير إليه بطبيعة الحال، ثم لا يلبث وبنفس التأييد أن يستشهد بفقرة لعزة دروزه فى كتابه «سيرة الرسول» يتحدث فيها عن أن المرء إذ ينظر إلى اليهود يكاد يرى فيهم إجمالا صورة طبق الأصل ــ يصفها الكاتب بأنها جبلة خاصة ــ لما عرف عنهم منذ قديم وأن أخلاقهم تلك متوارثة فيهم جيلا عن جيل وعلى امتداد القرون المتطاولة منذ أسفار العهد القديم (٧٢، ص ٥٢، ص ٥٣).

وعلى أى حال فإن ذلك لاينفى أن وجهة النظر المقابلة أعنى فكرة أن أولئك الذين نواجههم اليوم كأسرائيليين ليسوا بحال امتداداً للجنس اليهودى القديم ــ وجهة النظر هذه لاتعدم أنصاراً. فرغما عن عدم اتفاقنا تماما مع جان بول سارتر فيما تضمنه كتابه «اليهود والمعادى للسامية» (٢٦) إلا أن ذلك الإختلاف لاينفى حقيقة أنه يرى هناك أجناسا يهودية متعددة وأنه ليس ثمة وجود لتراث يهودى واحد ولا لتاريخ يهودى واحد أما يورى إيفانوف فإنه يحدد موقفه بوضوح فى كتابه الصهيونية حذار، فيقول: «لقد استهلت الصهيونية نشاطها المنظم بالتزييف. فهى لم ترضى بتاريخ ميلادها لهذا راحت الدوائر الصهيونية والمشايعة لها تنشر على أوسع نطاق خرافة مؤداها أن الصهيونية التى تدعو لإقامة دولة يهودية هى ظاهرة قديمة قدم العالم ذلك أن اليهود على امتداد آلاف السنين، كانوا دوما يحلمون بيوم العودة إلى فلسطين والمثير حقا أن هذه المزاعم لاتزال قائمة حتى أيامنا هذه (٦٠ ص ٥) ويتبنى إسماعيل صبرى عبدالله نفس الفكرة تقريبا فى كتابه «فى مواجهة إسرائيل» (ص ٥٨).

تلك هى أبرز الأراء التى تتبنى كلا من هذين الاتجاهين فى النظر إلى تاريخ أولئك الإسرائيليين المعاصرين، اتجاه يرجع بذلك التاريخ إلى أبعد مما يمكن أن يحتمله المنطق والاتجاه الآخر يرفض الاتجاه الأول ولكنه لايقدم لبحثنا هذا حلاً واضحاً أعنى أنه لايشير إلى ما يمكن أن نعتبره نقطة بداية لهذا البحث. ويبدو أن علينا أن نوالى البحث عن نقطة البداية تلك، ولقد أسفرنا بحثنا عن نقطة البداية هذه عن التصور التالى: **إن الإسرائيلين المعاصرين وهم الذين يواجهونا حاليا يضمون فى حدود وجودهم كمعاصرين عدة أجيال، مازال على قمتها من حيث السن على الأقل مجموعة من أولئك المهاجرين القدامى الذين قامت على أكتافهم**

دولة إسرائيل. فلتكن نقطة بدايتنا إذن الخصائص السيكلوجية لأولئك الرواد. كيف تكونت؟ وفى ظل أية ظروف؟ وكيف نمت وتطورت إلى أن أصبحت على ما هى عليه الآن؟ وما هى صورة تفاعها الحالى وممارستها المستقبلة ؟.

الخصائص السيكلوجية لأولئك الرواد. كيف تكونت؟ وفى ظل أية ظروف؟ وكيف نمت وتطورت إلى أن أصبحت على ما هى عليه الآن؟ وما هى صورة تفاعلها الحالى وممارستها المستقبلة ؟.

لقد خلصت بنا دراستنا إلى أن نضع أيدينا على خاصتين سيكلوجيتين ميزتا ذلك الجيل من الرواد أو بالتحديد ميزتا المناخ الذى تمت فيه تنشئة ذلك الجيل إجتماعيا ولا بأس – فيما نرى – من الناحية المنهجية من أن نبدأ بعرض موجز لهاتين الخاصتين ثم نأخذ بعد ذلك فى إعادة استقراءنا للتراث محاولين التعرف على حدود فعالية هاتين الخاصتين ومدى تأثيرهما.

الخاصية الأولى التى نعنيها هى ما يمكن أن نطلق عليه الشعور بالتمايز أو بعبارة أخرى الشعور بالاختلاف عن الآخرين. ولقد اتخذت تلك الخاصية لدى الصهاينة فى البداية شكل اعتناق فكرة النقاء العنصرى ثم تعددت أشكالها بعد ذلك على النحو الذى سوف نفصله فيما بعد كما استمدت تلك الخاصية تدعيما لها من اعتناق الكثيرين لأفكار مؤداها تمايز الجنس اليهودى أيضا، وأن اتخذ ذلك التمايز اتجاها سلبيا بمعنى القول بأن اليهود أسوأ البشر وأنهم عنصر فاسد وما إلى ذلك من أفكار تعنى فى النهاية أنهم مختلفون عن بقية البشر أى متمايزون عنهم.

الخاصية الثانية التى نعنيها هى ما يمكن أن نطلق عليه «الشعور بالاضطهاد» ونحن مرة أخرى لايعنينا فى هذا المقام الاضطهاد الفعلى

وقوعه أو عدم وقوعه. ولكن ما يعنينا حقيقة هو الإحساس بهذا الاضطهاد حتى ولو كان ذلك الاضطهاد فى حد ذاته أمراً متوهماً.

هاتان هما الخاصيتان اللتان كان لهما – فيما نرى – الدور الأكبر فى صياغة التكوين السيكلوجى لأولئك الذين قدموا من الغرب وبالتحديد من وسط أوروبا وشرقها إلى فلسطين فى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين والذين قامت على أكتافهم دولة إسرائيل، والذين تصدوا لصنع «مجتمع إسرائيلى». وتحديدنا لهاتين الخاصيتين إنما يعنى أن التنشئة الاجتماعية التى تعرضت لها تلك المجموعة من اليهود التى عاشت فى تلك الفترة وفى ذلك المكان كانت تنطلق من هاتين الخاصيتين وتدور حول تدعيمها بحيث إننا نجد فيهما التفسير لغالبية عادات وتقاليد وتصرفات تلك المجموعة أو بعبارة أخرى إننا نجد فيهما الإجابة عن السؤال: لماذا اتخذت شخصيات تلك المجموعة ذلك الطابع بالذات كطابع سائد أو مشترك بين أفرادها؟ وبحيث إننا إذا نحينا هاتين الخاصيتين أو أى منهما تعذر علينا مثل ذلك التفسير.

وعلى أى حال فإن الفيصل فى صحة ما وصلنا إليه هو أن نحاول تفسير سلوك هؤلاء فى ضوء هاتين الخاصيتين وإلى أن نضع أيدينا على ما سوف تسفر عنه تلك المحاولة ليس أمامنا إلا أن نقبل وجودهما كإفتراض علمى خاضع للفحص والتفنيد.

عنصر التمايز

يحمل لنا التاريخ نموذجين لانكاد نجد من يتناول قضية تمايز مجموعة معينة من الناس عن بقية البشر إلا ويشير إليهما أيا ما كان موقفه من قضية التمايز ذاتها، أو من قضية هذا النموذج أو ذاك. النموذج الأول هو التمايز الألمانى، أو إذا تحرينا الدقة فهى قضية التمايز النازى التى استمدت جذرها من فكرة نقاء الجنس الآرى. والنموذج الثانى هو التمايز اليهودى ومرة أخرى فلو شئنا الدقة فهى قضية التمايز الصهيونى التى استمدت جذرها من فكرة نقاء الجنس اليهودى. ولقد فضلنا أن نستخدم تعبير التمايز مهملين عن عمد تعبيرين آخرين يبدو للوهلة الأولى إنهما يعبران عن نفس المشكلة أعنى تعبيرى «الامتياز» و «النقاء العنصرى» مؤثرين استخدام تعبير «التمايز» وذلك لأنه ــ فيما نرى ــ أنسب لما نعنيه. فالأمتياز يعنى التفوق أو لنقل أنه نوع إيجابى من أنواع التمايز، الذى يشير لدينا إلى معنى أرحب حيث يعنى الإحساس بالإختلاف عن بقية البشر جميعا صحيح أنه قد وقر فى الأذهان ربما لشيوع النموذج الألمانى أن إحساس شعب ما بالتمايز لايمكن أن يكون إلا أحساساً منه بالإمتياز، وذلك من حيث دلالته السيكلوجية على الأقل ليس صحيحا. ولسوف يتضح لنا ذلك فيما بعد. ويكفى أن نشير فى عجالة ودون خوض فى التفاصيل إلى أن ثمة علاقة وثيقة تربط من الناحية السيكلوجية بين الإحساس بالدونيه والإحساس بالتفوق بحيث

يصعب على المرء أن يحدد للوهلة الأولى طبيعة تلك العلاقة وما إذا كانت علاقة سبب بنتيجة، أو علاقة جوهر بمظهر، أو إنها مجرد علاقة تآن أو تتالٍ زمني. ولكن، ورغم تلك الصعوبة، فإن أحداً من أهل الإختصاص في علم النفس لاينفي قيام تلك العلاقة الوثيقة والتى سوف نتطرق فى بحثنا إلى تناولها مرة أخرى بشىء من التفصيل.

صحيح أننا نتحدث عن جماعات، وصحيح كذلك أننا قد استشهدنا للتدليل على وجهة نظرنا بمجال يبدو وكأنه يختص أكثر مايختص بالأفراد، أعنى مجال علم النفس. وذلك أمر ينبغي أن ينجلى تماما منذ البداية، فنحن لانعنى بذلك الاستشهاد ولا بغيره مما سوف يرد كثيراً فى بحثنا أن ما يصح على الفرد يصح بالتالى على الجماعة أو على المجتمع ولكن ما نعنيه بالدقة هو أن مانحن بصدده من تناول قضية التمايز الصهيونى إنما ينصب أساساً على شعور لدى الصهاينة بأنهم يختلفون عن سواهم. ونعنى بالصهاينة هنا أولئك الأفراد الذين اكتسبوا الفكر الصهيونى وتعلموه من خلال أحداث واقعهم وموقفهم من تلك الأحداث ورغم تعدد وتشابك الأسباب التى أدت إلى نشأة الفكر الصهيونى فى زمن معين وفى مكان معين ولدى أفراد معينين ورغم أن دراسة تلك الأسباب تدخل فى اختصاص علوم أخرى عديدة ومتشابكة وعلى رأسها علم الاقتصاد مثلا. رغم صحة كل ذلك فإن تأثير كل تلك الأسباب لابد وأن يتخذ سبيله إلى داخل الأفراد لكى يحدث التأثير الذى نحن بصدده من احساس بالتمايز. وبالتالى فإن ما يفرضه الواقع من تعقد فى الظواهر الإنسانية ــ بل والطبيعية كذلك ــ يجعل من الضرورى دراستها من جوانب متعددة. فوقوع أزمة اقتصادية فى بلد معين مثلا، يمكن أن يكون موضوعا لعالم متخصص فى علم الاقتصاد وتكون الآثار المترتبة عليها، بالنسبة للمجتمع موضوعا لما يمكن أن

يتناوله المتخصص فى علم الاجتماع كما أن آثارها على تصرفات الأفراد يمكن أن تكون موضوعا يتناوله المتخصص فى علم النفس (٧٥) . ولذلك فقد فضلنا بالتالى ألا نستخدم تعبير (النقاء العنصرى) حيث أنه لايدل إلا على اتجاه واحد للتمايز من الاتجاه نحو الشعور بالإمتياز فضلا عن أنه حتى فى تلك الحدود لايعبر تعبيراً شاملاً عن كافة نواحى ذلك الشعور. فليس الاعتقاد بالنقاء العنصرى سوى صورة واحدة يتخذها الميل الإيجابى أى التمايز . ولقد اتخذ ذلك الميل بالنسبة للصهاينة صوراً عديدة بالفعل سوف نشرع على الفور فى تناولها .

المقصود أصلاً بفكرة النقاء العنصرى القول بأن أفراد جماعة معينة يختلفون عن غيرهم من أفراد الجماعات الأخرى ككل من حيث نقاؤهم وراثيا . بمعنى إنهم كجماعة لم يتعرضوا لما تعرض له غيرهم من تداخل بين السلالات المختلفة . ويترتب على ذلك أننا ما دمنا قد سلمنا بنقاء تلك الجماعة من حيث وراثة الخصائص البدنية فالأدعى ــ وذلك هو الهدف عادة أن نسلم بنقائها كذلك من حيث القدرات العقلية والخصائص النفسية وما إلى ذلك ولابد لنا هنا من تسجيل ملاحظة هامة سوف نعود إليها فيما بعد وهى أن من يتبنى فكرة النقاء العنصرى لبنى جنسه لايصعب عليه مطلقا التسليم بنقاء الأجناس الأخرى أو نقاء بعضها . وليس المقصود بالنقاء هنا طبعا حكم قيمة بمعنى أنه لا يقصد به رقى ذلك الجنس أو إنحطاطه . بل أن ما يقصد به أحيانا بالفعل هو أن ذلك الجنس أو تلك الشعوب قد حافظت على نقاء « دونيتها » . ولعل خير نموذج لذلك أن فكرة نقاء العنصر الآرى كانت تقبل بل تنادى بفكرة « نقاء » العنصر اليهودى كفكرة لصيقة بها لا تتعارض معها بل تكملها . ومن ناحية أخرى فالأدلة كثيرة أيضا على أن القول بنقاء عنصر سلالى معين بهذا المعنى لا يلزم القائل به بالتسليم

بنقاء عنصره هو، فموقف المتعصبين الأمريكين البيض من الزنوج مثلا إنما يعنى فى جوهره التسليم «بنقاء» العنصر الزنجى دون أن يتقضى ذلك بحال تسليماً بنقاء العنصر الأمريكى الأبيض بالذات.

وعلى أى حال فإن فكرة النقاء العنصرى للجنس اليهودى لم تعد بالفكرة السائدة الأن. لقد كانت صورة اتخذتها فكرة التمايز لفترة من الوقت ثم لما لم تصمد أمام تقدم فروع معينة من التخصص العلمى كالانثروبولوجيا وعلم النفس ولما لم تصمد أيضا لكثير من الاعتبارات السياسية والاقتصادية المعقدة خفت صوتها وتراجعت عن مركز الصدارة حتى أن جاكوب تالمون ذو الأصل البولندى وأحد أساتذة التاريخ البارزين فى الجامعة العبرية يقول فى حديث أدلى به لاموسى المون المحرر فى هاآرتس أكبر الصحف اليومية فى تل أبيب فى مطلع عام ١٩٧٠ «أننى لاستنكر فكرة سيادة اليهود عنصريا على غيرهم فهى فكرة تتعارض مع الصورة التى ترسبت لدى عن اليهودية، كذلك لأن نماذج الأمم الأخرى تجعلنى أخشى ما يتهدد النسيج الخلقى والتوازن النفسى والقيم الروحية من أخطار تكمن فى فكرة السلالة السائدة» (٥١) وإن كان ذلك لايعنى إندثار تلك الفكرة نهائيا فهى بكل تأكيد مازالت ضمن تراث أفكار العامة من اليهود أو من غير اليهود. ولعل ذلك ضمن الأسباب التى جعلت التصدى لتنفيذها مازال مستمراً بصورة أو بأخرى فى مجال علم النفس بخاصة. ويحضرنا فى هذا الصدد مايقوله عالم النفس الشهير الألمانى النشأة البريطانى الجنسية، اليهودى الديانة هانز ايزنك فى كتابه الحقيقة والوهم فى علم النفس مفسراً إقدام علماء النفس المتخصصون فى علم النفس الإجتماعى بالتحديد على دراسة قضية مدى موضوعية تمايز اليهود فيقول «إن أغلب الناس سواء من اليهود أو من المعادين للسامية يزعمون أن اليهود يكونون نوعا ما من المجموعات البيولوجية وأنهم يختلفون عن أغلبية

الأوروبيين والأمريكيين فى تكوينهم الجسمانى، أى أن لهم أنوفا من نوع معين، وشعرا من نوع معين، وطريقة معينة فى الكلام وهكذا، فهل هذا صحيح؟» (٥٩، ص ٥١). ويمضى ابزنك مقدما من خبراته الشخصية فى ظلّ حكم النازى، ومن نتائج التجارب العلمية التى أجريت فى علم النفس الاجتماعى ما ينفى نفيا تاما بطريقة التجريب العلمى المضبوط إمكانية تمييز اليهود عن غيرهم سواء من خلال صورهم أوأحاديثهم أو حتى التعامل معهم وسواء كان الشخص القائم بالتمييز منعصبا ضدهم أو متعاطفا معهم أو محايداً حيالهم.

خفت إذن صوت فكرة النقاء العنصرى للجنس اليهودى ولكن ظهرت محلها أفكار تعادلها سيكلوجيا بمعنى أنها تعبر عن نفس القضية أعنى قضية تمايز اليهود. وينبغى أن نشير هنا إلى أن تلك الأفكار لم تتخذ مساراً زمنياً متسقا بحيث يمكننا القول بأن تلك الفكرة قد ظهرت أولا ثم تلتها تلك وهكذا، بل أن الأقرب إلى ما حدث بالفعل هو أن تلك الأفكار كانت مصاحبة لفكرة النقاء العنصرى للجنس اليهودى بل إنها كانت فى الواقع بمثابة الامتدادات لها فى مجالات مختلفة. وكل ماحدث هو إنتقال التركيز من تلك الفكرة إلى فكرة أخرى وثانية وثالثة وهكذا دون أن يعنى ذلك اندثارا نهائيا لأى منها. وتتراوح تلك الأفكار بين الغموض والوضوح وتتعدد مجالاتها فتنصب حينا على التمايز العقلى وحينا آخر على التمايز الجسمى وحينا تتركز على التمايز الانفعالى وهكذا. ومن أمثلة الأفكار الغامضة تلك الفكرة التى أشار إليها عرضا ليونارد فاين فى كتابه المعنون السياسة فى إسرائيل والقائلة بأن مفهوم اليهودى فى حد ذاته يثير إحساسا لايمكن تلافيه بالقرابة المشتركة والتاريخ المشترك (١٢) أما سيسيل روث فى كتابه تاريخ اليهود (٢٤) فرغم عدم دفاعه صراحة عن فكرة نقاء العنصر اليهودى فإنه يتبنى فكرة

مؤداها فى النهاية أن «النمط اليهودى» يتميز بقصر قامته، وانحنائه. هذا رغم حرص سيسل على إرجاع ذلك التمايز إلى أسباب لا تمت بصلة إلى فكرة نقاء العنصر اليهودى إذ يرجعه إلى طبيعة الحياة التى عاشوها فى أحياء الجيتو والتى استمرت لقرنين من الزمان، متفقا فى ذلك مع ما يذهب إليه جمال حمدان فى كتيبه المعنون اليهود انثروبولوجيا من أن الصفات البدنية الخاصة بسحنة الوجه المميزة لليهود ليست سوى تعبير اجتماعى مكتسب من حياة الجيتو والتشرد والضياع (٦١ ص ٦٥).

أما الفكرة الرئيسية التى تصدرت ــ فيما نرى ــ كافة الأفكار الأخرى فى الحلول محل فكرة نقاء العنصر اليهودى والقيام بنفس دورها فهى فكرة تفوق اليهود عقليا ولعل خير من عبر عن تلك الفكرة هو المؤرخ الأسرائيلى الشهير هوارد موللى ساخار فى كتابه مسار التاريخ اليهودى الحديث الذى خصص الفصل التاسع عشر منه والمعنون تأثير اليهود على الحضارة الغربية (٢٥، ص ٣٩٤ إلى ص ٤٤٨) لعرض تلك الفكرة وتقديم الأدلة والبراهين عليها. ويشير ساخار فى مستهل الفصل إلى قصة قصيرة نشرها هوجوتور البروتستانتى المذهب النمسوى الجنسية عام ١٩٢٦ بعنوان مدينة بلا يهود تروى حكاية حاكم قرر استبعاد اليهود من الحياة فى العاصمة نظرا لسيطرتهم على كافة مجالات الحياة فيها، ونفذ ذلك بالفعل. فإذا بالمدينة تكاد تتحول إلى موات. البنوك تقفل أبوابها. والمسارح ودور الباليه تنهى نشاطها. وكذلك الحال بالنسبة للمستشفيات والمكتبات ودور النشر والمحاكم أيضا. ويبلغ الشلل ذروته إلى حد يجبر الحاكم على التراجع عن قراره وإعادة اليهود إلى الحياة العامة ويرى ساخار فى تلك القصة استبصاراً عميقاً بحالة وسط أوروبا فى ذلك الوقت ويمضى ساخار دون كلل فى عرض الأرقام والنسب

المئوية الدالة فى رأيه على أن مكانة اليهود العلمية تفوق ما تكفله لهم نسبتهم العددية بأضعاف مضاعفة مرجعا ذلك إلى أن أهم الصفات التى نميز العقلية اليهودية عن غيرها هى الرغبة فى الإبداع وصياغة الأفكار الجديدة والوقوف فى وجه الأفكار القديمة.

يتضح من كل ذلك أن أفكاراً عديدة قد صاحبت فكرة النقاء للعنصر اليهودى بل وأصبحت أكثر منها بروزا وسيادة وما يعنينا هو أن تلك الأفكار جميعا تدور حول محور واحد هو التسليم بأن اليهود متميزون عن سواهم، متفوقون عليهم من الناحية العقلية أساسا. وإن ذلك التميز العقلى لليهود يتخذ صورته الواضحة فى تميزهم المهنى بمعنى أن تفوق اليهود فى مهن معينة فى وسط أوروبا لم يكن بالأمر الراجع إلى المصادفة مطلقا. بل إنه يرجع إلى الظروف السياسية والاقتصادية من ناحية وإلى ما يتميز به اليهود من خصائص من ناحية أخرى فمن حيث الظروف السياسية والاقتصادية السائدة عند نهاية الحرب العالمية الأولى يرى ساخار أن الفئات العليا من النبلاء واليونكرز فى النمسا كانت ما تزال ممسكة بمقاليد الأمور، ولكنها كانت منشغلة تماما بمشكلة بقائها سياسيا واقتصاديا بشكل لم تعد معه قادرة على الاهتمام بأمور الفن والعلم مما أدى إلى تركها ذلك كله للطبقة الوسطى، ومن بين تلك الطبقة البرجوازية كان اليهود ــ فى رأيه ــ هم الأقدر على القيام بذلك الدور لأسباب ثلاثة تتعلق بهم:

أولا: رغبتهم فى التحرر مما يعانون منه من تحيز اقتصادى ضدهم وذلك بلجوئهم إلى المهن الحرة. وأنسب تلك المهن من وجهة نظرهم، ومن حيث ظروفهم أيضا هى تلك التى لا تحتاج إلى رأسمال. وفى مقدمتها الطب والقانون.

ثانيا : هناك سبب كامن فى الديانة اليهودية نفسها ، فهى ديانة ترى أن هذا العالم هو نهاية المطاف ولذلك فعلى مر التاريخ اليهودى ارتبطت الكهانة بالعلم بحيث أصبح من المسلم به أن الدراسة إنما هى نوع من العبادة بالمعنى الحرفى.

ثالثا : لقد اكتشف الكثير من اليهود الموهوبين إن مجرد الثراء لايكفل لهم المساواة الاجتماعية بغيرهم فى حين أن التفوق فى الفن والأدب يكفل لهم مثل تلك المساواة.

تلك هى فكرة ساخار التى عرضناها بشىء من التفصيل باعتبارها نموذجا للفكر الذى يقول بامتياز اليهود وتفوقهم على غيرهم. ويجدر بنا أن نلاحظ أن نمو ذلك الفكر قد صاحبه نمو فكر آخر يقول بحقارة اليهود ودناءتهم وخسة طباعهم. وإذا امتدت نظرتنا قليلا استطعنا أن نتبين أن القول بإمتياز اليهود وتفوقهم قد وجد قمة التعبير عنه فى الفكر الصهيونى، كما وجد القول بدناءة اليهود وخستهم قمة التعبير عنه فى الفكر النازى. ورغم ما يبدو بين الفكرين من إختلاف يوحى بأنهما على طرفى نقيض إلا أن نظرة متأنية إلى جوهرهما كفيلة بأن تؤكد أنهما طرفا محور واحد أو بعبارة أخرى أنهما وجهان لعملة واحدة لاغنى لأحدهما عن الأخرى. ويكفى أن نشير إلى قول ملفورد سبيرو فى كتابه أطفال الكيبوتز«أننا نرى ــ متفقين فى ذلك مع حزقيال كوفمان فى مقاله المنشور عام ١٩٤٩ بعنوان «الصهيونية وما تضمنه من أنماط جامدة لمعاداة السامية ــ إن التعصب المعادى للسامية لصيق بنفس منطق النظرية الصهيونية الكلاسيكية» (٢٧ ص ٣٩٢). وليس ذلك بالأمر الغريب فالفكرين ــ النازى والصهيونى ــ يلتقيان فيما يتعلق بنظرتها إلى اليهود فى نقطتين أساسيتين : الأولى : أن لليهود تاريخا

طويلاً ممتداً، **الثانية**: أن اليهود فى العالم أجمع تضمهم سلالة نقية واحدة وبالتالى فإن لهم صفات واحدة ويتميزون بخصائص واحدة.

ولسنا بمعرض التفنيد التفصيلى لهاتين المسلمتين اللتين يرتكن إليهما الفكر الصهيونى والفكر النازى فلقد تكفلت الانثروبولوجيا بدحض النقطة الأولى وإنتفى بالتالى جانب كبير من النقطة الثانية. وبقى أن نتساءل من الناحية السيكلوجية: فلنسلم جدلا بذلك التفوق العقلى لليهود، وليكن حقيقة أو وهما. ترى أيمكن أن يكون ذلك التفوق شاملا لليهود جميعا فى أنحاء العالم؟ إن الأمثلة التى ساقها ساخار والتى يسوقها غيره من مؤرخى اليهود للتدليل على التفوق اليهودى كانت كلها أمثلة أوروبية وبالتحديد من أواسط وشرق أوروبا ـ ماذا عن بقية العالم إذن؟ يشير جوداه ماتراس مدرس علم النفس والاجتماع فى الجامعة العبرية فى معرض حديثه عن البنيان الاجتماعى للجماعات اليهودية فى الفصل الأول من كتابه التغير الاجتماعى فى إسرائيل (١٩ ص ١ إلى ص ١٩)، يشير إلى أن المعرفة بالبنيان الاجتماعى للمجموعات اليهودية فى البلدان الإسلامية أقل بكثير عما نعرفه عن ذلك البنيان بالنسبة ليهود «البلدان الأوروبية» ثم يمضى مستعرضا للبحوث التى استهدفت دراسة تلك المجموعات مستخلصا فى النهاية أن المجموعات اليهودية فى تلك البلدان كانت تتميز بانخفاض مستواها الاقتصادى والتعليمى والصحى. أين التفوق إذن؟ لقد اتضحت بذلك القضية. أن التفوق اليهودى كان قاصراً على يهود أوروبا إذن ولنا بالتالى أن نستنتج أن الإحساس بالتفوق كان إحساسا يهوديا أوروبيا وليس يهوديا فحسب. أى أن يهود أوروبا وبالتحديد وسط أوروبا وشرقها كانوا هم الذين شعروا بشكل حاد بتفوقهم على سواهم. وليكن ذلك حقيقة أو

وهما ، ولتكن أسبابه ما تكون . الذى يعنينا هو ــ من ناحية ــ حقيقة وجوده كشعور، فذلك يكفى من حيث تأثيره السيكلوجى ومن ناحية أخرى حقيقة كونه مركزاً فى وسط وشرقى أوروبا فلذلك دلالته فيما يتصل ببحثنا .

لقد اتضح إذن أن الشعور بالتفوق لم يكن بالشعور العام الذى يشمل اليهود جميعا فى شتى أنحاء العالم ، بل كان متركزا فى يهود وسط وشرقى أوروبا . ونحن نعلم أن غالبية جيل الحالوتس الذى أخذنا تنشئته الاجتماعية كنقطة لبداية بحثنا قد هاجر إلى فلسطين من وسط وشرقى أوروبا ، وبالتالى فإن لنا أن نسلم بأن عنصر الشعور بالتفوق كان ضمن العناصر الأساسية التى تضمنتها تنشئتهم الاجتماعية وبالتالى أصبح ضمن مكونات تركيبهم السيكلوجى

عنصر الاضطهاد

إن ما لقيته فكرة «أن اليهود مضطهدون» من تدعيم وإبراز وإلحاح من جانب الفكر الصهيوني منذ نشأة ذلك الفكر وحتى الآن يفوق ما لقيته أي فكرة أخرى فالمفكرون الصهاينة على إختلاف آرائهم وعلى تباين مجالات اهتمامهم وعلى تنوع أساليبهم يجمعون إجماعا يسترعى الانتباه على أن اليهود مضطهدون وقد يختلف هؤلاء المفكرين فى القول بأن اليهود «جنس» أو «قومية» أو «جماعة دينية» وقد يختلفون فى مجالات اهتماماتهم الأساسية من السياسة إلى التاريخ إلى الأدب. وقد تتنوع أساليبهم فى كل ذلك من النقاش الهادىء إلى المناورة السياسية إلى القتال المسلح ولكنهم فى كل ذلك ومع كل ذلك يتفقون على فكرة واحدة يعبرون عنها جميعا تلميحا أو تصريحا مؤداها أن اليهود جميعا قد تعرضوا لتيار من الاضطهاد والعذاب بدأ منذ تاريخ موغل فى القدم ومازالت آثاره مستمرة حتى الآن. ولعلنا لا نجانب الصواب إذا ما قلنا أن مالقيته تلك الفكرة من إلحاح مستمر يفوق كل تصور من جانب المفكرين الصهاينة لم يكن هو المبرر الوحيد من الناحية السيكلوجية لانتشارها وامتداد جذورها إلى هذا الحد. فلقد لقيت تلك الفكرة تدعيما آخر من فكرة أخرى نشأت خارج الفكر الصهيوني بل يبدو للوهلة الأولى وكأنها نقيض لذلك الفكر، أعنى فكرة أن اليهود هم سبب كل شرور العالم وخلف كل كارثة حلت أو ستحل بالبشرية.

وإذا ماكان لنا أن نتردد حيال تحديد نوع العلاقة التى تربط بين هاتين الفكرتين ، وما إذا كانت علاقة سبب بنتيجة أو علاقة فعل برد فعل أو علاقة تآن ، أو تتال ، أو تناظر فإن الشيء الجلى والذى لاينبغى أن يكون حياله أدنى تردد هو أن هاتان الفكرتان .تعبران عن نفس الحقيقة السيكلوجية وتخدمان نفس الهدف السيكلوجى ، مانعنيه بالدقة هو أن مناداه الفكر الصهيونى بأن اليهود لقوا وما زالوا يلقون عنتا واضطهادا منذ وجدوا حتى اليوم تلك المناداة تجد فى القول « بأن اليهود هم سبب كل شرور العالم » دليلا على ذلك العنت والاضطهاد . وهو دليل يكتسب قوته من صدوره من الجانب الذى يعد نقيضا للفكر الصهيونى ولعل حرص الصهاينة على أن يظل ذلك الدليل محتفظا بقوته ـــ أعنى بأنه صادر عن جانب مناقض للفكر الصهيونى ـــ هو مايفسر حرصهم الذى لايعادله حرص آخر ـــ فى المجال الفكرى ـــ على إبراز أنهم نقيض النازية وضحاياها . ولعل ذلك الحرص هو الذى يفسر ـــ فى المجال الفكرى أيضا ـــ إصرار إسرائيل المعاصرة دائما وفى كل وقت على تذكير العالم بما فعلته بهم النازية (٤١) ولا ينفى ذلك بطبيعة الحال ما يقدمه ذلك الحرص أيضا من فوائد مادية للوجود الإسرائيلى . بل أنه ليس سوى تصوير للجانب الفكرى لتلك الفوائد . لقد حرص الفكر الصهيونى إذن حرصا شديدا على اضفاء صورة التناقض على طبيعة العلاقة بين مصدرى هاتين الفكرتين ، أعنى النازية كمصدر لفكرة « أن اليهود سبب كل شرور العالم » والصهيونية كمصدر لفكرة « أن اليهود مضطهدون » والحقيقة أنها علاقة ظاهرها التناقض وباطنها التطابق

ولايعنينا فى هذا المقام وفى حدود بحثنا أن نبحث ما إذا كان ثمة اضطهاد حقيقى قد وقع على « اليهود » بهذا المعنى . وإذا كان ذلك

حقا فما مداه ومن المتسبب فيه، هم أم غيرهم؟ أم أن الأمر كله لايخرج عن حدود الوهم الخالص؟ فلن يقلل من قيمة ما نذهب إليه أن يثبت التاريخ فعلا أن ثمة اضطهادا قد لحق باليهود فى مكان معين وزمان معين. فليس ذلك بالأمر الغريب، بل أنه لايكاد يخلو تاريخ شعب من الشعوب من اضطهاد وقع عليه بشكل ما، وفى وقت ما، دون أن يكون لذلك دلالة تستدعى العجب. وعلى أى حال فليس ذلك بمجال هو جوهر الفكر الصهيونى. أن جوهره فى هذا الخصوص هو إن مثل ذلك الاضطهاد قد توافرت له أبعاد ثلاثة: بعد الامتداد التاريخى بمعنى امتداد ذلك الاضطهاد واستمراره منذ وجد اليهود حتى الآن من العصور القديمة إلى العصور الوسطى إلى العصر الحديث. أى أن «اليهود دائما مضطهدون» والبعد الثانى هو بعد الامتداد الجغرافى بمعنى أن ذلك الاضطهاد قد شمل اليهود جميعا مهما تباعدت بينهم شقة المكان ومهما تباينت الأوطان التى اتخذوها مستقراً لهم. يستوى فى ذلك يهود الشرق مع يهود الغرب. أى أن «اليهود مضطهدون أينما وجدوا». أما البعد الثالث فهو بعد الفارق الكيفى بمعنى أن الاضطهاد الذى وقع على اليهود لايعادله اضطهاد وقع على سواهم فى أى زمان ولا مكان. أى أن «لم يلق أحدا مالقيه اليهود من عنت». ويكفى أن نشير إلى تعقيب يورى ايفانوف فى كتاب الصهيونية حذار، على تلك القضية بقوله «فى اعتقادنا أن التأكيد بأن شعبا ما أو قومية معينة قد قاست من العذاب أكثر من أى شعب آخر فى العالم على امتداد التاريخ الإنسانى كله لا يعنى فقط تشويه الواقع التاريخى جريا وراء اثارة نعرات التعصب القومى الذميم، بل هو أيضاً انزلاق بالغ الخطورة إلى مواقع العنصرية». (٦٠، ص ٢٤).

إن مايعنينا ببساطة هو أن تلك الفكرة بوجهيها كانت تمثل الواقع السيكلوجى لمجموعة معينة من اليهود فى زمان ومكان معينين، وما نعنيه

بأن تلك الفكرة كانت تمثل واقعا سيكلوجيا لدى هؤلاء أنها قد دخلت فى نسيج تكوين شخصيتهم عن طريق ماتلقوه خلال تنشئتهم الاجتماعية بالمعنى الذى سبق أن حددناه لها. أى أن تلك الفكرة كانت ضمن المحاور التى تدور حولها عاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم وأنماط سلوكهم، ولسوف يتضح لنا ذلك فيما بعد. ونستطيع أن نتبين فى فكرة الاضطهاد هذه كما يقدمها الفكر الصهيونى صوراً أربعاً متتالية تاريخيا:

اولا: يتجه أصحاب الفكر الصهيونى إنطلاقا من أن اضطهاد اليهود أمر يرجع إلى تاريخ موغل فى القدم إلى البحث عن صور لذلك الاضطهاد فى العصر القديم. ولا تعييهم مهمة البحث والعثور على العديد من الصور التى تمثل ذلك الاضطهاد. ولعل أقدم تلك الصور جميعا وأوهاها حجة هى التى تحظى بالقدر الأكبر من تركيز واهتمام مفكرى الصهاينة. وأعنى الرجوع بالاضطهاد لليهود إلى عصر الشتات البابلى أى بالتحديد الرجوع باضطهادهم إلى عصر «طردهم» من فلسطين وليست دلالة إختيار تلك الصورة بالذات محلا لمزيد من الاهتمام والتركيز بالأمر الذى يغيب على فطنة أحد.

ثانيا: لم يكن بد لكى يستقيم الفكر الصهيونى وتتسق دعاواه من أن يجد صوراً لاستمرار اضطهاد اليهود فى العصور الوسطى. ولم يجد بغيته إلا فى احياء الجيتو وما لاقاه اليهود فيها من عنت ضاربيا صفحا عن حقيقة أن إقامة مثل تلك الأحياء لم تكن بالظاهرة التى تعرض لها اليهود فى كافة أنحاء العالم بنفس الصورة فضلا عن أن القول بأن اقامتها قد تمت قسرا أمر لم يجمع عليه المفكرون الصهاينة أنفسهم (٢٤) بل أننا لانعدم لدى أولئك

المفكرين من يمضى فى سرد المزايا التى عادت على اليهود من جراء إقامتهم فى تلك الأحياء (٢٤، ٢٩). رغم كل ذلك فقد مضى الفكر الصهيونى مبرزا ما لاقاه اليهود من عنت تلك الأحياء مما صادفوه من عذاب.

ثالثا: وجد الفكر الصهيونى ضالته بهذا الخصوص فى العصر الحديث متمثلة فيما أقدم عليه هتلر من إجراءات وحشية حيال اليهود فى ظل الحكم النازى. فلم يمل مفكروا الصهيونية من الحديث مرارا وتكرارا عن تفاصيل ما لاقاه اليهود من عذاب فى معسكرات الاعتقال النازية. مئات الكتب وآلاف المقالات وملايين الصور والقصص عن تفاصيل بشاعة مالاقاه اليهود فى تلك المعسكرات. وكأن تلك المعسكرات النازية ــ مع تسليمنا ببشاعة ما جرى فيها بالفعل ــ لم تكن قاصرة على رقعة محددة هى تلك التى بسطت النازية سيطرتها عليها وعلى عصر محدد هو عصر النازية. لقد صور الفكر الصهيونى تلك المعسكرات وكأنها شملت العالم كله وكان من فيها هم يهود ذلك العالم جميعا، ضاربا صفحا عن حقيقة تاريخية ثابتة أجمع عليها مؤرخو تلك الحقبة جميعا على إختلاف مشاربهم واتجاهاتهم وهى أن العسف النازى الهتلرى رغم أنه كان مركزا على اليهود أساسا إلا أنه لم يكن قاصرا عليهم وحدهم بل تعرضت له أيضا كافة القوى الديمقراطية التى استطاعت يد النازية أن تنالها. ولم يكن ذلك العسف أيضا شاملا لكل اليهود الألمان رغم ضخامة عدد ضحاياهم فيه، بل أنه لم يعد سرا اليوم ما كان من اتصالات فعلية بين «الوكالة اليهودية» وبين القائمين على المجهود الحربى النازى، بل أن جون كيمشى قد أشار إليه فى كتابه الشهير

الطرق السرية The secret roads فضلا عما أسفرت عنه محاكمات ايخمان من وقائع تسير فى نفس الاتجاه أو تشير إليه أعنى تأكيد وجود مثل تلك الاتصالات وكان من بين الذين يتصدرون الحركة الصهيونية العالمية آنذاك حاييم وايزمان وناحوم جولدمان وليفى أشكول وبن جوريون بل وجولدا مائير أيضا .

رابعا: لم يكف الفكر الصهيونى عن محاولته مد فكرة أن اليهود مضطهدون حتى إلى ما بعد إنتهاء فترة عسف النازية باليهود ، بل إلى ما بعد إنتزاع اليهود قسرا لفلسطين العربية وإقامتهم لدولة إسرائيل . بل حتى إلى ما بعد ما أسفرت عنه حرب يونيو سنة ١٩٦٧ بعد كل ذلك ما زال الفكر الصهيونى حتى يومنا هذا لايفتأ يكرر دون ملل أن « اليهود مضطهدون » ومن يضطهدهم هذه المرة هم العرب . صحيح أن مهمة الفكر الصهيونى قد ازدادت صعوبة وبعدا عن المنطق . ولكن من ينظر إلى الصحف والمجلات الإسرائيلية . ويتأمل ما تحمله من مشاعر الخوف ومظاهر الفزع لدى الإسرائيليين من العرب لايملك إلا أن يتعجب ولكن عجبه سرعان ما يتلاشى إذا ماوضع أمام عينيه طبيعة الصورة التى يريد لها الفكر الصهيونى أن تستقر فى عقل العالم الخارجى بعامة ، وعقل من فيه من اليهود بوجه خاص . وأهم من ذلك كله سعيه إلى أن تستقر تلك الصورة فى أذهان اليهود الإسرائيليين أنفسهم . قد يكون لنشر مثل تلك الصورة فى الخارج ضرورات سياسية واقتصادية شتى بالنسبة للوجود الإسرائيلى ولكننا إذا مانظرنا للأمر من الناحية السيكلوجية لما وجدنا أن تدعيم تلك الصورة يمت بسبب

قريب أو بعيد لتهديد عربى حقيقى مباشر لكيان إسرائيل . بل إنه من الناحية السيكلوجية ــ ودون تعارض أو تعرض لبقية المبررات ــ ليس سوى حرص من الفكر الصهيونى المعاصر على الاحتفاظ بعنصر رئيسى من عناصر التكوين السيكلوجى الإسرائيلى المعاصر حيث لامكان فى ذلك التكوين ليهودى منتصر بل إن كل ما يسمح به هو صورة ليهودى يرد إعتداء أو يستعد لحماية نفسه من اعتداء . وإذا لم يكن فى الواقع ثمة إعتداء ولا تهديد باعتداء فلا بأس من الايهام بكل ذلك ولتذوى سريعا صورة « انتصار اليهود » لتحل محلها صورة « مخافة اعتداء العرب » ــ وإذا شئنا تبسيطا للقضية فإن « اليهودى المنتصر » إنما يعنى بالفعل فى إطار الفكر الصهيونى أن اليهودى لم يعد يهوديا أو بعبارة أخرى أن التكوين السيكلوجى القديم « لليهودى » قد انهار ، وحينئذ يصبح على الفكر الصهيونى الإقدام على عملية بالغة الصعوبة والتعقيد وهى تشكيل تكوين سيكلوجى جديد لليهودى الاسرائيلى . وعلى أى حال فإن تلك العملية ــ أعنى عملية خلق شخصية يهودية جديدة ــ قد بدأت بوادرها بالفعل ولعل ذلك بصورة أو بأخرى ــ وهو موضوع بحثنا .

تلك هى الصور الأربع التى يقدمها الفكر الصهيونى مدللا على اضطهاد اليهود دائما وفى كل مكان وبصورة لم يشهدها أحد . ورغم مافى تلك الأدلة من تناقضات ورغم مايمكن أن يؤخذ على تلك الحجج من مثالب ، فإن كل ذلك لاينفى قط أن تلك الفكرة تشكل بالفعل ــ فيما نرى ــ محورا أساسيا للتكوين السيكلوجى لليهود الاسرائيليين ولو أعدنا النظر بامعان فى تلك الصور الأربع التى يقدمها

الفكر الصهيونى للاضطهاد – اليهودى – لوجدنا أن أكثر تلك الصور اتصالا بموضوعنا وأكثرها بالتالى حاجة لمزيد من الاهتمام هى صورة الجيتو بوصفها الصورة التى يقدمها الفكر الصهيونى لاضطهاد اليهود فى العصور الوسطى. وترجع الأهمية الخاصة – فيما نرى – لتلك الصورة بالذات إلى أسباب خمسة هى:

١ – أن تجمع اليهود فى أحياء منفصلة وبصرف النظر عن أسباب ذلك التجمع وعن حقيقة ما لقيه اليهود فى تلك الأحياء. كان مقدمة موضوعية وتعبيرا حقيقيا عن عدم ذوبان اليهود فى مجتمعاتهم الأصلية فى تلك المناطق. ولا تتأثر تلك القضية بما إذا كان ذلك نتيجة لرفض اليهود الذوبان أو رفض المجتمع له

٢ – إن تلك الصورة بالذات من صور الاضطهاد التى يقدمها الفكر الصهيونى كانت مقدمة للصورة التالية لها والتى قدمها ذلك الفكر أعنى الاضطهاد النازى لليهود وارتباط تلك الصورة الأخيرة بالجيل الحالى فى إسرائيل أمر غنى عن البيان.

٣ – إن أحياء الجيتو – فى بدايتها على الأقل – لم تكن بالسمة المميزة للحياة اليهودية فى العالم أجمع ولكنها كانت بالتحديد، وبالصورة التى يقدمها الفكر الصهيونى، بمثابة السمة المميزة بالفعل لحياة اليهود فى وسط وشرق أوروبا. وذلك يعنى ببساطة أن طابع الحياة فى الجيتو قد لعب دورا حاسما بالنسبة للجيل الذى اخترناه كنقطة بداية لبحثنا والذى نزح إلى إسرائيل من تلك المنطقة بالذات أو بالتحديد أن ذلك الطابع قد ترك أثره على عملية التنشئة الاجتماعية التى نما من خلالها أبناء ذلك الجيل أعنى جيل الحالوتس.

٤ ــ إن الكثير من الكتاب والباحثين ــ من الصهاينة وغيرهم ــ يفسرون الكثير من مظاهر الحياة المعاصرة فى إسرائيل وبخاصة الكيبوتزات باعتبارها نوعا من رد الفعل أو النفى لمظاهر الحياة الاجتماعية فى أحياء الجيتو وسوف نتعرض لذلك بالتفصيل فيما بعد.

٥ ــ إن تجربة الكيبوتزات فى إسرائيل وهى تجربة بالغة الدلالة فيما يتصل بعملية التنشئة الاجتماعية هناك قد كانت من صنع أولئك القادمين من وسط وشرق أوروبا بالتحديد حيث الوطن الحقيقى لظاهرة أحياء الجيتو.

الحياة فى الجيتو

إن المؤرخ البريطانى الجنسية، الصهيونى الميول وأستاذ الدراسات اليهودية فى جامعة أكسفورد سيسل روث يبالغ فى تقصية لنشأة الجيتو (٢٤، من ص ٢٧٣ إلى ص ٢٩٥) فيرجعه إلى مؤتمر لاتيران الثالث الذى انعقد عام ١١٧٩م، وهو واحد من خمسة مؤتمرات شهيرة عقدتها الكنيسة الغربية فى الفترة من ١١٢٣م إلى ١٥١٧م ـ فقد أوصى هذا المؤتمر بفصل المسيحيين عن اليهود. ولكن سيسيل روث لايلبث أن يقرر أن ذلك القرار قد استمر طويلا دون تطبيق. إلى أن أصدرت جمهورية فينيسيا عام ١٥١٦م أمراً بعزل يهود المدينة فى حى خاص عرف بادىء الأمر باسم[Ghetto Nuovo] أى المسبك الجديد، ثم أصبح اسمه بعد ذلك بقليل (Ghetto Vecchio) أى المسبك القديم ومنذ ذلك الحين انتشر اصطلاح الجيتو فى إيطاليا كلها حيث أقيمت قسرا أحياء لليهود. ذلك فى ايجاز مايورده سيسيل روث عن ظروف نشأة الجيتو وواضح أنه يرى أن تلك الأحياء قد أقيمت قسرا منذ نشأتها بل إنها حتى كفكرة أولى قد نبعت من مؤتمر عقدته الكنيسة الغربية فى القرن الثانى الميلادى ونادى بعزل اليهود أما هوارد مورلى ساخار الذى تلقى دراساته فى بريطانيا أيضا والذى يعمل مديراً لمعهد جاكوب هيات فى إسرائيل فإنه يتناول ظروف نشأة أحياء الجيتو (٢٥، ص ٢٥ إلى ص ٣٥) قائلا أنه لما يثير السخرية أن أول أحياء الجيتو الذى أقيم فى أسبانيا وسايلسيا فى العصور المبكرة قد أقيم بناء على طلب

اليهود أنفسهم كتعبير عن استقلالهم الذاتى وفى القرن السادس عشر فرضت أحياء الجيتو بالقوة من أعلى كنوع من التقييد المكانى وليس كمجرد تعبير مقبول عن الاستقلال الذاتى لليهود كأمر متفق عليه . لقد خلق البابا بول الرابع أول جيتو رسمى فى روما عام ١٥٥٥م وتبعه بقية الكاثوليك ثم البروتوستانت الألمان ولقد تحدد مكان الجيتو بالقرب من مصنع للبنادق (Giotto)ومن هنا استمد الجيتو اسمه .

نشأ الجيتو إذن بمعناه المتعارف عليه فى الفكر الصهيونى فى منتصف القرن السادس عشر رغم مايذهب إليه جمال حمدان من القول بأنه « طوال عصور التاريخ وفى كل البلاد والأقاليم ، ارتبط اليهود كقاعدة بلا استثناء بالعزلة السكنية فى حى خاص من المدينة : الجيتو (٦١/ص ٤٩) .

ويقدم سيسيل روث (٢٤) وصفا تفصيليا لصورة أحياء الجيتو آنذاك . كان حى الجيتو حيا منعزلا له بوابات مزودة بمزاليج من الداخل تغلق مع حلول الليل ، ويحظر بعد ذلك تماما تواجد أى يهودى خارجها أو أى مسيحى داخلها . وكانت منازل الجيتو تبدو أعلى من نظيرتها فى المدينة وذلك لأنه لم يكن مسموحا باتساع مساحة الجيتو عن القدر المحدد له وبالتالى فنظراً لما كان معروفا عن اليهود من خصوبة لم يكن هناك من حل إلا بالإرتفاع بالمبانى رأسيا لاستيعاب زيادة السكان ، وكثيرا ما أدى ذلك إلى انهيار المنازل وتحول احتفالات الزواج والخطوبة إلى نواح شامل . كما أدى ذلك أيضا إلى إنتشار الحرائق المدمرة . ويمضى سيسيل روث فى وصفه قائلاً إنه يبدو أن حوائط الجيتو لم تكن كافية فى حد ذاتها لعزل اليهود ولذلك فقد تم تدعيمها بعلامات مميزة لليهود تم فرضها فى مؤتمر لاتيران الرابع عام ١٢١٥م ، ولكنها ــ شأنها شأن إنشاء الجيتو نفسه ــ لم تستقر إلا خلال

القرن السادس عشر. لقد كان على اليهود فى إيطاليا مثلا إرتداء قبعة صفراء أو حمراء. وكان عليهم فى ألمانيا وضع شارة صفراء تثبت فوق الرداء عند موضع القلب. وكانت العقوبات توقع فورا إذا ما شوهد أحد اليهود غير واضع لتلك الشارة خارج الجيتو بل أن الأمر قد امتد فى بعض الأحيان إلى داخل الجيتو نفسه.

أما فيما يتعلق بالعلاقات الرسمية داخل الجيتو أى بتنظيم علاقات اليهود ببعضهم داخله فإن سيسل روث (٢٤) يقول أن الجيتو كان حكومة داخل الحكومة. لقد كانت له حكومته التى تمثل القاطنين فيه قضائيا وسياسيا وكانت تقف على رأس تلك الحكومة لجنة إشرافية صغيرة يتم انتخابها عن طريق قطاع أكبر يضم المساهمين الرئيسين فى الضرائب الذين يشكلون أشبه شيء بلجنة ثانوية مهمتها اتخاذ القرارات ذات الأهمية الخاصة. وبذلك فإن الفقراء وفقا لما يرى سيسل لم يكونوا ممثلين بأى شكل فى تلك الحكومة ــ بل أن القاطنين فى الجيتو فى بعض البلدان كانوا بعد استبعاد الفقراء منهم ينقسمون إلى أقسام ثلاثة وفقا لثروة كل فرد بحيث يصبح لكل قسم فى النهاية ثقلا موازيا لثقل القسم الآخر فى إدارة النظام.

ويزيد ساخار الأمر وضوحا فيشير (٢٥) إلى أنه كان من المفروض أن تقوم حكومة الجيتو على الانتخاب العام ولكن اليهود ليسو إلا أبناء عصرهم حيث كان المجتمع المسيحى ينقسم إلى طبقات ثلاث تبعا للثروة، وبالتالى فإن المجتمع اليهودى آنذاك كان مقسما إلى طبقات بحيث لم يكن يؤثر على مجرى الحياة فيه سوى إرادة ورغبة اليهود الموسورين فحسب.

حقا لقد كان اليهود أبناء عصرهم هكذا يقول ساخار ويتفق معه سيسيل روث وكأن ليس ثمة تناقض بين هذا القول والتمسك بأن

هناك تاريخا لليهود يتخذ مساره منفصلا عن العصر وعن المكان. وعلى أى حال فإن مسألة انقسام اليهود إلى أغنياء وفقراء وتمايز هؤلاء عن هؤلاء أمر لاينبغى أن تفوتنا دلالته، ولسوف نتناول أثاره بشيء من التفصيل عندما نتعرض لما غرسه الرواد الأوائل من قيم وتقاليد تجلت فى تجربة الكيبوتر بالتحديد. إن ذلك التمايز بين أغنياء اليهود وفقرائهم لم يكن محصورا داخل أحياء الجيتو بل أنه كان يتعداه إلى خارج حدود تلك الأحياء. يقول يورى ايفانوف بعد إشارته للمرسوم الذى أصدرته الامبراطورة كاترين الثانية امبراطورة روسيا عام ١٧٩٦م، والذى أدى إلى تحديد إقامة اليهود، أنه بعد فترة تاريخية قصيرة استطاعت العائلات اليهودية الواسعة الثراء والنفوذ تخطى أسوار الإقامة، وبناء القصور الفاخرة فى موسكو، وبطرسبورج، بينما بقيت داخل الأسوار عشرات ثم مئات الألوف من الكادحين اليهود الذين يعانون من الفقر والتعسف (٦٠/ص ٢٤) وتتفق تلك الإشارة مع ما أشار إليه جمال حمدان فى معرض حديثه من أن أحياء اليهود كانت تؤلف فى الغالب الأعم قطاعا من الأحياء الفقيرة فى المدن مستشهدا على ذلك بحى اليهود فى لندن ثم معقبا على ذلك بقوله «ومع ذلك فقد كان أغنياء اليهود يتعدون هذا الحضار ليعيشوا فى الأحياء الراقية غير اليهودية» (٦١/ص ٥٠).

أما عن طبيعة العلاقات الاقتصادية داخل الجيتو فإن سيسل روث (٢٤) يؤكد أن حكومة الجيتو كانت مسئولة تماما عن تنظيم الحياة الداخلية فيه بل أنه يشير تدليلا على ذلك إلى أن الجيتو فى براغ كانت له محكمة وسجنا. لقد كان موكولا لحكومة الجيتو النهوض بالأعباء المالية الملقاة على عاتق الجيتو. وفى مقدمتها جباية الضرائب التى كانت الحكومة تفرضها عاما بعد عام على اليهود ككل. هذا إلى

جانب المصاريف الداخلية المتمثلة فى تكاليف الإنفاق على المعبد وإعانة الفقراء، والمحافظة على المقابر ودفع أجور مختلف الموظفين. ولقد كانت الضرائب تجبى بشكل منتظم على رأس المال أو على الدخل أو عليهما معا. وكانت العقوبة فى حالة عدم الطاعة أو المروق هى الفصل من الانتماء للجماعة وهى عقوبة كانت فى ظل تلك الظروف السائدة فى الجيتو ـ تثير من الخوف قدرا أكبر مما تثيره أى عقوبة أخرى. وكانت حكومة الجيتو مسئولة فى نفس الوقت عن تنفيذ رغبات الحكومة الأكبر وقمع الاتجاهات المعارضة.

كانت تلك هى صورة تخطيطية عامة لطبيعة الحياة الداخلية فى أحياء الجيتو. بقى أن نتحدث عن علاقة مواطنى الجيتو بالشعوب المحيطة بهم من غير اليهود. لقد اتخذت اجراءات عديدة حيال اليهود، واتخذ اليهود مواقفا شتى حيال تلك الاجراءات وقد اخترنا لتناولنا تلك الأجراءات التى اتخذت حيال اليهود لتمييزهم عيانيا ـ أعنى تلك الاجراءات المتعلقة بتحديد الجيتو مكانا لإقامتهم، وفرض ارتداء شارات معينة على ملابسهم. وقد اخترنا تلك الاجراءات بالذات لأسباب ثلاثة هى:

١ ـ إن إجراءات تميز العيانى لليهود كانت بمثابة البداية المنطقية والفعلية أيضا لسلسلة الإجراءات التالية عليها والتى تناولت مثلا حظر اشتغال اليهود بحرف معينة، أو فرض ضرائب معينة عليهم بوصفهم يهودا، أو ما إلى ذلك.

٢ ـ إن تلك الإجراءات بما تتضمنه من تحديدات متعلقة بأماكن إقامة اليهود ونوع ملابسهم كانت بمثابة أول تعبير مادى عن اختلاف اليهود عن غيرهم وهى قضية لها أهميتها البالغة فيما نحن بصدده من بحث.

٣ ــ إن تلك الإجراءات كانت من الشمول بحيث نستطيع أن نقول مطمئنين إنها دخلت غالبية البيوت اليهودية آنذاك، بعكس بقية الإجراءات التى قد لاتؤثر بعنف إلا فيمن تمس مصالحه أو نشاطاته. وذلك يعنى بعبارة أخرى أن تلك الإجراءات قد تكون هى المادة الخام التى توافرت لدى جميع اليهود المقيمين في وسط وشرقى أوروبا آنذاك والتى تصلح لتشكيل جوهر عملية التنشئة الاجتماعية هناك

وقد سبق أن تعرضنا بشىء من التفصيل لطبيعة الإجراءات. وما يعنينا الأن هو مناقشة موقف اليهود منها: أن سيسل روث (٢٤) لايملك إلا أن يعترف بما يتصف به ذلك الموقف من تناقض. لقد حارب اليهود بشراسة ضد إقامة الجيتو عندما بدأت اقامته قسرا ثم إذا بهم فى بعض الأماكن فى ايطاليا يستمرون فى إقامة احتفال سنوى فى ذكرى تأسيس الجيتو. أى أنهم كانوا يحتفلون بذكرى إقامة حوائط الجيتو لابذكرى هدم تلك الحوائط. والأمر كذلك بالدقة فيا يتصل بالشارات المميزة التى فرض عليهم ارتداؤها قسرا. فقد ووجهت فى البداية بمقاومة عنيفة ورفض بالغ إلا أنها هى نفسها قد تحولت فى النهاية إلى موضع فخار، بل لقد استمر الكثير من اليهود المحافظين فى إرتدائها بعد أن كفت عن كونها مفروضة قسرا.

بذلك نكون قد تعرضنا بإيجاز شديد وبصورة عامة لطبيعة الظروف التى كانت تحيط بالحياة ثم لطبيعة العلاقة بين يهود الجيتو والاجراءات التى اتخذت لتمييزهم أو عزلهم. بقى أن نشير إلى انعكاس ذلك كله على موضوعنا وأعنى انعكاس كل تلك الظروف على الدور الذى لعبته مؤسسات التنشئة- الاجتماعية فى أحياء الجيتو فى وسط وشرقى أوروبا بالتحديد.

وأهم المؤسسات التى قامت بعملية التنشئة الاجتماعية آنذاك كانت مؤسستان : الأولى هى الأسرة والثانية هى المعبد . وفى الحقيقة فقد كان عمل المؤسستين متداخلا بدرجة تجعل من التعسف الفصل بينهما ولذلك فسوف نتناولها معا .

يقول سيسل روث (٢٤) أن حياة الأسرة اليهودية كانت تتميز آنذاك بدفء بالغ . وأن معاملة النساء كانت أكثر رقة من نظيرتها فى المجتمع المحيط من غير اليهود بل أن ضرب الزوجة كان يعتبر سلوكا خارجا عن الديانة اليهودية . بل أنه يمضى فى تصويره لحب الآباء والأمهات لأطفالهم فيذكر أن مسألة عقد الخطبة بين الأطفال كانت أمراً شائعاً آنذاك خوفا من وفاة الوالدين قبل أن يستطيعا اتخاذ التدابير اللازمة لكفالة سعادة صغارهم . وفيما نرى فانه ليس أبعد عن مجافاة المنطق فى هذا الصدد من ذلك التصور لحياة الأسرة فى أحياء الجيتو آنذاك . حياة مليئة بالضغوط من الخارج أعنى من غير اليهود . ثم هى مليئة بضغوط حكومة الجيتو المسئولة ـــ وفقا لحديث سيسل نفسه ـــ عن تنفيذ رغبات الحكومة الأكبر وقمع الاتجاهات المعارضة . ثم هى مليئة برعب الفصل من الانتماء للجماعة وهى عقوبة ـــ على حد قول سيسل نفسه أيضا ـــ كانت تثير قدرا من الخوف أكبر مما تثيره أى عقوبة أخرى . ثم هى فضلا عن ذلك حياة لجماعة منقسمة فعلا : أغنياء تمكنوا بفضل ثرائهم من اختراق حوائط الجيتو وتحقيق قدر ما من مسايرة حياة بقية المجتمع . وفقراء ظلوا وراء تلك الحوائط ينعمون بتلك الحياة التى يرى سيسل روث أنها كانت تتميز بالدفء البالغ . وعلى أى حال فإننا لن نركن إلى استنتاجاتنا المنطقية . يشير برونوبتلهايم المحلل النفسى اليهودى الألمانى النشأة الأمريكى الجنسية فى كتابه أطفال الحلم وفى معرض حديثه عن الأسباب التى أدت إلى نشأة

الكيبوتزات إلى أن ثمة حركة للشباب نشأت أساسا فى ألمانيا واتخذت لها اسم الطير المهاجر* كانت تسعى إلى الفرار من عالم الآباء «وهى الفكرة التى كانت تحظى بأكبر قدر من اقتناع شباب الجيتو آنذاك . لقد كانت هذه الحركة تمردا على تلك الأسر شديدة التسلط التى نشأ فيها ... الشباب» (٤، ص ٢١) ثم يشير برونوبتلهايم فى موضع آخر من كتابه إلى أن تحطيم الأسرة والتمرد عليها فى الكيبوتز يعد مظهرا من مظاهر الاحتجاج على الحياة فى الجيتو وفى مدن وسط أوروبا بالتحديد (٤، ص ٢٣) كما يشير ملفورد سبيرو إلى أن مؤسسوا الكيبوتز يعتقدون أن ـ التسلط الأبوى ـ هو الخاصية المميزة للأسرة الغربية التقليدية وإن نظام الكيبوتز إنما يأخذ على عاتقه تدمير تلك السلطة (٢٧، ص ١١) وتعبيرا عن أحاسيسها الشخصية تقول إحدى اليهوديات «لقد كان اتجاهي نحو والدى يتميز باحترام بالغ، ولكن ذلك الاحترام لم يكن ينقص من عنصر الخوف الشديد منه» (١٨، ص ٣) وإذا كان الأب فى مثل تلك الظروف أعنى ظروف الحياة فى الجيتو يتصف بالتسلط، فلننظر إلى موقف الأم فى مثل تلك الأسرة . لقد تحدث سيسل عن المعاملة الرقيقة التى كانت تلقاها وعن أن ضرب الزوجة كان يعتبر سلوكا خارجا عن الديانة اليهودية . تلك الديانة التى تحدث برونوبتلهايم عن نظرتها إلى المرأة قائلا ببساطة ومن قبيل التسجيل فحسب «إذا ما كانت اليهودية إمرأة فإنها ستشعر بمزيد من الحقد نحو ذلك الدين الذى يطالب الرجال بالصلاة شكرا لله كل يوم لأنه لم يخلقهم نساء» (٤، ص ٢٤) ويمضى برونو ليقرر إن حركة الكيبوتز قد اتخذت ضمن أهدافها الأساسية تحرير النساء وهو متفق فى ذلك مع الكثيرين من الكتاب اليهود بل والصهاينة أيضا (٤ و ٢٧، ٥٠).

---

* Wandervogel

لقد بدأنا حديثنا عن الأسرة فإذا بنا نتحدث فى النهاية عن الدين اليهودى، وليس ثمة غرابة فى ذلك فالمعبد والأسرة كانا يلعبان دورا واحدا تقريبا من حيث أهداف التنشئة الاجتماعية فى أحياء الجيتو آنذاك ولعل خير تعبير عن ذلك هو أن المعبد كان إلى جانب كونه مركزا لحياة الجيتو بالفعل، فإن وظيفته لم تكن دينية كهنوتية فحسب، بل كانت تتضمن دائما وظيفته كمدرسة، أى وظيفته التربوية. حيث كانت تقام فى كل جيتو وكملحق بالمعبد مدرسة مجانية تغطى تكاليفها من الهبات الاختيارية بحيث لايتكلف الآباء شيئا. كما إن التلاميذ الفقراء كانوا يتلقون عادة وجبات مجانية كما كانت توزع عليهم سنويا الأحذية والملابس فى الشتاء (٢٤).

كانت تلك هى خصائص حياة اليهود فى الجيتو فى وسط أوروبا آنذاك جدران عالية تفصل بينهم وبين المجتمع من حولهم. كثافة فى العدد تميزهم. ارتفاع فى منازلهم يميزها. شارات خاصة تفرق بينهم وبين غيرهم. حياة نموذجية لتنمية وتضخيم عنصر الإحساس بالتمايز. ثم إذا نظرنا من الناحية الأخرى لتلك الحياة لوجدناها حياة مليئة بالصراع. صراع مع ذلك المجتمع الذى فرض عليهم العزلة وفرض عليهم الضرائب وفرض عليهم مهناً معينة دون غيرها وفرض عليهم زياً معينا أو شارة معينة لابد لهم من ارتدائها. حياة نموذجية أيضا لتنمية وتضخيم الإحساس بالإضطهاد. وهما العنصران اللذان بدأنا بحثنا بهما بافتراض أنهما يمثلان العنصرين الرئيسيين لتكوين الشخصية الإسرائيلية. ولقد اتضح لنا من خلال استعراضنا للحياة فى الجيتو وخاصة من خلال استعراضنا لاستجابة اليهود للمواقف التى اتخذت حيالهم والتى لايخفى ماتعنيه لهم من أبعاد واضطهاد. اتضح لنا من خلال ذلك خاصية ميزت ذلك الموقف. ولعلنا سنصادف لها تأثيراً فيما بعد. أعنى أنهم

عندما وجهوا بعدوان قاوموه ، فلما لم يستطيعوا له صدا تغلبوا عليه بطريقة أخرى وهى اعتبار المرفوض مقبولا ، والمفروض مختارا . بدلا من أن يفرض الأخرون علينا السكنى فى ذلك الحى الحقير ، فلنقدم على تلك السكنى كما لو كنا قد اخترناها ولنعتبرها شرفا لايعادله شرف ولنحتفل بنوالنا ذلك الشرف كل عام . وبدلا من أن يفرض علينا الآخرون ارتداء تلك الشارات المميزة تحقيرا واذلالا . فلنحرص نحن على ارتدائها باختيارنا شرفا وفخارا . خاصية تبدو للوهلة الأولى كما لو كانت أمرا يستعصى على الفهم . ولكنا لو أمعنا فيها النظر لوجدنا أنها ما يسميه أهل الاختصاص فى علم النفس بعملية التوحد بالمعتدى كحل يحفظ للذات اتزانها فى مواجهة عدوان كاد أن يدمرها .

الجيتو وجيل الحالوتس

انتهت بذلك جولتنا داخل أحياء الجيتو فى وسط وشرقى أوروبا. ولم تكن تلك الحياة لتمضى دون أن تخلف أثارها على حياة من عاشوها من اليهود. ومن الباحثين من مضى بعيدا فى تصوير تلك الآثار حتى أن سيسل روث يشير إلى «أن قرنين من الحياة فى الجيتو الاجبارى كان لها آثارها بلا شك، فمن ناحية البنية تدهور النمط اليهودى لقد نقصت بوصات من قامته واكتسب انحناءة دائمة. لقد أصبح هيابا بل عصابيا فى كثير من الأحيان... لقد أصبحت المهن المهينة التى فرضت عليه فى البداية بالقانون بمثابة طبيعة ثانية له لا يستطيع منها خلاصا... لقد أصبح إحساسه بالتماسك مع إخوانه اليهود متضخما بشكل خيالى، ومصحوبا فى حالات كثيرة بشعور الأسى حيال غير اليهود الذين يتحملون مسئولية ما حدث له» (٢٤، ص ٢٧٣ إلى ص ٢٩٥) ويقول سيسل روث أيضا فى موضع آخر «لقد خلق التماسك الدينى والاجتماعى لليهود، والذى قواه الكره الذى لاقاه اليهود من قبل غير اليهود، خلق لديهم اتجاها نحو التجمع فى شارع أو فى حى معين من كل مدينة» (٢٤، ص ٢٠٣) ويشير جمال حمدان إلى نفس الاتجاه نحو التجمع فى المدن كما يتضح فى صورته المعاصرة فيذكر مثلا أن باريس وحدها تضم ٥٠٪ من يهود فرنسا وأن يهود اسطنبول يبلغون ٥٠ ألفا من ٦٠ ألفا هم مجموع يهود تركيا وهكذا (٦١، ص ٤٦). وعلى أى حال فإننا نجد تأكيدا لوجود تلك الصورة المعاصرة فى

إسـرائيل نفسها حيث يقدم لنا راندولف براهم فى كتابه المعنون إسـرائيل : نظام تربوى حديث من الإحصاءات الإسـرائيلية ما يدعم ذلك فيذكر أنه وفقا لأرقام تعداد إسـرائيل عام ١٩٦٢ فإن نسبة ٦ر٧٨٪ من سكان إسـرائيل يعيشون فى المدن ، ويعيش ثلث هؤلاء فى ثلاث مدن كبيرة هى تل أبيب وحيفا وأورشليم (٦ ، ص ٢) وتتفق تلك التقديرات مع ما يورده ماتراس جوداه فى كتابه التغير الاجتماعى فى إسـرائيل (١٩ جدول ص ٤٤) . أما برونوبتلهايم فيذكر فى كتابه أطفال الحلم وفى معرض حديثه عن مؤسسى الكيبوتزات وهم أساسا من يهود شرقى أوروبا متناولا الحياة فى الجيتو قائلا : أن ما يذكر لها (رغم قسوتها) من حسنات هو ما خلفته من روابط قربى وثيقة ، ومشاعر عميقة واضحة كثيرا ما تفصح عن نفسها بشكل تمثيلى ، فضلا عن الصلات الانفعالية العميقة بين الأطفال وذويهم (٤ ص ٢٧٦) .

فى ظلال تلك الحياة التى ألقينا الضوء ـــ قدر ما استطعنا ـــ على جوانبها المختلفة ، نشأ فى ذلك المكان أى فى وسط وشرقى أوروبا وذلك الزمان أعنى القرن التاسع عشر تقريبا جيل من اليهود ـــ هو جيل الحالوتس ـــ كان له أكبر الأثر فى « صنع » إسـرائيل ، وما زالت بصمات أفكار واتجاهات ذلك الجيل واضحة على مظاهر الحياة فى إسـرائيل اليوم بل ما زال أفراد من هذا الجيل يتصدرون الحياة الإسـرائيلية العامة حتى يومنا هذا . وربما تبدو للوهلة الأولى إن الشقة بعيدة بين أحياء الجيتو ـــ كما وصفناها ـــ وبين ذلك الجيل . وذلك انطباع خاطىء فيما نرى فأحياء الجيتو وأن كانت أقامتها جبريا قد بدأت فى منتصف القرن السادس عشر إلا أنها استمرت جبرية حتى نهاية القرن الثامن عشر هذا إذا ما اعتبرنا أن أسوار الجيتو قد انهارت بقيام الثورة الفرنسية . ولكن ذلك لا يعنى انتهاء السمات والخصائص

التى ميزت تلك الحياة. لقد أقيمت أحياء الجيتو بقرار من أعلى هذا صحيح ولكنها أصبحت واقعا ماديا ملموسا يعيشه اليهود بل يتمسكون به كما سبق أن أشرنا من قبل. ولذلك فإن تحطيم الأسوار الحجرية للجيتو حتى لو سلمنا بانجازه على الوجه الأكمل لم يكن يعنى بحال تحطيم الأسوار الاجتماعية لذلك الجيتو بل لعله ــ من الناحية النفسية ــ كان يعنى مزيدا من تدعيم تلك الحوائط بعد أن أحس سكان الجيتو بأنه لم يعد ثمة ما يكفل تمايزهم إلا تمسكهم هم بأنهم متمايزون عن غيرهم. ولذلك فليس غريبا أن تكون حركة الحالوتس وليده شرعية تماما لحياة الجيتو وذلك أيضا لا يعنى بحال اهدارا ولا إنكارا لبقية العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى حددت تكوين ومسار حركة الحالوتس بل أنه لا يعدو أن يكون تدعيما لها أو إبرازا لجانبها السيكلوجى.

إن أبرز ما يجمع بين أبناء جيل الحالوتس من الناحية الفعلية هو هجرتهم إلى فلسطين... ترى لماذا أقدم هؤلاء على النزوح من أوطانهم الأصلية؟ فلنتناول أولا ما يقدمه الفكر الغربى بعامة والصهيونى بخاصة تفسيرا لذلك النزوح.

يحدد ايزنشتادت أكبر علماء الاجتماع الإسرائيليين المعاصرين أن المجتمع اليهودى فى فلسطين (المسمى باليييشوف) وكذلك دولة إسرائيل، كل ذلك قد نما من خلال نشاطات الجماعات الصهيونية التى انبعثت فى تسعينات القرن التاسع عشر فى وسط وشرقى أوروبا (٢٣) كما يقول ايزنشتادت فى كتابه المجتمع الإسرائيلى واصفا تمرد تلك الجماعات على حياتهم هناك «لقد كان ذلك التمرد جزءا من الفوران الصهيونى العام ضد الحياة اليهودية فى الدياسبورا(١) الحديث وأيضا إلى حد ما تمردا ضد الحركة الصهيونية

(١) diaspora تعنى بالعبرية التيه.

الرسمية التى كان عليها التنازل عن العقائد الأساسية لايديولوجيتها حتى تتمكن من مد جذورها فى الحياة الطائفية لليهود. وقد كان التمرد الصهيونى العام موجها ضد الفرض القائل بإمكان استمرار الحياة والتقاليد اليهوديتين فى إطار مجتمع حديث غريب. أن هناك عقيدة جوهرية فى الايديولوجية الصهيونية مؤداها أنه فى داخل مثل ذلك الإطار فإن اليهود سوف يتهددهم أما الفناء الروحى والحضارى وذلك بتدمير القوى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الحديثة لحياتهم الطائفية ولعاداتهم، وإما الفناء اقتصاديا وسياسيا وبدنيا نظرا لأن المجتمع الحديث لايتمثل تماما بل ويعجز عن هضم هذا العنصر الغريب (١٠، ص٢ــص ٣) لقد نشأت حركة الحالوتس إذن فى مناخ طابعه التمرد والتهديد بالفناء والإحساس بالعزلة. تمرد على الحياة فى الجيتو، وتمرد على حكومة الجيتو. إحساس بأن الفناء يتهددهم روحيا وحضاريا واقتصاديا وسياسيا. اعتقاد راسخ بأن المجتمع الحديث لايمكن أن يتمثلهم ويهضمهم. ولا يلبث ايزنشتادت أن يتحدث عما استهدفه أولئك الحالوتس القدامى من هجرتهم فيقول «لم يكن المهاجرون اليهود الأوائل يستهدفون أهدافا اقتصادية أو أمنا شخصيا بل أن الأهداف كانت تخضع لآمال حضارية واجتماعية تدور حول إقامة نمط جديد من المجتمع اليهودى المقدس الحديث الذى يتصف أساسا بأنه ذاتى الحكم ومستقل اقتصاديا... لم يكن هدف المجتمع الجديد التحسينات الاقتصادية، ورفع مستوى المعيشة، بل تسوية البناء الاقتصادى للجماعة والقلب الكامل للبناء الاقتصادى اليهودى فى التيه (١٠، ص٤) ويبدو أن ايزنشتادت قد حرص على أن يرسم للحالوتس صورة نقية تماما من وجهة نظره. ويبدو أنه انطلاقا من تصوره أن وجود أهداف اقتصادية دفعت أو حتى أسهمت فى دفع الحالوتس إلى الهجرة قد يشوه تلك

الصورة قد حرص على نفى مثل تلك الأهداف تماما. ولكنه لم يستطع أن يستمر فى ذلك النفى طويلا. فبعد أن حدد أن أهدافهم كانت «تدور حول إقامة نمط جديد من المجتمع اليهودى المقدس الحديث» لم يجد مايصف به ذلك المجتمع المأمول إلا فى استخدام عبارات «الاستقلال الاقتصادى» و«تسوية البناء الاقتصادى والاجتماعى» و «القلب الكامل للبناء الاقتصادى اليهودى فى الدياسبورا» ولا نعتقد أن أيا من تلك الأهداف يبعد عن كونه هدفا اقتصاديا. ولايعنينا فى مجال بحثنا قضية الأهداف الاقتصادية فى حد ذاتها ولكنها تعنينا من زاوية أنها تكفل الأرضية المناسبة لتفسير مايقول به ايزنشتادت نفسه من تميز حياة أولئك الأفراد بأنها مليئة بمشاعر التمرد والرعب والعزلة، وعلى أى حال فإن مناحم بيجين الذى يعد فيما نرى من أبرز المعبرين عن روح حركة الحالوتس ــ وأن كان انتمائه الفعلى إلى تلك الحركة يمكن أن يكون محل مناقشة ــ يقول فى مقدمة كتابه الثورة: قصة الأرجون «أنه لأمر بديهى أنه ينبغى على من يقاتل أن يكره شيئا ما أو شخصا ما. ولقد قاتلنا. وكان علينا أن نكره أولا وابتداء ذلك الاستسلام الكامل والمرعب والمستمر الذى ميز قومنا اليهود دون مبرر. أولئك الذين جالوا لآلاف السنين فى عالم ملىء بالقسوة، والذين كان استسلامهم ذريعة لمن يحيطون بهم لكى يسخروا منهم» (١) ويهتم أهارون كلاينبرجر فى كتابه المجتمع والمدرسة والتقدم فى إسرائيل بإبراز الجانب الايديولوجى كدافع لهجرة الحالوتس فى إطار لايختلف كثيرا عن الإطار الذى قدمه ايزنشتادت والذى أشرنا إليه توا. يقول كلاينبرجر «أن من كانوا يعملون سابقا كطلبة ومحامين وأطباء ورجال أعمال وتجار وكتبة، إذا ماأقدم كل هؤلاء بحماس وفى ظل تلك الظروف على القيام بعمل بدنى شاق لم يعتادوا عليه من قبل كتجفيف

المستنقعات وتعبيد الطرق، وبناء المنازل، وفلاحة الأرض، فإن ذلك لدليل حى على قوة الأفكار» (١٦ ص ٩) أما جوديت شوفال فإنها تحاول تقديم المسألة نفسها فى صورة بحث تجريبى إحصائى بعنوان «دور الايديولوجية كأطار مرجعى مسبق للمهاجرين» يستهدف التوصل إلى حدود العلاقة بين اعتناق المهاجر للفكر الصهيونى، ومدى معرفته بأحوال إسرائيل، ومدى ما هو متوافر لديه من خطط واضحة لما سيفعله فيها. وقد أسفر البحث عن نتيجة مؤداها أنه كلما ازداد النشاط الصهيونى للمهاجر قبل الهجرة أو حتى بعدها زادت معلوماته عن إسرائيل، وزادت قدرته على استخدام تلك المعلومات استخداما جيدا لوضع خطة لبقائه هناك (٤٩).

كانت تلك هى أبرز الأفكار التى حاولت أن تصور المناخ الفكرى لجيل الحالوتس، وعلينا أولا أن نشير إلى حقيقة لاينبغى أن تغيب عنا وهى أن جيل الحالوتس لم يكن يمثل فى البداية على الأقل إلا نسبة محدودة من اليهود بعامة وحتى من يهود شرق أوروبا بالتحديد. ترى لماذا أقدم هؤلاء دون غيرهم على الهجرة؟ من هم أولئك الذين هاجروا؟ هل ثمة خصائص تميزهم عن غيرهم من يهود نفس الزمان ونفس المكان؟ لقد أفاض الكتاب من اليهود بخاصة فى ذكر ما يبدو وكأنه أدق التفاصيل المتعلقة بطبيعة كل موجة من موجات الهجرة ومنها طبعا تلك التى ضمت جيل الحالوتس. ولسنا بصدد التعرض لذلك السيل من التفصيلات والجداول والاحصاءات التى تفيض به الكتب (١٠) إن مايعنينا هو خصائص التكوين السيكلوجى لأولئك الحالوتس، ولكن كيف لنا بالوصول إلى ذلك؟ سبق أن أشرنا فى معرض حديثنا للموقف الذى اتخذه اليهود من اجراءات تمييزهم وذكرنا أنه كان موقفا

يتسم بالتناقض بمعنى أنهم قد حاربوا تلك الاجراءات فى البداية كأشرس ماتكون الحرب ثم انقلبوا بعد ذلك يتمسكون بها كأشد ما يكون التمسك، كان ذلك هو الموقف العام ولقد حان الوقت لنتساءل هل كان ذلك هو موقف الجميع؟ لاشك فيما نرى أنه لم يكن موقف الجميع بل كان موقف الأغلبية الساحقة ولكن ماذا عن موقف الأقلية؟ ليس أمامنا إلا أن نتصوره على نقيض ذلك. قد يفرض على تلك الأقلية ارتداء الشارات المميزة لليهود ولكن إحساسهم بالمهانة لاينقلب إلى إحساس بالفخار ولذلك فما أن تصبح الظروف مواتية للتحلل من ذلك الالتزام حتى يلقون بشاراتهم تلك غير نادمين. قد تجبر تلك الأقلية على الخضوع لما تفرضه حكومة الجيتو من نظم ولكنها تظل دائما تستشعر مرارة فى ذلك الخضوع، وما أن تلوح لها الفرصة حتى تنطلق متحللة من ارتباطها بتلك الحكومة. وقد تجبر تلك الأقلية على الإقامة قسرا فى أحياء الجيتو ولكنها لاتجعل من ذلك محلا مختارا لها، وما أن تواتيها فرصة الانطلاق منه حتى تنطلق دون تردد. بل أنه لمن المفهوم تماما من الناحية السيكلوجية أن تقدم تلك الأقلية ما أن تجد سبيلا إلى ذلك على التمرد والثورة على كل ما يمت بصلة لتلك الحياة... نظامها الأسرى... نظامها الدينى...نظامها التعليمى... نظامها التشريعى. أى بعبارة أخرى لو شئنا استخدام التعبير الاصطلاحى فإن تلك الأقلية لابد وأن تتخذ صورة الجماعة الخارجة عن التقاليد والعادات والقيم والأفكار والأنماط السلوكية الشائعة لدى الجماعة الأصلية التى تمثل الأغلبية. وما أن تواتى الفرصة ذلك الخروج الجماعى حتى يتخذ لنفسه صورة الجماعة الجديدة التى لاتربطها بالجماعة القديمة الأصلية سوى العداء والتناقض ولكن رب من يتساءل ما مغزى ذلك الحديث المسترسل عن أغلبية تخضع وأقلية

تثور وتتمرد وتبحث عن سبيل للانطلاق بعيداً ؟ إن تلك الأقلية ليست ــ فيما نرى ــ سوى الحالوتس وهم بذلك المعنى الذى فصلناه لابد وأن يكونوا جيلا من الرافضين لكل ما يمت بصلة لحياة الجيتو وفى مقدمة كل ذلك ارتضاء بنى قومهم للإجراءات المتخذة حيالهم وتوافقهم معها بالصورة التى أسلفنا الإشارة إليها . ولكن هل يتيح لنا ذلك القول بأن العناصر الأساسية لتكوينهم السيكلوجى تتناقض تماما مع عناصر التكوين السيكلوجى للغالبية التى أشرنا إليها ؟ لسنا نرى مبررا لافتراض حتمية ذلك التناقض ، لقد كان الإحساس بالتمايز والإحساس بالاضطهاد هما عنصرى التكوين النفسى الرئيسيين آنذاك ولقد وجد عنصر الإحساس بالتمايز لدى الأغلبية تعبيراً صادقاً عنه فى تمسكهم بالإقامة فى الجيتو وتمسكهم بارتداء الشارات حتى بعد أن أصبح فى وسعهم الإقلاع عن كل ذلك . أما عنصر الإحساس بالاضطهاد فيتجلى فى أصرح صورة فيما عرف عنهم من استسلام وخنوع حيال الإجراءات الموجهة ضدهم . كان يهود الأغلبية إذن يشعرون بالتمايز ويشعرون بالاضطهاد وكان هذا هما العنصران الرئيسيان فى تكوين شخصياتهم ماذا عن الأقلية إذن ؟ هل كانت على النقيض من ذلك حقا ؟ هل اختفى هذان العنصران وحلت محلهما عناصر جديدة ؟ الأمر على العكس تماما . كل ما حدث هو أن هذين العنصرين قد أعيدت صياغتهما فى صورة جديدة أكثر لياقة بالظروف الجديدة وباتجاهات الحالوتس المتمردة . بدلا من التمايز من حيث الإقامة فى الجيتو ومن حيث إرتداء شارات مميزة لليهود فليكن التمايز هو تبنى فكرة الامتياز العقلى لليهود فليكن التمايز هو الدعوة لتفوق الجنس اليهودى ونبوغه وليتخذ عنصر الشعور بالاضطهاد صورة جديدة بالفرار بدلا من الاستسلام . فليكن فراراً من الجيتو وفراراً أيضا من الاندماج فى غير

اليهود. فليكن تمسكا بإقامة نظام جديد فى مكان ما. نظام متناقض مع نظام الجيتو، ومتناقض مع النظام السائد فى وسط أوروبا آنذاك أيضا.

ولقد اتخذت علاقة الحالوتس بيهود الدياسبورا صورة بالغة التعقيد والغرابة، لقد كانت حركة الحالوتس تمثل بمعنى أو بآخر خروجا على يهود الدياسبورا ولكنها خروج منهم فى نفس الوقت. ولقد تناول العديد من الكتاب من الصهاينة ومن غيرهم طبيعة تلك العلاقة المعقدة التى تراوحت بين العداء المتبادل والتعاطف المتبادل أيضا. فيقول ايزنشتادت فى هذا الصدد أن هناك فكرة ضاربة الجذور فى التراث الصهيونى مؤداها «أن الجماعة اليهودية فى فلسطين إنما هى صفوة مختارة من الشعب اليهودى فى المنفى» (١٠، ص ٧) بل أنه يحاول إرجاعها إلى مفهوم يهودى أكثر قدما كان يقوم على إختيار قلة من الرجال من كل جماعة يمضون وقتهم فى الدراسة والصلاة، وتقوم الجماعة باعالتهم تماما أو جزئيا ثم يعقب قائلا «ومن هنا يمكن القول من وجهة النظر الاقتصادية أن هذه الفكرة الدينية إنما تعنى أن يهود فلسطين يعتمدون تماما على اليهود فى الدياسبورا وبذلك فإن من يعطى لايحس مطلقا أنه أحسن ممن تلقى العطاء ومن تلقى العطاء لايحس بدوره مطلقاً أنه أقل ممن يأخذ منه، بل أن كلاهما يشعر أنه يؤدى واجبا دينياً» (١٠، ص ٨ إلى ص ٩) ولكن تلك العلاقة لم تكن فى الواقع بالصورة التى أشرنا إليها فلقد تفاوت مثلا موقف أغنياء اليهود من الحالوتس ولم يكن بالموقف الموحد على الإطلاق (٨، ٢٨). وعلى أى حال فإن طبيعة العلاقة بين يهود الحالوتس ويهود الدياسبورا جديرة ببحث منفصل ومايعنينا فى هذا المقام هو أن نؤكد أن التكوين السيكلوجى لجيل الحالوتس الذى اخترناه بداية لمنطلقنا كان يتركز أيضا حول نفس

العنصرين اللذين سبقت الإشارة إليها : عنصر التمايز، وعنصر الاضطهاد وان اختلفت الصورة التى اتخذها هذان العنصران عن صورتها الشائعة لدى أبناء الجيتو بعامة .

الفصل الثالث

البحث عن بوتقة

فلسطين ... لماذا ؟
اللغة .
المؤسسات التعليمية .
المؤسسات العسكرية .
المؤسسات الدينية .
المؤسسات الايديولوجية .

فلسطين... لماذا؟

انتهت بذلك جولتنا فى أحياء الجيتو، جسنا خلالها بالقدر الذى نظنه لازما لدراستنا . ورجعنا بتاريخها أيضا بالقدر الذى حسبناه لازما لفهمنا . وأوصلتنا سياحتنا تلك إلى أن ثمة جيل من أبناء ذلك العصر من يهود وسط أوروبا كان أكثر إحساساً بتمايزه، وأكثر إحساساً باضطهاده أيضا آثر التمرد على كل ما يحيط به وفى مقدمته حياة الجيتو وعلى كل من يحيطون به وفى مقدمتهم بنى جلدته من اليهود. وآثر الفرار من كل ذلك. ولكن إلى أين؟ نحن لا نسعى هنا بطبيعة الحال إلى إجابة جغرافية تحدد مكان تلك الوجهة بل نعنى إجابة سيكلوجية، بمعنى إلى أى ظروف كان يود ذلك الجيل أن يمضى؟ ويقتضينا المنطق أن نقرر إجابة على ذلك التساؤل، أن ذلك الجيل من الحالوتس كان يود أن يمضى بعيدا إلى أى مكان يكفل له ممارسة تمرده على ما هو متمرد عليه بل أن واحدة من بنات ذلك الجيل عبرت عن ذلك المفهوم بمنتهى الوضوح قائلة: ان أساس نظامنا بالغ البساطة، أن نفعل عكس ما خبرناه أو تعلمناه نحن كأطفال». (٢٧، ص ١١).

وإلى هنا والأمر لا يعدو أن يكون من الناحية السيكلوجية ظهور جيل من الشبان المتمردين على حياة آبائهم، بكل ما تتضمنه كلمة حياة من معنى وإذا حق لنا فى مجال التعرض لأحداث تاريخية ــ وقعت واكتملت ــ أن نستخدم ألفاظاً مثل كان يمكن أو لو لم يحدث كذا،

لأمكننا أن نلقى مزيدا من الضوء على مانريد أن نقوله . وعلى أى حال فلندعى لنا هذا الحق مؤقتا رغم إدراكنا لما فى ذلك الإدعاء من تناول للماضى المنتهى بأسلوب المستقبل المقبل . نود أن نقول أنه « كان يمكن » لذلك التمرد أن يظل فى حدوده الأولى أعنى فى حدود حركة الطير المهاجر التى سبق أن أشرنا إليها . أو بعبارة أخرى أن حركة التمرد هذه كان يمكن أن تنتهى بمجموعات من الشباب تجوب أوروبا معلنة رفضها لحياة آبائها متمردة على تقاليدهم وأساليبهم فى الحياة وتقاليد وأساليب العالم المحيط بهم أيضا ثم لا شىء بعد ذلك ولعله « كان يمكن » للعالم أن يشهد حينئذ حركة أشبه بحركات الهيبز فى زمن يتقدم عما شهد فيه تلك الحركة بأكثر من قرن ونصف قرن . أو لعله « كان يمكن » للتاريخ الا يسجل آنذاك سوى ملاحظة خافتة ــ لايلمحها سوى المدقق ــ عن ارتفاع معدل الأمراض النفسية بين يهود وسط أوروبا فى تلك الفترة . أو لعل تلك الحركة « كان يمكن » أن تندمج آنذاك فى تلك الثورة العارمة التى شهدتها أوروبا مع بداية الثورة الفرنسية التى لم تكف أحداثها عن التفجر حتى مطلع الثورة الاشتراكية ، كل ذلك « كان ممكناً » وليس ثمة وجود لمثل ذلك التعبير فى تناول أحداث التاريخ فالامكانيات والاحتمالات محلها المستقبل ولكن ذلك لم يحل دون البعض ــ كما لم يحل دوننا أيضا ــ واستخدام ذلك الأسلوب فى التناول محاولة للوصول إلى تفسير يتخطى حدود التسجيل الحرفى للوقائع ــ وقولنا بأنه « كان يمكن » لحركة الشباب اليهود المتمرد فى أوروبا أن تنتهى مثل تلك النهاية إنما يعنى أن التكوين السيكلوجى لأولئك الشباب هو نوع من التكوين السيكلوجى الذى نصادفه عادة ــ بدرجة تزيد أو تقل ــ لدى أجيال الشباب فى فترات التحول أو الأزمة . والذى لايعدو فى حالة قلته ــ أو لنقل فى

حالته الطبيعية ــ أن يكون نوعا من السلوك المختلف بصورة أو بأخرى عن سلوك الآباء وهو أمر لايكاد يخلو منه مجتمع بل لعله يكاد يشكل السمة التى تميز ما يعرف بصراع الأجيال كشرط من شروط التقدم. ويحدث أحياناً أن يتخطى ذلك التكوين الصراعى حدوده الطبيعية. ولسنا نعنى بالطبيعة هنا حكم قيمة أو أمراً من هذا القبيل. كل ما نعنيه أنه يحدث أحيانا أن يشتد ذلك التمرد فيتخذ صورة الثورة الاجتماعية بكل ما تعنيه من أبعاد، أو يتخذ صورة التمرد السلوكى الجماعى فيما يعرف بحركات الشباب بعامة ــ أو يتخذ صورة الأمراض النفسية بل والعقلية أيضا. ونجد أنفسنا بذلك حيال تساؤلين: أولهما: تساؤل نظرى مؤداه: ما الذى يحدد أن يتخذ ذلك التمرد هذه الصورة بالذات أو تلك؟ ــ والتساؤل الثانى: مترتب على التساؤل الأول وهو تساؤل عملى مؤداه: لماذا اتخذ التمرد اليهودى تلك الصورة البعيدة تماما عن المتوقع؟ .

ويمكننا أن نرجع باجابتنا فيما يتصل بالتساؤل الأول إلى قضية سبق أن أشرنا إليها إشارة عابرة وهى أن التكوين السيكلوجى لا يحدد مسار التاريخ بحال. قد يسهم فى ذلك المسار. قد يدفعه إلى الأمام. وقد يحاول الوقوف فى وجه تقدمه ولكنه ــ فيما نرى ــ ليس بالمحدد لذلك المسار. لايكفى أن تتوافر لدى شخص المقومات السيكلوجية للزعامة مثلاً فيصبح زعيماً. لابد لمن تتوافر فى شخصيته مقومات الزعامة أن تتوافر فى الظروف المحيطة به أيضا مقتضيات الحاجة إلى تلك الزعامة، من جوانب اقتصادية وتاريخية وجغرافية وإلا فقد ينتهى الحال بمن «كان يمكن» أن يكون زعيما إلى مصحة الأمراض العقلية أو إلى تزعم عصابة من المجرمين أو ما إلى ذلك. وكذلك الحال بالنسبة لأى من التكوينات السيكلوجية التى يمكن أن تخطر لنا ببال. التكوين

السيكلوجى مجرد إمكانية يتوقف تحولها إلى واقع ويتوقف أيضا شكل ذلك الواقع على الظروف الاقتصادية والاجتماعية المحيطة بذلك التكوين.

وإذا ما حاولنا التصدى للإجابة على التساؤل الثانى بمعنى أن نحاول البحث عن الأسباب التى أدت بأولئك اليهود المتمردين على حياتهم الأوروبية بعامة، وحياتهم اليهودية بشكل خاص، إلى أن يصبحوا جيلا من الحالوتس يسعى لإقامة دولة أوروبية بوجه عام ويهودية على وجه الخصوص وعلى أرض تم اغتصابها من العرب، إذا ما تصدينا لمثل ذلك التساؤل فالأمر يخرج بنا حتما من نطاق علم النفس إلى نطاق أوسع وأرحب هو نطاق علم التاريخ أو علم السياسة أو ما إلى ذلك. ولسنا نهدف ولا حتى نستطيع أن نوفى مثل ذلك التناول حقه. ولكنا لانستطيع أيضا أن نضرب صفحا عن قضية تاريخية نعتقد أنها وثيقة الصلة بموضوعنا أعنى التكوين السيكلوجى للإسرائيليين ألا وهى قضية اختيار فلسطين بالذات مستقرا لدولة إسرائيل. فلقد حرص الكثير من الكتاب الصهاينة بل ومن غير الصهاينة أيضا على القول بأن فلسطين بالذات كانت قبلة لليهود على مر العصور، وإنها كانت أملا يراودهم منذ تشردهم فى الزمن القديم. وانطلاقا من أن يهود التوراة هم أنفسهم يهود الجيتو وهم بعينهم يهود الحالوتس فإن فلسطين تكون بذلك هى الاختيار المنطقى والطبيعى بالنسبة لهم كمستقر لدولة اسرائيل. ولقد طال ترديد مثل هذا القول، حتى أصبح من فرط ذلك الترديد يكاد أن يكون أمراً مسلماً به متفقاً عليه لا يخضع لمناقشة. وليس أبعد من ذلك القول عن حقيقة ماتنبىء به وقائع التاريخ. لقد شهد التاريخ العديد من الهجرات اليهودية فى مختلف العصور، ولم يحدث أن اجترأ أى من المؤرخين مهما كان إغراقه فى الصهيونية على القول بأن فلسطين كانت قبلة تلك الهجرات. ولا نظن أن هناك من تفسير يوفق بين التسليم بإن

فلسطين كانت تمثل أملاً لليهود فى شتى العصور وبين حقيقة أن وقائع التاريخ الفعلية لاتحمل ما يدل على حقيقة وجود ذلك الأمل فى صورة تعبير فعلى منذ ذلك التاريخ الغابر. فلقد شهد القرن السادس عشر والسابع عشر هجرة لليهود من أسبانيا والبرتغال إلى أمريكا كما شهدت أواسط القرن التاسع عشر وما حفلت به أوروبا آنذاك من ثورات وانتفاضات خروجا يهوديا نشطا حمل إلى الولايات المتحدة نحو ربع « مليون يهودى » وحتى إذا ما مضينا إلى العصر الحديث أعنى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين فإننا لانجد أن الهجرة اليهودية قد اتخذت لها بؤرة محددة هى فلسطين بل أن الولايات المتحدة الأمريكية قد ظلت بمثابة تلك البؤرة التى أستقبلت فى الفترة بين ١٨٨٥م إلى ١٩١٤م اعداداً هائلة من يهود روسيا القيصرية والنمسا والمجر ورومانيا بلغ ما يقرب من المليون ونصف المليون. وحتى إذا نظرنا نظرة متأنية إلى هجرة اليهود نتيجة للاضطهاد النازى والتى كان مصدرها الأساسى هو وسط أوروبا لوجدنا أنه، إذا كانت هذه الحركة قد جمعت كثيرا من يهود أوروبا فى فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية، فإن الجزء الأكبر منها اتجه إلى العالم الجديد خاصة الولايات المتحدة. (٦١، ص ٢٨).

ويورد يورى ايفانوف العديد من الشواهد التاريخية التى تسير فى نفس الاتجاه متناولا فرار اليهود من العسف النازى بقوله فى وضوح « فقد اندفعت موجات المهاجرين اليهود وضحايا الاضطهاد فى أوروبا الشرقية إلى أمريكا وليس إلى الشرق الأوسط. ففى منتصف العشرينات من القرن العشرين وصل عدد اليهود فى أمريكا إلى أربعة ملايين ونصف مليون نسمة فى مقابل ٩٨٦ ألف نسمة عام ١٨٩٧م أما فى آسيا فقد ارتفع عدد اليهود فى نفس الفترة من ٤٠٠ ألف إلى ٦٠٠ أللف نسمة (٦٠ و ٦٩).

وليس ذلك هو الدليل العملى الوحيد فقد كان ثمة صراع داخل الحركة الصهيونية حول أصلح الأماكن لاستيطان اليهود، وكانت تلك الصراعات تعكس مصالح الدول الامبريالية المختلفة. فالزعيم الصهيونى الدكتور نوسيج (مثلا) كان يحرص على مصالح الامبريالية الألمانية التى كانت تسعى بكل الوسائل لتقوية نفوذها فى الامبراطورية العثمانية. وقد أسس بتشجيع من ويلهالم الثانى شركة استعمارية مستقلة لتوطين اليهود فى الامبراطورية العثمانية خارج فلسطين (٦٠، ص ٦٦) بل أنه حتى بعد انتصار المجموعة الموالية للامبريالية البريطانية بزعامة وايزمان والتى كانت ترى فى فلسطين بالذات حلمها القديم «وفى المؤتمر الصهيونى السابع حيث كان الرأى قد استقر على فلسطين قام الزعيم الصهيونى البريطانى زانجويل باحداث انشقاق فى صفوف المؤتمر. وكون منظمة صهيونية مستقلة تهدف إلى استعمار أوغندا أو أى مكان آخر» (٦٠، ص ٦٧). ورغم انتهاء ذلك الانقسام فى صفوف الصهاينة فإن مجرد حدوثه واكتسابه للأنصار إنما يدل فى جوهره على أن فلسطين لم تكن بمجال الأمل الذى استقر فى أذهان اليهود جميعا منذ التاريخ الغابر، فضلا عن إنها لم تكن بالمستقر الذى أجمع عليه الصهاينة للوهلة الأولى ودون خلاف.

ولعل ذلك يكفى دون خوض فى مزيد من التفاصيل لحسم قضية أن فلسطين كانت هى المستقر المختار بالذات لإقامة إسرائيل منذ الزمن القديم، وأن فكرة إقامة مثل تلك الدولة لم تكن فكرة «عودة» بعد «خروج» ولا «تجمع» بعد «شتات» بالمعنى اليهودى القديم الذى لم يصبح شائعا إلا بعد أن تم ذلك الاختيار بالفعل. أما لماذاتم ذلك الاختيار فهو أمر يخرج كلية عن حدود تخصصنا، وكل ما يعنينا بشأنه أنه قد تم من خلال الحركة الصهيونية ونتيجة لقيامها وليس العكس، أى أن تلك الحركة لم تقم تلبية وتجسيدا لذلك الاختيار التاريخى

القديم، ولسنا نرمى بذلك إلى إنكار ما قد تحمله أرض فلسطين اليوم ــ وبعد قيام إسرائيل أو خلال عملية إقامتها ــ من دلالة سيكلوجية لدى العديد من اليهود فى إسرائيل وفى خارجها أيضا ولكن ما نعنيه بحديثنا هو أن تلك الدلالة السيكلوجية ــ بصورتها الراهنة ــ قد خلقتها الحركة الصهيونية وسعت إلى تدعيمها، وارسائها فى نفوس اليهود بعامة، ويهود أوروبا بشكل خاص كوسيلة لخدمة الأهداف السياسية والاقتصادية لتلك الحركة ــ ويتمثل ذلك السعى ــ فيما يتصل بمجال بحثنا فى ذلك الإصرار المستمر للحركة الصهيونية وللدولة الإسرائيلية بكافة مؤسساتها على نشر ذلك المفهوم بحيث يصبح جزءاً أساسياً من التكوين السيكلوجى المشترك الذى يهدفون إلى اصطناعه للإسرائيليين وذلك أمر لا يمكن له أن يتم إلا من خلال عملية التنشئة الاجتماعية.

وإذا كانت الأسرة هى التنظيم الاجتماعى ذو الدور الغلاب فى السير بعملية التنشئة الاجتماعية إلى غايتها فى كافة المجتمعات الأنسانية فإن تلك الغلبة إنما ترجع فى جوهرها إلى حقيقة بيولوجية أساسية هى أن الطفل البشرى بحكم تركيبه الفسيولوجى هو أكثر الكائنات التصاقا بالكبار من أبناء جنسه وحاجة إلى رعايتهم. ولا يعنى ذلك بطبيعة الحال وكما أشرنا من قبل انكاراً لحقيقة تعدد المؤسسات الاجتماعية التى تشترك فى القيام بعملية التنشئة الاجتماعية فى المجتمع، كما أن ذلك التعدد لا ينبغى أن يعنى تقليلا من الدور الأساسى الذى تقوم به الأسرة فى ذلك الصدد. وإذا كانت عملية التنشئة الاجتماعية لا تكاد تلحظ الا للعين المدققة بالنسبة لغالبية المجتمعات فلعل ذلك يرجع إلى أن الجانب الرئيسى منها انما يتم داخل جدران المنازل أى تقوم به الأسرة. ولا ينبغى أن يعنى تأكيدنا على دور الأسرة اهمالنا لدور الخبرات الشخصية الموضوعية التى يلقاها الفرد فى مسيرته من الطفولة

إلى النضج ، بل ولا حتى تقليلا من أهمية ذلك الدور ، ولكن ما نعنيه بالتحديد هو أن عملية التنشئة الاجتماعية التى تقوم بها الأسرة نمثل ـ كجزء من الخبرات الشخصية التى يمر بها الفرد ـ أساساً من الأسس الهامة التى تسهم فى تحديد موقف الفرد من خبراته التالية بل تفسيره لتلك الخبرات .

وإذا ما انتقلنا إلى المجتمع الإسرائيلى فإن الموقف سوف يختلف كثيراً ، الأسرة الإسرائيلية تقوم بدورها فعلا وليس فى مقدور المنظمة الصهيونية ولا الدولة الإسرائيلية أن تحول بينها وبين ذلك الدور الذى تفرضه طبيعة الإنسان البيولوجية . ولكن ما هى « الأسرة الإسرائيلية » ؟ ان اطلاقنا لمصطلح « الأسرة » كتنظيم اجتماعى فى مجتمع ما انما يعنى توافر حد أدنى من التشابه بين وحدات ذلك التنظيم المختلفة ، أعنى بين مختلف الأسر فى ذلك المجتمع وذلك أمر لا يمكن تصوره فى المجتمع الإسرائيلى بالصورة التى قد نجده عليها فى مجتمعات أخرى ـ فالأسر النازحة إلى إسرائيل تحمل معها حضارات شتى ، ولكل حضارة تراثها بما فيه من عادات وتقاليد وقيم وأنماط سلوكية وفكرية . الدور الذى تلعبه الأسرة الإسرائيلية إذن فى عملية التنشئة الاجتماعية لا يمكن أن يحقق ما يرجوه مؤسسو إسرائيل من خلق لتكوين سيكلوجى إسرائيلى موحد ، ولقد سبق أن أشرنا إلى دراسة واينتروب وما تحمله من دلالة فى هذا الصدد (٥٥) .

لم يكن من حل إذن أمام القائمين على أمر « صناعة » المجتمع الإسرائيلى إلا الاعتماد على المؤسسات الاجتماعية الأخرى فى تحقيق ما لن تنجح « الأسرة » الإسرائيلية فى تحقيقه بحكم تباين حضارات وثقافات وحداتها وما يترتب على ذلك من تباين فى التكوينات السيكلوجية لتلك الوحدات أى لتلك الأسر. ولقد اعتمدت التنشئة

الاجتماعية فى إسرائيل بالفعل على عدد من المؤسسات تعمل جميعا فى وقت واحد مستهدفة إلى جانب أهدافها المتخصصة ـ الإسهام فى خلق التكوين السيكلوجى الإسرائيلى الواحد. ويمكننا تقسيم تلك المؤسسات إلى أربعة تجمعات رئيسية هى:

أ ـ المؤسسات التعليمية.
ب ـ المؤسسات العسكرية.
جـ ـ المؤسسات الدينية.
د ـ المؤسسات الايدبولوجية.

والسمة التى تربط نلك المؤسسات جميعا من حيث سعيها إلى القيام بدورها فى خلق التكوين السيكلوجى الإسرائيلى الواحد هو أنها رغم اختلاف تكويناتها ومستوياتها وتأثيراتها تتفق جميعا فى أنها تستخدم الأسلوب الإعلامى فى بلوغ هدفها. ولا يقتصر ما نعنيه بالأسلوب الإعلامى على استخدام وسائل الإعلام بمعناها المتفق عليه من إذاعة وتليفزيون وسينما ومطبوعات، بل إننا نعنى الإعلام بأوسع معانيه وأرحب صوره بحيث يدخل فى نطاقه أحاديث الضباط إلى جنودهم، والمدرسين إلى تلاميذهم، وقادة الأحزاب إلى أعضائها، وكهنة المعابد إلى روادها. وقد يرى البعض شيئا من الغرابة فى قولنا أن الأسلوب الإعلامى هو السمة التى تميز تلك المؤسسات. أليس ذلك الأسلوب بهذا المعنى بالتحديد هو سمة أى تنظيم يستهدف التنشئة الاجتماعية فى أى مجتمع؟ وإذا كان الأمر كذلك الا يعنى أن ليس ثمة تمييز تضفيه هذه السمة على تلك المجموعات بالذات من مؤسسات التنشئة الاجتماعية فى إسرائيل؟ والحقيقة إننا نعنى بقولنا أن هذه السمة تميز تلك المجموعات أنها تميزها عن الأسلوب الذى تتبعه الأسرة فى تنشئتها الاجتماعية لأفرادها، وهو أسلوب يبعد عن الطابع الإعلامى ـ بالمعنى الذى أشرنا إليه ـ وإن لم يكن يخلو منه، ويقترب من طابع

آخر يمكن لنا أن نطلق عليه مؤقتا طابع «ضرب القدوة» الذى يكاد يكون الطابع الغالب للتنشئة الاجتماعية فى الأسرة.

ويقتضى الأسلوب الإعلامى ابتداء وبحكم طبيعته توافر لغة مشتركة بين مصادر الاشعاع والمتلقين، وبين المتلقين وبعضهم البعض أيضا. وإلا كف ذلك الأسلوب عن عمله قبل أن يشرع فى ذلك العمل. ولذلك نجد لزاما علينا أن نبدأ بتناول قضية اللغة فى المجتمع الإسرائيلى بوصفها الوسيلة الأساسية التى تتبعها مؤسسات التنشئة الاجتماعية التى ذكرناها فى تحقيق أهدافها.

وقبل كل ذلك ينبغى أن نتعرض لقضية قد تثير تساؤلا يمكننا صياغته على الوجه التالى: الا يكفى توافر عنصرى الشعور بالامتياز والشعور بالاضطهاد ــ وهما العنصران الرئيسيان فى التكوين السيكلوجى لجيل الحالوتس وفقا لما ذهبنا إليه، للقول بأن التكوين السيكلوجى الواحد متوافر فعلا فى إسرائيل؟ ولابد لنا هنا من إيضاح نقطتين:

أولا: إن إسرائيل اليوم لا تضم جيل الحالوتس فحسب بمعنى أن أولئك اليهود الذين نزحوا من أواسط أوروبا إلى فلسطين وأسهموا بالفعل فى إقامة دولة إسرائيل وتركوا بصماتهم واضحة على الحياة الإسرائيلية حتى اليوم هؤلاء الحالوتس لا يقيمون الآن وحدهم فى إسرائيل بل أنهم لا يشكلون من الناحية العددية سوى أقلية ضئيلة. أن إسرائيل تضم اليوم أفرادا يهودا ينتمون إلى أكثر من مائة قومية من شتى بقاع الأرض. بل أن العلاقات السائدة بين أفراد تلك القوميات أقرب إلى العداء المتبادل. ولعل ذلك هو ما يفسر حرص الكثير من الباحثين الإسرائيليين على دراسة ذلك النوع من العدوان، كما فعلت

جوديث شوفال فى بحثها المعنون «دور الطبقة فى تكوين العداء المتبادل بين الجماعات» (٤٨).

وبذلك فإن وحدة وتكامل التكوين السيكلوجى للحالوتس لا تعنى بالضرورة ولا يمكن لها أن تعنى وحدة وتكامل ذلك التكوين بالنسبة للإسرائيليين المعاصرين الذين يضمون بين صفوفهم من نزحوا إلى إسرائيل فى ظل ظروف تختلف قطعا تمام الاختلاف عن ظروف نزوح الحالوتس.

ثانيا: إن وجود عناصر مشتركة تلعب دوراً أساسياً فى التكوين السيكلوجى للإسرائيليين المعاصرين لا يعنى التسليم مباشرة بوحدة وتكامل ذلك التكوين السيكلوجى فالتكوين السيكلوجى مفهوم أرحب من ذلك بكثير وليس أدل على ذلك من جيل الحالوتس نفسه، فقد كان ــ فيما نرى ــ جيلا متمردا على أسلافه الذين تقبلوا حياة الجيتو، ومع ذلك فقد اتضح لنا أن العنصرين الأساسيين فى تكوينه السيكلوجى هما بعينهما نفس العنصرين الأساسيين للتكوين السيكلوجى لأولئك الأسلاف وأن اختلفت صور التعبير عن هذين العنصرين وتباينت. بل لعل المثل الأكثر دلالة ووضوحا على ما نحن بصدده هو اتفاق التكوين السيكلوجى للنازيين الألمان واليهود الصهاينة فى بعض من جوانبه الأساسية دون أن يعنى ذلك بحال قيام وحدة سيكلوجية تجمعهما بالمعنى المعروف.

ليس الاتفاق فى العناصر الأساسية للتكوين السيكلوجى إذن سوى أرضية مناسبة لتشكيل ذلك التكوين بمعناه الرحب الذى يشمل الاتساق فى العادات والتقاليد والأفكار وما إلى ذلك. وهو ما يمكن أن تقوم به تلك المجموعات من المؤسسات الاجتماعية الإسرائيلية التى أشرنا إليها. وإذا ما كان

العنصران المشار إليهما هما بحق جوهر التكوين السيكلوجى الإسرائيلى المعاصر فإن لنا أن نتنبأ بأن محاولات تلك المؤسسات جميعا سوف تستهدف تدعيم وتضخيم هذين العنصرين بصرف النظر عن نجاح أوفشل تلك المحاولات.

اللغـــة

تعد اللغة المشتركة أساساً لا غنى عنه، وشرطا لابد من توافره للأمة الواحدة فليس فى إستطاعتنا أن نتصور أمة تضم أفرادا لا يتكلمون لغة واحدة، أو على الأقل لا تكون هناك لغة واحدة مشتركة بينهم إلى جانب ما قد يكون موجوداً من لغات أو لهجات أو رطانات أخرى تميز مجموعات مختلفة تضمهم تلك الأمة. وإذا كانت اللغة المشتركة تعتبر ضمن الأسس الجوهرية لقيام الأمة، فإن ذلك لا يعنى بطبيعة الحال أن توافر تلك اللغة المشتركة فحسب يؤدى وبشكل تلقائى إلى قيام الأمة. فالأمة وجود معقد لابد لتوافره من شروط عدة ولا تمثل اللغة ورغم أهميتها إلا واحداً من تلك الشروط.

ولقد تنبهت الحركة الصهيونية التى تبنت ــ كما سبق أن أشرنا ــ حركة التمرد اليهودى على الحياة اليهودية فى أوروبا، تنبهت إلى أهمية اللغة حتى أن الكاتبة الصهيونية ترود فايس روز مارين تردد فى كتابها انتصار اليهود فى صراع البقاء (٢٩) فكرة أن اللغة العبرية هى أول مقومات الأمة اليهودية. والحقيقة كما يقول راندولف براهم فى كتابه إسرائيل: نظام تربوى حديث (٦، ص ٨) تحت عنوان «أحياء العبرية» أنْ اللغة العبرية لم تعد لغة مستخدمة فى التخاطب منذ تحطيم مملكة اليهود حوالى ١٣٠ قبل الميلاد ثم يضيف أن عملية إعادة الحياة

إلى اللغة العبرية لم تبدأ إلا منذ حوالى نهاية القرن التاسع عشر. ويتفق براهم فى ذلك ما يذهب إليه غسان كنفانى فى كتابه فى الأدب الصهيونى فى معرض حديثه عن أحاد هاعام الذى يعد من أبرز رواد الفكر الصهيونى فى ذلك المجال والذى يقول عنه غسان كنفانى إنه كان يكثر الحديث فى مقالاته التى قوضت بقايا دعوة الاندماج لدى يهود أوروبا الشرقية عن آخر يهودى وأول عبرى (٦٨، ص ١٦ — ص ١٧) تلك الجملة التى صارت فيما يرى غسان كنفانى شعاراً صهيونياً فى الميدان الثقافى خصوصاً.

وقد يبدو للوهلة الأولى أن القضية لا تعدو أن تكون لغة هجرها «أهلها» فترة من الزمن طالت وامتدت ثم عادوا من جديد إلى لغتهم تلك يستخدمونها فى تخاطبهم ومعاملاتهم. ولكن الأمر ليس على هذا القدر من البساطة فبين اندثار اللغة العبرية ومحاولة إحيائها مضى ما يقرب من عشرين قرنا من الزمان حافلات بأحداث جسام لقد تشتت اليهود، وإندمج منهم من اندمج فى شعوب جديدة واختلط منهم من اختلط بأبناء الأمم والقوميات والأديان المختلفة، ولم يعد ثمة جنس يهودى له لغته المتميزة الواحدة المشتركة. أما تلك الأقليات اليهودية التى تناثرت فى أوروبا والتى استقرت فى احياء الجيتو فانها اصطنعت لها لهجاتها المميزة، كاليبديش واللادينو وغيرها التى كانت فى حقيقتها خليطا من آثار العبرية القديمة واللغات السائدة فى أوروبا آنذاك. وهجرة ذلك الشتات إلى فلسطين لم يكن يعنى تخليهم عن لهجاتهم التى عاشوا بها فى أوطانهم الأصلية ومن هنا كان ذلك الاهتمام الفائق بقضية احياء ونشر اللغة العبرية فى إسرائيل كخيط عملى مشترك يجمع بين أبناء إسرائيل جميعا.

ولعل ذلك هو ما يعنيه جورج فريدمان عندما يقول «أن معرفة العبرية شرط لاغنى عنه لعملية الاندماج كما أنها إذا ما تحققت لتعد دليلا على نجاح تلك العملية ولذلك وضعت مناهج لتدريس العبرية تستغرق من أربعة إلى ستة أشهر ويتم تدريسها فى الألبانيم (مدارس خاصة لتدريس العبرية) التى ينبغى أن توجد فى كل المدن والكيبوتزيم والموشاقيم. كما أن المدرسين المتطوعين كانوا يقومون بزيارة المهاجرون الجدد فى منازلهم إلى جانب نشر الجرائد والمجلات التى تطبع بالعبرية البسيطة. فضلا عن البرامج الإذاعية الموجهة إلى المبتدئين فى تعلم اللغة العبرية (١٤، ص ٣١).

ليس الأمر إذن أمر لغة هجرها أهلها ثم عادوا إليها بل إنها لغة اندثرت وانقطعت الأسباب بينها وبين من كانوا ينطقون بها ــ وعلى مر العصور حلت محلها لغات أو بالأحرى لهجات اندماجية إذا صح التعبير. ولم تزدهر محاولات احيائها الا مع بروز الوجه السياسى للحركة الصهيونية ولعلنا نختلف فى ذلك مع ما ذهب إليه غسان كنفانى فى قوله «لن يكون من المبالغة أن نسجل هنا أن الصهيونية الأدبية سبقت الصهيونية السياسية، وما لبثت أن استولدتها، وقامت الصهيونية السياسية بعد ذلك بتجنيد الأدب فى مخططاتها ليلعب الدور المرسوم له فى تلك الالة الضخمة التى نظمت لتخدم هدفا واحداً». (٦٨، ص ٩).

وعلى أى حال فقد أحرزت الحركة الصهيونية قدرا لا بأس به من النجاح فى مجال اللغة ــ ولعل ذلك النجاح لايرجع إلى الجهد المباشر الذى وجهته تلك الحركة إلى احياء اللغة العبرية بقدر ما يعد نتيجة لنجاح تلك الحركة فى إقامة دولة إسرائيل أو بالتحديد فى تجميع عدد

كبير من اليهود من شتى البلاد فى مكان واحد مما يسر كثيراً من مهمة احياء اللغة العبرية بينهم. ولم تكن مهمة نشر اللغة العبرية موكلة إلى المؤسسات التعليمية فحسب بل كانت جزءاً من مهمة كافة المؤسسات ومن بينها المؤسسات العسكرية أيضا حيث تتضمن كافة برامج التدريب الثقافية للجنود وكمادة أساسية تعليم اللغة العبرية حتى الا تقان (٧٣، ص ١٦٠ إلى ص ١٦١).

وينبغى أن يكون واضحا ما لقضية توحيد اللغة من أهمية خاصة فى عملية التنشئة الاجتماعية فى إسرائيل بالذات. فاللغة تلعب دوراً هاماً ولا شك فى عملية التنشئة الاجتماعية فى أى مجتمع. ولكن الدور يبدأ بأن يتعلم الطفل أولا لغة المحيطين به أى أسرته. فالأسرة اذن هى معلم اللغة الأول. ولو ترك الأمر كذلك فى إسرائيل ــ كشأنه فى بقية المجتمعات لسمح ذلك بنمو العديد من اللهجات الاندماجية التى أشرنا إليها والتى حملها معهم اليهود النازحين إلى إسرائيل من شتى بقاع الأرض، والتى كانت كما أشرنا مزيجا من العبرية القديمة مختلطا بلهجات الشعوب الأصلية التى نزح منها اليهود. وإذا كان إنتشار اللهجات المحلية لايمثل خطورة على الوحدة القومية لشعب من الشعوب ما دامت قد توافرت له مقومات القومية، فإن الأمر يختلف تماما بالنسبة لإسرائيل، وبالتالى فإن الذى تمارسه الأسرة بالفعل فى عملية التنشئة الاجتماعية فى إسرائيل دور لا يمكن أن يؤدى إلى توحيد الكيان السيكلوجى الإسرائيلى لأسباب سبق أن أشرنا إليها. وبالتالى فقد كان لابد من الاعتماد على غيرها من المؤسسات فى القيام بذلك الدور ولما كان أسلوب تلك المؤسسات جميعا فى نشاطها فى مجال التنشئة الاجتماعية هو الأسلوب الإعلامى فمن

هنا اتخذت عملية احياء اللغة أهميتها الخاصة المتميزة فى عملية التنشئة الاجتماعية فى إسرائيل بالذات.

ولكن ماذا بعد ذلك النجاح؟ هل أدى النجاح فى احياء اللغة العبرية فى إسرائيل إلى الإسهام حقا فى خلق التكوين السيكلوجى الموحد للإسرائيليين؟ أن اللغة — كما سبق أن أشرنا — ليست سوى وسيلة قد تؤدى أو لا تؤدى إلى خلق التكوين السيكلوجى الواحد. ولعلنا لا نبالغ فى هذا الصدد إذا ما قلنا أن ما كانت ترمى إليه الحركة الصهيونية من عملية إعادة احياء اللغة العبرية القديمة لم يكن قاصرا على خلق وسيلة تكفل التفاهم بين نطاق أكبر من اليهود، بل كان يرمى ولعل ذلك هو الأساس إلى تدعيم إحساس اليهود الإسرائيليين بوجود تاريخ مشترك يجمعهم ولو شئنا أن نبحث عن محك موضوعى لمدى نجاح اللغة العبرية المستحدثة فى خلق ذلك الإحساس فليس أمامنا إلا أن نطرح السؤال على الوجه التالى: هل نجحت اللغة العبرية فى خلق نوع من [illegible] بين الأدب اليهودى القديم والأدب الصهيونى الحديث؟ أعنى هل يشعر الإسرائيليون أن لهم تاريخا أدبيا ممتداً منذ الزمن القديم إلى الآن من خلال لغتهم العبرية؟ يحسن أن نشير بإيجاز إلى ما يقوله ملفورد سبيرو فى كتابه أطفال الكيبوتز فى معرض حديثه عن جيل السابرا فى الكيبوتزات إذ يقول: «ينظر السابرا إلى كافة أشكال الأدب اليهودى تقريبا باعتبارها مثيرة للتقزز بدرجة تجعلهم لايقدمون على محاولة قراءته بل إن ذلك يمتد إلى الأدب الصهيونى الحديث أيضا».

خلاصة القول اذن أن ثمة نجاح قد تم إحرازه فى مجال إحياء اللغة العبرية ولكن ذلك النجاح فى نشر اللغة لم يكن هو الهدف فى ذاته،

بل أن أهم ما كانت تستهدفه الحركة الصهيونية من عملية الاحياء هذه كما يتضح مما سبق يتمثل فى هدفين متوازيين:

الأول:

وهو محاولة تدعيم فكرة الامتداد التاريخى لليهود من خلال تمثلهم للأدب اليهودى القديم المكتوب بالعبرية.

الثاني:

هو خلق الأرضية المناسبة لمؤسسات التنشئة الاجتماعية التى أشرنا إليها لكى تمارس عملها ومحاولاتها فى توحيد الكيان السيكلوجى الاسرائيلى ولقد ناقشنا بايجاز ما لاقاه الهدف الأول من اخفاق. أما الهدف الثانى فسوف نتناوله من خلال تناولنا لدور المؤسسات التعليمية والعسكرية والدينية والايديولوجية على التوالى فى عملية التنشئة الاجتماعية.

المؤسسات التعليمية

إذا كان قيام الأسرة بدورها المأمول فى عملية التنشئة الاجتماعية فى إسرائيل يعترضه ما أشرنا إليه من عقبات ترجع أساسا إلى اختلاف أصول الأسر النازحة إلى إسرائيل، فانه لمن المنطقى إذن أن تحاول الحركة الصهيونية تعويض ذلك القصور بتركيز قدر من اهتمامها على الدور الذى تلعبه المؤسسات التعليمية فى التنشئة الاجتماعية باعتبار أن تلك المؤسسات أقرب منالا من حيث إمكانية توجيهها والاشراف عليها من الأسرة كما أنها يمكن أن تضم بين جنباتها خليطا من أطفال وشباب تلك الأسر المتنافرة الأصول بحيث يمكن أن تصبح كبوتقة ينصهر فيها الجميع لينشأ ذلك التكوين السيكلوجى الواحد المأمول. ولعل خير تعبير عن أهمية دور تلك المؤسسات فى إسرائيل هو تلك العبارة أو بالأحرى ذلك الشعار الذى أورده العالم الفرنسى جوزيف كلاتزمان مستشار معهد التنمية الصناعية والاجتماعية فى فرنسا فى كتابه الدروس المستفادة من التجربة الإسرائيلية حيث يقول «قد تعد الدبابات السنتوريون عامل أمن للمستقبل القريب، ولكن بالنسبة للمستقبل الأبعد فإن المدرسة والجامعة تمثل عواملاً للأمن أكثر أهمية بكثير من ذلك» (٨٥، ص ٢٥٩). ويقول العالم الفرنسى الجنسية اليهودى الديانة جورج فريدمان، مدير ومؤسس مركز دراسة وسائل الاتصال الجماهيرى التابع لجامعة السوربون والذى سبق له أن

شغل منصب رئيس الرابطة الدولية للعلوم الاجتماعية يقول فريدمان فى كتابه المعنون أهى نهاية الشعب اليهودى؟ «من الواضح أن الحل الوحيد لمشكلات الجانب الآخر من إسرائيل (يعنى الإسرائيليين الشرقيين) هو التعليم بأوسع ما يعنيه الاصطلاح، وبحيث يمتد إلى التأثير فى الأسرة. ولسوء الحظ فإن المنجزات الإسرائيلية فى مجال التعليم القومى رغم ما تحظى به مشكلاتها حاليا من اهتمام بالغ واعتمادات مالية تعد أقل بكثير من المنجزات الإسرائيلية فى الزراعة أو الصناعة أو الأمن القومى (١٤، ص ١٦٨). ثم لايلبث أن يدعو إلى حملة فى الصحف الإسرائيلية تحت شعار: أليس التعليم أمنا قوميا أيضا؟ (١٤، ص ١٧١).

وعلى أى حال فلا ينبغى لنا أن ننظر إلى المؤسسات التعليمية فى إسرائيل نظرة تفصلها عن واقع المجتمع الإسرائيلى. فإذا كان ذلك المجتمع يعانى كما أسلفنا من مشكلة تعدد الأصول القومية التى تنتمى إليها الأسر الإسرائيلية وأنه إنما يلجأ إلى المؤسسات التعليمية للإسهام بدور ما فى تلافى ذلك النقص فان ذلك يسمح لنا بأن نتنبأ مقدما بأن تلك المؤسسات التعليمية لابد وأن يسرى عليها ما يسرى على إسرائيل ككل من تعدد للأصول القومية. وهذا بالفعل هو ما يشير إليه جورج فريدمان فى كتابه المذكور أنفا عندما يتحدث مدعما حديثه باحصاءات عام ١٩٦١ عن تفاوت المستوى التعليمى بين الإسرائيليين الغربيين والإسرائيليين الشرقيين فيذكر مثلا أن نسبة أطفال اليهود االشرقيين الذين يلتحقون بأول سنوات المدرسة الإبتدائية تبلغ ٥٥٪ تنخفض إلى ٤٠٪ فى السنة الأخيرة من سنوات الدراسة الابتدائية ثم إلى ٢٧٪ من بين الذين حصلوا على شهادة اتمام التعليم االإبتدائى. والأمر كذلك بالنسبة للتعليم الثانوى حيث يمثل الشرقيون ٢٥٪ من بين

الذين يبدأون دراستهم الثانوية وتنخفض تلك النسبة إلى ١٣٪ من أولئك الذين يكملون تلك الدراسة، ثم تصل إلى ٥٪ من الذين يبدأون المرحلة العليا من التعليم. والأمر كذلك بالنسبة للتعليم العالى حيث لا يبلغ عدد الطلبة الشرقيين فى الجامعة العبرية وجامعة بارايلان ومعهد وايزمان والمعهد التكنيكى فى حيفا أكثر من ٥٠٠ طالبا من عشرة آلاف طالب تضمهم تلك المؤسسات بل إن فريدمان لا يلبث أن يذكر أن الكثيرين من هؤلاء أيضا يقطعون دراستهم لأسباب اقتصادية وسيكلوجية حتى أن الشرقيين الحاصلين على درجة الدكتوراه لا يتجاوز عددهم ٣٥ فردا من بين ٩٨٢٤ حاصلا على الدكتوراه فى إسرائيل حتى عام ١٩٦١ أى أن نسبتهم لا تتجاوز ٢٪.

ولابد لنا فى البداية من نظرة عابرة إلى تاريخ النظام التعليمى فى إسرائيل لما تتميز به تلك النشأة من خصائص أثرت وما زالت تؤثر على كفاءة الدور الذى يمكن أن تلعبه المؤسسات التعليمية فى مجال التنشئة الاجتماعية فى إسرائيل وسوف نعتمد فى تناولنا لتلك النقطة التاريخية على كتاب دوروثى ويللنر أستاذه علم الانثروبولوجيا فى جامعة كانساس بالولايات المتحدة الأمريكية والمعنون بناء الأمة والجماعة فى إسرائيل (٣٠، ص ١٣٨ وما بعدها). لقد استمر التعليم فى اسرائيل بعيداً عن التوحد حتى عام ١٩٥٣ بمعنى أنه كان خاضعا للتنظيمات الأساسية التى كانت تشرف على تهجير اليهود. وكانت تلك التنظيمات تنقسم إلى أربع شيع محدده. لكل منها نظامها المدرسى ومدرسيها ومناهجها. وكان الانتماء إلى أى من تلك التنظيمات أمر اختيارى أساسا. ومع نمو عمليه الهجرة ازداد تنافس تلك الشيع فى اجتذاب أطفال المهاجرين كل للنظام التعليمى التابع له. وقد وصل ذلك التنافس إلى حد تقديم الهدايا والمنح للأطفال ولآبائهم وتنبهت الحركة الصهيونية لخطورة مثل ذلك الانقسام، وبدأت أولى خطواتها للحد منه بإصدار الحكومة عام ١٩٥٠ قانونا مؤداه الا يطبق نظام الشيع المشار إليه على

معسكرات المهاجرين وفى عام ١٩٥١ صدر برنامج للتعليم الحكومى ووفقا لذلك البرنامج أصبح الإشراف على التعليم مركزاً فى وجهة واحدة هى وزارة التعليم والثقافة التى كانت قائمة بالفعل منذ عام ١٩٤٩ . ورغم ذلك فقد ظلت هناك فئتان من المدارس والمدرسين والمفتشين والمناهج تعرف باسم : التعليم الحكومى ، والتعليم الدينى الحكومى واستمر الحال كذلك إلى أن تم إقرار القانون عام ١٩٥٣ ومنذ ذلك التاريخ أصبح تسجيل التلاميذ يتم وفقا لمحال إقامتهم وليس وفقا للشيعة التى ينتمون إليها . كما أنه قد أصبح على الآباء الاختيار بين نوعى المدارس التى يودون تسجيل أبناءهم فيها ، ولا يعنى ذلك بحال انتهاء التأثيع السياسى على التعليم . فقد ظلت الحركات المسئول عن تنظيم الهجرة تسعى من أجل دفع مهاجريها إلى اختيار نوع معين من التعليم دون سواه حسب اتجاهات كل حركة .

تلك هى لمحة سريعة عن تاريخ المؤسسات التعليمية فى إسرائيل ويتضح منها أن تلك المؤسسات قد نشأت وترعرعت فى أحضان التنظيمات الصهيونية التى أشرفت على تهجير اليهود والتى تعددت بحكم إنتمائها الفكرية وأيضا بحكم مصادر الهجرة أعنى البلدان التى كان يتم نزوح اليهود منها إلى إسرائيل . ولسوف تسهم تلك الحقيقة فى القاء الضوء على جانب كبير من المصاعب والعقبات التى حالت دون تحقيق المؤسسات التعليمية الإسرائيلية للهدف المرجو منها . فلسنا بحاجة إلى القول بأن طبيعة عملية تهجير اليهود إلى إسرائيل لم تكن بالعملية العفوية ، بمعنى أنها لم تعتمد أساساً على قرار يتخذه فرد يهودى بمغادرة الوطن الذى نشأ فيه فيحمل حقيبته ويشد رحاله إلى إسرائيل . لقد كانت عملية الهجرة إلى إسرائيل عملية مخطَّطة بمعنى أنه قد وجدت التنظيمات التى تتولى ترتيب عمليات الهجرة الجماعية إلى إسرائيل وتمولها وتشرف عليها . ونستطيع دون خوض فى تفصيلات تلك العملية أن نتبين طبيعة ذلك الرباط الوثيق الذى يربط المهاجر اليهودى بالمؤسسة التى نظمت هجرته . تلك المؤسسة التى أسلمها نفسه بمجرد

عزمه على الهجرة تاركا لهم تنظيم كافة أموره التفصيلية حيث تتولى تلك المؤسسة المساهمة فى إنهاء ارتباطاته بموطنه الأصلى، وإعداد وسيلة نقله إلى إسرائيل. ثم الاشراف على الحاقه بمعسكر للمهجرين وهكذا إلى أن يستقر به المقام هناك. مثل تلك العلاقة بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والوجدانية ليست بالأمر الذى يمكن فهمه بسهولة وبالتالى فلم يكن يسيراً أمر استبعاد تأثيرها على المؤسسات التعليمية.

وعلى أى حال فليس يعنينا فى هذا المقام الدورالتثقيفى أو الفنى لوحدات المؤسسات التعليمية بمعنى أنه لا يعنينا بشكل مباشر تدرج الهرم التعليمى فى إسرائيل ولا الاعتمادات المالية لنظام التعليم هناك ولا كذلك مناهج التعليم الفنية المتخصصة. أن ما يعنينا هو دور تلك المؤسسات التعليمية فى عملية التنشئة الاجتماعية التى تجرى هناك. وخير محك لتبين مدى ما بلغه ذلك الدور هو أن نطل قدر ما نستطيع على ما أنجزته تلك المؤسسات بالفعل فى خلق التكوين السيكلوجى الموحد لأبنائها أعنى لطلاب العلم فى إسرائيل، ولنتجاوز هنا مؤقتا عن التفاوت الواضح الذى أشرنا إليه بين الإسرائيليين الشرقيين والإسرائيليين الغربيين في المستوى التعليمى، ولنتساءل عن طبيعة ذلك التكوين السيكلوجى الذى أسهمت تلك المؤسسات التعليمية فى خلقه لدى الإسرائيليين الغربيين الذين يمثلون النسبة الكبرى بين طلاب العلم فى إسرائيل، لعل ذلك يوضح لنا الأهداف المرجو تحقيقها من عملية التنشئة الاجتماعية فى إسرائيل ككل وبصرف النظر عن شمولها أو عدم شمولها للمجتمع الإسرائيلى بكامله. وسوف نستمد بياناتنا فى هذا الصدد من واقع دراسة قام بها العالم الأمريكى ج. تامارين ونشرتها الصحافة الإسرائيلية عام ١٩٦٦ وعرضها نقلا عن تلك الجرائد العالم السوفيتى يورى ايفانوف فى كتابه الصهيونية حذار (٦٠، ص ٤٢ إلى ص ٤٤).

تتلخص تلك الدراسة فى أن العالم الأمريكى قد قام بتوزيع ١٠٦٦

بطاقة استطلاع رأى ذات مضمون موحد على ٥٠٣ فتاة، ٥٦٣ فتى من تلاميذ مختلف فصول عدة مدارس إسرائيلية وتتضمن البطاقة عرضا لإحدى قصص التوراة التى تم إختيارها لأهميتها فى البرنامج الدراسى الإسرائيلى حيث أنها تدرس للتلاميذ من الصف الرابع حتى الثامن والتى تدور حول دخول عيسوى نافين بجيشه مدينة أريحون وقضاءه على ما فيها من كائن يتنفس ثم تطلب البطاقة من التلميذ أن يجيب على سؤالين، يدور الأول حول مدى خطأ أو صواب تصرف عيسوى نافين، ويدور الثانى حول مدى جواز أن يفعل الإسرائيليون بسكان قرية عربية نفس ما فعله عيسوى نافين ويكفى أن نشير إلى عبارتين بالغتى الدلالة فى إجابات التلاميذ على السؤالين وردت العبارة الأولى فى إجابة تلميذ من مدينة شارون ويقول فيها «ليس من المرغوب فيه أن توجد عناصر أجنبية فى إسرائيل، فقد يكون لوجود سكان يدينون بأديان أخرى أثر ضار على الإسرائيليين»، أما العبارة الثانية فقد وردت فى إجابة تلميذ فى الصف الثامن نصها «فى رأيى أنه يتحتم على جيشنا أن يفعل بأهالى القرية العربية ما فعله عيسوى نافين بأهالى أريحون فالعرب هم أعداؤنا وحتى فى الأسر لابد أنهم سيحاولون إنتهاز الفرصة للفتك بحراسهم» وليس هذين النموذجين بالنماذج الشاذة التى لا تمثل الاتجاه العام لاجابات التلاميذ الإسرائيليين فلقدذكر تامارين أن نسبة الأجوبة المتشابهة قد تراوحت بين ٦٦٪ و ٩٥٪ مع تغيير المدرسة أو المدينة أو المستعمرة ويعلق إيفانوف على ذلك قائلا «تلك هى بعض الثمار الملموسة لسياسة التعليم الصهيونى. وهذه الثمار لم تنضج من تلقاء نفسها، وإنما على شجرة الايديولوجية الصهيونية التى ضربت جذورها إلى أعماق كبيرة» (٦٠، ص ٤٤).

واضح من تلك الدراسة أن ثمة بعدين رئيسين وضحا وضوحا بينا فى إجابات التلاميذ الإسرائيليين البعد الأول: هو الاحساس بتعرض اليهود للخطر بحيث يمكن أن يعد مجرد وجود مجموعة من العرب الأسرى

خطراً على أسريهم من اليهود، أما البعد الثانى: **فهو ذلك الاحساس الغلاب** بتمايز اليهود عن غيرهم حتى أن من يعتنقون أديانا أخرى يكونون بمثابة العناصر الأجنبية الضارة فى إسرائيل ونستطيع إذن أن نستخلص ببساطة أن المؤسسات التعليمية فى إسرائيل مستغلة لنصوص من التوراة إنما تسعى إلى هدفين:

الأول:

تدعيم الانتماء التاريخى ليهود إسرائيل إلى التاريخ اليهودى القديم.

الثانى:

تدعيم عنصرين رئيسين فى التكوين السيكلوجى الاسرائيلى المعاصر. وهما عنصر التمايز وعنصر الشعور بالاضطهاد.

المؤسسات العسكرية

قد تكون مهمة يسيرة أن يحدد الباحث حدود المؤسسات العسكرية فى أى مجتمع، ولكن تلك المهمة تكاد أن تصبح ضرباً من المحال إذا ما كان ذلك المجتمع هو إسرائيل. فما يحدث عادة هو أن تنشأ الأمة ثم تقوم الدولة وتتحدد أبعادها السياسية والايديولوجية والطبيعية وتتحدد بالتالى التنظيمات السياسية المناسبة لها، وأخيراً تتشكل المؤسسات العسكرية وفقاً ونتيجة لكل تلك المقتضيات ولكن الأمر بالنسبة لإسرائيل يبدو وكأنه قد سار على عكس ذلك المسار تماما. صحيح أن أوروبا قد شهدت قيام التنظيمات السياسية الصهيونية ونشاطها من زمن بعيد إلا أن المؤسسات العسكرية كانت هى أول ما شهدته أرض فلسطين من الحركة الصهيونية ثم تلتها التنظيمات السياسية الإسرائيلية، ومن خلال تلك التنظيمات السياسية نشأت الدولة الإسرائيلية وما زالت، ولذلك فإنه إذا ما استرسل حديثنا عن المؤسسات العسكرية الإسرائيلية، فإنه لن يدع مجالا لحديث منفصل عن التنظيمات السياسية أو الدولة فى إسرائيل أو ما شابه ذلك. فالمؤسسات العسكرية الإسرائيلية هى بداية النشاط الصهيونى على أرض فلسطين ومنتهاه أيضا. ولكننا سنحاول قدر ما نستطيع أن نركز حديثنا على جانب إسهام تلك المؤسسات فى عملية التنشئة الاجتماعية فى إسرائيل.

ناقشنا فيما سبق دور المؤسسات التعليمية الإسرائيلية فى عملية التنشئة الاجتماعية فى إسرائيل وذكرنا أن الاهتمام الشديد بدور تلك المؤسسات فى هذا المجال قد يكون محاولة لتلافى القصور الذى تفرضه طبيعة تباين أصول الأسر الإسرائيلية على إنجاز دور الأسرة فى عملية التنشئة الاجتماعية بالمستوى المطلوب وإذا كان لنا أن نتجاوز عن الأثر الذى تركه إنقسام المجتمع الإسرائيلى إلى يهود شرقيين ويهود غربيين فإن قيام المدرسة بدورها كبديل عن الأسرة سوف يلقى بلا شك عقبة هائلة أخرى تتمثل فى أن التلميذ فى المدرسة الابتدائية خاصة يكون أقرب إلى التأثر بأسرته وإلى ما غرسته فيه من قيم وعادات وتقاليد مما قد يحول دون تشربه بما تهدف المدرسة إلى غرسه فيه من نلك القيم والعادات والتقاليد،وقد تكون تلك هى الأرضية الفكرية التي دفعت إسرائيل إلى بذل أقصى قدر من الاهتمام بالدور الذى يمكن أن تلعبه المؤسسات العسكرية فى مجال التنشئة الاجتماعية. فما يبدو للوهلة الأولى هو أن المؤسسات العسكرية تستطيع بحكم طبيعتها أن تتلافى عقبتين كانتا تعوقان سبيل قيام المؤسسات التعليمية بدورها فى مجال التنشئة الاجتماعية وتتمثل العقبة الأولى التى كان يبدو أن فى استطاعة المؤسسات العسكرية تخطيها فى حقيقة أن التلاميذ وهم مجال التأثير الحقيقى للمؤسسات التعليمية يبدأون علاقتهم بتلك المؤسسات وهم مازالوا أقرب إلى تأثير الأسرة مما قد يسبب شيئا من الصعوبة فى بلوغ تأثير المؤسسات التعليمية عليهم غايته. وتتمثل العقبة الثانية فى أنه إذا كان تأثير المؤسسات التعليمية يأخذ فى التمركز تدريجياً حول قطاع واحد من الإسرائيليين هم الإسرائيليين الغربيين فإن مثل ذلك الاتجاه قد يمكن تلافيه فيما يتعلق بالمؤسسات العسكرية.

لقد نشأت أولى التنظيمات المسلحة الإسرائيلية على أرض فلسطين

فى أواخر القرن التاسع عشر فى صورة منظمة هاشومير وتعنى الحرس اليهودى والتى وضع بذرتها الصهاينة من الحالوتس الذين أقاموا مستعمرة بتاح تكفه فى بداية حركات النزوح إلى إسرائيل واتخذت تلك المنظمة شكلها المحدد حوالى عام ١٩٠٧ واستمرت كذلك إلى أن تحولت على أثر وعد بلفور عام ١٩١٧ إلى المنظمة المعروفة بإسم منظمة الهاجاناه أى الدفاع ــ التى حصلت من بريطانيا عام ١٩٣٦ على اعتراف فعلى بها كمنظمة للدفاع عن المستعمرات. ولقد برزت من الهاجاناه خلال عام ١٩٤٣ وبترتيب من القيادة البريطانية منظمة البالماخ ــ أى الفصائل المهاجمة ــ التى كان على رأسها ايجال الون. وإلى جانب الهاجاناه فقد تأسست عام ١٩٣٧ منظمة الأرجون زفاى ليومى ومعناها المنظمة العسكرية لشعب إسرائيل وهى تعبير عن انشقاق قام به بعض الصهاينة المتطرفين وعلى رأسهم جابوتنسكى على سياسة الدكتور حاييم وايزمان الذى كان ينادى باتباع أساليب أقل تطرفاً. وقد بدأ عمل الارجون بتنظيم عمليات واسعة لتهجير اليهود من أوروبا إلى فلسطين ثم لم تلبث أن اتخذت طابعها العسكرى بعد ذلك. وقد شهد عام ١٩٤٠ تأسيس منظمة عسكرية أخرى هى منظمة شتيرن التى أسسها ابراهام شتيرن إثر انشقاقه على منظمة الأرجون لرفضه قرارها بضرورة عقد إتفاق ودى وهدنة مع بريطانيا ما دامت الحرب قائمة ضد ألمانيا النازية. واستمر الحال كذلك إلى أن أعلن بن جوريون عام ١٩٤٨ حل كافة تلك المنظمات وادماجها فى جيش نظامى واحد.

تلك نظرة سريعة إلى تاريخ المؤسسات العسكرية الإسرائيلية (٧٣، ص٦٥ إلى ص٨٣) قصدنا منها أن نوضح أن تلك المؤسسات كانت بمثابة الوجه الآخر للحركة الصهيونية السياسية ولذلك فليس غريباً أن يرتبط كل من تلك الأحزاب السياسية بواحدة من تلك

المؤسسات العسكرية تاريخياً وسياسياً بل وايديولوجياً أيضا، فيرتبط حزب حيروت بمنظمة الأرجون زفاى ليومى، ويرتبط حزب المابام بمنظمة البالماخ، كما يرتبط بمنظمة الهاجاناه، حزب الماباى.

ذلك عن التاريخ حتى ما قبل ١٩٤٨ فماذا عما بعد ذلك؟ يقول جورج فريدمان فى كتابه الذى سبق أن أشرنا إليه والذى كان نتاجاً لزيارتين قام بهما إلى إسرائيل فى عامى ١٩٦٣، ١٩٦٤ على التوالى، لقد تم بالفعل تسخير مؤسسات البلاد من أجل تشكيل الشباب وتعريفهم بمشاكل الوطن، وصراعاته وما يتعرض له من مخاطر، وتنشئتهم كمواطنين لإسرائيل. ومن أكثر تلك المؤسسات أهمية الناحال (الشباب الطليعى المقاتل) وهى من الناحية النظرية فرع من قوات الدفاع ـ أى الجيش ـ ويتم التجنيد لها عن طريق التطوع الاختيارى شأنها شأن القوات الجوية والبحرية. ولكن من الناحية العملية فإن حركات الشباب فى المدارس الثانوية وفى مواقع العمل تقوم بخلق النواه التى يتجمع حولها الجارينيم (شبان تحت العشرين يعدون لحياة الكيبوتز). وعند وصول شباب الناحال إلى سن الالزام فإنهم يقضون عدة أسابيع فى التعاونيات الزراعية ويألفون حياة الكيبوتز. ويعد تدريبهم العسكرى فيما بين الرابعة عشر والثامنة عشر بمثابة تلمذة مهنية فى الزراعة وفى حياة الحالوتس، ويتولى مسئولية ذلك وزارتى الدفاع والتعليم معا ..... «إن دور الجيش ككل فى التدريب المدنى لايقل أهمية عن دوره العسكرى». (١٤، من ص ٢٦ إلى ص ٢٨). ويمضى فريدمان فى موضع آخر موضحاً أن المهمة الشاقة التى تواجه المجتمع الإسرائيلى ـ وهى مهمة الدمج بين الاشكنازيم والسفارديم ـ إنما تقع أساساً على عاتق مجالين هما الجيش ونشر اللغة العبرية. (١٤، ص ٣١). ويقول كمال غالى فى كتابه النظام السياسى الإسرائيلى

«يعتبر الجيش.... البوتقة التى تدمغ الشباب بطابع عميق دائم، لذلك لم يقتصر الجيش على العمل العسكرى وحده. بل نهض بمهمه اجتماعية واقتصادية إذ وجد نفسه مسئولا منذ اليوم الأول عن كافة المهاجرين الجدد، داخل الجيش وخارجه، فهو يعمل على صهر كافة هذه العناصر المتفرقة المتباينة بإعطائها لغة واحدة، ومثل أعلى واحد وتدريب عسكرى وزراعى لإعمار المستعمرات الزراعية» (٦٩، ص ١٤٠).

ولو نظرنا نظرة فاحصة إلى برامج التدريب الثقافى للجيش الإسرائيلى بوصفها معبرة بشكل ما عن إتجاه المؤسسات العسكرية فى عملية التنشئة الاجتماعية لوجدنا أن أبسط برامج التدريب الثقافية للجنود تتضمن المواد التالية:

١ ـــ تعليم اللغة العبرية حتى الاتقان
٢ ـــ التوراه.
٣ ـــ التاريخ الإسرائيلى القديم.
٤ ـــ التاريخ الإسرائيلى الحديث.
٥ ـــ التاريخ العام.
٦ ـــ جغرافية إسرائيل.
٧ ـــ الجغرافية العامة.
٨ــ الحساب. (٧٣، ص ١٦١).

أى أن جوهر ماتقوم المؤسسات العسكرية بتلقينه للجنود فيما يتصل بعملية التنشئة الاجتماعية أو خلق تكوين سيكلوجى موحد بينهم هو تنمية الشعور بأن ثمة تاريخ قديم يربط بين يهود التوراه ويهود إسرائيل. ولو شئنا مزيداً من التعرف على مضمون ذلك الذى تقدمه المؤسسات العسكرية لجنودها فيما يتصل بالتاريخ مثلا لوجدنا ما يؤكد استنتاجنا.

فكتاب التاريخ العبرى الذى يدرس للجنود الإسرائيليين يتضمن «سرداً كاملاً ومكثفاً لآلاف السنين الغابرات، وبخاصية حكاية الأعوام الأربعين التى تاه خلالها العبرانيون فى الصحراء وخراب الهيكل، والقمم الذى إرتفعت إليها رسالة العبرانيين عبر التاريخ إلى ما فوق مستوى جميع الحضارات الماضية والحاضرة» (٧٣، ص ١٣).

أما فيما يتصل بالتوراه فإن إنتقاء فصول معينة منها يكشف عن طابع عام يجمع بين تلك الفصول جميعا وهو عنف الإسرائيليين البالغ فى مواجهتهم لأعدائهم الذين لم يكفوا عن العدوان عليهم طوال ذلك التاريخ القديم. (٧٣، ص ١٤ ــص ١٥). أى أننا مرة أخرى فى مواجهة نفس العنصرين اللذين بدأنا بهما بحثنا واللذان وجدناهما فى صميم التكوين السيكلوجى لسكان الجيتو والمتمردين عليه، أعنى الحالوتس، ووجدناهما فى صميم الأهداف التى تسعى إليها المؤسسات التعليمية فى إسرائيل أيضا، أعنى عنصرى الشعور بالتمايز والشعور بالاضطهاد.

المؤسسات الدينية

تعد مشكلة الاندماج من أهم المشاكل التى تواجه إسرائيل منذ نشأتها حتى الآن. فلم تكف الحركة الصهيونية لحظة واحدة عن السعى لإيجاد الرابطة التى يمكن أن تربط بين قادم من جوهانسبرج فى أقصى جنوب القارة الأفريقية وقادم من استكهلم فى أقصى شمال القارة الأوروبية. بين من أمضى طفولته فى الجوديريا حى اليهود فى أسبانيا ومن أمضاها فى القاع قاع حى اليهود فى اليمن. كيف يمكن أن يخرج من كل الخليط تكوين سيكلوجى موحد؟ تلك هى المشكلة ولقد سبق أن أشرنا إلى أن اللغة تعد بمثابة الشرط الأول الحاسم فى هذا الصدد. وأشرنا كذلك فى إيجاز إلى دور المؤسسات التعليمية والعسكرية فى إسرائيل فيما يتعلق بتلك العملية. وإحياء اللغة العبرية يحتاج إلى تخطيط للبرامج وإعداد للمناهج وتصنيف للمتلقين وفقاً لمستوياتهم الثقافية. وتمويل لذلك كله. وكذلك الحال بالنسبة للمؤسسات التعليمية والمؤسسات العسكرية. ولقد يبدو للبعض تساؤل ظاهره الاستفسار وباطنه الاستنكار، ولم كل ذلك الجهد لخلق رباط يربط بين هؤلاء القادمين جميعاً؟ هل اغفلنا الدين اليهودى؟ أليس هو جوهر الدولة الإسرائيلية؟ أليس كل الصهاينة يهوداً؟ يبدو أنه والأمر كذلك لن يتطلب حل المشكلة تخطيطاً لبرامج ولا اعداداً لمناهج ولا تمويلاً

لكل ذلك، بل يبدو وأنه لن تكون ثمة مشكلة على الاطلاق «أن اليهود وحدة لا تنفصم عراها، كل يهودى فى أى بلد من بلاد العالم يعتقد أن وطنه هو الصهيونية ومركزها فلسطين. ومهما تعددت الجنسيات الرسمية بين اليهود، وظن الناس أن هذا انجليزى وذلك أمريكى والآخر فرنسى، أو روسى فإنهم جميعاً مواطنون صهيونيون» (٧٠، ص ١٨٤).

إلى هذا الحد وصل الأمر بالبعض فى تبسيط المشكلة التى مازالت إسرائيل تسعى دون كلل ودون جدوى فى حلها. الحل فى الدين اليهودى كما يرى هؤلاء وإسرائيل ليست سوى مجموعة دينية عنصرية متعصبة» (٧٠ ص ١٨٧) وما كان الأمر ليكلف الصهاينة شيئاً، فالمعبد اليهودى عرفه اليهود فى كل زمان ومكان، وما أيسر دعوتهم إلى الإلتفاف من حوله.

والحقيقة أن الصهيونية لم تغفل شيئاً من ذلك قط وما قصرت لحظة فى السعى إلى تحقيقه، ولكن الأمر لم يكن بالسهولة التى يتصورها البعض بل أن صعوبته وتعقيداته تزداد كل يوم. ليس هناك من يجهل حقيقة أن الصهيونية قد دعت «اليهود» إلى التجمع فى فلسطين ومازالت دعوتها لهم قا ئمة من الناحية الرسمية على الأقل متمثلة فى قانون العودة. ودعوة الصهيونية إنما تعنى بلا جدال دعوتها لمن يعتنقون الديانة اليهودية. وليس هناك من يجهل أيضا إلى أى حد مضت الصهيونية فى تطعيم دعايتها ليهود الدياسبورا بمقتطفات من التوراه بل ليس هناك من يجهل ما تحفل به تصريحات المسئولين الإسرائيليين من الاستشهادات والاقتباسات من التوراة. ولقد أشرنا بالفعل إلى إعتماد المؤسسات التعليمية والمؤسسات العسكرية على الدين اليهودى كدعامة

تكفل الرباط الوثيق بين الإسرائيليين بل بين بين اليهود فى أنحاء العالم قاطبه. بل أنه ليبدو لأول وهلة أنه يمكن بالفعل ومن خلال التركيز على الدين اليهودى التغلب تماماً على مشكلة تباين أصول الأسر الإسرائيلية فالدين يدخل كل منزل ـ أو بالأحرى فالمفروض إنه كذلك، وبالتالى فإنه يمكن أن يكون بمثابة العمود الفقرى للمجتمع الإسرائيلى خاصة وأن هناك من الدراسات ما يشير إلى أن ثمة إرتباط وثيق بين تماسك الأسرة وممارستها للطقوس الدينية فى المجتمع الإسرائيلى (٣٩) ..... ترى هل تمكنت الصهيونية من تحقيق ذلك فعلا ؟.

صحيح أن هناك مزجاً أو بالأحرى إتحاداً وثيقاً بين الدين والحياة فى إسرائيل (٦٣، ص ٣٢) ولكن إلى أى حد أفلح ذلك المزج فى بلوغ غايته ؟ وإذا لم يكن قد أفلح تماماً فما سر ذلك القصور؟ ولنبدأ أولا بالإجابة على السؤال الأول ولحسن الحظ فلن نبحث طويلا عن مظاهر نجاح أو إخفاق الإعتماد على الدين اليهودى فى جمع شتات الإسرائيلين، فلدينا دراسة حديثة نسبياً تدور حول الاتجاهات نحو الدين فى إسرائيل قام بها عام ١٩٦٣ الباحث الإسرائيلى آرون أنتونوفسكى وهو واحد من الفريق الذى يرأسه عالم الاجتماع الشهير لويس جاتمان فى المعهد الإسرائيلى للبحوث الاجتماعية التطبيقية (١٤، ص ١٨٠ إلى ص ١٨٣) وقد أجرى البحث على عينه ممثلة تضم ١١٧٠ فرداً من الإسرائيليين الراشدين من خارج الكيبوتزات بالإضافة إلى عينة خاصة تضم ٣٠٠ إسرائيلياً راشداً من أبناء الكيبوتزات وقد استخدم الباحث فى بحثه إستمارة أسئلة تطبق فى مقابلة شخصية تجرى مع المفحوص وكان السؤال الأول هو «هل تلتزم بالتعاليم الدينية ؟ وكان على المفحوص أن يختار واحدة من الإجابات الأربع التالية :ـ

أ) أنى ألتزم بدقة بكل ما تنص عليه تلك التعاليم.
ب) أنى ألتزم بغالبية التعاليم الدينية.
جـ) أنى ألتزم بتلك التعاليم إلى حد ما.
د) أنى لست ملتزماً على الإطلاق حيث أننى لست متدينا.

وكان السؤال الثانى هو: هل ترى أنه يجب على الحكومة أن تراعى المحافظة على إتفاق الحياة العامة مع تعاليم الدين اليهودى؟ وكان على المفحوص أيضا أن يختار واحدة من أربع إجابات هى: —

أ) نعم بالتأكيد. ب) جائز.
جـ) لا أظن. د) بالتأكيد.

وقد أجاب ١٥٪ من أفراد العينة على السؤال الأول بأنهم يلتزمون بدقة بكل ما تنص عليه التعاليم الدينية. وأجاب ١٥٪ أيضا على نفس السؤال بأنهم يلتزمون بغالبية التعاليم الدينية فى حين أجاب ٤٠٪ بأنهم يلتزمون بتلك التعاليم إلى حد ما، وأجاب ٢٤٪ بأنهم لايلتزمون بتلك التعاليم مطلقاً أما بالنسبة لعينة أبناء الكيبوتزات فقد أجاب ٧٦٪ منهم بأنهم لا يلتزمون مطلقاً بتلك التعاليم وأجاب ١٤٪ منهم بأنهم يلتتزمون بتلك التعاليم إلى حد ما. فى حين لم يجب سوى ١٠٪ بأنهم يلتزمون بدقة بكل ما تنص عليه تلك التعاليم وهؤلاء الذين تمثلهم تلك النسبة ليسوا سوى ٣٠ فرداً، ممن ينتمون إلى احدى الكيبوتزات الدينية. أما السؤال الثانى فقد أجاب عنه ٢٣٪ من أفراد العينة بنعم بالتأكيد، و٢٠٪ منهم بجائز و١٦٪ منهم بلا أظن، ٣٧٪ منهم بالتأكيد.

وقد قام أنتنوفسكى بتحليل احصائى لنتائجه قام فيه بدمج نتائج الإجابة على السؤالين واستخلص من ذلك أن نسبة الذين يتخذون موقفاً

لادينياً بشكل متسق تبلغ ٤٩ ٪ بينما تبلغ نسبة من يتخذون موقفاً دينياً متسقاً ٢٢ ٪.

ولا نظن أننا فى حاجة إلى تعليق تفصيلى فالأرقام تتحدث عن نفسها كما يقولون ٤٩ ٪ من أبناء إسرائيل يتخذون موقفاً متسقاً معارضاً للدين بمعنى أنهم يتخذون ذلك الموقف فيما يتعلق بسلوكهم الشخصى أى بعدم التزامهم بتعاليم الديانة اليهودية ويتخذونه أيضا وفى نفس الوقت فيما يتعلق بالصلة بين الدين والدولة برفضهم تنظيم الحياة العامة فى إسرائيل وفقاً لما تقضى به الديانة اليهودية. ترى ما دلالة ذلك؟ أين إذن ذلك المجتمع الدينى القائم فى إسرائيل؟ الحركة الصهيونية لم تأل جهداً طيلة ما يزيد عن النصف قرن فى سعيها لاضفاء الطابع الدينى على إسرائيل ومازالت دعايتها حتى اليوم تقوم على الدعوة إلى «العودة إلى أرض الميعاد» والمؤسسات التعليمية فى إسرائيل تفرض على التلاميذ دراسة الدين اليهودى منذ الصغر ولعل دراسة تامارين (٦٠، من ص ٤٢ إلى ص ٤٤) التى سبق أن أشرنا إليها تعكس قدراً من النجاح حققته تلك المؤسسات بالنسبة للأطفال فى قطاع معين من المجتمع الإسرائيلى، ماذا دهى الراشدين إذن؟ والمؤسسات العسكرية تفرض للتدريس فى كافة وحدات الجيش وكافة المستويات فصولا منتقاه من التوراه لتدريسها مطبوعة فى كتاب كتب عليه «**هذه هى التوراه، أمام نظرك، كتاب الكتب لشعب إسرائيل أقرأه وأفهمه**» (٧٣ ص ١٩). كل تلك الجهود وفى مجتمع غالبيته من «اليهود» وعلى رأسه حكومة يهودية ومع كل ذلك أو بالأحرى بالرغم من كل ذلك فإن ٤٩ ٪ من أبناء ذلك المجتمع يتخذون موقفاً لا دينياً متسقاً. ألا يعنى ذلك أن الدين اليهودى ليس هو بحال جوهر المجتمع الإسرائيلى الصهيونى؟ أيمكن أن يكون هذا الدين هو جوهر المجتمع ونجد من بين

أبنائه الخلص أعنى من جيل السابرا من يقول «أننى أكرههم هؤلاء اليهود المتدينون، وحين أراهم أستطيع أن أفهم لماذا يصبح الناس معادون للسامية؟» (٢٧ ص ٣٨٨) أيمكن أن يكون هذا الدين هو جوهر ذلك المجتمع ونجد بين أبنائه الخلص من يرددون فى فخر واعتزاز أن أطفالهم لا يبدو على مظهرهم أنهم يهود؟ (٢٧ ص ٣٨٨). أن جورج فريدمان اليهودى الديانة الفرنسى الجنسية فى كتابه الذى أشرنا إليه والمعنون أهى نهاية الشعب اليهودى؟ لم يستطع رغم تعاطفه الواضح مع التجربة الإسرائيلية، لم يستطع إلا أن يقرر «أن وحدة الشعب اليهودى ليست سوى مفهوم براجماتى» (١٤، ص ٢٣٨) ثم لا يلبث أن يقرر فى وضوح «أن هناك...... إستحالة واضحة فى تعريف الشعب اليهودى من خلال الدين»(١٤ ــ ص ٢٤٢).

ترى لماذا رغم كل تلك المحاولات، ورغم كل تلك الظروف التى تبدو ظروفاً مواتية تعثرت محاولات الصهيونية إستخدام الديانة اليهودية كمحور يتجمع حوله الإسرائيليون وتتشكل من خلاله وحدة تكوينهم السيكلوجى؟ لذلك التعثر ــ فيما نرى ــ أسباب عديدة نوجز أهمها فيما يلى: ــ

أولا: لقد نشأت حركة الحالوتس فى البداية كما سبق أن أوضحنا إحتجاجاً على الحياة فى الدياسبورا، وبالتحديد على الحياة فى الجيتو. ولما كان التمسك بالدين اليهودى وبتقاليده يعد سمة رئيسية من سمات حياة الجيتو فإن تمرد جيل الحالوتس وهو الجيل الذى ترك بصماته واضحة على الحياة فى إسرائيل حتى اليوم كان لابد وأن يمتد إلى طقوس ذلك الدين الذى تمسك به آبائهم الذين تمردوا عليهم (٤، ٢٤، ٢٥، ٢٧).

ثانياً: لقد كان التمسك الشديد بطقوس الدين فى الدياسبورا تعبيراً عن الشعور بالتمايز والاختلاف عن الآخرين من مواطنى الأوطان الأصلية أما بعد أن أصبح الدين اليهودى هو الدين الرسمى فضلا عن أنه دين « الأغلبية » فى إسرائيل فإن التمسك الشديد بطقوس ذلك الدين لم يعد يؤدى نفس الوظيفة أعنى إبراز تمايز اليهود واختلافهم عن غيرهم داخل إسرائيل، بل أن ذلك التمايز قد أصبحت له صوره الأخرى الأكثر كفاءة فى التعبير عنه.

ثالثاً: أن ثمة تعارض حقيقى بين تعاليم وطقوس الديانة اليهودية بالغة القدم، وبين ظروف الحياة الفعلية التى تعيشها * إسرائيل، ويكفى للتدليل على ذلك أنه على رأس حكومة تلك الدولة التى يرى دينها الرسمى أنه على الرجال أن يشكروا الله كل صباح لأنه لم يخلقهم نساء، على رأس حكومة تلك الدولة امرأة.

رابعا: إن العلاقة الوثيقة التى تربط إسرائيل بالغرب عموماً وبالولايات المتحدة على وجه الخصوص فضلا عن تركيز جانب كبير من الدعاية الإسرائيلية على صورة إسرائيل الدولة الحديثة المتحضرة بل التى تعد امتداداً للحضارة الأوروبية كل ذلك

(*) نشرت جريدة الأهرام فى عددها الصادر فى ٥/ ١٢/ ١٩٧٠ نقلاً عن رويتر مامؤداه أن المجلس الدينى لأحد الاحياء الإسرائيلية بالقدس قضى بمقاطعة رجل من سكان الحى بسبب إرتكابه «خطيئة امتلاك تليفزيون» ودلك حتى يتوب عن خطيئته، ويزيل الجهاز النجس والمثير للأشمئزاز من منزله والخبر غنى عن أى تعليق.

يتعارض مع القول بضرورة التزام الدولة بتعاليم الدين اليهودى، ويفصح ذلك التعارض عن نفسه أمام رجل الشارع الإسرائيلى بل أمام اليهود الوافدين من الخارج حتى بغرض الزيارة (١٤، ص ٣٢٨).

خامسا: تضع إسرائيل ضمن مخططاتها الرسمية والفعلية إستدماج الأقليات الدينية الأخرى الموجودة فى إسرائيل وتمثل عملية الاستدماج هذه تناقضا خطيراً بين مايفرضه الأخذ بتعاليم الديانة اليهودية من تمسك، وماتفرضه عملية الاستدماج من تساهل نسبى (١٧).

سادسا: إن إنقسام اليهود إلى إشكنازيم وسفارديم ليس بالإنقسام السطحى ولا حتى بالانقسام الذى يقف عند حدود الاختلاف الحضارى والثقافى فحسب بل يتعداه بالفعل إلى إنقسام فى النظرة إلى الدين اليهودى نفسه، وفهم ذلك الدين. ولعل التعبير الرسمى عن ذلك الإنقسام يتضح فى وجود منصبين لكبار الحاخامات أحدهما لكبير حاخامات اليهود الاشكنازيم والثانى لكبير حاخامات السفارديم (١٤، ص ١٧٣).

سابعا: لقد ارتبطت المعابد الدينية فى إسرائيل إرتباطاً وثيقاً بالأحزاب السياسية فيها، وكان لابد أن ينعكس عليها ما بين تلك الأحزاب من تنافس وتعارض جزئى مما أدى برجل الشارع الإسرائيلى إلى فقدان إحترامه الروحى لها، بل أن فريدمان يقرر أنه هناك عبارة كثيرة ماكان يسمعها تتردد بين الجامعيين ورجال الأعمال والموظفين الحكوميين والعمال، وهى عبارة

« أن الدين فى بلدنا ليس سوى سياسة » (١٤ ، ص ١٨٦) .

تلك فيما نرى هى أهم الأسباب الموضوعية التى حالت وتحول دون أن يكون « الدين اليهودى » فى حد ذاته هو محور التكوين السيكلوجى للإسرائيليين المعاصرين بصرف النظر عن إتفاق ذلك الدين أو إختلافه مع طبيعة ذلك التكوين .

خلاصة القول أن المؤسسات الدينية فى إسرائيل تحاول بالفعل ــ رغم تعثرها ــ الاسهام فى مجال التنشئة الاجتماعية للإسرائيليين . وأنها تركز فى ذلك المجال كما إتضح لنا من دراسة تامارين مثلا (٦٠ ، ص ٤٢ ــ ص ٤٤) ــ والتى أشرنا إليها خلال حديثنا عن دور المؤسسات التعليمية ــ على تدعيم عنصرى الشعور بالتمايز والشعور بالاضطهاد فى التكوين السيكلوجى للإسرائيليين المعاصرين .

المؤسسات الايديولوجية

ونعنى بالايديولوجية فى مجال بحثنا ذلك الاتجاه الفكرى العام المتضمن لوجهات النظر والأفكار السياسية والتشريعية والفلسفية والدينية والجمالية السائد فى مجتمع معين ـــ ولا تعنى سيادة الاتجاه الفكرى أنه إتجاه يعتنقه جميع من تضمهم حدود المجتمع المعين، بل يكفى أن تعتنقه أغلبية معقولة فى ذلك المجتمع وكذلك فإن عمومية الاتجاه الفكرى لا تعنى أن لا مجال فيه. لاختلافات، ولكن الاختلافات فى تلك الحالة تكون فى حدود التفصيلات دون أن تتعداها إلى العموميات. والاتجاه الأيديولوجى العام السائد فى مجتمع معين لابد وأن يصبغ كافة نواحى الحياة فى ذلك المجتمع بطابعه بما فى ذلك عاداته وتقاليده وأفكاره وباختصار فإنه يصبغ التكوين السيكلوجى العام لأبناء ذلك المجتمع ذلك إذا كان هناك اتجاه أيديولوجى عام حقا، وسائد حقا.

ولقد شهدت إسرائيل محاولات مضنية بذلتها الحركة الصهيونية دون كلل لخلق ـــ أو بالأحرى ـــ لاختيار أيديولوجية محددة للمجتمع الإسرائيلى وإذا كانت الحركة الصهيونية قد حاولت قدر ما وسعها الجهد أن تخلع على اسرائيل الثوب الدينى لدولة «أرض الميعاد» فإنها قد حاولت وبنفس الحماس أن تروج لأكذوبة «إسرائيل الاشتراكية». وإذا كانت أجهزة الدعاية الصهيونية قد أحرزت نجاحاً

لاينكر فى كسب الانصار لوهم دولة أرض المبعاد فانها أحرزت نجاحا أيضاً فى إلصاق بطاقة الاشتراكية على المجتمع الإسرائيلى ولم يقتصر نجاحها على إيهام اليهود فى الدياسبورا بل أنها قد نجحت بالفعل فى إرساء ذلك الوهم فى عقول الكثيرين ممن لا يتعاطفون تعاطفا كاملا مع التجربة الإسرائيلية. ولعل أبرز الصور التى اتخذها ذلك النجاح وهى الصورة التى شجعتها ـــ فيما نرى ـــ الدعاية الصهيونية القول ـــ ولو فى ثوب النقد ـ بأن إسرائيل تجمع المتناقضات أى تجمع بين الاشتراكية والرأسمالية أو ـــ كما يقال أحياناً ـــ أن مدن إسرائيل مدن رأسمالية أما قراها وكيبوتزاتها فهى إشتراكية صريحة. ويعبر المفكر البريطانى مكسيم رودنسون عن ذلك الخلط أصدق تعبير فى كتابه إسرائيل والعرب بقوله: «لقد اضطرت أوروبا أن ترى فى إسرائيل صورة لمثلها وقد تحققت. ولعله من الغريب أن البعض قد رأى ذلك فى البرلمانية والديمقراطية الجماعية والاقتصاد الرأسمالى الحر، فى حين رآه الأخرون فيما يبدو كما لو كان بداية لمجتمع إشتراكى تسوده المساواه متحرراً من الامتيازات التى تفرضها الثروة. (٢٣، ص ٤٧).

ورغم أننا لسنا بصدد التفنيد التفصيلى لدعاوى الاشتراكية فى إسرائيل فإننا نجد لزاما علينا أن نشير إلى توضيح هام لتلك القضية ـــ أعنى قضية الإشتراكية الإسرائيلية ـــ أورده برنشتاين فى كتابه المعنون سياسات إسرائيل حيث يقول «بينما تقوم الحركات الاشتراكية عادة بتنظيم طبقة عاملة موجودة بالفعل من أجل الصراع الطبقى ضد استغلال وقمع الرأسمالية، فإن الاشتراكية الصهيونية قد خلقت فى فلسطين بروليتاريا يهودية تلقى دعماً مالياً وسياسياً من الرأسمالية اليهودية فى أوروبا وأمريكا.. ولقد أصبح الهستدروت بمثابة أكبر

المستثمرين فى الإقتصاد الإسرائيلى.. وعلى عكس ما هو مألوف فإن الاحزاب الاشتراكية فى إسرائيل تعارض بوجه عام التأميم والتخطيط الحكومى الشامل بينما تقف الأحزاب المدافعة عن الاستثمار الخاص فى صف التخطيط الاقتصادى كما أنها تضغط من أجل تأميم الصناعات الأساسية المملوكة الهستدروت فضلا عما يمتلكه الهستدروت أيضا فى مجال النقل والخدمات الصحية والتعليم.. وهكذا.. فإن التخطيط الأقتصادى والتأميم وهما عادة من معالم برامج أى حزب إشتراكى قد أصبحا فى إسرائيل بمثابة الإستراتيجيات الأساسية فى نضال الاستثمار الخاص ضد سيطرة الهستدروت على الاقتصاد» (٣، ص ٢٢٩ إلى ص ٢٣٠) ألا تذكرنا تلك الصورة بموقف الأحزاب الإشتراكية والديمقراطية من الاحتكارات الألمانية فى عهد هتلر؟ وعلى أى حال، ورغم تلك الصورة الغريبة للاشتراكية فإن «موشى ديان» فى حديثه إلى مؤتمر حزب المباى فى ١٥ أكتوبر عام ١٩٦٣ يقول «أن المثل الاشتراكية القديمة التى مازال يدافع عنها فى مؤتمر حزب الماباى أولئك القادة من أمثال ليفى أشكول وجولدا مائير وزالمان آران ليس لها ببساطة ما تفعله لذلك النوع من الناس الذين يحيون الآن فى إسرائيل»، بل أنه يمضى فى نفس حديثه فيصف الايديولوجية بأنها «ترف لا تستطيع الأمم النامية الحصول عليه» (١٤، ص ٨١).

لنترك ذلك كله مؤقتاً، فقضية الاشتراكية الإسرائيلية جديرة حقا بجهد علمى منفصل. ولننتقل إلى موضوعنا أو ما يمس موضوعنا مباشرة أعنى فلنحاول الاجابة على تساؤل محدد هو: ما هى أيديولوجية رجل الشارع الإسرائيلى؟ ومرة أخرى فإن الباحث الإسرائيلى آرون انتونفسكى الذى سبق أن أشرنا إلى بحثه فى مجال الاتجاهات نحو الدين يعود مرة أخرى فيوفر علينا جهد الاستنتاج، لقد نشر المعهد

الإسرائيلى للبحوث الاجتماعية التطبيقية عام ١٩٦٣ بحثا أجراه أنتونفسكى ونشره جوداه ماتراس فى كتابه : التغيير الاجتماعى فى إسرائيل (١٩، من ص ١٠٨ إلى ص ١١٠).

وقد قام أنتونفسكى فى ذلك البحث بتوجيه عدد من الأسئلة المتعلقة بالاتجاهات السياسية نحو موضوعات أربعة هى : ــ

أ ــ الميل إلى الغرب (الولايات المتحدة) مقابل الميل إلى الشرق (الاتحاد السوفيتى).

ب ــ تفضيل النظام الاشتراكى لإسرائيل فى مقابل تفضيل النظام الرأسمالى لها.

جـ ــ الاتجاه المناصر للهستدروت مقابل الاتجاه المناهض له.

د ــ الموافقة على استخدام العنف مع العرب مقابل عدم الموافقة على ذلك.

وقد استخلص أنتونفسكى من واقع الإجابات على تلك الأسئلة أن الخصائص الأيديولوجية للمجتمع الإسرائيلى نشكل تدريجا أحادى البعد قسمه إلى ستة أقسام تتخذ شكل التدرج الهرمى المعروف احصائياً. ولسوف نعرض أولا لذلك التدريج بالشكل الذى قدمه أنتونفسكى والذى نراه مسرفاً فى الغموض وغير محقق لهدف الكشف عن الوجه الحقيقى للايديولوجية الاسرائيلية ثم سوف نحاول بعد ذلك أن نعيد بناء ذلك التدريج إحصائياً بحيث يكشف فعلا عن ذلك الوجه الحقيقى.

يمضى تدريج أنتونفسكى على الوجه التالى : ــ

أولا : مناصر للنظام الاقتصادى للاتحاد السوفيتى.

مناصر للاشتراكية في إسرائيل.
مناصر للهستدروت.
معاد لاستخدام العنف مع العرب.
ويمثل هذا النمط الايديولوجى نسبة ٢ ٪ من أفراد العينة.

ثانيا: مناصر للنظام الاقتصادى للولايات المتحدة.
مناصر للاشتراكية فى إسرائيل.
مناصر للهستدروت.
معاد لاستخدام العنف مع العرب.
وتمثل هذا النمط الايديولوجى نسبة ٨ ٪ من أفراد العينة.

ثالثا: مناصر للنظام الاقتصادى للولايات المتحدة.
ليس مناصراً للاشتراكية فى إسرائيل.
مناصر للهستدروت.
معاد لاستخدام العنف مع العرب.
ويمثل هذا النمط الايديولوجى نسبة ٢٢ ٪ من أفراد العينة.

رابعا: مناصر للنظام الاقتصادى للولايات المتحدة.
ليس مناصرا للاشتراكية فى إسرائيل.
معاد للهستدروت.
معاد لاستخدام العنف مع العرب.
ويمثل هذا النمط الايديولوجى نسبة ٢٣ ٪ من أفراد العينة.

خامسا: مناصر للنظام الاقتصادى للولايات المتحدة.
ليس مناصراً للاشتراكية فى إسرائيل.
معاد للهستدروت.

مناصر لاستخدام العنف مع العرب .

ويمثل هذا النمط الايديولوجى نسبة ١٩ ٪ من أفراد العينة .

سادسا : مناصر للنظام الاقتصادى للولايات المتحدة .

ليس مناصراً للاشتراكية فى إسرائيل .

مناصر للهستدروت .

مناصر لاستخدام العنف مع العرب .

ويمثل هذا النمط الايديولوجى نسبة ١٠ ٪ من أفراد العينة .

هذا فضلا عن نسبة ١٦ ٪ من أفراد العينة لم يقدموا من الإجابات مايكفى لتضمينهم فى التحليل ولذلك فقد اعتبرهم أنتونفسكى « معدومى الأيديولوجية » . ترى هل يمكن لمثل هذا التصنيف أن يجيب حقا عن سؤالنا ماهى أيديولوجية رجل الشارع الإسرائيلى ؟ أن كل مايمكن أن يوحى به ذلك التصنيف أن هناك تدرجاً من ذلك النوع الذى يسميه الاحصائيون بالتوزيع الاعتدالى والذى يعنى فى النهاية أن الأيديولوجية السائدة فى إسرائيل لاتعرف تطرفا بل أن النمطين المتطرفين ــ أى أولاً ــ وسادسا لا يمثلا إلا نسبة ٢ ٪ ، ١٠ ٪ من أفراد العينة على التوالى .. فهل هذا صحيح ؟ . فلنحاول أن نعيد تفريغ نفس بيانات أنتونفسكى بأسلوب إحصائى آخر بمعنى فلنحاول أن نحسب النسبة المئوية الخالصة لكل من الاتجاهات الايديولوجية الرئيسية على حدة .

بعبارة أخرى فلنحاول أن ندع جانباً ذلك التجميع الذى اتبعه أنتونفسكى ولنحاول أن نعيد الحساب بحيث نعرف توزيع العينة بالنسبة للقضايا الأربعة المحددة التى دار حولها الاستفتاء بعد استبعاد من أسماهم أنتونفسكى « معدومى الاتجاه » ويمثلون ١٦ ٪ من أفراد العينة .

ولقد حاولنا ذلك بالفعل وأسفرت محاولتنا عما يلى : ــ

أولا : الاتجاه الأيديولوجى نحو الميل إلى النظام الاقتصادى للولايات المتحدة فى مقابل الاتجاه نحوالميل إلى النظام الاقتصادى للاتحاد السوفييتى : ــ

أنماط أنتونفسكى	مناصر للنظام الإقتصادى الأمريكى	مناصر للنظام الإقتصادى السوفيتى	المجموع
أولا	—	٢ ٪	٢ ٪
ثانيا	٨ ٪	—	٨ ٪
ثالثا	٢٢ ٪	—	٢٢ ٪
رابعا	٢٣ ٪	—	٢٣ ٪
خامسا	١٩ ٪	—	١٩ ٪
سادسا	١٠ ٪	—	١٠ ٪
المجموع	٨٢ ٪	٢ ٪	٨٤ ٪

ثانيا : الاتجاه الايديولوجى نحو مناصرة الاشتراكية فى إسرائيل مقابل الاتجاه نحو عدم مناصرتها : ــ

أنماط أنتونفسكى	مناصر للاشتراكية فى إسرائيل	غير مناصر لها	مجموع
أولا	٢٪	—	٢٪
ثانيا	٨٪	—	٨٪
ثالثا	—	٢٢٪	٢٢٪
رابعا	—	٢٣٪	٢٣٪
خامسا	—	١٩٪	١٩٪
سادسا	—	١٠٪	١٠٪
المجموع	١٠٪	٧٤٪	٨٤٪

ثالثا: الاتجاه الايديولوجى المناصر للهستدروث مقابل الاتجاه المعادى له : —

أنماط أنتونفسكى	مناصر للهستدروت	معاد للهستدروت	المجموع
أولا	٢٪	—	٢٪
ثانيا	٨٪	—	٨٪
ثالثا	٢٢٪	—	٢٢٪
رابعا	—	٢٣٪	٢٣٪
خامسا	—	١٩٪	١٩٪
سادسا	١٠٪	—	١٠٪
المجموع	٤٢٪	٤٢٪	٨٤٪

رابعا: الاتجاه الأيديولوجى الموافق على استخدام العنف تجاه العرب مقابل الاتجاه غير الموافق على ذلك: ـ

أنماط أنتونفسكى	معادى لاستخدام العنف	مناصر لاستخدام العنف	المجموع
أولا	٢٪	—	٢٪
ثانيا	٨٪	—	٨٪
ثالثا	٢٢٪	—	٢٢٪
رابعا	٢٣٪	—	٢٣٪
خامسا	—	١٩٪	١٩٪
سادسا	—	١٠٪	١٠٪
المجموع	٥٥٪	٢٩٪	٨٤٪

حقيقة الأمر إذن وفقا لبيانات أنتونفسكى نفسه بعد إعادة معالجتها إحصائياً أن ٧٤٪ من الإسرائيليين لا يوافقون على «الاشتراكية» ــ حتى بالمفهوم الإسرائيلى ــ طريقا لإسرائيل.

ولنا أن نتساءل ما الذى أدى بأرقام أنتونفسكى إلى إرتداء ذلك الثوب الغامض؟ ولماذا؟ المسألة ببساطة أنه قد خلط بين الأيديولوجية وعدد من المواقف العملية المباشرة مما أدى إلى تمييع الموقف ككل. فالموقف من الاشتراكية موقف أيديولوجى خالص. أما الموقف من الهستدروت مثلا فهو موقف عملى تفصيلى معقد بحكم طبيعة الموقف الخاص للهستدروت ومن الهستدروت فى إسرائيل والذى سبق أن

أشرنا إليه فى تعرضنا لحديث برنشتاين. وكذلك الموقف من استخدام العنف مع العرب، فلقد عبر الصغار عن موقفهم العدوانى صراحة فى دراسة تامارين التى أشرنا إليها، أما الكبار فموقفهم كان لابد وأن يختلف لعوامل عديدة يكفى أن نشير منها على سبيل المثال إلى قدرة الكبار على تقدير الخطورة السياسية لأرائهم الخاصة إذا ماكان السؤال صريحا مباشراً فضلا عن قدرتهم على تغيير ذلك الموقف لتقديرهم للظروف الخارجية المحيطة بإسرائيل ـ أما الموقف من النظم الاقتصادية للاتحاد السوفيتى أو الولايات المتحدة فلعله ـ رغم كونه موقفا عمليا فى الأساس ـ أكثر المواقف ارتباطا بقضية الاشتراكية ولذلك فإن نسبة مؤيدى النظام الاقتصادى للولايات المتحدة بين الإسرائيلين قد ارتفعت بعد أن أعدنا معالجة بيانات أنتونفسكى إلى ٨٢٪. لقد تمكن أنتونفسكى إذن من خلال ذلك الخلط بين ماهو أيديولوجى وماهو عملى من صياغة نتائجه الاحصائية بطريقة لا تمكننا مباشرة من الكشف عن حقيقة الاتجاه الأيديولوجى السائد بين الإسرائيلين. والسبب فى ذلك واضح جلى فلقد حرصت الدعاية الصهيونية كما سبق أن أشرنا إلى إظهار إسرائيل أمل الغرب الرأسمالى وواحة الشرق الاشتراكى فى نفس الوقت، وليست أرقام أنتونفسكى فيما نرى إلا تعبيراً بالأرقام عن تلك المحاولة للتزييف.

ليس ثمة تناقض ولا غموض إذن. وليست إسرائيل واحة للاشتراكية والرأسمالية معا. وليس ثمة تدرج اعتدالى هادىء فى الاتجاهات الأيديولوجية الإسرائيلية، فالأرقام تتحدث عن نفسها ولعلنا لانضيف شيئا بالفعل إلى طبيعة تلك الأرقام إذا ماقلنا أن المجتمع الإسرائيلى من الناحية الأيديولوجية مجتمع رأسمالى معاد للاشتراكية.

ولسنا بحاجة بطبيعة الحال إلى تفصيل القول فيما تخلقه الأيديولوجية الرأسمالية من مناخ موات لنمو عنصرى المنافسة الفردية والعدوان. وليس بخاف مدى تطابق هذين العنصرين مع عنصرى التمايز والشعور بالاضطهاد كعنصرين أساسيين للتكوين السيكلوجى للإسرائيليين المعاصرين.

خلاصة القول إذن أن ثمة حتم سيكلوجى إلى جانب الحتم الاقتصادى فى أن تتخذ إسرائيل الصهيونية مساراً رأسمالياً. فالايديولوجية الرأسمالية ــوليس سواهاــ هى التى تكفل لأبناء إسرائيل حفاظاً على تكوينهم السيكلوجى الأساسى أو بعبارة أخرى على العنصرين الأساسيين فى ذلك التكوين، أعنى عنصرى التمايز والاضطهاد.

الفصل الرابع

تجسيد الوهم

المثل الأعلى
فشل... هو النجاح المطلوب.

المثل الأعلـــى

ليست عملية التنشئة الاجتماعية فى النهاية سوى عملية تعلم أو تعليم. تعلم لعادات معينة، وتقاليد معينة، وقيم معينة، وأنماط معينة من السلوك، وما إلى ذلك. ورغم الأهمية البالغة للدور الذى تلعبه اللغة فى عمليات التعلم بعامة، وفى عملية التنشئة الاجتماعية بوجه خاص إلا أنها ــ أى اللغة ــ ليست السبيل الوحيد للتعلم ولا هى السبيل الوحيد أيضا لبلوغ عملية التنشئة الاجتماعية غايتها المرجوة. ثمة نوع من «التعليم الصامت» إذا صح التعبير. تعليم يستغنى عن الكلام أى يستغنى عن قيام حوار بين معلم ومتعلم. ذلك النوع من التنشئة الاجتماعية الذى أشرنا إليه فيما سبق إشارة عابرة واصفين إياه بأنه يعتمد على «ضرب القدوة» أو «اتباع النموذج» أو «الاقتداء بالمثل الأعلى».

ولا تخلو جماعة بشرية من وجود نماذج تكون بمثابة المثل العليا لأفراد تلك الجماعة بعامة، يسعون إلى الاقتداء بها، والسير على دربها، والتمثل بتصرفاتها، دون أن تسعى تلك النماذج سعياً ملموساً إلى دفع الأفراد لمثل ذلك السلوك وقد يختلف المثل الأعلى من فرد لآخر، ولكن ذلك لايعنى عدم وجود نماذج تعد مثلا عليا على نطاق المجتمع ككل. ويسعى المجتمع عادة إلى تأكيد وإبراز نماذجه هذه، والتى قد تكون

شخصيات قيادية معاصرة، وقد تكون شخصيات تاريخية عرفها ذلك المجتمع فى تاريخه القديم أو الحديث، وسعى المجتمع فى هذا الصدد إنما هو فى النهاية سعى إلى تدعيم وحدة التكوين السيكلوجى لأبنائه، وتدعيم لعملية التنشئة الاجتماعية التى تجرى فيه.

وإذا كان المجتمع — أى مجتمع — لايدخر وسعاً فى السعى فى هذا السبيل، فإن عملية اختيار الأفراد لمثلهم العليا لا تتم فى حدود الاستجابة السلبية الخالصة لذلك السعى. قد يختار الفرد مثله الأعلى من بين الخارجين على القانون السائد فى مجتمعه. أو قد يجده فى شخصية تاريخية نبذتها جماعته وتنكرت لها. ولا يقتصر الأمر فى هذا الصدد على الأفراد فحسب بل قد تختار جماعة معينة فى مجتمع معين كمثل أعلى لها شخصية أو نموذجا لا يلقى تأييداً من جانب المجتمع، بل لعله لايلقى سوى الرفض والنبذ. ولذلك الاختيار أسباب شتى تتضافر فى خلقها العوامل الفردية مع عوامل البيئة والظروف الخارجية ولسنا بصدد التعرض التفصيلى لديناميكات عملية الاختبار هذه. ولكن ما يعنينا هو أنه إذا ما تعرض الفرد لعدوان لاقبل له بمواجهته وأصبحت الهزيمة خطراً يهدد اتزانه النفسى، فإنه كثيراً مايلجأ إلى إتخاذ مصادر العدوان نماذجاً له يقتديها، ومثلا عليا يسير على هديها حفاظاً على اتزانه النفسى.

ويعبر برونو تبلهايم عن ذلك خير تعبير عندما يتحدث عن خبرته الشخصية فى معسكرات الاعتقال النازية التى قضى بها عاما تقريباً، فيقول: «إن السجين يكون قد وصل بالفعل إلى أقصى مراحل التوافق مع موقف المعسكر حين يغير من شخصيته بحيث يتقبل قيم الجستابو باعتبارها قيمه هو (٣٢) ثم يمضى معدداً مظاهر ذلك التقبل كما

شاهدها هو لدى المعتقلين اليهود فى تشبههم بحراسهم من الجستابو وتمثلهم لقيمهم. ويعلق عالم النفس المصرى مصطفى زيور على جوهر تلك الظاهرة بالتحديد فيقول «التوحد بالمعتدى إذن حيلة لاشعورية تصطنع للتغلب على الخوف من المعتدين» (٧٦)، وخلاصة القول إذن أن اختيار الفرد لنموذجه أو لمثله الأعلى لايعنى بالضرورة إن ذلك المثل الأعلى يحظى بإعجاب المجتمع بل أنه ــ ولعل ذلك هو الأهم فيما نحن بصدده ــ قد لايحظى بحب وتقدير الفرد نفسه بالمعنى الشائع لتعبيرى الحب والتقدير.

ولو انتقلنا من ذلك الحديث النظرى إلى مواصلة تناولنا للمجتمع الإسرائيلى وتساءلنا ترى هل غاب عن الصهاينة استخدام ذلك الأسلوب المعروف أعنى خلق النموذج أو القدوة التى تصلح كمثل أعلى للإسرائيلى المعاصر؟ لكانت الإجابة وبلا تردد، لا، لم يكن ذلك ليغيب عنهم بالتأكيد. إذن أين هو النموذج الذى تقدمه إسرائيل لأبنائها؟ التوراه مليئة بالشخصيات بل أن أسماء الكثير من تلك الشخصيات قد بعثت إلى الحياة من جديد كأسماء للمنشآت والمدن، بل وللناس أيضا فى إسرائيل. ولكن هل تصلح تلك الشخصيات للقيام بذلك الدور رغم ماأشرنا إليه من تعثر المؤسسات الدينية فى إسرائيل؟ على أى حال فإن تلك الشخصيات الدينية التاريخية موجودة كنماذج بالفعل ولكن تأثيرها لايتعدى حدودا معينة. أليس من مصدر آخر؟ هناك العديد من الشخصيات الإسرائيلية المعاصرة أو التى عرفها التاريخ الإسرائيلى الحديث. ولكن تلك الشخصيات تعرضت ــ سواء التاريخية منها أو المعاصرة ــ لتقييمات سياسية متناقضة بحكم طبيعة الصراع السياسى الذى حكم مسار الحركة الصهيونية منذ

نشأتها حتى الآن. ولذلك فإن تأثير أى من تلك الشخصيات لابد وأن يكون محدوداً فى نطاق أنصار اتجاه سياسى معين. و[illegible]رى فإن تلك الشخصيات السياسية قائمة كنماذج أيضا وتمارس تأثيرها فى حدودها الضيقة. ترى أليس ثمة ما يمكن أن نسميه بالنموذج القومى الإسرائيلى؟ يبدو — فيما نظن — أن مثل ذلك التساؤل قد واجه الحركة الصهيونية. ويبدو — فيما نظن أيضا — إنها قد أجابت عليه بالفعل وكانت اجابتها العملية هى «الكيبوتز».

يكاد من يقرأ عن تجربة الكيبوتز فى إسرائيل أن يخيل إليه أن ذلك هو الطابع الغالب على الحياة فى إسرائيل إن لم يكن طابعها الوحيد. الأضواء مركزة على الكيبوتزات. والاهتمام منصب عليها. والكتابات والدراسات والبحوث لا تنقطع عنها. من يكتب عن الحياة الاجتماعية فى إسرائيل لابد وأن يتعرض للكيبوتزات، من يتحدث عن إسرائيل أو فى إسرائيل من أهل التخصص فى العلوم الإنسانية لابد وأن يشير إلى الكيبوتزات وأبناء الكيبوتزات. ولعل دافيد رابابوت قد عبر عن ذلك خير تعبير فى بحث له بعنوان: «دراسة أساليب التربية فى الكيبوتز وتأثيرها على نظرية النمو» يقول «أن الكيبوتزات فى إسرائيل إنما تمثل بالنسبة للعالم الاجتماعى ما تمثله التجربة الطبيعية للعالم الطبيعى» (٤٦) فهل تلك الكيبوتزات تمثل حقا للطابع الغالب على الحياة الإسرائيلية؟ أتضم مثلا عدداً من الإسرائيلين يبرر هذا القدر الهائل من الاهتمام بها؟

يقول آهارون كلاينبرجر فى كتابه المعنون «المجتمع والمدارس، والتقدم فى إسرائيل» (١٦، من ص ٢٦ إلى ص ٢٧) ان عدد الكيبوتزات فى إسرائيل قد تزايد من ١٩ عام ١٩٢٢م إلى ٤٧ عام

١٩٣٦م إلى ١١٦ عام ١٩٤٥م. كما أن تعداد المقيمين فى الكيبوتزات قد ارتفع من ١١٩٠ عام ١٩٢٢م إلى ٣٨٠٠ عام ١٩٣١م، إلى ٨٤٠ر١١ عام ١٩٣٦، ثم وصل إلى ٤٠٠ ر٣٧ عام ١٩٤٥م. وذلك يعنى ـــوفقاً لما يراه كلاينبرجرـ إنه بينما تضاعف تعداد اليهود فى فلسطين سبع مرات من ١٩٢٢م إلى ١٩٤٥م فإن تغداد المقيمين فى الكيبوتزات قد تضاعف ثلاثون مرة خلال تلك الفترة. لقد كانت نسبة سكان الكيبوتزات للتعداد اليهودى العام عام ١٩٢٢م ٤ر١٪ ارتفعت إلى ٩ر٢٪ عام ١٩٣٦م، ثم إلى ٤ر٦ ٪ عام ١٩٤٥ م. ولو وقفنا عند حدود تلك الأرقام لخيل إلينا إن ظاهرة الكيبوتزات آخذة فى الازدهار وأن ذلك قد يكون هو سر الاهتمام بها. ولكنا لو نظرنا إلى الإحصاءات التى أوردها جوداه ماتراس فى كتابه **التغير الاجتماعى فى إسرائيل** (١٩، جدول ص ٤٤) لوجدنا إن النسبة الأخيرة التى أشار إليها كلاينبرجر وهى ٤ر٦٪ عام ١٩٤٥م (رغم أن ماتراس قد ذكر أنها ٣ر٦٪ فقط) تعد أعلى نسبة وصل إليها سكان الكيبوتزات فى إسرائيل. لقد أخذت تلك النسبة فى الإنخفاض بشكل مضطرد تقريباً حتى أصبحت نسبه سكان الكيبوتزات عام ١٩٦١ لا تتجاوز ٤٪ من سكان إسرائيل من اليهود. ففى الفترة من نوفمبر سنة ١٩٤٨م إلى مايو سنة ١٩٦١م وهى الفترة التى زاد فيها تعداد اليهود بنسبة ١٧٠٪ لم تتعد الزيادة فى سكان الكيبوتزات نسبة ٤٠٪. ويقرر راندولف براهم فى كتابه «إسرائيل نظام تربوى حديث». إن عدد الكيبوتزات قد وصل عام ١٩٦٤م إلى ٢٢٣ كيبوتز بلغ عدد أعضائها ٥٠٠ر٨٢ أى أن نسبتهم لا تتجاوز ٥ ر٣٪ من سكان إسرائيل.. الاهتمام بالكيبوتزات اذن لا يرجع بحال إلى أنها ظاهرة آخذه فى النمو.

ترى أيرجع ذلك الاهتمام إلى مكانة اقتصادية متميزة تحتلها تجربة الكيبوتز؟ أو إلى أى دور خطير تلعبه الكيبوزات فى الاقتصاد الإسرائيلى؟ يكفى أن نشير إلى ماجاء فى كتاب جورج فريدمان المعنون «أهى نهاية الشعب اليهودى؟» (١٤، ص ٥٢ إلى ص ٥٣) من أنه لايمكن بحال الاعتماد على ماتدره الكيبوتزات من عائد من الانتاج الزراعى فى توفير مستوى الحياة المناسب لأعضائها، إذا ماوضع فى الاعتبار رأس المال المستثمر فى الأبنية والمواد الخام والمعدات. ولذلك فقد لجأت الكيبوتزات إلى الاقتراض والاستدانة وكانت الوكالة اليهودية هى المصدر الطبيعى للقروض التى كانت تسدد خلال ٢٥ عاماً بفائدة تتراوح بين ٣٪ و٤٪ وفى عام ١٩٥٧م مثلا كانت تكلفه استيطان الأسرة فى الكيبوتز تصل إلى ١٦٤٠٠ جنيهاً إسرائيلياً، يتم اقتراض ٧٥٪ منها من الوكالة اليهودية بفائدة ٣٪ وال ٢٥٪ الباقية تقترض من الحكومة بفائدة ٦٪ على أن تسدد خلال ١٢ عاماً خلاصة القول أن الكيبوتزات ككل غارقة فى الديون اقتصادياً. ماذا فى تلك التجربة إذن يدعو الصهاينة إلى إبرازها والتركيز عليها بل والانفاق عليها أيضا؟

يقرر برونوتبلهايم فى كتابه «أطفال الحلم» (٤، ص ٢٨٣) إن إسرائيل لاتسعى إلى أن يصبح غالبية سكانها من المقيمين فى الكيبوتزات، مرجعاً ذلك إلى عدة أسباب أهمها:ـ

١ ـ إن مجتمع الكيبوتز لايمكن أن يستمر فى الحياة إقتصادياً دون الإعتماد على التقدم التكنولوجى المحيط به فى إسرائيل.

٢ ـ إن مجتمعاً يقوم على تلك التجمعات الصغيرة لايمكن له أن

يخلق ما هو فى حاجة إليه من ميكنة معقدة حتى لما هو قائم فيه من صناعات صغيرة .

٣ — إخفاق كَل المحاولات التى بذلت لخلق كيبوتزات تضم مجموعات حضرية تعمل فى مجال الإنتاج الكبير. بحيث أن الكيبوتز لايمكن أن يوجد —فيما يبدو— إلا فى مجموعات صغيرة مغلقة .

٤ — إن الكيبوتزات لاتحقق نمواً ذاتياً فى عدد أعضائها بل إن زيادة خصوبتها تعتمد أساساً على مايتم اجتذابه إليها من دم جديد أو مجندين جدد .

مرة أخرى ماذا يدفع الصهاينة إلى تركيز أقوى أضوائهم وتسليط أبرع دعاياتهم على تلك التجربة الفاشلة إقتصاديا والمتخلفة حضارياً ، والذابلة عددياً ؟ هل ثمة دور عسكرى خطير تقوم به تلك الكيبوتزات ؟ قد يكون ذلك صحيحاً —وهو صحيح بالفعل— ولكن تركيز الدعاية لاينصب على كفاءة الكيبوتزات العسكرية بل على أمر آخر مختلف تماماً عن ذلك أعنى على أسلوب الحياة المتبع فيها . فضلا عن إننا لو سلمنا بأن كل تلك الهالة المحيطة بالكيبوتزات إنما ترجع لخطورة دورها العسكرى فإننا لن نجد تفسيراً لذبولها العددى المستمر رغم تزايد الأخطار العسكرية المحيطة بإسرائيل فى فترات متفاوتة .

أهى معمل لتخريج قادة جدد لإسرائيل ؟ يبدو أن تلك هى أقرب الإجابات إلى الدقة وان لم تكن صحيحة تماماً ولعل أصدق ما قيل تعبيراً عن حقيقة الدور الذى تلعبه تجربة الكيبوتزات هو مايقوله برونو بتلهايم « بالنسبة لمسألة ما إذا كانت التربية المتبعة فى الكيبوتزات

يمكن أن تقدم ــ أو إنها تقدم بالفعل قـادة لإسرائيل ، فان المرء يمكنه أن يجيب على وجه التقريب ... بأنها تستطيع ذلك ، ولكن بشكل فريد تماماً : إنها تحقق ذلك بضرب المثل أكثر مما تحققه بتقديم انجازات حقيقية للأمة. إنها تحقق ذلك من خلال رهبانية حديثه ، أكثر مما تحققه من خلال الانجازات العقلية والعملية والاجتماعية التى اعتدنا أن نربط بينها وبين القيادة التغيــر» (٤ ، ص ٢٨٥) .

ذلك هو السر إذن. ان أبناء الكيبوتزات هم النماذج والمثل التى تقدمها الصهيونية لأبناء إسـرائيل لكى يقتدوا بهم . وذلك هو ماتوسمناه فى بداية الأمر ومن هنا ، ورغم قلة عدد القاطنين فى الكيبوتزات ، ورغم تعثر التجربة اقتصادياً وحضارياً ، ورغم ذبولها عددياً فإنها تلقى كل ذلك القدر من الاهتمام والتركيز.

ومن هنا أيضا وجب علينا أن نمعن فيها النظر مدركين خطورتها البالغة بالنسبة للأجيال القادمة من الإسـرائيليين ، فهى تحمل ــ فيما نرى ــ الخطوط الرئيسية للصورة التى تسعى الصهيونية إلى مواجهتنا بها على المدى الاستراتيجى البعيد . ولايقلل من ذلك مطلقاً مايشير إليه البعض (١٤ ، ١٥) من نفور قاطنى المدن (الإسـرائيلية) من تجربة الكيبوتزات أو حتى هجومهم عليها ، بل ولاحتى مهاجمة أبناء الكيبوتـزات لحياة المدن الإسـرائيلية وأهلها . ولسنا بحاجة ــ فى هذا الصدد ــ إلى تكرار ماسبق أن اشرنا إليه من أن التوحـد قد لايتم بالمرفوض فحسب بل بالمعتدى أيضا .

فلنلق اذن بنظرة على طبيعة تلك التجربة ولسوف نعتمد فى نظرتنا تلك على عدة مصادر أولها ذلك البحث الذى نشره ملفورد سبيرو بعنوان : «التربية فى قرية جماعية فى إسرائيل» (٥٠) فضلا عن كتابه

الشهير أطفال الكيبوتز (٢٧)، ومصدرنا الثانى هو بحث نشره صمويل جولان تحت عنوان التربية التعاونية فى الكيبوتز (٣٥). ومصدرنا الثالث هو كتاب برونو بتلهايم (أطفال الحلم) (٤). هذا بالإضافة إلى كتاب الكيبوتز لعبد الوهاب الكيالى (٦٦).

والحديث عن تفصيل الحياة فى الكيبوتز حديث لاينتهى، والاسترسال فيه قد يذهب بنا بعيداً عن موضوعنا الرئيسى. لذلك فقد آثرنا أن نستخلص مما قرأناه عدداً من الخصائص العامة لتلك الحياة رأينا أنها تمس موضوع بحثنا مسا مباشراً.

أولا: أن تأسيس الكيبوتزات قد قام على أكتاف عدد من المهاجرين اليهود النازحين من أواسط أوروبا.

ثانيا: إن العمل الزراعى هو العمل السائد فى تلك الكيبوتزات.

ثالثا: تسود الكيبوتزات فكرة المساواة بين الجنسين بدرجة قد تصل إلى حد التطرف.

رابعا: يتناوب القيام على تربية الأطفال مربيات متخصصات من عضوات الكيبوتز يتولين رعاية أطفال الكيبوتز جميعاً. وبشكل مستمر سواء كان الآباء والأمهات فى العمل أو داخل الكيبوتز.

خامسا: تترك الأم طفلها بعد الولادة بأربعة أيام تحت إشراف المربية وتقوم الأم بإرضاع طفلها فى أوقات محددة بمعدل ست مرات يومياً إلى فطامه فى سن الثمانية شهور.

سادسا: عندما يبلغ الطفل من العمر ستة شهور يصبح من حق الوالدان

أخذه إلى غرفتها لمدة ساعة يومياً عند الظهيرة ثم إعادته إلى مكان تجمع الأطفال.

سابعا: تختلف تجمعات الأطفال فى الكيبوتز من حيث مكان التجمع وحجم التجمع وبرنامج النشاط اليومى وأيضاً أشخاص المربيات حسب السن.

تلك فى رأينا هى أهم الخصائص التى تميز الكيبوتز فيما يتصل بمجال بحثنا دون أن يعنى ذلك تقليلا من شأن خصائصه الأخرى الاقتصادية والتاريخية والجغرافية وما إلى ذلك.

وينبغى أن نقرر هنا صراحة إننا قد آثرنا عن عمد أن يكون تناولنا لتجربة الكيبوتز فى إسرائيل، تناولا موجزاً مختصراً حرصاً على تناسب توزيع الاهتمام على أجزاء الدراسة جميعاً. ولكننا نرى أن تجربة الكيبوتز تستحق بلا جدال جهداً أكبر ووقتا رحب، ومزيداً من تركيز الاهتمام على تفصيلاتها مما لم يكن ممكناً أن نوفيه تماماً فى حدود هذه الدراسة.

ترى ما هى الآثار التى يمكن أن تخلفها مثل تلك الخصائص ــ التى ذكرناها ــ على أبناء الكيبوتزات؟ يجدر بنا قبل أن نحاول الاقتراب من تلك الآثار كما تمثلت بالفعل فى سلوك هؤلاء الأبناء أن نلقى بنظرة سريعة على ما يراه أهل الاختصاص فى ذلك الصدد بصفة عامة أعنى ما يرونه من تأثير لمثل تلك الخصائص على حياة الأطفال بشكل عام وليس أطفال الكيبوتزات بالتحديد.

يتناول جون بولبى فى كتابه رعاية الطفل ونمو الحب (٥) مشكلة الاضطراب العقلى لدى الأطفال، مرجعا أياها إلى أسباب ثلاثة هامة هى: ــ

١) عدم اتاحة الفرصة لإقامة علاقة وثيقة مع الأم أو بديلتها خلال السنوات الثلاثة الأولى من العمر.

٢) الحرمان الأموى لفترات محددة.

٣) التنقل من بديله للأم إلى بديلة أخرى خلال الأعوام الثلاثة الأولى.

ورغم أن جون بولبى يتعرض تعرضاً سريعاً لأطفال الكيبوتز محذراً من المماثلة بينهم وبين الأطفال الذين ينشأون فى ملاجىء مفترضاً أن الكيبوتز يتيح فرصة لاقامة علاقة وثيقة بين الطفل ووالديه، فإن لنا أن نختلف معه فى هذا الافتراض من واقع ماكتبه الإسرائيليون أنفسهم عن حدود تلك العلاقة، وأيضا من واقع نتائج الدراسات التى أجريت بالفعل على أبناء الكيبوتزات والتى سوف نشير إليها فيما بعد، وعلى أى حال فإن بولبى نفسه يؤكد مانذهب إليه فى دراسة أخرى قام بها بالاشتراك مع روبرتسون تحت عنوان «**ملاحظات عن تتابع استجابات الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨، ٢٤ شهراً خلال فترة الانفصال**»

(٢٢، ص ٢١٥، ص ٢١٦) حيث يشير الباحثان فى معرض حديثهما عن الطفل الذى يتناوب التعلق بسلسلة من الأفراد الذين يسلمه كل منهم للآخر بقولهما إن ذلك الطفل «سوف تعلمه الخبرة المريرة أنه من الحماقة أن يرتبط بأية مربية بالذات لأن المربيات يتنقلن من مكان إلى آخر ويتركنه وهكذا... وبعد سلسلة من التقلبات، وفقدان العديد من المربيات... فإنه سوف يقلل تدريجياً من توريط نفسه مع المربيات المتتاليات، ثم يأتى الوقت الذى يكف فيه تماما عن الإقدام على مغامرة بذل حبه واعتماده لأى شخص ولعل ذلك يكاد يكون تنبوأً حرفيا بإحدى نتائج تربية الكيبوتزات كما سيتضح لنا فيما بعد.

أما سيرجون إنجلش وجيرالد بيرسون فى كتابهما مشكلات الحياة الانفعالية (٦٤، ص ٢٥) فإنهما يقدمان نبوءة أخرى سيتضح لنا أيضا مدى صدقهافيما بعد، حيث يقولا فى معرض حديثهما عن آثار التزام الصرامة في تقديم الغذاء للأطفال، أى تقديمه لهم وفقاً لجداول زمنية محددة «يجب أن يقدم الغذاء للأطفال بانتظام حسب ايقاعهم الطبيعى أكثر منه حسب نظام مواعيد ثابت... وحين يلتزم الطبيب أو الأم أو الحاضنة التزاماً وثيقاً بنظام مواعيد للطفل متجاهلين إيقاعه الخاص فسينتابه القلق، وسيزداد اهتمامه بما إذا كانت حاجاته الأساسية ستشبع أم لا. ومثل هؤلاء الأطفال سيكونون فى كبرهم اميل إلى الارتياب فيما إذا كان القدر سوف يكون رحيماً بهم، أو فيما إذا كان أشخاص سيعطفون عليهم.. وسيميلون إلى افتراض إخفاق خططهم ومطامعهم، وسيشكون فى إمكان قدرتهم على التأثير فى البيئة مهما تكن الوسائل».

فشل .. هو النجاح المطلوب

فلنحمل الآن تلك الأراء التى استقيناها من التراث متجهين إلى واقع ماخلفه أسلوب التربية المتبع فى الكيبوتزات على شخصيات أبناء تلك الكيبوتزات بالفعل وليس أمامنا إلا أن نعتمد فى ذلك على الدراسات الميدانية والنظرية التى قام بها عدد كبير من العلماء المتخصصين فى هذا الصدد، والتى تبلغ من الكثرة ما يجل عن الحصر. ونظرة سريعة إلى تلك الدراسات تمكننا من تبين ظاهرة هامة. هى أن نتائج تلك الدراسات لا تبدو متفقة مع بعضها، بل على العكس فإنها تبدو أقرب إلى التناقض.

وسوف نبدأ أولا بمناقشة تلك المجموعة من الدراسات التى توحى نتائجها بأن ثمة خير فى ذلك الأسلوب المتبع للتنشئة فى الكيبوتزات أو على الأقل أن لاضرر منه. وتهتم تلك الدراسات فى مجملها بإبراز فكرة نظرية مؤداها أن الكيبوتز إنما هو مجتمع الأطفال، وأن الأسرة مازالت محتفظة فيه بكيانها ووظائفها فيقول ليون ايزنبرج وليوكانر فى مقالهما المعنون التفكير الاجترارى الطفلى المبكر (٣٨) «ينبغى الاهتمام بحقيقة أن ثقافة الكيبوتزات إنما تدور حول الطفل» كما تؤكد ايريكا بادان فريمان فى الرسالة التى حصلت بها على درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا، والتى كان عنوانها «دراسة سيكلوجية لأسرة فى أحد كيبوتزات إسرائيل (١٣) إن الأسرة «عامل اجتماعى وتربوى أساسى فى حياة

الكيبوتز» أما يونيتا تالمون، المدرسة فى قسم الاجتماع بالجامعة العبرية فإنها فى بحث لها بعنوان «البناء الإجتماعى وحجم الأسرة» (٥٢) تتخذ موقفاً أكثر واقعية إذ تسلم بإن وظيفة الأسرة فى الكيبوتز وظيفة محدودة، ولكنها ترى أن الحد من تلك الوظيفة إنما هو فى صالح علاقات الأزواج ببعضهم، وعلاقات الآباء والأمهات بالأطفال أيضاً. كما إنها تستمر فى نفس اتجاهها فى بحث آخر لها أحدث تاريخاً بعنوان «الشيخوخة فى إسرائيل» (٥٣) إذ تبرز فيه أن النسب المئوية لكبار السن الذين يستحسنون الإقامة فى الكيبوتزات تزداد إذا ماكان لهؤلاء أبناء يقيمون فى تلك الكيبوتزات. ويتفق مع يونيتا تالمون فيما يتعلق بوضع الأسرة فى الكيبوتزات دارين داربكن فى كتابه المجتمع الآخر (٩/ص ١٨٣) بل إنه ليكاد يستخدم نفس ألفاظها إذ يرى أن الحد من وظائف الأسرة فى مجتمع الكيبوتز له تأثير طيب على العلاقات سواء بين الأزواج وبعضهم أو بين الآباء والأمهات وأطفالهم مستخلصاً ذلك من أن معدل الزواج فى الكيبوتزات مرتفع فى حين أن معدل الطلاق منخفض. أما ريفيكا بارجوزيف مدرسة الاجتماع فى الجامعة العبرية والتى سبق أن عملت مربية فى أحد الكيبوتزات فإن لها بحثاً نظرياً بعنوان «نمط التنشئة الاجتماعية المبكرة فى المؤسسات الجماعية فى إسرائيل» (٣١) تخلص فيه إلى وجود قدر كبير من التكامل فى حياة الكيبوتز وتؤكد مارلين رينوجراد فى بحث لها بعنوان «نمو الطفل الصغير فى مؤسسة جماعية» (٥٦) أن أطفال الكيبوتز أكثر سواء من الناحية الانفعالية من غيرهم.

ولايتسع المقام لمزيد من التفصيل فى هذا الصدد وان كنا لانستطيع أن ننهى تناولنا لتلك المجموعة من الدراسات دون الإشارة

إلى سلسلة من البحوث قام بها البرت أ. رابين أستاذ علم النفس ومدير العيادة النفسية بجامعة ميتشيجان بالولايات المتحدة الأمريكية (٢٠، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥) وذلك لثلاثة اعتبارات: ـــ

الأول: إنها تكاد تكون أكبر سلسلة من البحوث يقوم بها عالم واحد فى موضوع واحد فى هذا المجال .

الثانى: إنها تغطى فترة زمنية تتجاوز العشر سنوات من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٨ .

الثالث: إن تلك الدراسات بالذات تعد أكثر دراسات المجموعة تعبيراً عن اتجاهها العام فضلا عن إنها أكثرها استخداماً للاختبارات النفسية والأرقام الإحصائية. والسمة الغالبة على تلك البحوث إنها بحوث مقارنة بمعنى أن رابين كان ينتقى فى الغالب عينة من أطفال الكيبوتزات، وعينة أخرى مقابلة من أطفال الموشافيم أو أطفال المدينة ثم يقارن أداءة تلك المجموعات أوالعينات على اختبارات نفسية تدخل ككل فى فئة الاختبارات الاسقاطية وان تعددت صورها وخلاصة تلك البحوث جميعاً ـــ أعنى تلك التى أجراها رابين ـــ أنه يوجد ثمة اضطراب وتخلف لدى أطفال الكيبوتز الصغار من حيث النمو العقلى أو بعض سمات النضج الانفعالى غير أن ذلك كله لايلبث أن يتلاشى فى سن العاشرة. ولنا أولا كلمة عن الاختبارات التى استخدمها رابين أعنى مايطلق عليه أهل الاختصاص فى علم النفس الاختبارات الإسقاطية. ولسنا فى

معرض الحديث تفصيلاً (١) عن خصائص ومثالب ذلك النوع بالتحديد من الاختبارات النفسية. ويكفينا أن نشير إلى أن ذلك النوع من الاختبارات لايلقى قبولا كبيراً لدى الكثير من علماء النفس فهى ليس بالاختبارات «الموضوعية» التى يرضى عنها تماما أنصار مدرسة القياس النفسى ولا هى بالمقابلات الشخصية المفتوحة التى قد ترضى الأكثر ميلا إلى التحرر من قيود الاختبارات النفسية الموضوعية ولعل ذلك يعطينا بعض الحق فى التشكك فى النتائج التى توصل إليها رابين بالتحديد. وعلى أى حال فان قول رابين أن ثمة اضطرابات انفعالية وعقلية قد تبدو لدى أطفال الكيبوتز ثم لا تلبث أن تتلاشى بعد ذلك يذكرنا بما ذهب إليه الطبيب النفسى منكوفسكى فى كتابه «مبحث فى علم النفس المرضى» فى معرض مناقشته لمشكلة الإضطرابات الوجدانية المرضية لدى الأطفال اليهود الذين أمضوا فترة طفولتهم فى معسكر بوخنفالد النازى مشيراً إلى أن الكثير من هؤلاء الأطفال قد تمكنوا من استعادة بعض اتزانهم بعد ذلك وخاصة فى إسرائيل، ولعل خير تفسير لذلك الاتزان هو ماقدمه عالم النفس المصرى مصطفى زيور ـــ والذى اعتمدنا عليه فى إشارتنا

---

(١) على الراغب فى الاستزدادة فى هذا الصدد الرجوع على سبيل المثال لا الحصر إلى مرجعين هامين فى هذا الصدد هما:ـــ .

Ann Anastasi, Psychological Testing, McMillan, 1963.

وكذلك كتاب الاختبارات الإسقاطية، تأليف الدكتور سيد محمد غنيم والدكتورة هدى برادة الصادر عام ١٩٦٤ عن دار النهضة العربية بالقاهرة.

لكتاب منكوفسكى ـ حين قال أن ذلك «لايعدو أن يكون تنظيماً للتوحد بالمعتدى فى المجتمع الإسرائيلى» (٧٦).

ذلك هو مجمل الأراء التى ترى ـ كما سبق أن أشرنا أن ثمة خير فى فى أسلوب التربية فى الكيبوتزات، أو على الأقل أنه لاضرر منه. ويمكننا أن نجمل ملاحظتنا عليها فى نقاط ثلاثة :ـ

أولا : أن عدداً منها لم يكن سوى مجرد آراء نظرية تفتقد للوقائع العملية بل إنها ـ فيما نرى ـ تتعارض معها. (٩، ٣١، ٣٨).

ثانيا : يلاحظ بالنسبة لعدد من تلك البحوث أيضا صغر عدد العينات التى أجرى عليها البحث مما يشكك فى دلالة النتائج التى تم التوصل إليها (١٣، ٤٣، ٤٥، ٥٣، ٥٦).

ثالثا : كانت البحوث عموماً قاصرة على الحديث عن الأطفال دون التعرض للراشدين الذين تمت تنشئتهم بالفعل فى الكيبوتزات (٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥).

وعلى أى حال فإن المجال لايخلو من بحوث أجريت على أبناء الكيبوتزات نتائجها أكثر ميلا إلى تأكيد زيادة مالديهم من اضطرابات انفعالية عما هو متوقع. فاليزابيث ايرفين مثلا التى عملت كأخصائية اجتماعية فى الطب العقلى فى إسرائيل خلال عام ١٩٥٠، مما أتاح لها تجميع قدر معقول من البيانات عن أطفال الكيبوتز نشرت بحثاً بعنوان **«ملاحظات حول أهداف ومناهج تنشئة الأطفال فى مؤسسات جماعية»** (٣٦) خلصت فيه إلى أن نسبة المصابين بالبوال من بين أبناء

الكيبوتزات تتجاوز ٣٨٪ وتتضح ضخامة تلك النسبة إذا ماقورنت بما توصلت إليه نيتا جلاس فى بحثها «**عادات الأكل والنوم والأخراج لدى أطفال المربيات وأطفال الأمهات**». (٣٤) حيث لم تتجاوز نسبة الذين يعانون من بوال منتظم ٦٪ من أبناء الأسر الإنجليزية والذين يشرف على تربية نصفهم مربيات. ولدينا أيضا دراسة هالفى التى أشار إليها مصطفى زيور فى مقاله **التفسير النفسى للسلوك الإسرائيلى** (٧٧) وقد استخلص هالفى من دراسته التى قارن فيها بين سكان إسرائيل بعامة وسكان الموشاف وسكان الكيبوتز أن أعلى نسبة من الأمراض العقلية وخاصة الفصام كانت بين أبناء الكيبوتز.

ورغم تعدد الدراسات والبحوث التى تنحو ذلك المنحى فإن دراسة سبيرو المعنونة أطفال الكيبوتز تحتل ــ فيما نرى ــ مركز الصدارة بين تلك الدراسات جميعاً وذلك لما تتميز به من تعدد الوسائل التى استخدمها الباحث للوصول إلى نتائجه فضلا عن إنها تضمنت تناولا للأجيال المختلفة فى الكيبوتزات إبتداء من الأطفال حتى المؤسسين وإلى جانب ذلك فإن أهمية تلك الدراسة بالتحديد إنما ترجع إلى إنها أكثر اتفاقاً مع ماتشير إليه الخطوط العامة لتراث علم النفس فى هذا الخصوص والتى سبق أن أشرنا إليها. لذلك فسوف نعرض بشىء من التفصيل لبعض الجوانب التى تضمنتها دراسة سبيرو هذه، والتى نرى أنها أكثر مساساً بموضوع بحثنا مشيرين خلال ذلك، وكلما لزم الأمر، إلى غيرها من الدراسات.

أولا: نظرة الوالدين إلى الطفل: ـــ

يبدأ سبيرو معالجته لتلك القضية بالرجوع قليلا إلى الوراء، محاولا بذلك أن يلقى الضوء على مالاحظه ولاحظه غيره من

الباحثين-من أن الرغبة فى نسف سلطة الأب تكاد أن تكون سمه مميزة فى أسلوب التربية المتبع فى الكيبوتزات. فيوجه سؤالا إلى مجموعة من مؤسسى الكيبوتز مؤداه: هل ثرت على والديك؟ وتكون الإجابة ٦٠٪ من هؤلاء «نعم بالتأكيد» بالإضافة إلى ٢٠٪ من هؤلاء كانت إجابتهم «هذا محتمل» (٢٧، ص١٣) ثم يوجه سبيرو إلى هؤلاء الآباء سؤالاً عن القيم التى يأملون أن تتوافر لدى أطفالهم وإذا بهم يختارون ثلاثة عشر قيمة تحتل قيمة «احترام الوالدين» المركز الأخير من بينها أى المركز الثالث عشر (٢٧، ص٢٠ إلى ص٢١) ثم حين يسأل سبيرو عدداً من الأباء والأمهات فى الكيبوتزات «هل لديك التأثير الأكبر على طفلك؟» تكون إجابة أكثر من ٦٨٪ منهم «لا بالتأكيد» ولا يجيب أحداً على الأطلاق «نعم بالتأكيد» (٢٧، ص ٤٨).

ولاينفى سبيرو مع ذلك مالاحظه من حب شديد من جانب الآباء والأمهات لأطفالهم فى الكيبوتزات، ولكنه يرجع ذلك الحب الشديد إلى أسباب ثلاثة محتملة هى:—

ا) أن الآباء يعتبرون عزلهم عن طفلهم بمثابة أحباط شديد لهم وبالتالى يحاولون استغلال لقاءاتهم القصيرة مع أطفالهم فى الحصول على أكبر قدر ممكن من الاشباع.

ب) الخوف من فقدان الطفل، حيث أن الطفل فى الكيبوتز ليس مجبراً مادياً على الارتباط بوالديه، وبالتالى فليس أمامهما إلا بذل أكبر قدر من الحب لاجتذابه والاحتفاظ به منتمياً إليهم.

جـ) الشعور بالذنب ، وهو ماعبر عنه الكثير من الآباء بالفعل ، بمعنى احساسهم أنهم بموافقتهم على أسلوب التربية الجماعية المتبع فى الكيبوتز قد حرموا طفلهم من المنزل والأسرة والحجرة الخاصة .
ويتفق ذلك مع إجابات الآباء على سؤال مؤداه «هل توافق على أسلوب التربية الجماعية؟» حيث أجاب ٤٠٪ بأنهم لايوافقون على ذلك الأسلوب . ويشير سبيرو إلى أن تلك النسبة كان يمكن أن ترتفع إذا لم يكن الأسلوب المستخدم فى الإجابة هو أسلوب الورقة والقلم الذى يستثير أكبر قدر من المقاومة الذاتية (٢٨ ، من ص ١٦١ إلى ص ٦٤) .

ثانيا : سلوك أطفال الكيبوتز فى سنوات العمر الأولى :ـ

أجرى سبيرو دراسة تفصيلية تعتمد على الملاحظة الموضوعية الدقيقة على عينة تضم أربع مجموعات من أطفال الكيبوتزات ، وكانت خصائص كل عينة كما يلى (٢٧ ، جدول ص ١٣٢) .

* المجموعة الأولى :ـ
وتتكون من ستة أفراد تتراوح أعمارهم بين ثلاثة عشر شهراً وستة عشر شهراً بمتوسط خمسة عشر شهراً . وتضم المجموعة خمسة ذكور وأنثى واحدة .

* المجموعة الثانية :ـ
وتتكون من ستة عشر فرداً تتراوح أعمارهم بين تسعة عشر

شهراً، وسنتان وخمسة شهور بمتوسط سنتان. وتضم المجموعة ثمانية ذكور وثمانى أناث.

* المجموعة الثالثة:ـ
وتتكون من عشر أفراد، تتراوح أعمارهم بين سنتان وتسعة شهور، وثلاث سنوات وثمانية شهور بمتوسط ثلاث سنوات. وتضم المجموعة خمسة ذكور وخمس إناث.

* المجموعة الرابعة:ـ
وتتكون من خمسة عشر فرداً تتراوح أعمارهم بين ثلاث سنوات وعشرة شهور، وخمسة سنوات بمتوسط أربع سنوات وأربعة أشهر وتضم المجموعة ستة ذكور وتسع أناث.

وترجع أهمية تلك الدراسة إلى أنها تضع أيدينا على مايمكن أن نسميه بالتأثير الخام أو المباشر لأساليب التربية المتبعة فى الكيبوتزات. كما أن المنهج الذى اتبعه سبيرو فى سبيل الوصول إلى نتائجه منهج يتسم بالموضوعية على عكس ما اتبعه برونوبتلهايم الذى خصص فى كتابه أطفال الحلم (٤، ص ٦٥ إلى ص ١٤٤) مايقرب من الثمانين صفحة لحديث مسترسل عن فترة الرضاعة والطفولة المبكرة فى الكيبوتزات وكانت مادتها لا تعدو بحال أن تكون عرضاً لانطباعاته الشخصية. وعلى أى حال فانه يقرر ذلك صراحة فى مستهل كتابه المذكور واصفاً دراسته بأنها «تقرير بالغ الشخصية والانطباعية» (٤، ص ٨ إلى ص ٩).

ولنمض مع سبيرو فى دراسته المقارنة لمجموعاته الأربع. يبدأ سبيرو بعرض لنتائج ملاحظة العلاقات المتبادلة بين أطفال كل مجموعة،

وتصنيف تلك العلاقات إلى علاقات تكاملية وعلاقات غير تكاملية ، واضعاً نتائجه في الجدول التالى (٢٧، ص ١٥٣) : —

أنماط التفاعل	المجموعة الأولى	المجموعة الثانية	المجموعة الثالثة	المجموعة الرابعة
تكاملية	١٧ ٪	٤١ ٪	٢٩ ٪	٣٧ ٪
مساعدة . مشاركة	٦ ٪	٢١ ٪	٩ ٪	١٣ ٪
تعاطـــف				
تعاطف بدنى	٢ ٪	٣ ٪	٥ ٪	٥ ٪
لعب تعاونى	٩ ٪	١٧ ٪	١٥ ٪	١٩ ٪
غير تكاملية	٨٣ ٪	٥٩ ٪	٧١ ٪	٦٣ ٪
عدوان	٤٥ ٪	٣٩ ٪	٥٧ ٪	٥٢ ٪
صراع	٣٨ ٪	١٨ ٪	١١ ٪	٨ ٪
رفض المشاركة	صفر	٢ ٪	٢ ٪	٣ ٪

ويؤكد سبيرو أنه قد ثبت احصائياً أن الفروق بين النسب المئوية للتفاعلات التكاملية وغير التكاملية كانت فروقاً ذات دلالة جوهرية إحصائياً . وعلى أى حال فإن دلالة تلك الأرقام غنية عن البيان . ويكفى أن تستخلص منها أن متوسط الأفعال غير التكاملية فى المجموعات الأربع كانت تبلغ ٦٩ ٪ منها نسبة ٢٥ر٤٨ ٪ أفعال عدوانية صريحة .

ويمضى سبيرو بنفس منهج الإحصائى الدقيق محللاً أنماط العدوان المتبعة فى المجموعات الأربع فيعرضها ممثلة بنسب مئوية فى الجدول التالى (٢٧ ص ١٦٣).

العدوان	المجموعة الأولى	المجموعة الثانية	المجموعة الثالثة	المجموعة الرابعة
التقولى (الوشاية)	صفر	صفر	٧٪	٢٪
اللفظى	صفر	٣٪	٩٪	٣١٪
بالعصيان	صفر	١٠٪	٤٪	٢٪
البدنى	١٠٠٪	٨٧٪	٨٠٪	٦٥٪

ويعلق سبيرو على بيانات الجدول السابق موضحاً أن العدوان البدنى، وهو أكثر أنواع العدوان انتشاراً يتضمن ضروباً شتى من السلوك كالضرب، والضرب بشىء، والركل، والعض، والدفع، والقذف بشىء، وتدمير ممتلكات الغير، والخربشة، ومحاولة قلع العين، وشد الشعر، والتلويث، والهز، وإعاقة النشاط، وتقطيع الشعر. ولقد كان الضرب هو أكثر أنواع العدوان البدنى انتشاراً حيث كانت نسبته المئوية من مجموع الأفعال العدوانية: ٣١٪، ٦٦٪، ٤٤٪، ٤٧٪ على التوالى (٢٧، ص ١٦٥). والعدوان إذن سمة واضحة وضوحاً جلياً لدى أطفال الكيبوتز فى سنوات طفولتهم الأولى. ولكن ترى ما هى مثيرات ذلك العدوان؟ أن سبيرو يصنف مثيرات العدوان بناء على الملاحظات الموضوعية على الوجه التالى: (٢٧، ص ١٦٦): *

(*) انظر الجدول فى ـــ الصفحة التالية.

المثير	المجموعة الأولى	المجموعة الثانية	المجموعة الثالثة	المجموعة الرابعة
بدون سبب أو السبب غير معروف	٦٤٪	٥٧٪	٦٤٪	٦٧٪
الأقران	١٦٪	٢٩٪	٢٩٪	٢٧٪
صراع	١٤٪	١٤٪	١٢٪	٩٪
عدوان بدنى	صفر	١٣٪	١٤٪	١٣٪
غير ذلك	٢٪	٢٪	٣٪	٥٪
الكبار	٢٠٪	١٤٪	٧٪	١٪
تأنيب من المربية	صفر	٤٪	٣٪	١٪
حرمان المربية له من أشياء	صفر	٢٪	٢٪	صفر
حرمانه من اهتمام المربية	١١٪	٣٪	صفر	صفر
سبب بدنى	٩٪	٤٪	٢٪	صفر
غير ذلك	صفر	١٪	صفر	صفر
غير ذلك	صفر	صفر	صفر	٥٪

ويعلق سبيرو تعليقاً لماحاً على نتائج هذا الجدول (٢٧، ص ١٦٧، ص ١٧٠) مشيراً إلى «أنه مما يسترعى الانتباه ولاشك أن النسبة الكبرى من أنواع العدوان البدنى لاسبب لها أو غير معلومة السبب. وانطلاقاً من النظرية العامة للسلوك والتى تؤكد ببساطة إن السلوك بكافة أنواعه لابد وأن يكون مدفوعاً ومن ملاحظتنا الخاصة أيضاً نستطيع القول بأن تلك الأفعال العدوانية التى يبدو كأن لاسبب لها إنما هى عبارة عن عدوان منقول (Displaced aggression) بل إننا نستطيع كذلك أن نفترض أن ذلك العدوان إنما كان موجهاً أساساً وقبل أن ينقل ، إلى المربية.... ويبدو أن السبب فى عدم توجيه العدوان إلى المربية مباشرة إنها لم تكن تتواجد عادة مع الأطفال أثناء تعبيرهم عن عدوانهم.. ولكن السبب الأعمق والأعم فيما يبدو هو خوف الأطفال من العقاب سواء بالإجراءات الفعلية أو بحرمانهم من الحب «**عدوان أطفال الكيبوتز إذن أمر يرجع ببساطة إلى أسلوب التربية السائد هناك، ذلك الأسلوب الذى يلقى كما سبق أن أشرنا أكبر قدر من الاهتمام والتركيز والدعاية من جانب الصهيونية**».

ينتقل سبيرو بعد ذلك إلى مناقشة إستجابة أطفال الكيبوتز للعدوان البدنى وينبغى أن نؤكد هنا من جديد أن سبيرو لم يكن يصطنع المواقف تجريبياً بل كان يلاحظ سلوك الأطفال على الطبيعة ويسجله وكانت النتيجة كما يلى: (٢٧، ص ١٧٢):

الاستجابة	المجموعة الأولى	المجموعة الثانية	المجموعة الثالثة	المجموعة الرابعة
البكاء والصراخ والأنين	٥٦ ٪	٣٧ ٪	٤٨ ٪	٢٩ ٪
ليس ثمة استجابة ظاهرة	٢٨ ٪	٣٠ ٪	٢٣ ٪	١٩ ٪
الثأر بالمثل (بدنياً أو لفظياً)	٢ ٪	٢١ ٪	١٦ ٪	٢٩ ٪
التراجع	١٠ ٪	٤ ٪	٩ ٪	١٠ ٪
التماس العون	٢ ٪	٤ ٪	١ ٪	١٣ ٪
مص الأصابع	٢ ٪	٣ ٪	٢ ٪	صفر
الضحك أو الحديث	صفر	٢ ٪	١ ٪	صفر

ويفسر سبيرو (٢٧، ص ١٧٢ — ص ١٧٣) ظاهرة التناقص التدريجي في الإستجابة بالصراخ مع زيادة متوسط سن المجموعة بسببين : —

أولاً: إن الأطفال مع نضجهم يتعلمون إن الصراخ لايوقف المعتدى عند حده بل إنه في كثير من الأحيان يدفعه إلى الإستمرار فبمجرد أن تنطلق الطاقة العدوانية لدى هؤلاء الأطفال فانهم لايبدون رحمة. كما أن تألم الضحية لايدفعهم إلا لمزيد من العدوان. ثانياً: إن الأطفال

يكتشفون بتقدم السن أن الصراخ باعتباره وسيلة لجلب حماية المربية لم يعد مجدياً لانشغالها بالعديد من الوجبات والمسئوليات.

تأكيد جديد إذن لما سبق أن أشرنا إليه منذ سطور، أعنى أن أسلوب التربية فى الكيبوتزات هو الذى يربى الأطفال على العدوان والقسوة.

ثالثا: سمات شخصية السابرا:ــ

ونعنى بجيل السابرا من أبناء الكيبوتزات أولئك الذين ولدوا فى الكيبوتزات ثم تربوا فيها ونضجوا فى ظل نظامها التربوى. وهذا الجيل بالتحديد هو الذى تبذل الصهيونية كل جهدها لكى يصبح النموذج الذى تلتف حوله الشخصية الإسرائيلية الجديدة. وهو فضلاً عن ذلك جزء من الجيل الذى تعده إسرائيل لمواجهتنا استراتيجياً بحكم السن على الأقل. ولسوف نحاول أن نتعرض بشىء من الإيجاز لأهم سمات شخصية هذا الجيل من واقع دراسة سبيرو وغيره.

العدوان:ــ

إن صفة العدوان التى أوضحها سبيرو بجلاء فيما سبق تمتد إلى سلوك السابرا متخذه صوراً أكثر وضوحاً فتحت عنوان واضح الدلالة هو العرقية (Racism) (٢٧، ص ٣١٩ إلى ص ٣٢٠) يشير سبيرو إلى أن أبرز ما يميز أبناء الكيبوتز من السابرا هو كراهية الغرباء بعامة والمهاجرين من الشرق الأوسط بصفة خاصة. وهم ينظرون إليهم باعتبارهم أدنى منهم ويطلقون عليهم لقب (Shchoism) أى السود. ويصبون

عليهم كافة أنواع العدوان اللفظى والبدنى ويمتد ذلك العدوان ليشمل الأوروبيين الغرباء عن الكيبوتز.

ولايجد برونوبتلهايم (٤، ص ٢٨٦) مفراً من التسليم بحقيقة كراهية ومقاومة أبناء الكيبوتزات للغرباء وخاصة ليهود شمال أفريقيا، ولكنه يبذل جهداً هائلا لمحاولة تبرير ذلك بفرط خوف أبناء الكيبوتزات على تعكير مايسود الكيبوتز من تكامل، نافياً احتمال أن يكون ذلك راجعاً إلى نقص اهتمامهم أو حساسيتهم.

ب) الانطوائية: —

يشير سبيرو (٢٧، ص ٤٢٤، ص ٤٢٧) إلى أن مايتميز به السابرا من انطوائية واضحة إنما يبدو فى جوانب ثلاثة هى: —

(١) الخجل والاضطراب عند تعاملهم مع الغرباء عن الكيبوتز أو حتى مع أبناء الكيبوتز من غير أقرانهم.

(٢) حرص كل منهم على الاحتفاظ ببعد سيكلوجى معين بينه وبين الآخرين.

(٣) ندرة اقامتهم لعلاقات انفعالية وثيقة مع بعضهم البعض.

ويمضى سبيرو مفسراً تلك الخاصية بقوله «ان الانطواء إنما يعنى الابتعاد عن الآخرين أو تجنب إقامة علاقة بهم أصلا. وإذا ماكان الابتعاد عموماً يمثل إستجابة للألم، وإذا ماكان التجنب يمثل إستجابة لتوقع الألم، فإن إنطوائية أبناء السابرا قد يكون دافعها الألم الناتج عن خبراتهم المبكرة مع الآخرين، أو الألم المتوقع من مزيد من التفاعل مع الآخرين ..... أى أنهم ينظرون إلى الآخرين باعتبارهم مصدراً للألم والخطر، وإذا

ماكان الأمر كذلك فانطوائيتهم دليل على افتقارهم للأمن» (٢٧، ص ٤٢٧).

ويشير برونوبتلهايم أيضاً إلى ماييز السابرا من خجل من الغرباء فيقرر صراحة «إن هؤلاء الشبان شديدو الحياء من الغرباء. إنهم مغلقون على أنفسهم، بدرجة لاتجعل فى مقدورهم الكشف عن دخائلهم إلا للأشخاص الذين تربطهم بهم علاقة وثيقة تماماً» (٤، ص ٢٨٧). ولكنه عمق لايمكن أن يكشف عن نفسه في لقاءات عابرة... «إننى شخصياً قد فشلت فى استثارة أى عمق فى الأجيال الشابة رغم أننى وجدته بشكل كاف لدى جيل المؤسسين وأيضاً لدى أولئك الذين ولدوا فى الكيبوتزات ولكنهم غادروها بعد ذلك» (٤، ص ٢٨٨).
والأمر فيما نرى ليس فى حاجته إلى أى تعليق.

البرود الانفعالى:ــ
رغم أن سبيرو لايشير إلى مايتميزبه السابرا من برود انفعالى كسمة مستقلة إلا أننا نستطيع دون عناء أن نستدل على وجودها من خلال عرضه العام لسلوكهم وعلى أى حال فإن برونوبتلهايم لم يستطع تجاهل تلك السمة حيث ذكر إن أفراد جيل المؤسسين (أى مؤسسو الكيبوتزات) يشكون من أن «أطفالهم فى سن المراهقة أو حتى قبل ذلك السن يتصرفون حيالهم ببرود أو بلا مبالاة أو حتى بخشونة» (٤، ص ٢٨١) بل إنه يقرر فى معرض تفسيره لنزوح البعض عن الكيبوتزات أن ثمة انتقاء طبيعى تفرضه الحياة فى الكيبوتزات وأن

«الانطفاء الانفعالى يكاد يمثل عامل الانتقاء الوحيد الذى يحدد من يبقى ويستمر» . (١٤، ص ٢٨٨ .

(د): الحقد:

تحت ذلك العنوان بالتحديد يؤكد سبيرو (٢٧، ص٤٢٧ إلى ص ٤٢٩) أن العجرفة هى بلا شك أكثر التعبيرات وضوحاً لما يميز السابرا من حقد فى تعاملهم مع أعضاء الكيبوتز. ويمتد ذلك الحقد ليشمل من ليسوا أعضاء فى الكيبوتز أيضاً، وإذا ما كان حقد السابرا فى تعاملهم مع أعضاء الكيبوتز يتخذ صورة العجرفة فإنه يتخذ فى علاقتهم مع الغرباء صورة الانسحاب العدوانى. وأفضل تفسير لكل من الحقد والانسحاب قد يكون افتقاد الشعور بالأمن شأنها شأن الانطواء تماماً .

ويمضى سبيرو معلقا على ذلك (٢٧، ص ٤٢٩، إلى ص ٤٣٥) مشيراً إلى أننا مادمنا قد استخلصنا أن ما يتميز به السابرا من حقد وانطوائية وحاجه شديدة إلى التعاطف والتشجيع إنما هى جميعاً أعراض لافتقاد الشعور بالأمن فأن لنا أن نفترض أن ثقافة الكيبوتز تتضمن من الخبرات ما يثير تلك الاعراض. وإذا ماقسمنا التنشئة الاجتماعية فى الكيبوتز إلى أقسام ثلاثة:

(١) العناية Caretaking
(٢) التدريب Training
(٣) الرعاية Nurturance

فأننا نستطيع وفقا لما يراه سبيرو ــ أن نستبعد احتمال أن

يكون أى من القسمين الاوليين مصدراً لتلك الخبرات ، ولايبقى أمامنا إلا القسم الثالث أى قسم الرعاية .

ونعنى بالرعاية اشباع حاجات الطفل إلى الحب والحماية ، ويمكننا أن نستخلص بسهولة أن حاجات الطفل إلى الاعتماد الانفعالى والحماية والحب تلقى احباطاً شديداً فى ثقافة الكيبوتز. ويضيف سبيرو أننا نستطيع أن نتبين عدداً من مصادر الاحباط أهمها :ـــ

(١) : عدم وجود مربية واحدة ترافق الطفل طيلة طفولته .

(٢) : بعد أن يحاط الطفل بقدر مبالغ فيه من عطف وحنان وحماية والديه خلال لقاءاته معهم إذا به يفنقد كل ذلك بمجرد إنجاب طفل أصغر يصبح بدوره مركزاً لكل الاهنمام .

(٣) : الجماعة ـــ أى جماعة الكيبوتزـــ بأسرها لا الوالدين فقط ، تركز اهتمامها على الطفل ا لاصغر بشكل عام ومنتظم .

(٤) : الاطفال يتركون بمفردهم ليلا بما يسبب لهم خبرات بالغة الرعب .

(٥) : كثيراً ما يبتعد الوالدان لسبب أو لآخر عن الكيبوتز مما يسبب كثيراً من الاضطراب للطفل .

(٦) : نظراً لأن المربية كثيراً ما تكون مثقلة بالأعباء والمسئوليات فإن الطفل يترك وحيداً ليواجه عدوان الاقران فيما قبل سن المدرسة .

(هـ) : مشاعر الدونية :ـــ

يتحدث سبيرو تحت هذا العنوان مشيراً إلى «إننا بتحليلنا الافتقاداً السابرا للأمن ارجعناه إلى ادراكهم للآخرين إدراكاً مشوباً

بالألم، ولكن هناك أساس آخر لذلك الافتقاد للامن هو ادراكهم المؤلم لذواتهم هم. أنهم يتشككون فى قدراتهم الذاتية، وإمكانية الاعتماد عليهم... ويعد ذلك التشكك بمثابة المصدر الأول لشعورهم بالدونية. أما المصدر الثانى فهو اعتقادهم بأنهم أقل ثقافة من غيرهم، وبالتالى أنهم أدنى منهم.. أما المصدر الثالث لمشاعر الدونية فهو هويتهم اليهودية فمشاعرهم نحو ديانتهم اليهودية ليست بالمشاعر المحايدة، بل أنها لتنضح حقداً. ونحن نرجح أن ذلك الحقد إنما هو حيلة دفاعية تحميهم من مشاعر العار والدونية، أو بعبارة -أخرى فإن ذلك الحقد يؤكد شعورهم بالدونية (٢٧، ص ٤٤٥).

خلاصة القول إذن أن ذلك الجيل من السابرا الذى تعده الصهيونية -فيما نرى- لكى يكون النموذج الذى يقتدى به الإسرائيليون المعاصرون، متكلفة فى ذلك من المال والجهد ما حاولنا أن نشير إليه قدر الامكان ذلك الجيل يتصف بخمس صفات اساسية هى: العدوان، والانطوائية، والبرود الانفعالى، والحقد، ومشاعر الدونية. وقد يبدو للبعض -ومنهم سبيرو- أن ذلك يعني فشلاً أو لنقل تعثراً لتجربة الكيبوتز. ولكنا نرى رأياً أخر. أننا نرى أن ذلك هو المطلوب فعلاً:
نموذج يتجسد فيه عنصرى التمايز والاضطهاد فى أعنف صورهما، عدوانى لايعرف الرحمة، منغلق على نفسه، لايعرف حرارة الانفعال، حاقد على كل من حوله شاعر بأنه مختلف عنهم. نموذج يرفض الدين اليهودى ويتخطاه متخطياً بالتالى ما قد يثيره النموذج الدينى من عقبات سبق أن أشرنا إليها، نموذج

يستغنى تماماً عن ضرورة الالحاح على استمراريه التاريخ اليهودى وما يحمله ذلك الالحاح من تناقضات. نموذج يبدأ من اسرائيل ليتوحد به ابناؤها.

ولايعنى ذلك بحال أن تجربة الكيبوتزات تجربة مكتوب لها النجاح حتما فيما تستهدفه من خلق للنموذج الإسرائيلى المعاصر، بل أن هناك عقبة كبرى تعترض طريقها رغم كل الجهود المبذولة من جانب الصهيونية وتتمثل تلك العقبة ــ فيما نرى ــ فى امتداد ذلك الانشقاق الذى يقسم المجتمع الإسرائيلى إلى اشكنازيم وسفارديم إلى تلك التجربة أيضاً. فالكيبوتزات قد أنشأها الاشكنازيم ولم تضم سواهم بشكل عام حتى الآن. بل إن من تسرب إليها من غيرهم قد ووجه ــ كما بينا ــ بعدوان شديد. ولذلك فمن المحتمل أن يمارس ذلك النموذج الجديد تأثيره على اليهود الاشكنازيم ويبقى اليهود السفارديم بعيدين عن تأثيره.. مجرد احتمال.

كذلك فإن حديثنا عن حرص الصهيونية على إبراز تجربة الكيبوتزات لا يعنى بحال إننا نتوقع قطعاً زيادة فى نسبة عدد قاطنيها أو زيادة فى عددها بل على العكس فإننا نتوقع مزيداً من الذبول العددى للكيبوتزات وقاطنيها للاسباب التى سبق أن أشرنا إليها. بل إنه لن يدهشنا كثيراً أن تعدل الصهيونية فى صمت عن تجربة الكيبوتزات ولكن بعد أن تكون قد حققت هدفها بالفعل أى بعد أن تخلق النموذج أو المثل الاعلى للإسرائيلين المعاصرين، فهى بعد أن تنجز ذلك الهدف ــ إذا تمكنت من انجازه لن يصبح هناك مبرر سيكلوجى على الأقل لاستمرارها فى الوجود.

تلخيص وتقييم

لقد استهدفت دراستنا أساساً محاولة الوصول إلى فهم موضوعى قدر الامكان للتكوين السيكلوجى للإسرائيلين المعاصرين، وإلى تنبؤ موضوعى ــقدر الامكان أيضاًــ لما قد يطرأ على ذلك التكوين مستقبلاً. وحرصا على اكتمال تلك المحاولة بدأناها بعرض لفهمنا لقضية المعرفة الانسانية بعامة. ومعرفة المجتمع الإسرائيلى بوجه خاص. ثم ألقينا نظرة إلى التراث السيكلوجى العام استعرضنا فيها بإيجاز أهم الاساليب التى اتبعت فى الدراسات السابقة التى استهدفت فهما لسيكلوجية شعب من الشعوب دون الاقتراب المباشر من ذلك الشعب... متناولين كل تلك الاساليب بتقييم نقدى يبرز مزاياه ويوضح مثالبه.

وانتهينا من ذلك إلى أنه ليس أمامنا إلا أن نتبع اسلوب دراسة التراث محاولين الاقتراب من المجتمع الاسرائيلى من خلال ما كتبه غيرنا من الباحثين المتخصصين الذين اتيح لهم الاقتراب من ذلك المجتمع. ثم تناولنا بشىء من التفصيل مبررات اختيارنا لعملية التنشئة الاجتماعية كمدخل يمكننا من فهم للاستراتيجية السيكلوجية لإسرائيل، ثم ألقينا الضوء قدر استطاعتنا على ما توقعنا أن يعترض طريقنا من عقبات.

التمسنا بعد ذلك نقطة من نقاط الماضى نبدأ عندها بحثنا، فأستعرضنا النقاط المختلفة التى إنطلق منها غيرنا من الباحثين فى فهمهم للمجتمع الإسرائيلى منتهين إلى أن نقطة البداية المناسبة فيما نرى هى نشأة ذلك الجيل الذى يطلق عليه الحالوتس والذى قامت على أكتافه بالفعل التجربة الإسرائيلية. وبدأنا دراستنا بالفعل من تلك النقطة بفرض أساسى استخلصناه من دراستنا للتراث مؤداه أن التكوين السيكلوجى لذلك الجيل قد تميز بعنصرين اساسين هما الشعور

بالتمايز، والشعور بالاضطهاد .
وعرضنا لهذين العنصرين بشيء من التفصيل مركزين على الشواهد الداله على توافرهما، مناقشين ما قد يبدو من شواهد تتعارض مع ذلك، ثم انتقلنا إلى مناقشة طبيعة الحياة فى أحياء الجيتو بوصفها المناخ الذى تربى فيه جيل الحالوتس مبرزين ماكانت تحفل به تلك الحياة من مدعمات لعنصرى التمايز والاضطهاد محاولين مناقشة ظهور جيل الحالوتس كأحتجاج على حياة الجيتو وكتعبير أيضاً عن نفس العنصرين : التمايز والاضطهاد .

وبدانا بعد ذلك سياحتنا فى المجتمع الإسرائيلى المعاصر الذى يجمع بين جنباته أكثر من مائة قومية مختلفة ومتباينة، والذى يسعى للعثور على البوتقة والصيغة المناسبة لصهر ذلك الشتات، فتعرضنا أولاً لاستحالة أن تكون الاسره بمثابة تلك البوتقة، ثم تابعنا بحث المجتمع الإسرائيلى عن بوتقته فى إحياء اللغة العبرية ثم فى المؤسسات التعليمية ثم فى المؤسسات العسكرية الدينية فالمؤسسات الايديولوجية، موضحين قدر المستطاع ما يعترض كل من تلك المحاولات من عقبات وما تحرزه من نجاحات .

وتعرضنا بعد ذلك لمناقشة تجربة الكيبوتزات باعتبارها ــ فيما نرى ــ أخطر المحاولات التى اقدمت عليها الصهيونية فى مجال خلق تكوين سيكلوجى موحد للإسرائيليين أى باعتبارها محاولة خلق النموذج الإسرائيلى المعاصر الذى تعده الصهيونية لمواجهتنا استراتيجيا . فابرزنا أهم الخصائص السيكلوجية لذلك النموذج وكذلك ما يعترض طريقة من عقبات .

تلك فى إيجاز بالغ أبرز الخطوط الرئيسية لدراستنا التى حاولنا

خلالها قدر ما استطعنا أن نلتزم بما أشرنا إليه فى استهلالنا لها من أن اسلوب المعرفة الإنسانية هو فى جوهرة معرفة بما حدث وتفسير له، وتنبؤ بما سيحدث واستعداد له.

وإن هدف تلك المعرفة فى النهاية هو كفالة أمن الإنسان واستمراره فى حياة آمنة. وفى الحقيقة فإنه لاحدود للمعرفة بهذا المعنى. فمعرفة ماحدث لاتكتمل أبداً، حتى معرفتنا بعصور ما قبل التاريخ مازالت تزداد حتى اليوم وبالتالى فإن تفسير ذلك الذى حدث عملية مستمرة أبداً كذلك وبالتالى فليس ثمة تنبؤ نهائى فى العلم وفى العلم بالإنسان على وجه الخصوص، وإلا كف ذلك العلم عن التقدم مكتفيا بما حققه من فهم للماضى، قانعاً بما يكفله له ذلك الفهم من تنبؤ بالمستقبل.

ويرى بعض أهل العلم ـ وهم على حق فيما نظن ـ أن القيمة الحقيقية لأى إنجاز علمى ليست فيما أجاب عنه من تساؤلات، بل فيما يطرحه أو يثيره من تساؤلات جديده. ولو كان لنا أن نطرح ما أثارته دراستنا من تساؤلات لدينا، مقدمة لما نأمل أن نثيره من تساؤلات لدى غيرنا فاننا نطرح تلك التساؤلات كما يلى :ـ

أولا: ما هى الخصائص السيكلوجية المميزة لكل من الجماعات التى ينقسم إليها المجتمع الإسرائيلى وخاصة الاشكنازيم والسفارديم؟ إن ذلك الانقسام يمثل أكبر العقبات التى اعترضت ومازالت تعترض طريق كافة المحاولات الصهيونية لخلق كيان سيكلوجى واحد للإسرائيلين.

ثانيا: لابد من دراسة تتبعية موضوعية أكثر تعمقاً لجيل السابرا عامة ولتجربة الكيبوتزات بوجه خاص من الناحية السيكلوجية فى

محاولة للوصول إلى تنبؤ أكثر تفصيلاً عن احتمالات المستقبل أمام تلك التجربة باعتبارها ــ فيما نرى ــ تمثل أخطر تحديات الصهيونية لنا في مجال الإنسان.

ثالثا: لابد من دراسة موضوعية أيضا لتفاصيل طبيعة العلاقات ــ السيكلوجية المعقدة التي تربط بين يهود إسرائيل ويهود الدياسيورا.

رابعا: لابد من مسح تقييمي شامل ودقيق لكل ماكتبه العرب عن التجربة الإسرائيلية محاولة منا لتقييم نظرتنا إلى هذه التجربة.

تلك هي أهم التساؤلات التي أثارتها لدينا دراستنا هذه. وإذا كانت تلك التساؤلات تطرح نفسها أساسا على أهل الاختصاص العلمي المحدد، فإن هناك تساؤلات أعم وأشمل مطروحه علينا جميعا دون التزام بحدود تخصص معين، ما الذي يجب أن نغيره من أنفسنا لنستطيع مواجهة استراتيجية إسرائيل سيكلوجيا ؟ وما الذي نستطيع أن نستفيده عمليا من فهمنا لتلك الاستراتيجية المعادية ؟

مراجع البحث

أولا : المراجع الاجنبية :

1. Begin, Menachem. The revolt: Story of the Irgun. N.Y.: 1954.
2. Bentwich, N. Palestine, London, 1934.
3. Bernetein, N.H. The politics of Israel : The first decade of statehood, Princeton: 1951
4. Bettelheim, Bruno. The children of the drean, 1969.
5. Bowlby, John. Child care and the growth of love, London 1952.
6. Braham, Randolph L. Israel: a modern education system, Washington, 1966.
7. Brim, O.G. Jr. and Whealer, S. Socialization through the life cycle, IN, O.G. Brim, Jr. and S. Wheeler socialization after childhood, N.Y. 1966.
8. Churchill, Randolph S. and winston S. The si day war, London: 1967.
9. Darin-Drabkin, H. The other society, London: 1952.
10. Eisenstadt, S.N. Israeli Society, London : 1952.
11. Elkin, F. The child and society N.Y. 1960.
12. Fein, Leonard J. Politics in Israel, Boston : 1967.
13. Freeman, Erika Padan, Psychological study of a family in a kibbuts in Israel, (Unpublished): 1964.

14. Friedman, Georges. The end of Jewish people., N.Y.: 1968.
15. Klatzmann, Joseph. Les enseignements de l'experience Israelienne, Paris : 1963.
16. Kleinberger, Aharaon F. Society, Schools and Progress in Israel, London: 1969.
17. Landau, J.M. The arabs in Israel: a Political Study. London, 1969.
18. Levin Shamariah. Childhood in exile, N.Y. 1939.
19. Matras, Judah. Socail Change in Israel, Chicago : 1965.
20. Rabin, A.I. Growing up in the kibbuts, N.Y. 1965.
21. Riesman, David. Some types of character and seciety, IN, Stephan P. Spitaer. The psychology of Personality, N.Y. 1969.
22. Robertson, A. and Bowlby, J. Observations of the sequences of responeses of seperation, IN, Ashley Montague. The direction of human develonment; London 1957.
23. Rodinson, Maxime. Israel and the Arabs; London : 1968.
24. Roth, Cicil. History of the Jews, N.Y. 1966.
25. Sacher, Howard Morley. The course of modern Jewish history, N.Y. : 1963.
26. Sartre, Jean Paul. Anti-semite and Jew, N.Y.: 1968.
27. Spiro, Melford E. Children of the kibbuts, N.Y.: 1965.
28. Talmon, J.L. The unique and the universal. London: 1965.
29. Weiss, Rosmarin T. Jewish survival N.Y.: 1949.
30. Willner, Darothy, Nation-Building and community in Israel, Princetion: 1969.

ثانيا : الدوريات الأجنبية :

31. Bar-Yoseph, Rivkah. The pattern of early socialization in the collective settlaments in Israel, Hum. Rela. 12 N, 4: 345-360.
32. Bettelhein, B. Individual and mass behavior in exterme situations, Jour. Abno. Socio. Paych., 38 : 417-452, 1942.

33. Eisenstadt, S.N. National character in the perspective of the social sociences, Annals, 116 - 123 March 1967.

34. Glass, Netta. Eating sleeping and elimination habits in children attending day nursries and children cared for at home by mothers, Am. Jour. Orthe, 19 : 697-711, 1949.

35. Golan, Ssmuel. Collective education in the kibbuts, Am. Jour. Ortho., 25 : 549-556, 1958.

36. Irvine, Elizabeth E. Observations on the aims and methods of child - rearing in communal settlements in Israell, Hum. Rela. 5, N. 3: 247; 1952.

37. Karp, Richard. Behavior research in collective settlements in Israel : editorial statement, Am. J. Ortho., 28: 547-548, 1958.

38. Leon, Eisenberg and Kanner, Leo. Early infantileautim, Am. J. Ortho., 26: 556 - 1956.

39. Matras, Judah. Religion observance and family formation in Israel : some intergenerational change; Am. J. Soc. 69. N.5: 464 - 475, 1964.

40. Mead, Margaret. Some critical considerations on the problem of mother-child seperation, Am. J. Orto., 24: 471 - 483, 1954.

41. Meir, Golda. IN : Life, V. 47 N. 8 : P. 36, 31/10/1969.

42. Rabin, A.I. Attitudes of kibbuts children to family and parents, Am. J. Orto. 29: 172 - 179, 1959.

43. ——— Childrens apperception test findings with kibbuts and non-kibbutz preschoolers, Jour. Proj. tech., V. 32 N. 5: 420, 1968.

44. ——— Infants and children under conditions of 'intermittent' mothenng in the kibbutz, Am. J. Ortho., 28: 577 - 586, 1958.

45. ——— Kibbutz adolescents, Am. J. Orto., V. 31 N. 3: 493 - 504, 1961.

46. Rapaport, David. The study of kibbutz education and its

bearing on the theory of development, Am. J. Ortho. 28: 587-597., 1958.

47. Rosenfeld, Eva., The american social scientist in Israel: a case study in role conflict, Am. J. Ortho., 28: 563 - 571, 1958.

48. Shuval. Judith T. The role of class in structuring inter-group hostility, Hum. Rela. V. X N. 1 : 61-75, 1957.

49. The role of ideology as a predisposing farme of referance for immigrants, Hum. Rela. V. XII N. 1: 51 - 63, 1959.

50. Spiro, M. E. Education in communal village in Israel, Am. J. Ortho. 25: 283 - 292, 1955.

51. Talmon, J. L. IN: Life, V. 48 N. 4: P. 35, 2/3/1970

52. Talmon Yonina. Social structure and family size, Hum Rela., V. XII N. 2: 121 - 145, 1959.

53. Aging in Israel, Amer. J. Socio. V. 67 N. 3 : - 295, 1961.

54. Tamostu, Shibutani. Reference groups as perspective, Amer. J. Socio. 60 : 562 - 569, 1955.

55. Weintraub, D. and Shapiro, M. The traditional family in Israel in the process of change, Crisis, and continiuty. (Preliminary draft to be published in the British Journal of Socio.).

56. Winograd, Marilyn. The development of the young child in a collective settlement, Amer. J. Ortho., 28: 557 - 562, 1958.

ثالثا: المراجع العربية

٥٧ أحمد بهاء الدين. إسرائيليات. القاهرة: ١٩٦٥.

٥٨ إسماعيل صبرى عبد الله. فى مواجهة إسرائيل، القاهرة: ١٩٦٩.

٥٩ إيزنك، هـ. ج. الحقيقة والوهم فى علم النفس (ترجمة: قدرى حفنى ورؤوف نظمى) القاهرة: ١٩٦٩.

٦٠ ايفانوف، يورى. الصهيونية حذار (ترجمة: ماهر عسل) القاهرة: ١٩٦٩.

٦١ جمال حمدان. اليهود انثروبولوجيا، القاهرة: ١٩٦٧.

٦٢ حاتم صادق. نظرة على الخطر، القاهرة: ١٩٦٨.

٦٣ حسن البدرى، وأحمد فخر. الفكر العسكرى للعدو وكيف نواجهه، القاهرة: ١٩٧٠.

٦٤ سيرجيون إنجلش، وجيرالد بيرسون. مشكلات الحياة الانفعالية (ترجمة فاروق عبد القادر، فرج أحمد، قدرى حفنى، محمد وهبة)، القاهرة: ١٩٥٨.

٦٥ صبرى جرجس. التراث اليهودى الصهيونى والفكر الفرويدى، القاهرة: ١٩٧٠.

٦٦ عبد الوهاب الكيالى . الكيبوتز أو المزارع الجماعية فى إسرائيل .
بيروت : ١٩٦٦

٦٧ عبده الراجحى . الشخصية الإسرائيلية . القاهرة : ١٩٦٩ .

٦٨ غسان كنفاني . فى الادب الصهيونى . القاهرة : ١٩٦٧ .

٦٩ كمال الغالى : النظام السياسى الإسرائيلى . القاهرة : ١٩٦٤ .

٧٠ محمد على علوية : فلسطين والضمير الإنسانى . القاهرة : ١٩٦٤ .

٧١ محمد فرج ، فلسطين عربية ، القاهرة : ١٩٦٧ .

٧٢ محمد بن الشريف ، اليهود فى القرآن ، القاهرة : ١٩٦٩ .

٧٣ هيثم الكيلانى : المذهب العسكرى الإسرائيلى ، دمشق : ١٩٦٩ .

رابعاً: دوريات عربية

٧٤ السيد يسن. التحليل الاجتماعي للأدب غير المنشور، الآداب، ١٠: ١٨ ـــ ٢٤، اكتوبر ١٩٧٠.

٧٥ قدري حفني. حول التفسير النفسي للتاريخ، الفكر المعاصر، ٦٠: ٢٤ ـــ ٣٤، فبراير ١٩٧٠.

٧٦ مصطفى زيور. التفسير النفسي للسلوك الإسرائيلي، ورحلة اليهودي التائه من الجبن إلى الطغيان، الأهرام، السنة ٩٥، العدد ٢٠١٩٢، ٩/٨/١٩٦٩م

٧٧ـــــــــــــ. التفسير النفسي للسلوك الإسرائيلي لماذا اختار اليهود أرض فلسطين.. وما هي الدوافع النفسية في سلوك اسرائيل العسكري، الاهرام السنة ٩٥، العدد ٢٠١٩٣، ١٠/٨/١٩٦٩م

٧٨ يهوشفاط هاركابي. الاسباب الرئيسية لهزيمة العرب في حرب الأيام الستة. عرض وتعليق السيد يس. مايو سنة ١٩٧٠، بحث غير منشور.

ملحق رقم ١

تعريف موجز بأهم الاعلام

آرون انتنوفسكى:

أحد العاملين مع لويس جاتمان فى المعهد الاسرائيلى للبحوث اشار اليه جورج فريدمان فى كتابه «أهى نهاية الشعب اليهودى»؟ كما أن له بحث شهير آخر عن الانماط الايديولوجية فى اسرائيل أشار إليه جوداه ماتراس في كتابه «التغيير الاجتماعى فى إسرائيل ويسير انتنوفسكى فى بحوثه على هدى منهج استاذه جاتمان فيعتمد على العينات الكبيرة والأسئلة المباشرة والمعالجات الاحصائية. وإن كان ذلك لم يحل دون استخدامه لتلك المعالجات الإحصائية نفسها لاخفاء الحقائق كما يتضح من معالجتنا لاحصاءاته فى بحثه عن الانماط الايديولوجية فى إسرائيل.

سالو ويتمايربارون:

استاذ التاريخ اليهودى فى جامعة كولومبيا بامريكا من أبرز المؤرخين للتاريخ اليهودى من وجهة النظر الصهيونية. له مؤلف بعنوان «التاريخ الاجتماعى والدينى لليهود» صادر عام ١٩٦٦م يحاول فيه جاهداً أن يرجع فكرة امتداد تاريخ اليهود المعاصرين إلى أزمان غابرة.

ريفكا باريوسف:—

إخصائية اجتماعية، اتمت دراستها فى الجامعة العبرية وجامعة

هارفارد. كانت تعمل عام ١٩٥٩م فى قسم الاجتماع بالجامعة العبرية سبق لها العمل كمربية فى أحد الكيبوتزات، ومن خلال تلك الخبرة كتبت بحثا نظريا عن مقومات التكامل فى حياة أبناء الكيبوتزات. اهتمامها الرئيسى بعلم الاجتماع الصناعى.

جوزيف بن دافيد:

أحد أساتذة علم الاجتماع فى الجامعة العبرية، مهتم على وجه الخصوص بدراسة جيل السابرا من الوجهه الاجتماعيه نشر عام ١٩٦٢م فى واشنطون دراسة هامة عن ذلك الجيل بعنوان «الصورة الموحدة والمنحرفة للشباب فى مجتمع جديد» وقد أشار جورج فريدمان إلى تلك الدراسة فى كتابه «أهى نهاية الشعب اليهودى» منوها باهميتها.

ماكس بيلوف:ـــ

مؤرخ بريطانى معاصر من مواليد عام ١٩١٣م مدرس للتاريخ فى جامعة أكسفورد. له مؤلفات عديدة فى موضوعات متصلة بالتاريخ السياسى يميل عموما إلى تبنى وجهة النظر الصهيونية.

برونو بتلهايم:ـــ

من أبرز المحللين النفسيين فى أمريكا، من مواليد فيينا عام ١٩٠٣م يجمع بين الفلسفة والخبرة العيادية، غزير الانتاج، أصدر إلى عام ١٩٦٩م حوالى ثمانية كتب. له مدرسة لتقويم الاطفال عقليا وعصبيا وهى (Orthogenie School) التابعة لجامعة شيكاغو. كان نزيلا فى معتقلى داخاو وبوخنفالد النازيين، وقد نشر عام ١٩٤٣ مقالا عن خبرته تلك مركزاً على مالاحظه من توحد للمعتقلين بحراسهم كما أصدر كتاباً عن نفس تلك الخبرة اسماه «القلب الواصل» روى فيه

كيف أن تلك الخبرة قد خلصته من أفكاره السيكلوجية الدجماطيقية السابقة. له كتاب عن تجربة الكيبوتزات الإسرائيلية بعنوان «أطفال الحلم» اتخذ فيه موقفا متحيزاً للتجربة الإسرائيلية بشكل ملفت للنظر.

شمويل نواه ايزنشتادت :ــ

دكتوراه فى الفلسفة، أستاذ ورئيس قسم علم الاجتماع فى الجامعة العبرية حيث يقوم بالتدريس منذ عام ١٩٤٧م، عمل كأستاذ زائر فى جامعات أوسلو، وشيكاغو، وهارفارد، وغيرها. له عدد هائل من المؤلفات المعروفة الذائعة.

يوريل فوا :ــ

أحد تلامذه جاتمان فى المعهد الإسرائيلى للبحوث الاجتماعية التطبيقية.

جورج فريدمان :ــ

مدير ومؤسس مركز دراسة وسائل الاتصال الجماهيرية التابع لجامعة السوربون، ولد فى باريس عام ١٩٠٢م وتخصص فى مشاكل العمل وتأثير التكنولوجيا على المجتمع الحديث زار العديد من بلدان الشرق والغرب، وقام بزيارتين لإسرائيل فى عامى ١٩٦٣، ١٩٦٤، على التوالى، وكتب من وحيها كتابه أهى نهاية الشعب اليهودى. لايخفى تعاطفه مع التجربة الإسرائيلية. وأن كان ذلك لايحول بينه وبين رؤية بعض مثالب المجتمع الإسرائيلى ــ شغل منصب رئيس الرابطة الدولية للعلوم الاجتماعية فى الاعوام من ١٩٥٦ ــ ١٩٥٩.

اليزابيت أ. ايرفين :ــ

تخرجت من قسم اللغات فى جامعة كمبردج عام ١٩٢٧م ثم

عملت تحت اشراف سوزان ايزاكس، وتنقلت فى عدة وظائف. وخلال عام ١٩٥٠م كانت تعمل كأخصائية اجتماعية فى الطب العقلى فى إسرائيل تحت إشراف الدكتور جيرالد كابلان، حيث جمعت قدراً من البيانات عن أطفال الكيبوتز من أجل بحث كان يقوم به الدكتور جون بولبى بالاشتراك مع هيئة الصحة العالمية.

جوزيف كلاتزمان :ـ

من أكبر المراجع فى الزراعة الإسرائيلية. مدير معهد الدراسات العملية ومستشار معهد التنمية الصناعية والاجتماعية فى فرنسا. يميل فى إشاراته إلى تجربة الكيبوتزات إلى أبراز جوانب اخفاقها الاقتصادى وأهميتها التربوية.

جاكوب م. لاندو:ـ

محاضر فى كلية العلوم الاجتماعية بالجامعة العبرية فى مادة نظم الحكم فى الشرق الاوسط. له مؤلفات عديدة عن الشرق الاوسط فى العصر الحديث. كان استاذاً زائراً فى قسم دراسات الشرق الأدنى بجامعة ولاية واين ـ ديترويت ـ ميتشجيان عام ١٩٦٨م / ١٩٦٩م ـ له دراسة شهيرة عن العرب كما أن له دراسة حديثه عن اليهود فى مصر فى القرن التاسع عشر.

جوداه ماتراس :ـ

محاضر فى علم الاجتماع بالجامعة العبرية، له كتاب بعنوان التغيير الاجتماعى فى إسرائيل ـ وعدة مقالات فى نفس الاتجاه.

البرت أ. رابين :ـ

أستاذ علم النفس ومدير العيادة النفسية فى جامعة ميتشجيان له

كتاب بعنوان «النمو فى الكيبوتز» فضلا عن مجموعة من البحوث عن اطفال الكيبوتز، استخدم فيها الاختبارات الاسقاطية وحاول فيها بشكل متعسف تبرير تجربة الكيبوتزات والدفاع عنها .

سيسيل روث :ـ

تلقى تعليمه فى جامعة أكسفورد، وأصبح محاضراً فى الدراسات اليهودية بها منذ عام ١٩٣٩م أحد محررى انسيكلوبيديا بريتانيكا . من أبرز المؤرخين الصهانية للتاريخ اليهودى له كتاب بعنوان «تاريخ اليهود» يرجع فيه بذلك التاريخ إلى حوالى (١٦٠٠ق . م) .

هوارد مورلى ساخار:ـ

حصل على درجاته الجامعية من سوارثمور وهارفارد يعمل مديراً لمعهد جاكوب هيات Jacob Hiatt فى إسرائيل التابع لجامعة براندينز Brandais له مؤلف بعنوان «مسار التاريخ اليهودى الحديث» .

جوديث ت . شوفال :ـ

حصلت على ليسانس الاجتماع من كلية هنتر ثم على الماجستير والدكتوراه من كلية رادكليف عام ١٩٥٥ عملت خبيرة فى البحوث الاجتماعية فى اليونسكو فى المعهد الإسرائيلى للبحوث التطبيقية حيث قامت أساساً بتجميع بيانات عن توافق المهاجرين وذلك خلال ١٩٥٧ . عملت عام ١٩٥٩م كباحث مساعد فى المعهد إلى جانب قيامها بتدريس علم الإجتماع فى الجامعة العبرية .

ملفورد أ. سبيرو:ـ

أستاذ علم الانثروبولوجيا بجامعة كونكتيكت عمل فترة فى قسم

الاجتماع بالجامعة العبرية . له دراسة بعنوان «أطفال الكيبوتز» تعد من أهم الدراسات فى هذا المجال ، فضلا عن مجموعة من المقالات فى نفس الموضوع . يتميز بأن اتجاهه أقرب إلى الموضوعية وأن كان لايخفى تعاطفه مع التجربة الإسرائيلية بعامة رغم تحفظه فيما يتعلق بتجربة الكيبوتزات بالتحديد .

جاكوب ل . تالمون :ـ

أستاذ فى قسم التاريخ بالجامعة العبرية . عرض عليه حزب الماباى الحاكم مقعداً فى الكنيسيت ولكنه رفض . ولد فى بولندا عام ١٩١٦م . تلقى تعليمه فى بولندا وفلسطين وفرنسا . هرب إلى لندن عقب سقوط فرنسا عام ١٩٤٠م حيث استمر فى بحوثه وحصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة عام ١٩٤٣م ـ عمل فى المجال الدبلوماسى السياسى إلى أن استقال عام ١٩٤٧م وتلقى منحة دراسية من إسرائيل تمكن خلالها من كتابه مؤلفه «أصول الديمقراطية الشمولية» وبعد أن انتهى منه عين استاذاً للتاريخ الحديث فى الجامعة العبرية .

يونيتا تالمون جارير:ـ

محاضرة فى قسم الاجتماع بالجامعة العبرية . لها مؤلف بعنوان «الأسرة فى المؤسسات الجماعية» قائم على دراسة ميدانية استمرت لمدة ٤ سنوات .

د . راينتروب :ـ

أحد مدرسى علم الاجتماع فى الجامعة العبرية يتصدر فى الأوساط الأكاديمية اتجاهاً نقدياً لتجربة الكيبوتزات باعتبارها لاتساير متطلبات العصر .

ترود ڤايس روزمارين:ـ

رئيسة تحرير مجلة جويش سبكتاتور. لها مؤلف بعنوان انتصار اليهود في صراع البقاء تحاول فيه أن تفسر التاريخ اليهودي باعتبار أن اليهودية دين وقومية في نفس الوقت.

دورثى ويللنر:ـ

تشغل منصب أستاذ علم الانثروبولوجيا في جامعة كانساس لها مؤلف بعنوان «بناء الأمة والجماعة في إسرائيل (١٩٦٩)». تتخذ موقف الدفاع عن التجربة الإسرائيلية

الباب الثالث

شباب عجوز

دراسة فى سيكلوجية السابرا الإسـرائيليين

أعد هذا البحث للنشر فى أكتوبر ١٩٧٢ م.

الفصل الأول: السابرا بين مقتضيات السياسة وأصول العلم.

الشباب أم السابرا : صراع بين التاريخ والمكان

سيكلوجية الشباب الإسرائيلى بين الوحده والتعدد.

الفصل الثانى: السابرا وتكوينهم السيكلوجى.

علامات على الطريق.

الانطوائية .

الشعور بالدونية .

التشاؤم والشك .

العدوانية .

الفصل الثالث: السابرا : شباب عجوز.

محاولة للتفسير.

شباب عجوز.

خاتمة .

الفصل الأول

« السابرا » ! بين مقتضيات السياسة وأصول العالم

الشباب أم السابرا: صراع بين التاريخ والمكان
سيكلوجية الشباب الإسرائيلى: بين الوحده والتعدد

الشباب أم السابرا: صراع بين التاريخ والمكان

لم يكن عبثا أن تعتبر اللغة مقوماً أساسياً من مقومات القومية . فهى فى النهاية نتاج بشرى تمايز بتمايز المجتمعات البشرية . واسهم فى أحداث ذلك التمايز أيضاً (١، ٢، ٣، ٤). ولعل حرص الإسرائيليين على صك لغتهم الخاصة القائمة على «أحياء» اللغة العبرية القديمة، فضلا عن كونه انعكاس لضرورات تفرضها طبيعة تكوين المجتمع الإسرائيلى (٥)، فإنه كان أيضاً تعبيراً عن وعى القائمين على شئون المجتمع بأهمية اللغة كمقوم أساسى من مقومات القومية لا المجتمع فحسب .

ولعل عالم اللغويات الإسرائيلى حـايم بلانــك لم يجاوز الحقيقة كثيرا فى إشارته إلى أنه ليست أكثر الأمور غرابة بالنسبة للغة العبرية ،

---

1. Alexandre, Pierre. Seme linguestic problems of nation - building in Negro - Africa, J.A. Fishman, et al. (eds.) Language Problems of developing nations, John Wily & Sons Inc. 1968.

2. Berezin, F.M. Lectures on linguistics, Highes scl ool publishing house, 1969, P. 5.

3. Das Gupta, J.S.J.J. Guparz, Language, Communication, and control in North India, J.A. Fishman, et. al. (eds.) Language problems of developing nations, John wily & Sons Inc., 1968.

(٤) ستالين، ج حول الماركسية فى علم اللغة، دار ابن سينا، بيروت (تاريخ النشر غير مبين)، ص ٤ .

(٥) قدرى حفنى تجسيد الوهم، مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية ــ القاهرة/ ١٩٧١، ص١٤٥ ــ ٤٥٠ .

إنها كانت ميته وتم أحياؤها صناعيا، بل الغريب حقا إنها لم تكن اللغة الأم لأحد على الأطلاق وإنه لم يكن ثمة متكلمين بأى لهجات وثيقة الصلة بها (١). وعلى ذلك، فإن اللغة العبرية الحديثة ــ أو اللغة الإسرائيلية ــ لغة قديمة الأصول حديثة الاستخدام. ولقد كان على من تصدوا لاصطناع المجتمع الإسرائيلى أن يتصدوا أيضاً لاصطناع لغة متميزة لذلك المجتمع.

تضم اللغة الإسرائيلية العديد من تلك المصطلحات ذات المذاق الخاص، والتى تم صكها داخل المجتمع الإسرائيلى، ومن واقع التجربة الإسرائيلية، ولا نعنى هنا بطبيعة الحال ذلك الركام الهائل من المصطلحات التى شملتها عملية العبرنه السريعة التى لجأ إليها الإسرائيليون، ومازالوا ماضين فيها لاعتبارات عديده لسنا بصدد التعرض لها. فالأمر لايتعدى فى تلك الحالة مجرد ترجمة أو تسمية بسيطة أو حتى معقدة لظواهر اجتماعية أو طبيعية تعرفها مجتمعات كثيرة وتتعدد تسمياتها بتعدد لغات تلك المجتمعات. أن ما نعنيه بالتحديد هو تلك المصطلحات التى تم صكها للتعبير عن واقع اسرائيلى فريد لا نظير له فى المجتمعات الأخرى. ولا تعنى عملية الصك هذه بالضرورة ابتداع المصطلح ابتداعاً، بمعنى اضافة كلمة جديدة إلى مفردات اللغة لم يكن يضمها قاموس تلك اللغة من قبل لتعبر عن ذلك المقصد الجديد. بل أن ما يحدث فى كثير من الاحيان ــ وخاصة فى مجال المصطلحات الاجتماعية ــ أنه من خلال ملابسات اجتماعية محدده يتم إضفاء معنى جديد على كلمة مستخدمه بالفعل، أى على كلمة موجودة من قبل

1. Blanc, H. The Israeli Koine as an emergent national standard, J. A. Fisman, et al. (eds.) Language problems of developing nations, John Wiley & Sons Inc., 1968.

ضمن مفردات اللغةَ المعينة. وذلك هو ما حدث بالتحديد بالنسبة لمصطلح الكيبوتز مثلا فى إسرائيل. أن كلمة كيبوتز بالعبرية تعنى جماعة. ولكن ثمة ملابسات اجتماعية تاريخية محدده أضفت على تلك الكلمة القاموسية المعتادة معنى اجتماعيا خاصاً بحيث أصبحت تعبر عن ظاهرة اجتماعية يتميز بها المجتمع الإسرائيلى، والأمر بالمثل بالنسبة لمصطلحات أخرى عديدة تضمها اللغة المستخدمة فى إسرائيل حاليا.

وإذا كان ادراج مصطلحات مثل الكيبوتز، والفاتيك، والحالوتس ضمن تلك المصطلحات التى تعبر عن واقع إسرائيلى محدد لانظير له فى غير إسرائيل من المجتمعات لايثير جدالا، فإن ضم مصطلح السابرا إليها قد يثير جدالاً كثيراً.

فالقراءة العابرة للكتابات الإسرائيلية توحى أن مصطلح السابرا ليس سوى تسمية عبرية تدل على الشباب الإسرائيلى، وتحت عنوان السابرا يدور الحديث عادة عن طلبه وجنود وأطفال ومراهقين وما إلى ذلك.

أى أنه حديث يدور عن شباب (١، ٢، ٣)*. وطالما أن الشباب ظاهرة تعرفها المجتمعات البشرية جميعا. فإن تناول مصطلح السابرا باعتباره تعبيراً عن واقع إسرائيلى فريد قد يعد تعسفاً لا محل له فى مجال التناول العلمى الموضوعى.

(*) انظر الصفحة التالية.

1. Essring, H.S. Abraham Segal. Israel today, Union of American Hebrew Congregations, New York 1970 P. 97.
2. Spiro, M.E. The Sabras and Zionism; a study in personality and ideology, Social problems, 5 (2) 1957. pp. 100 - 110.
3. Friedman, G. The end of Jewish people ? (Trans. French by Eric Mosbacher), Doubleday & Comp. Inc. New York; 1968 Passim.

قد يكون للسابرا من الخصائص الاجتماعية والسيكلوجية بل والبيولوجية أيضا ما يميزهم عن غيرهم من الإسرائيليين. وقد يكون لهم أيضاً ما يميزهم عن شباب المجتمعات الأخرى ولكن أليس ذلك هو الحال بالنسبة للشباب فى المجتمعات الإنسانية جميعاً. ثمة ما يميزهم عن بقية فئات المجتمع، وثمة ما يميزهم أيضا عن أقرانهم من شباب المجتمعات الأخرى؟ ذلك هو جوهر وجهة النظر التى قد تعترض على تناول مصطلح السابرا باعتباره تعبيراً عن واقع إسرائيلى فريد. ولنحاول أن نختبر صحة وجهة النظر هذه. أو بعبارة أخرى فلنحاول التصدى للإجابة على تساؤل محدد مؤداه: هل «السابرا» تعنى «الشباب» فى الواقع الإسرائيلى؟.

فلنحدد أولا ما يعنيه مصطلح «الشباب» بعامة فى أى من المجتمعات الإنسانية. لقد درج علماء الإنسانيات على تقسيم أفراد أى مجتمع يتصدون له تقسيمات تتنوع بتنوع ما تستهدفه تلك التقسيمات. فقد يقسم أفراد المجتمع وفقا للجنس إلى أناث وذكور، وقد يقسمون وفقا لمحال أقاماتهم أو لمستويات تعليمهم، أو لمحال ميلادهم، أو لدياناتهم، أو لمهنهم إلى أخر تلك التقسيمات التى لاتخلو منها الجداول الديموجرافية لأى مجتمع بشرى.

ومن بين تلك التقسيمات تقسيم أفراد المجتمع المعين وفقا لفئات عمرية تضيق أو تتسع، وتزيد أو تقل حسب ما يستهدفه التقسيم. ويقوم ذلك التقسيم العمرى أساساً على محكات كمية بحيث ينقسم أفراد المجتمع إلى فئات، تضم كل فئة عدداً معيناً من سنوات العمر. وغالبا ما يلى ذلك التقسيم الكمى تسمية نوعية تميز كل فئة أو مجموعة

من الفئات العمرية عن غيرها. وأبرز تلك التسميات النوعية وأكثرها شيوعا هى: الأطفال، والشباب، والراشدين، والشيوخ.

وقد تتغير تلك التسميات من مجتمع إلى آخر، وقد تنقسم فئة من تلك الفئات إلى فئتين أو أكثر، وقد تندمج فئتين أو أكثر فى فئه واحدة، كما قد تتغير الحدود العمرية الفاصلة بين مختلف الفئات من مجتمع إلى آخر. ولكن يبقى فى النهاية أن الشباب مصطلح يدل على أحدى الفئات التى يقسم إليها الافراد وفقا لاعمارهم. ينطبق ذلك على الشباب فى كافة المجتمعات الإنسانية وكافة العصور أيضا. صحيح أن الشباب قد يختلفون عن سواهم من أبناء نفس المجتمع سيكلوجياً واجتماعياً وبيولوجيا، ولكن محور ذلك الاختلاف وجوهره يظل عامل السن دون سواه من العوامل. ولعل التركيز على هذه الحقيقة هو ما يتيح لنا فهم الطبيعة الدينامية المتغيرة لمن يضمهم مصطلح الشباب، بل الطبيعة الدينامية للتقسيم العمرى عامة: أن اطفال اليوم هم شباب الغد وراشدوا اليوم هم شباب الامس، وشباب اليوم هم راشدوا الغد وهكذا..

وخلاصة القول إذن أن مصطلح الشباب يقوم على دعامتين وبدونهما أو بدون أى منهما يفقد المصطلح معناه كمصطلح، أى كتعبير أصطلح الناس على معنى محدد له.

وتتمثل هاتين الدعامتين فى إيجاز فى أن فئة الشباب تتمايز عن غيرها على أساس من السن. ومن ناحية أخرى فى أن مصطلح الشباب يعبر عن واقع دينامى متغير.

ترى هل يمكن أن ينطبق مصطلح الشباب بدعامتيه هاتين على السابرا فى إسرائيل؟ أن المعنى الحرفى لكلمة السابرا فى اللغة العبرية

هو نبات التين الشوكى. ولعل معرفتنا بالملابسات الاجتماعية التى صاحبت إضفاء ذلك المعنى الفضفاض لجيل السابرا على كلمة التين الشوكى وتحويلها إلى مصطلح اجتماعى تسهم إسهاماً كبيراً فى القاء الضوء على دلالة ذلك المصطلح.

لقد أصدر جورج فريدمان عالم الاجتماع الفرنسى المعروف والرئيس الأسبق للجمعية الدولية لعلم الاجتماع فى عام ١٩٦٥م ـ كتابه المشار إليه آنفا والمعنون «أهى نهاية الشعب اليهودى؟» وقد ضمنه تقييما مفصلا للتجربة الإسرائيلية كما شاهدها خلال زيارتين قام بهما لإسرائيل فى عامى ١٩٦٣م، ١٩٦٤م على التوالى وقابل خلالهما العديد من قادة الفكر والعلم والدولة فى إسرائيل فضلا عن لقاءاته بالعديد من الإسرائيليين المنتمين لمختلف الفئات. وفى مستهل الفصل الرابع فى ذلك الكتاب والمعنون «السابرا: أزمة القيم» يورد فريدمان قصة الملابسات الاجتماعية التاريخية التى صاحبت إطلاق تسمية السابرا هذه مقرراً أن ذلك المصطلح قد أخذ يتردد فى اعقاب الحرب العالمية الأولى مباشرة وأنه قد انبثق للمرة الأولى فى مدرسة هرزليا الثانوية فى تل أبيب. وكانت من كبرى المدارس فى فلسطين آنذاك، أى فى فترة الانتداب البريطانى وكانت تلك المدرسة تضم بين تلاميذها اليهود آنذاك شبابا من مواليد فلسطين إلى جانب آخرين من أولئك الذين نزحوا مع آبائهم من أوروبا إلى فلسطين. وغالبا ماكان أولئك الأوروبيون الذين قدموا من حضارة أكثر تقدما. ونشأوا فى ظروف أكثر يسراً، يتفوقون فى الدراسة على زملائهم من مواليد فلسطين أبناء الحضارة الأقل تقدما والذين نشاؤا فى ظروف أكثر خشونة. وبالتالى فقد كان مواليد فلسطين هؤلاء يحسون نقصا حيال أقرانهم الأوروبين اللامعين دراسيا، ومن ثم كانوا يلجأون لتعويض

شعورهم بالنقص إلى تحدى أولئك الأقران المتفوقين فى نوع من النشاط يرد لهم اعتبارهم وقد تمثل ذلك النشاط فى الامساك بثمرات التين الشوكى وتقشيرها بالايدى العارية. وكان اليهود من أبناء فلسطين فى مدرسة هرزليا يكسبون التحدى فى ذلك المضمار عادة، ويتمكنون بسهولة من نزع القشرة الشائكة وتحمل وخز أشواكها والحصول على الثمرة الحلوة (١).

ومن هنا التصقت كلمة «التين الشوكى» ــ «السابرا» بأولئك الذين كانوا يتفوقون فى تقشيرة فى مدرسة هرزليا ومن هنا أيضا انتشرت التسمية لتغطية ما يسمى بجيل «السابرا» ذلك الجيل الذى يختتم فريدمان روايته هذه بالإشارة إليه قائلاً: «وهكذا فقد شهدت إسرائيل فى العشرينات جيلا من السابرا بلغ أفراده الآن سن التقاعد» (٢).

ولكن.. أى سابرا هؤلاء؟ أو بعبارة أخرى، ما هى خصائص أولئك الذين أطلق عليهم ذلك المصطلح للمرة الأولى؟ ترى هل يمكن أن تتوافر دعامتى مصطلح الشباب اللتان أشرنا إليهما فى تعبير السابرا أو على الأصح فى أولئك الذين أطلق عليهم ذلك التعبير فى البداية؟ لكى نتحقق من كل ذلك علينا أن ــنتصدى للإجابة على تساؤلين محددين:

أولا: هل تتمايز فئة السابرا عن غيرها من الفئات السكانية فى إسرائيل على أساس السن؟

---

1. Friedman, G. op. cit. p. 117.

2. Ibid.

ثانيا: هل يعبر مصطلح السابرا عن واقع دينامى متغير فى إسرائيل ؟ .

أن رواية فريدمان ـــ لو أخذنا بها على علاتها ـــ تشير إلى خصائص أربع توافرت فيمن أطلق عليهم تعبير السابرا فى العشرينات من هذا القرن :ـــ

(١) : إنهم الشبان اليهود المولودون فى فلسطين، فى مقابل أقرانهم من الشبان اليهود المولودون فى أوروبا .

(٢) : إنهم المتخلفون حضاريا ، فى مقابل أقرانهم المتفوقين حضارياً .

(٣) : إنهم المتخلفون دراسياً ، فى مقابل أقرانهم المتفوقين دراسيا .

(٤) : إنهم الأكثر قدرة على تحمل المشاق البدنية المؤلمة فى مقابل أقرانهم الأقل قدره على تحمل مثل تلك المشاق .

ونظرة متأنية إلى تلك الخصائص كفيلة بالرد على ماطرحناه من تساؤلات•أن من أطلق عليهم تعبير السابرا ومن أطلق فى مواجهتهم ذلك التعبير، كانوا جميعا من الشباب اليهودى . بل أنهم جميعا ينتمون إلى شريحة واحده محدده من الشباب هم طلبة المدارس الثانوية . ومن هنا فإن مصطلح السابرا لم يكن منذ البداية ليميز بين الشباب وغيرهم ولاحتى بين شريحة شبابية وغيرها بل ولاحتى بين سن وآخر على الإطلاق .

وبذلك نكون قد اجبنا على تساؤلنا الأول وانهارت الدعامة الأولى التى يقوم عليها مصطلح «الشباب» أما فيما يتعلق بالتساؤل الثانى عن مدى تعبير مصطلح السابرا عن واقع دينامى متغير فيكفى أن نقف قليلاً أمام أولى الخصائص الأربع التى استخلصناها من رواية فريدمان

فقد يراهم البعض اليوم أكثر تفوقا فى الدراسة . وقد يراهم البعض أقل جلداً على تحمل المشاق البدنية ، وأقل إقبالاً على العمل اليدوى بعامة من آبائهم وقد يبدو والأمر كذلك أن مصطلح السابرا قد تغير مدلوله بالفعل ويصبح علينا إذن أن نرصد ذلك التغيير ونبين مداه . غير أن المسألة ليست كذلك على الإطلاق أن ما يعنينا الآن ليست الخصائص السيكلوجية والاجتماعية المميزة لذلك « الجيل » بل هى أساساً قضية التعريف المحدد للمقصود بتعبير « جيل السابرا » فاختلاف وجهات النظر حول الخصائص أو الصفات التى تنسب إلى جيل من أجيال مجتمع معين ليس بالأمر المستغرب على الاطلاق فى مجال علم النفس الاجتماعى ، بل أن مثل ذلك الاختلاف قد يصل أحيانا إلى حد التعارض الصريح خاصة إذا ما تعلق الأمر بجيل الأطفال أو الشباب . ومع ذلك تبقى المسلمة الأساسية التى يقوم عليها الحوار دون التعرض لها بالمناقشة وهى أنه ثمة أجيال بالفعل ، وأن التمايز بين تلك الأجيال يقوم أساساً على محور العمر.

ومن هنا ينبغى أن يكون تساؤلنا هو: هل أدت خمسون عاما من استخدام « السابرا » إلى أن يصبح العمر هو المحور الأساسى لانتماء الفرد الإسرائيلى إلى جيل يحمل ذلك الاسم ؟ .

لايبدو أن الأمر قد أصبح كذلك على الإطلاق . أن الكتابات الإسرائيلية الحديثة ، رغم إنها ــ كما سبق أن أشرنا ــ تتناول تحت عنوان السابرا فئات شابة من الإسرائيليين ، إلا أنها تحرص على تأكيد أن صفة السابرا تتعلق أساساً بمواليد إسرائيل من اليهود (١، ٢، ٣، ٤ ، ٥) .

---

1. Essring, H. & Abraham Segal. op. cit. pp. 97 - 103.
2. Bettelheim, Bruno, The children of the Dream, MacMillan Company, London : 1969, Passin.

ولنا أن نتصور إذن أن جيل السابرا بهذا المعنى يضم بين صفوفه فئات عمرية شتى ليست من الشباب فى شىء، ويخرج من بين تلك الصفوف فئات شبابية شتى كذلك.

وقد ينتمى إلى ذلك الجيل ـ وفقا لحرفية التعريف ـ شيخ يهودى ولد منذ تسعون عاماً مثلا على أرض فلسطين، ونشأ عليها منذ ذلك الحين. وقد ينتمى إليه أيضا شاب يهودى يبلغ العشرين ولد على أرض فلسطين لأسرة نزحت من اليمن مثلا وأقامت فى إسرائيل. وقد يضم جيل السابرا كذلك كهلا يهوديا فى الخمسين من عمره ولد منذ ذلك الوقت. ومن ناحية أخرى فإن اقرانا لهؤلاء يماثلونهم فى العمر أو حتى يصغرونهم قد لايشملهم «جيل السابرا» لأنهم ولدوا خارج إسرائيل ثم نزحوا مع آبائهم أو بمفردهم إليها. وقد يكون من بين هؤلاء مثلا شقيق لذلك الشاب اليهودى اليمنى الذى يبلغ العشرين ولكنه كان رضيعا حين نزحت الأسرة من اليمن ولذلك فإنه لاينتمى لجيل السابرا فى حين ينتمى إلى ذلك الجيل شقيقه الذى يصغره ولو بعام واحد بل قد يكون بين هؤلاء أيضا طفل يهودى هاجر مع أسرته إلى إسرائيل أثر مولده منذ خمس سنوات مثلاً.

جيل السابرا إذن يضم شيوخاً وشباباً، ويستبعد أيضا شيوخاً وشباباً من الإسرائيليين.

لعل ذلك الفهم لتعبير «جيل السابرا» هو الذى يتيح لنا إدراك

= 3. Spiro, M.E. The Sabras and Zionism op cit.
4. Spiro M E Kibuts : Venture in Utopia, Schooken Books, New York; 1967 p. 61.

(٥) دويسر، إسحق، دراسات فى المسألة اليهودية (ترجمة مصطفى الحسينى ١٧٢) دار الحقيقة بيروت: ١٩٧١، ص ٧٨.

سر ذلك التداخل والخلط بينه وبين مصطلح الشباب. فرغم اتساع ذلك التعبير ليضم شيوخاً وكهولا إلى جانب الشباب والأطفال، إلا أن الطبيعة التاريخية لتكوين المجتمع الإسرائيلى قد أدت إلى أن تصبح النسبة الغالبة حاليا بين هؤلاء من الشبان والأطفال. وإن كان استمرار تلك الغلبة أمر مرهون بحجم الهجرات المتوقع وفودها إلى إسرائيل مستقبلا. وفى ضوء ذلك الفهم وحده يمكن أن ندرك دلالة قول فريدمان «أن حوالى ثلث سكان إسرائيل حاليا قد ولدوا على التراب الفلسطينى (كذا) «ثم قوله أثر ذلك مباشرة» أن غالبية السابرا من صغار السن» (1).

والتسليم بصحة تلك العبارة لايعنى بالضرورة أن ـ عكسها صحيح كذلك، أى أنه لايعنى أن غالبية صغار السن فى إسرائيل هم ممن ولدوا على التراب الفلسطينى أو بعبارة أخرى ينتمون لما يسمى جيل السابرا.

ولندع الآن مؤقتا قضية الغالبية والأقلية هذه، فيكفينا أن نستخلص أن «جيل السابرا» يضم بين صفوفه شيوخا وكهولاً، كما أن أطفال وشباب إسرائيل يضمون بين صفوفهم من لاينتمون لذلك الجيل وبالتالى فإن للكتاب الإسرائيليين ولغيرهم أيضا أن يتحدثوا تحت عنوان السابرا عن شباب إسرائيلى ولكن ليس لهم مجال أن يتحدثوا تحت ذلك العنوان عن الشباب الإسرائيلى.

ترى هل غابت كل تلك البديهيات الأولية عمن تصدوا للحديث عن السابرا باعتبارهم الشباب الإسرائيلى؟ إن الاحصاءات الديموجرافية الإسرائيلية حين تتعرض لتصنيف سكان إسرائيل تهتم

1. Friedman, G. op. cit. P. 117.

ـــ ضمن ما تهتم به ـــ بتصنيفهم وفقا لمحال ميلادهم. وليس ثمة بأس أو غرابة فى ذلك، فالإحصاءات الديموجرافية الخاصة بالتجمعات السكانية فى العالم أجمع تكاد لاتخلو من تصنيف ينحو ذلك النحو.

ولكن الأمر فيما يتعلق بإسرائيل يتخذ طابعا أخطر من مجرد الوقوف عند حد التصنيف. إن اسرائيل ـــ مجتمعا ودولة وفكراً ـــ قامت على الاستيطان ومن هنا فإن تصنيف سكانها وفقا لمحال ميلادهم لايعنى مجرد إحصاء ديموجرافى فحسب يقتصر الاهتمام به على المختصين أو المهتمين بعلم السكان، ويقتصر تأثيره على حدود ذلك العلم وما يتصل به من تطبيقات تتعلق بالتخطيط السكانى أو ما إلى ذلك.

إن محل ميلاد المستوطن الإسرائيلى لا يعنى مجرد «مكان» إنه يعنى كذلك ـــ بل قبل ذلك ـــ «تاريخاً» بكل ما تحمله كلمة التاريخ من أبعاد نفسية واجتماعية وحضارية (١). وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للمستوطن الإسرائيلى المهاجر، فإنه ليس كذلك على الاطلاق بالنسبة للمواطن المولود فى إسرائيل لاسره مهاجره من الشرق أو من الغرب. محل الميلاد فى تلك الاخيره لايمثل سوى «المكان» فحسب»، وليس «التاريخ» بحال من الاحوال. ولابد لنا من التميز بدقة بين دلاله بيان «محل الميلاد» فى الحالة الأولى ودلاله ذلك البيان فى الحالة الثانية إنه الفارق بين «المكان» و«التاريخ».

وإذا جاز للديموجرافيين الإسرائيليين التغاضى عن ذلك التميز بحكم تخصصهم الذى يهتم فى المقام الأول بالمكان والارقام. فإن إقدام علماء النفس والاجتماع على مثل ذلك الموقف يخرج بالأمر عن نطاق

---

(١) قدرى حفنى (تجسيد الوهم)، مرجع سابق، ص٧٣ ـــ ٧٦.

التغاضى المبرر المفهوم ليصبح تجاهلا متعسفا، وخلطاً يثير التساؤل، وإن لم يكن مستعصياً على الفهم.

إن مشكلة تعدد الأصول الحضارية للسكان تعد من أبرز المشكلات التى تواجه إسرائيل. وتتمثل تلك المشكلة فى حقيقة أن سكان إسرائيل يحملون تواريخا حضارية واجتماعية ونفسية تتعدد بتعدد مجتمعاتهم الاصلية. ولقد بذلت إسرائيل ــ دولة وفكراً ــ ومازالت تبذل جهوداً عديده وفى اتجاهات شتى لصهر سكانها جميعا على اختلاف أصولهم فى بوتقة واحدة تكفل لهم تكوينا سيكلوجيا موحداً.

وكان طبيعياً أن يتوقع علماء الانسانيات من الإسرائيليين أو من المهتمين بإسرائيل أن تؤتى تلك الجهود ثمارها متمثلة فى أجيال يهودية شابة، تولد على أرض فلسطين، ويتجسد فيها ذلك التكوين السيكلوجى الموحد المرتقب. وليس ثمة مايحول ــ من الناحية النظرية الخالصة ــ دون تحقق مثل ذلك التوقع إذا ماتوافرت له الشروط الموضوعية اللازمة لتوحيد أو تنميط عملية التنشئة الاجتماعية كمقدمة لما يمكن أن يترتب على ذلك من تقارب فى القيم والعادات والتقاليد والمشاعر مما يؤدى إلى تشكيل التكوين السيكلوجى الموحد.

الأمر بذلك التصور لايتطلب مجرد أن يتوالد جيل أو جيلين أو حتى أجيال ثلاثة أو أربعة كما يرى البعض [١، ٢]. على قطعة أرض واحده ليتحقق ذلك الاندماج تلقائيا، بل إن الأمر لأعقد من ذلك بكثير. مرة أخرى فإن القضية ليست قضية «المكان الجغرافى الواحد» بل إنها اساسا قضية «التاريخ القومى الواحد» والتاريخ القومى لايتشكل فى

---

1. Bettelhein, B. op. cit. p. 299.
2. Shaham, Nathan La Seconde Generation, Esprit, 34, Innes. No. 352, Sept. 1966. PP. 200 - 206.

أجيال معدودات . بل إن مضى الزمن مهما طال لايمثل فى حد ذاته إلا واحداً فحسب من العوامل المساعده على ذلك التشكيل . وإن كان ذلك لاينفى أن إمكانية تشكله على المدى الزمنى البعيد ، ومع توافر الشروط اللازمة تظل قائمة دائما .

ولم تكن مشكلة تعدد الاصول الحضارية فى إسرائيل بالمشكلة التى تحتمل التأجيل أو مجرد الصبر لقرون ولاحتى لاجيال . أنها لم تكن مجرد مشكلة اكاديمية أو منهجية أو حتى مشكلة تطبيق عابر يواجهها علماء الانسانيات فى إسرائيل ويتخذون فيها قرارهم وفقا لما تقتضيه أصول المنهج العلمى والمقتضيات الموضوعية للتطبيق فحسب . إنها مشكلة موقف سياسى ملح ، بل إنها مشكلة ترسيخ كيان إسرائيل الاجتماعى ووجودها السياسى فى المقام الأول .

لقد قام « مجتمع » إسرائيل على حجه مؤداها أن ليهود العالم تاريخا قومياً موحداً ، ولا ينقصهم سوى المكان الواحد . ولكن ما أن انهالت موجات المهاجرين اليهود من شتى أنحاء العالم على إسرائيل حتى اهتزت تلك الحجه من الاساس ، ولم يجد القائمون على الدولة فى إسرائيل من رجال العلم والسياسة على حد سواء مناصا من التسليم بأن مشكلة تعدد الاصول الحضارية أو مايعرف بمشكلة الاختلافات العرقية من أهم المشكلات التى تواجه الكيان الاسرائيلى ، وإن صهر تلك الاصول العرقية المتباينه يعد من أولى المهام التى تواجه القائمين على ذلك الكيان .

ولم يكن الأمر فى حاجه إلى تخصص دقيق فى العلوم الانسانية ليتضح للجميع أن عملية صهر المستوطنين الإسرائيليين أى أولئك الذين هاجروا إلى إسرائيل من شتى بقاع الأرض ليس بالعملية السهلة . بل

ليس بالعملية الممكنة على الاطلاق. لم يكن مستطاعاً بجال صهر مهاجر بولندى وآخر يمنى، وثالث ايطالى فى بوتقه واحده توحد من تكويناتهم السيكلوجية المتباينة. قد يكون ممكنا، وذلك هو ما حدث بالفعل بدرجات متفاوتة خلق نوع من التعاون والتماسك الموقفى بين هؤلاء جميعاً. ولكن ذلك أمر —حتى لو تحقق— يختلف كلية عن توحيد تكويناتهم السيكلوجية، والاجتماعية.

لم يكن بد أذن أمام المفكرين الإسرائيليين من اصطناع مفهوم جديدة للوحده القومية بين سكان إسرائيل من اليهود بعد أن تحطمت فكره وحده التاريخ القومى لليهود ببروز الصراعات الحضارية بين سكان إسرائيل واستحالة تحقيق الدمج الحضارى المنشود بين أفواج المهاجرين المستوطنين وتمثل ذلك المفهوم فى شعارات مثل «ثقافة السابرا» .... «الخصائص النفسية لجيل السابرا» ... «الاتجاهات الاجتماعية لجيل السابرا» ... «موقف السابرا من التاريخ اليهودى» ... «رأى السابرا فى محاكمة ايخمان» ... إلى آخر تلك الشعارات والعبارات التى قد تتعدد أشكالها ومضامينها أيضاً ويظل ما يربط بينها جميعاً -وهو مايعنينا فى هذا الصدد— إنها تقوم على التسليم بأن ثمة كتله واحده من الافراد المتجانسين حضاريا واجتماعيا وسيكلوجيا قد تكونت فى إسرائيل بالفعل.

كتله منسجمه لها مواقفها وآرائها وخصائصها واتجاهاتها. كتله موحده من المواطنين الإسرائيليين تحل محل الفرق المتنافرة من المستوطنين الإسرائيليين التى استعصت على التوحيد. كتله يمكن من خلال تأكيد وجودها وتجانسها تدعيم مفهوم جديد عن الهوية الإسرائيلية الموحده بعد إن أتت حجج العلوم الانسانية وحقائق الواقع الإسرائيلى نفسه على

مفهوم وحده التاريخ القومى اليهودى والتكوين السيكلوجى لليهود بعامه .

وقد تختلف الاراء حول خصائص أو عادات أو طباع ذلك الجيل المزعوم ولا بأس من ذلك الخلاف على ما يستهدفه الفكر الإسرائيلى من إبراز لمفهوم « السابرا » لا بأس من أن يرى البعض أن جيل السابرا أقرب إلى السواء (١ ، ٢) وأن يراه البعض الآخر اقرب إلى الاضطراب (٣) . لا بأس أن يرى البعض فى ذلك الجيل حلا لمشكلات إسرائيل وبشيرا باستقرارها (٤) . وأن يلمح البعض الآخر إلى أن بروز ذلك الجيل نذير بصدام بين « الإسرائيليه » و« اليهودية » بشكل أو بآخر (٥،٦،٧) لا بأس فى تلك الاختلافات جميعا على الاهداف البعيدة لاصطناع مفهوم السابرا طالما أن الجميع يسلمون رغم اختلافاتهم بأن ثمة كيان متجانس سيكلوجيا واجتماعيا وحضاريا بدرجة تسمح بأن تطلق عليه تسمية واحده تشمل أفراده جميعا هى « السابرا » .

بل لعل تلك الاختلافات والمجادلات المنصبه على التفصيلات قد نجحت بشكل غير مباشر فى تدعيم المفهوم وترسيخه بأن شدت المناقشات بعيداً عن التعرض لمشروعية إطلاق ذلك المصطلح إبتداء فى مجال الحديث عن التكوين السيكلوجى الاجتماعى الحضارى .

---

1. Rabin, Albert I. Kibbutz adolescent, American Journal of Orthopsychiatry, 31(3), 1961, PP. 493-504.
2. Bettelheim, B. op. cit. Passim.
3. Spiro, M. Children of the kibbutz, Schocken Books, New York 1965 Passim.
4. Alport, E.A. The integration of oriental jews in Israel, The world Today : 25(4), 1967, PP. 153-160.
5. Russcol, Herbert & Margait Banai : The First Million Sabras, Dodd, Mead & Comp., New York : 1970 Passim.
6. Spiro, M. The Sabras and Zionism, op. cit.
7. Bettelheim, B. op. cit.

سيكلوجية الشباب الاسرائيلى

بين الوحده والتعدد

قد لا يكون ثمه خلاف حول مشروعيه إستخدام مصطلح السابرا فى المجال الديموجرافى، أو بالتحديد فى مجال الاحصاءات السكانية للدلاله على أولئك الذين ولـــدوا على أرض فلسطين من اليهود بصرف النظر عن الاصول التى انحدروا منها تقاربت أو تباعدت، وبصرف النظر عن الظروف التى نشأوا فيها تشابهت أو تنافرت. على أى حال فإن الاستطراد فى هذا المجال أمر قد يخرج بنا كثيراً عن حدود بحثنا الحالى. إن السؤال الذى يواجهنا هو: هل يشكل أولئك الذين ينطبق عليهم مصطلح السابرا ديموجرافياً فئة متجانسة من حيث التكوين السيكلوجى. ؟

لابد لنا من وقفه أولاً أمام ما نعنيه بالتحديد من تعبير « التكوين السيكلوجى الموحد ». وقد سبق لنا فى بحث آخر التعرض بتفصيل واف للديناميات التى تشكل مثل ذلك التكوين(١) ويمكننا أن نوجز أهم ما فصلناه فى فكره واحده مؤداها أن التكوين السيكلوجى للفرد ــ أو طابع شخصيته ــ إنما يتشكل من خلال عمليه التنشئه الاجتماعية ــ وبالتالى فإن مدى وحده أو تشابه التكوينات السيكلوجية لتجمع سكانى معين إنما يتحدد وفقا لمدى وحدة أو تشابه

---

(١) قدرى حفنى، المرجع السابق، صفحات من ٤٦ - ٥٨ ومن ٧٣ - ٧٦.

عمليات التنشئة الاجتماعية التى يتعرض لها أفراد ذلك التجمع ... بعبارة أخرى، فإن ما يجمع بين أصحاب التكوين السيكلوجى الموحد هو تاريخهم الاجتماعى المتمثل فى تشابه عمليات التنشئة الاجتماعية التى تعرضوا لها.

نستطيع إذن أن نعيد صياغة السؤال الذى طرحناه فى بداية نقاشنا: هل ثمة قدر من التشابه فى عمليات التنشئة الاجتماعية التى تعرض لها مواليد إسرائيل من اليهود يتيح لنا أن نتصور لهم جميعا تكوينا سيكلوجيا موحداً؟ إن الإجابه على ذلك السؤال تقتضينا التسليم إبتداء بتماثل عمليات التنشئه الاجتماعية التى تعرض لها شاب يهودى ولد فى إسرائيل لأسره ألمانية مهاجره مع تلك العمليات التى تعرض لها شاب يهودى آخر ولد فى إسرائيل أيضا لأسره نزحت من جنوب افريقيا مع تلك التى تعرض لها شاب ثالث ولد فى إسرائيل كذلك لأسره يمنيه مهاجره. بل إن الأمر يقتضينا حتما أن نسلم كذلك بأن تلك العمليات جميعا تتشابه بدورها مع نظيرتها التى تعرض لها شاب يهودى ينحدر من أسره يهودية لم تبرح مكانها قط.

ترى هل يمكن التسليم بكل ذلك؟ لانظن أن أحداً مهما بلغ تعصبه للتجربه الإسرائيلية يمكن أن يصل إلى هذا الحد وإلا لما كان ثمة مبرر على الإطلاق لكل تلك الجهود التى تبذلها إسرائيل على كافة المستويات لحل مشكلة تعدد الأصول العرقية لسكانها، بل لما كان ثمة مبرر أصلا لاطلاق تسمية السابرا على الشباب الإسرائيلى رغم ما يشوب ذلك من قصور وتناقض.

إن أقصى ما يمكن التسليم به فى هذا الصدد هو أن العامل الموضوعى المميز الوحيد الذى يجمع بين هؤلاء السابرا جميعا وعلى قدم

المساواه، والذى يميزهم فى الوقت نفسه عن غيرهم من يهود إسرائيل إنما يتمثل فى مجال ميلادهم. أى فى أنهم ولدوا وتربوا على أرض فلسطين.

إذن فليس ثمة ما يميز «السابرا» تمييزاً جامعاً مانعاً سوى العامل الجغرافى دون سواه. أما دون ذلك من العوامل فهى إما عوامل لا تستطيع لهم جمعا كعامل التنشئة الاجتماعية التى تتعدد صورها بينهم بتعدد أصولهم الحضارية. وأما عوامل لا تستطيع لغيرهم منعاً كعوامل الشعور بالخطر أو بالاضطهاد أو بالتمايز التى لا يقتصر تأثيرها عليهم وحدهم بل يشمل معهم الإسرائيليين جميعا[1].

وقد يردد البعض. وما الضير فى ذلك؟ فليكن ما يجمع بين السابرا هو العامل الجغرافى أو عامل المكان. ألا تترك الطبيعة الجغرافية بصماتها على التكوين السيكلوجى للبشر؟ أليس صحيحاً إن «طبيعة» أهل الصحارى تختلف عن «طبيعة» أهل الوديان الزراعية؟.. واضح إن مثل تلك التساؤلات إنما تستند إلى حصيلة متراكمة من المشاهدات والملاحظات المباشرة. فقد يكون صحيحاً علميا أن لأهل الصحارى من الخصائص السيكلوجية ما يميزهم عن أهل الوديان الزراعية، ولكن السؤال هو: هل يرجع ذلك التمايز أساساً إلى إختلاف الطبيعة الجغرافية أم إلى غير ذلك من العوامل؟ بعباره أخرى هل ترجع الخصائص السيكلوجية التى قد تميز أهالى الصحارى فعلا إلى شىء ما يكمن فى التكوينات المادية لبيئتهم الجغرافية من رمال وجبال وحراره وعواصف وما إلى ذلك؟ أم أن تمايزهم السيكلوجى إنما يرجع أساساً

(١) قدرى حفنى، المرجع السابق.

إلى إختلاف عمليات التنشئة الاجتماعية التى يتعرضون لها عن تلك التى يتعرض لها غيرهم ؟

إن جان برويك استاذ الجغرافيا بجامعة مينوسوتا والرئيس السابق للجميعية الجغرافية الأمريكية يتعرض لمثل ذلك الموضوع فى مقاله المعنون «الطابع القومى فى ضوء الجغرافيا» الحضارية مفنداً فكرة آن الطبيعة الجغرافية تترك بصماتها على شخصيات البشر المحتكين بها مؤكداً إن علاقة الجغرافيا بالطابع القومى إنما تتمثل فيما يتركه البشر من بصمات على بيئتهم الجغرافية [1] بعبارة أخرى فإن تأثير البشر على البيئة الجغرافية كما يتضح فى مدى تمكنهم من تغيير معالم البيئة قد يعكس طابعهم القومى أو خصائصهم الاساسية وليس العكس بمعنى أن العوامل الجغرافية ليست بمجال من العوامل المحدده للطابع القومى للبشر. ومن هنا فإن لنا أن نؤكد بدورنا أن وحده العامل الجغرافى الذى قد يميز السابرا ديموجرافيا لايمكن أن يؤدى فى حد ذاته إلى أى تشابه فى تكوينهم السيكلوجى.

ترى كيف لنا إذن أن نفسر وجود ذلك الركام الهائل من الكتابات والبحوث والافكار التى تسلم إبتداء بوجود السابرا ككيان متجانس سيكلوجيا وسيسولوجيا، ثم نمضى فى الحديث عن خصائص ذلك الكيان وتقييم تلك الخصائص؟ هل تلك الكتابات جميعاً، بكل ما تتضمنه من إحصاءات وجداول ــ رياضية، واختبارات نفسية ومقارنات بين «السابرا» وغيرهم داخل إسرائيل، وبين السابرا وأقرانهم خارج إسرائيل هل كلها محض افتراء؟ إذا صح ذلك بالنسبة

---

1. Brock, Jan O.M. National Character in the perspective of Cultural Geography, The Annals of the American Academy of Political and Social Science. Vol. 370 March 1967, pp. 8-15.

للأفكار النظرية المجرده فهل يصح كذلك بالنسبة لتلك الأفكار المستخلصة من بحوث ميدانية عملية؟ هل كل هؤلاء العلماء المتخصصين فى علوم النفس والانتروبولوجيا والاجتماع والسياسة من الإسرائيليين وغير الإسرائيليين ومن المتعاطفين مع السابرا والناقدين لهم هل هم جميعا بين مخدوع ومخادع؟ ثم ألا يعتبر إقدامنا على التعامل مع تعبير السابرا بعد كل ذلك وقوعاً منا فى اسار تلك المخادعة؟

قد يبدو منطقيا إذن أن نلقى بكل شىء فى اليم فرحين، نافضين أيدينا من كل ما كتب عن وحده التكوين السيكلوجى للسابرا بقضه وقضيضه، محاولين أن نبحث لأنفسنا عن مدخل جديد يمكننا من دراسة تلك التكوينات السيكلوجية المتعددة التى ينقسم إليها الشباب الإسرائيلى. غير إن ذلك الموقف فيما نرى ليس من الصواب فى شىء، لاعتبارات عديده أهمها:

أولا: إنه رغم التسليم بعدم مشروعية إستخدام مصطلح السابرا للتعبير عن التكوين السيكلوجى للشباب الإسرائيلى بعامة، فإن إقدام ذلك العدد الكبير من علماء الإنسانيات الإسرائيليين وغير الإسرائيليين على إستخدامه وجمع بياناتهم الميدانية على أساسه يفرض علينا مبدئيا التصدى لدحض مغالطتهم أو لكشف أخطائهم، وهو مالا يمكن أن يتحقق بصوره مرضيه دون إمعان النظر فى كتاباتهم.

ثانيا: إن البحوث السيكلوجية والانتروبولوجية والاجتماعية التى أجريت فى ذلك المجال قد أجريت بالفعل على شباب يعيش فى إسرائيل. صحيح إن من قاموا بتلك البحوث قد أطلقوا على من أجروا عليهم دراساتهم تعبير السابرا، وصحيح كذلك

أن غالبية من قاموا بتلك البحوث قد اعتبروا أن السابرا هم الشباب الإسرائيلى. ولاجدال فى أن ثمة مغالطه فى إطلاق التعبير وثمة تعسف فى تعميم النتائج. ولكن ذلك كله لاينفى حقيقة أنه وإن كانت نتائج تلك البحوث لاتعبر عن الشباب الإسرائيلى إلا أنها تعبر على أى حال عن شباب إسرائيلى. وبالتالى لايمكن لمن يتصدى لدراسة الكل أن يسقط من حسابه تلك الدراسات التى تمت بالفعل لجزء من أجزاء ذلك الكل مهما كان موقعه.

ثالثا: إن نتائج تلك البحوث التى أجريت تحت عنوان السابرا على شباب إسرائيلى تشير إلى أن ثمة تركيب سيكلوجى متجانس يميز أولئك الذين أجريت عليهم البحوث. بمعنى إن تلك النتائج تشير ـ بدرجة أو بأخرى ـ إلى وجود خصائص نفسية محدده ومتجانسة تميز قطاعا من قطاعات الشباب الإسرئيلى وبصرف النظر عن التسمية التى أطلقها أصحاب البحوث على أفراد ذلك القطاع. وبصرف النظر أيضاً عن تعسفهم فى تعميم نتائجهم، فإن علينا إبراز حدود ذلك القطاع من الشباب الإسرائيلى ومناقشة خصائصه النفسية كما تشير إليها نتائج البحوث، ثم علينا قبل ذلك كله تفسير إختيار ذلك القطاع بالتحديد بإعتباره النموذج الممثل للشباب الإسرائيلى لدى أولئك الباحثين. وتلك كلها أمور لايمكن أن تتأتى إلا بتناول تلك البحوث تناولاً متأنيا موضوعياً.

يقول مورتون روبين فى عرضه لكتاب روفائيل باتاى «**إسرائيل بين الشرق والغرب**» موجها خطابه إلى علماء الإنسانيات الإسرائيليين وذلك

عام ١٩٥٤ «إن إسرائيل توشك أن تتمزق إلى جماعات عرقية ودينية وسياسية شتى، والأمر موكول إلى المتخصصين فى العلوم الاجتماعية ليتكاتفوا في بذل جهودهم»

ويبدو لنا أن اصطناع تعبير السابرا، أو بالأحرى الانطلاق بذلك التعبير من مجال الاستخدام الدراج إلى مجال العلوم الانسانية كان نتاجاً لتكاتف أولئك الذين توجه إليهم مورتون بخطابه لتلافى تمزق المجتمع الإسرائيلى.

إن إستخدام تعبير السابرا فى مجال العلوم الإنسانية بعامة، وعلم النفس، على الوجه الخصوص، كان فيما نرى لتحقيق هدف سياسى. وبالتالى فإن فهم دلالة تعبر السابرا فى ذلك المجال يقتضى أن نسلم بأنه تعبر سياسى وليس تعبيراً سيكلوجياً، ونعنى بأنه تعبير سياسى إنه يكتسب دلالته من خلال الأهداف السياسية الإسرائيلية وتتحدد إستخداماته بل وتتغير ضيقا وإتساعاً ــ وفقا لما تمليه تلك الأهداف. وعلى أى حال فإن ذلك ليس بالأمر المستغرب، بل ولا القاصر على تعبير السابرا وحده فى إسرائيل. ولنأخذ كمثال تعبيراً إسرائيلياً سوف تتضح علاقته الوثيقة بموضوع بحثنا فيما بعد وهو تعبير السفارديم، وهم أساساً يهود البلقان والشرق الأدنى فى مقابل الاشكنازيم وهم يهود غرب ووسط وشرق أوروبا.

إن روث بوندى وهى صحفية إسرائيلية الجنسية يهودية الديانة تشيكوسلوفاكية المولد تقول فى كتابها الإسرئيليون: صوره شعب فى معرض حديثها عن تعبير السفارديم «إن مصطلح السفارديم كثيراً ما يتسع أو يضيق وفقا لما تتطلبه الظروف. فرغم إن اليهودى الإيطالى الذى يعمل أستاذاً للفيزياء قد يعتبر سفارديا من حيث المذهب الدينى

إلا أنه لايعتبر سفارديا على الاطلاق من الناحية الاجتماعية حتى إن الأم الاشكنازية ــ رغم تعصبها ــ قد لا تعترض على قبوله كزوج لابنتها باعتباره (واحد منا). ومن ناحية أخرى فقد يتسع معنى المفهوم ليشمل كل من ليس اشكنازيا، بما في ذلك كل يهودى قادم من آسيا وشمال **إفريقيا*** حيث يطلق على هؤلاء أيضاً، إستمراراً في مجافاه المنطق ــ **تعبير** الفرانكيون رغم إن أسلافهم لم يروا مطلقا فرانكونيا تلك المنسوب إليها ذلك الاسم الذى تحول مع الزمن إلى سبة (1).

كذلك الحال فيما نرى فيما يتعلق بتعبير السابرا بحيث يمكن أن يتسع إذا أقتضى الأمر ليشمل كافة أولئك اليهود الذين ولدوا على التراب الفلسطينى، ويمكن أيضا أن يضيق ليقتصر على شريحة بالغه الدقة من أولئك اليهود ــ وقد يجمع باحث واحد بين تلك الامكانات المتناقضه جميعا في بحث واحد كما هو الحال بالفعل بالنسبة لكثير من البحوث السيكلوجية التى أجريت في هذا المجال، حيث يبدأ الباحث بحثه باستخدام واسع الشمول لتعبير السابرا وكأنهم الشباب الإسرائيلى جميعاً، ثم يركز تناوله الميدانى بعد ذلك على قطاع محدود من الشباب الإسرائيلى، ثم يعود في النهاية ليعمم من نتائجه معتبراً من جديد إن السابرا هم الشباب الإسرائيلى جميعاً.

وما يعنينا في ذلك الخضم من الضيق والاتساع في استخدامات تعبير السابرا هو التعرف على هويه المنتمين لذلك القطاع من الشباب

(*) المفروض أن يندرج هؤلاء تحت فئة متميزة هى «اليهود الشرقيين» وليس السفارديم رغم أن الترجمات العربية كثيراً ما تخلط بين الفئتين بترجمة السفارديم إلى اليهود الشرقيون.

1. Bondy, Ruth The Israelis: Profile of a people (Translated from the Hebrew by: Israel 1. Taslitt), Funk & Wagalls (Sabra books), New York: 1969, p. 39.

الإسرائيلى الذى يستأثر عمليا دون غيره من القطاعات بالجانب الأكبر من جهد علماء الانسانيات المهتمين بذلك المجال.

من هم أولئك السابرا ذوى التكوين السيكلوجى الموحد بحكم نتائج البحوث السيكلوجية والانتروبولوچية فى هذا المجال؟ إن تحديد الهويه الاجتماعية فى مجتمع كإسرائيل إنما يعنى فى المقام الأول تحديد الأصل العرقى الذى ينتمى إليه الفرد. وبالتالى فليكن سؤالنا: إلى أى الأصول العرقيه ينتمى هؤلاء السابرا؟ أو بتحديد أكثر: شباب أى الأصول العرقية فى إسرائيل يشكل السابرا؟.

فى عام ١٩٧٠ نشر هربرت روسكول، وزوجته مارحاليت باناى ــ وهما من مواطنى إسرائيل ــ كتابا سبق أن أشرنا إليه بعنوان «المليون الأول من السابرا»: صوره للإسرائيليين مولداً ووطنا. ويكفى ذلك العنوان الفرعى الذى أختاراه للكتاب للدلاله على نظرتها للسابرا باعتبارهم مواليد إسرائيل بعامة ولقد شملت تلك النظره صفحات الكتاب جميعاً التى أكد فيها المؤلفان أن السابرا هم الإسرائيليون الصغار من ابناء وبنات المهاجرين من كافة بقاع الأرض، وإنهم أصبحوا يمثلون الغالبية بين سكان إسرائيل اليوم بل وإنهم قد طبعوا إسرائيل بطابعهم. ورغم ذلك فإن فكره واحده وردت ــ عرضا ومرت دون تعقيب كفيله بأن تهدم من الأساس تلك المسلمه التى قام عليها الكتاب عنوانا وموضوعا. ففى معرض الحديث عما يثير قلق السابرا فى إسرائيل يورد المؤلفان العديد من الموضوعات المثيره لذلك القلق. موضوعات سياسية واقتصادية شتى «... يشعر السابرا بالقلق تجاه موضوعات عديده تشغلهم المساعدات الروسية للعرب، وارتفاع ضرائب الدخل كنتيجة مباشرة لمحاولات العرب المتكررة القضاء عليهم،

ويشغلهم كذلك التضخم النقدى، وعدم الاستقرار الاقتصادى، وإرتفاع قيمة خلو الرجل»، ثم يضيف المؤلفان بعد ذلك مباشرة «كما يشغلهم ــ ولكن بدرجه أقل ــ إرتفاع معدل مواليد اليهود الشرقيين الذى يبلغ ثلاث أضعاف نظيره لدى اليهود القادمين من الغرب مما سوف يجعل فى إسرائيل شعبا متخلفا داكن البشرة» ([1]).

«السابرا» إذن ــ رغم كل محاولات روسكول وزوجته وباعترافهما أيضا ينزعجون لارتفاع معدل مواليد اليهود الشرقيين. ولو سلمنا مع روسكول وزوجته بأن السابرا هم أولئك الإسرائيليون مولداً وموطناً، لكان علينا أن نقنع أنفسنا بأن زيادة عدد السابرا يزعج السابرا أنفسهم. أليس مواليد اليهود الشرقيون أيضا إسرائيليون مولداً ومواطنا؟ أم أن هناك صنفين من السابرا يتربصان ببعضهما الدوائر؟ أم أن أولئك اليهود الشرقيون بتخلفهم وبشرتهم الداكنة لاعلاقة لهم بالسابرا؟.

إن جورج مايكس يلقى مزيداً من الضوء على هذه القضية فى كتابه «عزم النبى: إسرائيل اليوم وغداً». يقول مايكس فى معرض حديثه عن السابرا «لقد غيرت كلمة السابرا من معناها مرتين. كانت تطلق فى الأصل على ثمرة حلوه صغيره شائكه، ثم أصبحت تعنى الشباب المولود فى اسرائيل. لقد كان السابرا منذ عشرين عاماً شيئاً نادراً بين أصحاب ذلك البلد من المهاجرين. أما اليوم فإن ما يزيد عن نصف السكان مولودون بالفعل فى إسرائيل. ومن ثم فقد غيرت الكلمة معناها مرة أخرى... إن الاطفال الستة والسبعة الذين أنجبتهم أسره مغربية مثلا، والذين ولدوا بالفعل فى إسرائيل، ولكنهم تربوا

---

1. Russcol, H. Op. Cit. P. 9.

فى ظل التقاليد الشرقية البالية مثل هؤلاء الأطفال بعيدون عن السابرا بعد موشى ديان عن القرآن »(١).

ترى هل صحيح أن كلمة السابرا قد غيرت معناها للمره الثالثة ؟ لا نظن. لقد كانت السابرا ــ وفقا لعبارة مايكس ــ تعنى الشباب المولود فى إسرائيل. كان ذلك منذ عشرين عاماً ولايقدم لنا مايكس تفسيراً لتغيير مدلول السابرا للمره الثالثة سوى بزيادة عدد اليهود المولودين فى إسرائيل، وهو تفسير لايبدو مقنعا على الاطلاق. لقد كان السابرا منذ عشرين عاماً هم الابناء اليهود المولودين فى إسرائيل والذى تغير فى إسرائيل أساساً خلال تلك الحقبه ليس هؤلاء الابناء عدداً أو طبيعة بل إن الذى تغير هو الآباء. ولقد وفدت على إسرائيل خلال تلك الحقبة أعداد هائلة من الآباء الجدد الذين هاجروا من أوطان عديده لينجبوا ابنائهم على التراب الفلسطينى ولينشئوهم على عاداتهم وتقاليدهم وليربوهم «فى ظل التقاليد الشرقية الباليه» وفقا لقول مايكس. التنشئة الاجتماعية إذن كانت ومازالت هى الاساس فى التفرقة بين السابرا وغيرهم، كل ما حدث إن الخصائص التى كانت تجمع بين غالبية المولودين فى إسرائيل منذ عشرين عاماً ـ أى منذ عشية قيام الدولة الإسرائيلية لم تعد صالحه للجمع بين هؤلاء وأولئك الذين ولدوا فيها بعد ذلك، لأسباب لا تتعلق بالعدد كما أنها لا تتعلق بالمكان بل هى مرة أخرى اسباب تاريخية.

مرة أخرى: من هم هؤلاء السابرا؟ يقول جورج فريدمان فى كتابه أهى نهاية الشعب اليهودى «أعتقد أن ثمة ثقافة فرعية هى ثقافة

---

1. Mikes : George The Prophet motive : Iarael Today and Tomorrow, Andre Dautsch Ltd. London : 1969, p. 153.

السابرا قد إتخذت لها مكانه راسخة فى إسرائيل حيث يمكن التميز بالفعل بين عدد من مثل تلك الثقافات الفرعية : ثقافة الفاتيكم ذات الاساس الراسخ والتى أندمج فيها كافة المهاجرين القدامى ، وأغلبهم من الاشكنازيم الذين يحتلون مراكز المسئولية فى كافة قطاعات الحياة الإسرائيلية ، ثم هناك ثقافة الكيبوتزيم ، وثقافة الموشافيم القدامى التى تشكلت قبل موجات الهجرة الكثيفة التى شهدتها الخمسينات» ثم يضيف فريدمان بعد ذلك مباشرة «هناك أخيراً ثقافة جيل السابرا الجديد ، وهم ابناء الفاتيكيم الذين لم يبلغوا الثلاثين»[1] . السابرا إذن وفقا لعبارة فريدمان هم ابناء الفاتيكيم الذين هم أساساً من الاشكنازيم الذين يحتلون مراكز المسئولية فى كافة قطاعات الحياة الإسرائيلية .

خلاصة القول إذن أن السابرا ليسوا مواليد إسرائيل بعامة . وليسوا أيضاً الشباب اليهودى المولودين فى إسرائيل جميعاً . وهم بالتحديد ليسوا شباب السفارديم ولا شباب اليهود الشرقيين . إنهم من الشباب اليهودى الإسرائيلى اصحاب الحضاره الأرقى والمكانة الأرفع والبشرة البيضاء إنهم ابناء الصفوة الإسرائيلية وهم بالتالى صفوة ابناء إسرائيل . إن السابرا فى النهاية ليسوا سوى ابناء الاشكنازيم .

ترى إلى أى حد يتفق ذلك التحديد الذى توصلنا إليه لتعبير السابرا مع ماتشير إليه البحوث التى أجريت فى مجال العلوم الانسانية فى ذلك الصدد ؟ ينبغى أن نسلم إبتداء بأن عدداً من تلك البحوث والكتابات لايتفق مع ذلك التحديد ، بل ينحو اصحابها إلى تناول الشباب الإسرائيلى من الناحية السيكلوجية والاجتماعية باعتباره

---

1. Friedman, G. Op. Cit. p. 121.

ـ كالشباب فى أى مجتمع آخر ـ كيانا منسجما بمعنى أن مايجمع بين أفراده ككل أكثر مما يفرق بينهم . أو بعبارة أخرى أن أوجه الشبه بين أفراده تفوق أوجه الخلاف .

إن بنيامين وولمان فى دراسته المنشورة فى مجله الدراسات الاجتماعية اليهودية عام ١٩٤٩ والتى أجريت قبل قيام الدولة الإسرائيلية وعنوانها « التطور الاجتماعى لإسرائيل : الشباب » يخلص إلى تأكيد أن الشباب الإسرائيلى قد تحقق له ـ قبل قيام الدولة ـ الاندماج والكيان المنسجم سيكلوجيا واجتماعيا (١) . والذى يستوقف النظر حقاً إن ذلك الذى خلص إليه وولمان كما تقول به الدراسة ـ لم يكن محض استنتاج نظرى بل كان نتاجا لدراسة ميدانية إستغرقت ثلاثة أعوام من ١٩٤٣م ـ ١٩٤٧م . واستمدت بياناتها من أربعة آلاف شاب وفتاة تتروح أعمارهم بين الثانية عشرة حتى العشرين . فضلا عن أن اساليب البحث التى استخدمت فى الدراسة قد تعددت لتشمل المقابلات الشخصية وتحليل المذكرات اليومية الخاصة ، والاستبيانات ، إلى جانب الملاحظات . فلنسلم إبتداءاً بأن العينه الكبيرة من الأفراد الذين شملهم البحث تمثل حقاً الشباب الإسرائيلى آنذاك أو أنها تمثل غالبيته على الاصح . هل فى مقدرونا إذن أن نعمم من نتائج تلك الدراسة لتشمل الشباب الإسرائيلى اليوم مع التزايد المطرد فى نسبه ابناء اليهود الشرقيين واليهود السفارديم فى إسرائيل ؟ الحقيقة ـ فيما نرى ـ أن النتيجة التى توصل إليها وولمان صحيحه تماماً فى اطارها الزمنى . بل إنها لتؤكد ما نذهب إليه من وجود كيان منسجم سيكلوجياً واجتماعيا للسابرا باعتبارهم ابناء الاشكنازيم أما

1. Wolman, Benjamin. The Social Development of youth. Psychological Abstracts, 1950, No. 5759.

ابناء السفارديم فهم خارج تلك الدراسة حتما لأنهم ببساطة لم تكن لهم آنذاك نسبة يعتد بها بين قاطنى إسرائيل من اليهود.

وإذا كان لبحث وولمان وجاهته ومبرراته فى إطاره التاريخى فإن بحثا أجراه حاييم اورميان يفتقد للكثير من ذلك كله. وحاييم اورميان من قدامى المتخصصين فى علم النفس فى الجامعة العبرية ويكان يكون من أبرز علماء النفس الإسرائيليين الذين أمدوا مجله الملخصات السيكلوجية فى الخمسينات بالكثير من الملخصات الانجليزية للبحوث السيكلوجية التى نشرت أصلاً بالعبرية. وقد نشر اورميان عام ١٩٥٠م أى قبل أن يمضى أكثر من عامين على قيام الدولة الإسرائيلية مقالاً بعنوان «اتجاه طلبة المدارس الثانوية فى إسرائيل نحو مندل * قام فيه برصد إتجاه عينه من طلاب المدارس الثانوية فى إسرائيل تجاه أعمال مندل خالصاً من رصده إلى أن الشباب فى إسرائيل لديهم عامة إتجاه إيجابى نحو القصص التى تصف القرية اليهودية فى شرقى اوروبا وخاصة نحو أعمال مندل، نظراً لما تتضمنه من قيم يهودية هامه وأيضاً لمهارة مندل فى تصورير الحياة اليهودية، وكذلك كاستجابة انفعالية للكارثة الأخيرة * *. ولكن نمط الحياة الذى يصفه مندل كان أحياناً مثيراً لاتجاه رافض ومتناقض وجدانيا (١).

ولنا على بحث اورميان ملاحظتين :ـــ

(*) مندل موشير سيفوريم.
(١٨٢٥ ـ ١٩١٧) اسمه الحقيقى سولومون رابينوفيتش وهو من أبرز الشخصيات فى الأدب اليهودى الحديث، وقد أشتهر بقصصه الواقعية التى تدور حول حياة اليهود فى الجيتو خاصة فى قرى شرقى أوروبا.

(**) لعله يعنى بذلك العسف النازى الذى شهدته أوروبا آنذاك.

1. Ormian, H. The attitude of Israel High-school students towards mendele, Psychological Abstracts, 1950, no. 7391.

أولا: إنه اعتبر نتائج بحثه معبره عن اتجاهات الشباب الإسرائيلى بعامة وهو أمر لا يمكن التسليم به منطقيا لأسباب ثلاثة مرتبطة بعضها بالبعض.

(١): إن فترة الخمسينات أى فترة إجراء البحث قد شهدت تدفق أعداد كبيره من المهاجرين إلى إسرائيل من بلدان الشرق.

(٢): إن أبناء هؤلاء المهاجرين من الشرق إلى إسرائيل لم يكونوا ليمثلوا نسبه يعتد بها بين طلاب المدارس الثانوية الإسرائيلية آنذاك لانخفاض مستوياتهم التعليمية عن أقرانهم من ابناء الحضارة الغربية.

(٣): إنه إذا كان منطقيا أن يتعاطف آنذاك ابناء الحضاره الغربية -أى ابناء الاشكنازيم- مع ما يتصل بالحياة اليهودية فى قرى شرقى أوروبا -مهد حضارتهم- فإنه ليس منطقياً على الاطلاق أن نسلم بوجود مثل ذلك التعاطف لدى اليهود الشرقيين والسفارديم الذين لا تربطهم أية روابط تاريخية ولا عاطفية مع تلك الحياة.

خلاصة القول أن بحث اورميان ينصب فيما نرى على اتجاهات ابناء الاشكنازيم فى إسرائيل آنذاك.

ثانيا: أنه حتى فى نطاق اتجاهات السابرا —أى ابناء الاشكنازيم —نحو أعمال مندل بالتحديد، فإن تلك الاتجاهات قد تغيرت تماما فيما بعد— ويكفى أن نشير إلى ما أورده سبيرو فى هذا الصدد وهو بمعرض حديثه عن اتجاهات السابرا نحو الأدب اليهودى حيث ينقل تعليقاً كثر تردده بينهم على أعمال مندل

يصفها بأنها «لا تثير اهتماماً لدينا»([1])، وإنهم يعتبرون مندل كاتبا «مثيرا للضيق... لأنه يكتب عن تلك الاحياء الضيقة المليئة بالخرافات»([2]) وأن قراءة مندل تعد لديهم بمثابة «الخبرة التى تثير قدراً هائلاً من الفزع والضيق» ([3]).

ويتفق ذلك الموقف المتضارب من تعريف السابرا مع ما يقول به ملفورد سبيرو، فى مقال له نشر عام ١٩٥٧ ــ تحت عنوان «السابرا والصهيونية : دراسة فى الشخصية والايديولوجية». ويتعرض سبيرو فى هذا المقال لدراسة شباب أحد الكيبوتزات فى إسرائيل واصفاً إياهم فى مستهل مقاله بأنهم «مجموعة خاصة من السابرا» باعتبار أن مصطلح السابرا يشير عامة إلى أى يهودى ولد فى إسرائيل ويمضى سبيرو فى بحثه ويزداد موقف تلك «المجموعة الخاصة من السابرا» حيال بقية السابرا وضوحاً. إنهم يتخذون من اليهود الشرقيين هدفا يصبون عليه ازدراءهم وكراهيتهم.

وعاده مايطلق على الطلبه الشرقيين فى المدرسة الثانوية تعبير «السود» ويكونون عرضه لكثير من الاهانات والمضايقات والسباب.. بل إن بعض الطلبه يرفضون الجلوس على نفس المائدة مع أولئك اليهود الشرقيين الذين يعملون فى الكيبوتز. إن احدى فتيات الكيبوتز تقول صراحة «عندما جلس أحدهم ــ أى أحد هؤلاء الشرقيين ــ بجوارى على المائدة وقفت وانصرفت. إن الجلوس معهم على نفس المائدة يشعرنى بالغثيان. كما أن أحد الراشدين من الذين يطلق عليهم سبيرو

1. Spiro, M.E. Children of the kibbutz. Op. Cit. P. 395.
2. Spiro, M.E. Op. Cit. pp. 455-456.
3. Spiro, M.E. Ibid, P. 357.

تعبير [illegible] [illegible] شاعره حيال أولئك الشرقيين بقوله : « لقد كانت [illegible] هذه [illegible] على خير مايرام حتى جاء هؤلاء السود » (١) .

ولا يجد سبيرو مايفسر به ظاهرة الرفض العنيف هذه، فيكتفى بأن يقرر أن تفسير تلك المشاعر العنيفة التى تميز كراهية الشرقيين ليس بالأمر البسيط . إن تلك المشاعر فى حاجة إلى تفسير أكثر تركيبا (٢) . إن حيرة سبيرو إنما ترجع إلى خطأ منطلقه النظرى الأول. فقد اعتبر منذ البداية أو أولئك الذين تناولتهم دراسته ليسوا سوى « مجموعة من السابرا » أى أنهم جزء من كيان متجانس أكبر يضم « أى يهودى ولد فى إسرائيل » .. وبالتالى فقد كان حتما، أن تنتابه تلك الحيرة وهو يرى ماتشير إليه نتائجه من أن ذلك « الجزء » يرفض رفضاً قاطعاً وعنيفاً تقبل بقية أجزاء الكل، أى أنه يرفض الانتماء إلى ذلك الكل الذى أفترض سبيرو منذ البداية انه ينتمى إليه . ولم يكن الأمر يتطلب مثل تلك الحيرة على الاطلاق لو عدل سبيرو من منطلقه النظرى الأول مدركاً أن أولئك الذين يدرسهم ليسوا « مجموعة خاصة من السابرا » بل إنهم -على الأقل- مجموعتان احداهما من السابرا والآخرين لا تربطهم بالسابرا سوى الكراهية والعداء .

ويتفق ذلك الاتجاه أيضاً مع ما يقول به دايتريخ جولد شميدت فى مقاله المنشور عام ١٩٦٢ تحت عنوان « إسرائيل والعالم الثالث » حيث يتحدث عن موقف من اسماهم ــ دون تمييز ــ الأجيال الشابة الإسرائيلية ــ حيال الفصل بين الدولة والمجتمع والدين (٣) .

1. Spiro, M.E. The Sabra and Zionism, op. cit.
2. Ibid.
1. Goldschmidt, Dietrich Israel and the modern world, social Compass, 9 (3) 1962, pp. 215-220.

ويتفق ذلك أيضاً مع موقف تاموستوشيبوتانى وكيان كوان فى كتابهما الصادر عام ١٩٦٥ والمعنون «التدريج العرقى» حيث يعرفا السابرا بأنهم ابناء المهاجرين اليهود بعامة، وإنهم «يطورون ثقافة جديدة مختلفة تماماً عن ثقافة آبائهم[1].

أما شيجيير وزوجته، وهما من رجال التعليم الإسرائيليين فقد نشرا عام ١٩٦٨ مقالاً بعنوان «الاتجاهات نحو الاطفال العجزة فى مجتمع إسرائيل ذو الثقافات المتعددة» وتقوم مادة المقال على بحث أجرى على (١٣٣٣) من الفتيان والفتيات فى إسرائيل ممن تتراوح أعمارهم بين عشر سنوات واحدى عشر سنة، بهدف التعرف على اتجاههم نحو أنواع العجز البدنى والحركة التى تصيب الاطفال. وقد تم تقسيمهم وفقا لعدد من العوامل مثل: الأصل العرقى، والجنس، والمكانة الاجتماعية والاقتصادية، ومجال الإقامة، ومدى التمسك الاورثوذكى بالدين، وذلك بهدف تبين أن تلك العوامل أكثر تأثيراً فى تحديد اتجاهات هؤلاء الاطفال. واتضح من النتائج وفقا لما يقرره المقال ـــ أن العامل الوحيد ذو التأثير الجوهرى فى تحديد تلك الاتجاهات كان عامل المكانة الاقتصادية الاجتماعية دون بقية العوامل[2].

ويمكننا أن نتبين للوهله الأولى أن المقال يتجاهل حقيقة يتميز بها المجتمع الإسرائيلى، وهى أن التقسيم وفقا للمكانة الاجتماعية والاقتصادية يرتبط إرتباطاً وثيقاً بالتقسيم وفقاً للأصول العرقية حيث يمثل الاشكنازيم قمة الهرم الاقتصادى والاجتماعى ومن ثم فليس من

1. Shibutani J. Tamatsu & Kian M. Kwan-Ethnic stratificaxion, MaCmillan, 1955, P. 122.

2. Chigler, K. & Mirian Chigler Attitudes to disability of children in the multi-cultural society of Israel, Journal of health and social behavior 9 (4), 1968, pp. 310-317.

المتصور منطقياً أن [illegible] عامل الاقتصادى الاجتماعى دون العامل العرقى مثل ذلك التأثير الجوهرى فى تمايز الاتجاهات. خاصة وإن المؤلفين يسلمان كما هو واضح من عنوان المقال بأن إسرائيل «مجتمع متعدد الثقافات».

لقد ذكر شيجير وزوجته فى مقالهما أنهما قاما ببحثهما المشار إليه بهدف إعادة فحص النتائج التى توصل إليها العالم الأمريكى ريتشاردسون ونشرها مع زملاء له عام ١٩٦١ فى مقال بعنوان «التماثل الثقافى فى الموقف حيال العجز البدنى» ولو نظرنا إلى بحث ريتشاردسون لوجدناه يلتزم بنفس المنهج ونفس التقييم للعينه وفقا لعوامل الجنس والمكانة الاجتماعية الاقتصادية، والاصول العرقية، ومحل الاقامة... إلخ إلا أن بحث ريتشاردسون لم يسفر عن مثل ذلك التأثير الغالب لعامل المكانة الاجتماعية الاقتصادية ولالغيره من العوامل على الاتجاهات حيال العجز البدنى ويعلق ريتشاردسون وزملاءه على نتائج بحثهم بقولهم «إن قدراً كافياً من الدلائل فى ثقافتنا يشير إلى أن ثمة مايحط من شأن أولئك الأشخاص الذين يعانون من عجز بدنى» وينتشر مثل ذلك التقييم عامة فى وسائل الاتصال الجماهيرى.. (١).

الموقف من العجز البدنى ينطلق إذن من ذلك الجانب من التكوين السيكلوجى الذى يشترك فيه ابناء ثقافة معينه على مختلف أصولهم ومكاناتهم ومحال إقامتهم إلى آخره... إنه بعباره أخرى نتاج لما يعرف بالطابع القومى للشخصية وبالتالى فليس ثمة تفسير لما خلص إليه البحث الإسرائيلى المشار إليه من وجود تأثير جوهرى لعامل المكانة

1. Richardson, S.A. et. al. Cultural uniformity in reaction to physical disabilities, American Sociology 26, 1961, pp. 241-247.

الاقتصادية الاجتماعية فى ذلك المجال سوى أن ذلك العامل فى المجتمع الإسرائيلى إنما يخفى وراءه عاملاً أكثر خطراً وأشد تأثيراً هو عامل التمايز العرقى. اللهم إلا إذا ظن أحد أن الصراع الاقتصادى والاجتماعى فى إسرائيل أكثر حدة وبالتالى أشد تأثيراً على التكوينات السيكلوجية للأفراد عنه فى الولايات المتحدة الامريكية.

كانت تلك نماذج لكتابات حرص أصحابها على عدم التفرقة بين السابرا والشباب الإسرائيلى إما بالاشارة صراحة أو ضمنا إلى عدم وجود مثل [illegible] التفرقة، وإما بعدم الاشارة أصلا إلى تعبير السابرا وتناول الشباب [illegible] ائيلى ككل باعتباره كيانا سيكولوجيا منسجماً. ولكن ذلك [illegible] ب على بقية الكتابات جميعاً. صحيح أنه ليس ثمة تفرقة [illegible] بين تعبيرى السابرا والشباب الإسرائيلى لدى من تناولوا ذلك الموضوع سواء من الإسرائيليين أو من غيرهم. إلا أن مثل تلك التفرقة يمكن أن نتبينها ضمنا فى ثنايا العديد من البحوث.

لقد نشر باكاليار ــ آلون عام ١٩٤٩ مقالاً بالعبرية بعنوان «حول الخصائص الانفعالية والعقلية للشباب اليمنى» تناول فيه بالفحص النفسى ٢٣٧ من الفتيان والفتيات من اليهود اليمنيين الهاربين من الدراسة فى مدارس تل أبيب ممن تتراوح أعمارهم بين ١٣، ١٥ سنة بهدف مقارنتهم باقرانهم من غير اليمنيين من حيث مستوى الذكاء. والقدرة على التحصيل الدراسى، وكذلك من حيث تفضيلاتهم للمناهج الدراسية (١)... وليس لاحد أن يخطىء دلاله تعبير «الشباب اليمنى»

---

1. Bakaliar - Alon Sh. About the emotional and intellectual features of the Yemenite youth, Psychological Abstracts, 1953, No. 1898.

الذى يشير ضمنيا إلى أن ثمة شباب ألمانى وشباب عراقى وشباب إيطالى هم فى النهاية الشباب الإسرائيلى. وذلك فضلا عن تأكيد باكاليار ـ الون فى عرضه لنتائجه على أن تخلف هؤلاء الشباب اليمنيين فى الذكاء والتحصيل الدراسى إنما يرجع لأسباب وصفها بأنها أسباب تاريخية وليست عرقية.

أما العالم الأمريكى رونالد ماركمان فإنه يتخذ فى هذا الصدد موقفا أكثر وضوحا وحسما. وإن لم يستخدم ـ تعبير السابرا على الاطلاق فى مقاله المنشور عام ١٩٦٦ تحت عنوان «جناح الأحداث فى إسرائيل» يقول ماركمان فى مستهل مقاله إن المهاجرين الذين تدفقوا على إسرائيل منذ قيامها فى ١٤ مايو عام ١٩٤٨ قد نزحوا اليها من بيئات شتى تتراوح بين المستويات شديدة البدائية والمستويات شديدة التحضر. ورغم اشتراك هؤلاء جميعاً فى التراث اليهودى، فإن هناك فجوه ثقافية ملحوظة تفصل بين اليهودى الأوربى واليهودى الأفريقى ثم يحدد ماركمان لبحثه هدفين هما :ـ

(١) إستعراض ماطرأ على معدلات الجناح فى إسرائيل من ارتفاع أثر موجات الهجرة مباشرة.

(٢) رصد الدور الذى تلعبه الأصول العرقية فى تطوير ذلك الجناح. وأهم ما يعنينا حاليا من نتائج دراسة ماركمان هو تقريرة بوضوح «إنه بتحليل الحجم العددى لليهود المولودين فى إسرائيل وفقا لتعداد ١٩٦١، وكذلك الحجم العددى لمن ادينوا قضائيا من الأحداث وفقا لذلك التعداد، اتضح أن نسبة الأطفال الجانحين المنحدرين من أسلاف أفرو اسيويين تبلغ ١٨,٧ فى الالف فى حين تبلغ تلك النسبة بين أولئك المنحدرين من أسلاف أوروبين أمريكين ٢ فى الألف..

أى أن أكثر من ثلاثة أرباع المذنبين قضائيا خلال عام ١٩٦١ من الأطفال المولودين فى إسرائيل ينتمون إلى ربع التجمع السكانى أى إلى المجموعة الافرو آسيوية (١)

خلاصة القول إذن إن الشباب اليهودى المتحدر من أصول أفرو أسيويه أكثر جناحاً من غيره فى إسرائيل، وذلك بصرف النظر عن محل مولده، أى سواء ولد فى إسرائيل وتربى فيها أو ولد فى موطنه الاصلى وهاجر إليها. ثمة فروق إذن فى التكوين السيكلوجى بين المنحدرين من مختلف الأصول العرقية لاتسمح بالتسليم بأن ثمة شباب إسرائيلى يمثل كيانا سيكلوجياً منسجماً.

وإذا كانت نتائج بحث ماركمان تشير إلى أن الشباب فى إسرائيل يتمايزون فى مجال الجناح وفقا لاصولهم الحضارية، فإن هافاهس فى بحث لها نشر بالعبرية عام ١٩٦٥ تحت عنوان «نتائج لدراسة مسحيه لتلاميذ الصف الثامن بالمدارس الخاصة» تخلص إلى نتيجة مشابهة وإن كانت فى مجال التحصيل الدراسى حيث قامت باختبار ٨٥٣ تلميذاً من تلاميذ الصف الثامن بالمدارس الخاصة فى إسرائيل مقارنة بين مستوى التحصيل المدرسى وعدد من المتغيرات مثل الجنس والسن وموقع المدرسه والوطن الأم.. إلى آخره. وقد وجدت هافاهس أن ثمة علاقة جوهرية بين مستوى التحصيل والوطن الأم (٢):

وتتفق تلك النتيجة مع ماتوصل إليه ج. ب هس المسئول عن العيادة الخارجية للأمراض العقلية فى كوبات عوليم بالقدس فى مقاله

---

1. Markman R.A. Juvenile delinquency in Israel, Américan Journal of Psychiatry 123 (4), 1966, pp. 463-469.

2. Huss, Hava Results of a survey on 8th grade pupils in special schools, Psychological Abstracts, 1967, No. 798.

المنشور بالعبرية عام ١٩٦٧ تحت عنوان «مشكلات المراهقة من وجهة نظر العلاج العقلى» فقد خلص هس بعد فحصه لالفى حاله من المترددين على العيادة إلى أن ثمة دلائل كثيرة تشير إلى إزدياد معدلات التخلف العقلى لدى أولئك الذين ينتمون لأصول شرقية (١).

لقد طرح ايزنشتادت منذ زمن مبكر فى مقاله المعنون «الشباب والثقافة والبناء الاجتماعى فى إسرائيل» فكرة نرى أنها مازالت جديره بالمناقشة حتى بعد أن مضى على طرحها عشرون عاماً أو مايزيد. يقول ايزنشتادت، وهو فى معرض حديثه عن ثقافة الشباب فى إسرائيل: إن إتخاذ ثقافة الشباب من الحركات الشبابية القانونية شكلا معبراً عنها أو بالمقابل اتخاذها من السلوك المنحرف كالجناح وسيلة لمثل ذلك التعبير، أمر يتوقف على الاتجاهات القيمية المشتركة للبناء الاجتماعى الذى تنبثق منه ثقافة الشباب (٢).

ترى هل أجابت أحداث عشرون عاماً فى إسرائيل على تساؤل ايزنشتادت؟ لقد أجابت بالفعل، ومنذ وقت بعيد وكانت اجابتها إبراز أن مايسمى بالشباب الإسرائيلى قد اتبع ــ ولم يكن أمامه إلا أن يتبع كلا الطريقين معاً: الحركات الشبابية القانونية والجناح. ذلك لأن ثمة شبابين فى إسرائيل: شباب الاشكنازيم، وشباب غير الاشكنازيم.

---

1. Hess, J.P. Problems of adolescence from the point of view of psychiatric clinic, Psychological Abstracts, 1968, No. 3997.

2. Eisenstadt, S.N. Routh, Culture, and social structure in Israel, British Journal of sociology Vol. 2, 1951, pp. 105-114.

الفصل الثانى

السابرا وتكوينهم السيكلوجى

(١) علامات على الطريق
(٢) الانطوائيـــة
(٣) الشعور بالدونية
(٤) التشاؤم والشك
(٥) العدوانيـــة

علامات على الطريق

خلصنا من حديثنا فى الفصل السابق إلى أن ثمة سيكلوجيتان ــعلى الأقلــ يمكن أن يندرج تحتها الشباب فى إسرائيل: واحدة تضم أولئك الشباب الذين ينتمون لأصول سفارديه بغض النظر عما إذا كانوا قد ولدوا بالفعل على أرض فلسطين أو هاجروا إليها مؤخراً. والثانية تضم أولئك الشباب الذين ينتمون لأصول اشكنازيه دون النظر أيضا إلى مكان مولدهم الفعلى. وواضح أن اغفالنا لمسألة مكان المولد قد انبنى على تسليمنا الذى فصلناه فيما سبق بأن قضية التكوين السيكلوجى هى فى الأساس قضية تاريخ وليست بقضية مكان.

ولسوف يتركز حديثنا فى هذا الفصل على التكوين السيكلوجى لتلك المجموعة من الشباب اليهودى الذين يعيشون على أرض فلسطين، وينتمون لاصول غربية أعنى شباب الاشكنازيم واختيارنا لتلك المجموعة بالذات دون غيرها لايعنى على الاطلاق أى إغفال لأهمية دراسة التكوين السيكلوجى لشباب السفارديم فى إسرائيل. فمثل ذلك التكوين خليق دون شك بدراسة منفصله ومفصله، غير أن لاختيارنا المقصود اسبابا أهمها:ــ

(أ): أن تلك المجموعة الاشكنازيه من الشباب الإسرائيلى هى التى ينطبق عليها بالتحديد تعبير السابرا فى الاستخدام اليومى لرجل

التشارع في إسرائيل في حين أن السفارديم، وفقا لذلك الاستخدام يقعون خارج نطاق ذلك المصطلح.

ولا يقلل من أهمية تلك الحقيقة ما يذهب إليه بعض المتخصصين في الانسانيات من الإسرائيليين وغير الإسرائيليين من استخدام لمفهوم السابرا بحيث يغطى الشباب الإسرائيلي ككل وعلى حد سواء. فمثل ذلك الاستخدام له من الاغراض السياسية ماسبق أن تناولناه بالتفصيل فيما سبق.

(ب): إن السابرا ـ وفقا لفهمنا لذلك التعبير ـ هم الأقرب إلى تصور السلطه الإسرائيلية لما ينبغى أن يكون عليه الشباب في إسرائيل. وليس ذلك. على أى حال ـ بالأمر المستغرب، فهؤلاء السابرا ليسوا في النهاية سوى الابناء الشرعيين لأصحاب السلطه الحقيقية في إسرائيل، أعنى الاشكنازيم، ولعل ذلك هو مايفسر لنا ذلك الحرص الغريب على تركيز الضوء على تجربة الكيبوتز باعتبارها البوتقة المأموله لصهر هؤلاء الشباب في المقام الأول ثم لتقديم النموذج لغيرهم بعد ذلك (١).

(جـ): إن هؤلاء السابرا يمثلون ولسنوات قادمة إحتياطى السلطة الإسرائيلية بمعنى أنه إذا كان للاشكنازيين التأثير الأكبر على صنع القرار السياسى في إسرائيل اليوم، فإنهم حريصون على أن يستمر لهم ذلك التأثير في المستقبل من خلال إمتدادهم الحضارى والسياسى والسيكلوجى كما يتمثل في ابنائهم أى في السابرا.

---

(١) قدرى حفنى، تجسيد الوهم، مرجع سابق، ص ١٨٩، ٢٠١.

(د) : إن أولئك السابرا يمثلون الجانب الغالب ـ عدداً وتأثيراً ـ من بين العسكريين الإسرائيليين الذين يواجهوننا بالفعل ـ ومن هنا تكتسب دراسة الاشكنازيم بالنسبة لنا أهمية خاصة تبرر احتلالها للاسبقية الأولى. فلكبارهم اليد الطولى فى اتخاذ القرار السياسى والعسكرى فى قمة الحكم فى إسرائيل، ولشبابهم اليد الطولى أيضاً فى اتخاذ القرارات التنفيذية العملية فى الممارسة اليومية فى كافة مناحى الحياة فى إسرائيل وفى مقدمتها الناحية العسكرية.

حديثنا إذن سوف ينصب على السابرا وحدهم، أى على شباب الاشكنازيم محاولين التوصل قدر ما نستطيع إلى القسمات الرئيسية التى تميز التكوين السيكلوجى لهؤلاء الشباب. ونود أن نؤكد مرة أخرى أن التكوين السيكلوجى ليس سوى النتاج البعيد لعديد من العوامل الاقتصادية والتاريخية والاجتماعية ونكتفى هنا بتلك الإشارة الموجزه دون أن نتعرض لتلك العوامل العديده التى أسهمت فى تشكيل التكوين السيكلوجى الراهن للسابرا، فقد سبق أن تعرضنا لها بقدر من التفصيل فى بحث آخر[1] ولنركز حديثنا مباشرة على تلك القسمات المميزة للتكوين السيكلوجى للسابرا.

· تعد قضية دراسة التكوين السيكلوجى عن بعد قضية شائكة حقا، وإذا ضربنا صفحا عن الصعوبات المنهجية التى تكتنف مثل ذلك النوع من الدراسات بعامة فإن دراستنا للتكوين السيكلوجى للسابرا يكتنفها عدد من الصعوبات العملية أهمها :ـ

---

(١) قدرى حفنى، تجسيد الوهم، مرجع سابق.

(١) : أن الدراسات التى تعرضت للموضوع تغطى فترة زمنية طويلة تبدأ على أثر قيام الدولة الإسرائيلية مباشرة ويمتد حتى اليوم. ورغم مايضيفه طول تلك الفترة من ثراء فيما يتعلق بالماده التى تتيحها البحوث التى أجريت خلالها، فإنه يتطلب حرصاً شديداً فى تناول نتائج تلك البحوث فاصطناع الصهاينة للمجتمع الإسرائيلى الحديث فى فلسطين عملية قد اتسمت بسرعة وتعدد التغيرات التى صاحبتها خاصة بعد قيام الدولة وبالتالى فإن ماقد يبدو من إختلاف أو تناقض بين نتائج بعض تلك البحوث المتتالية قد يرجع إلى تغير الظروف الموضوعية المتفاعلة فى المجتمع الإسرائيلى، وإلى مايترتب على ذلك من تغير لخصائص العينات الممثلة لذلك المجتمع.

ولما كان ذلك مجرد إحتمال لايمكن إقامة الدليل على تأثيره فى نتائج بحوث بعينها إلا بتثبيت مسبق لعديد من العوامل المحدده لتلك النتائج وهو أمر مستحيل قطعا، فإن تفسير إختلاف نتائج البحوث المتشابهة التى أجريت على فترات زمنية متباعده يظل خاضعا لمدى شمول المعرفة المتاحة للباحث خارج النطاق الضيق المتخصص فى علم النفس. وكل ذلك هو فى النهاية صعوبة إضافية تفرضها طبيعة الموضوع.

(٢) : لو استطعنا بوسيلة أو بأخرى تجاوز الصعوبة السابقة فإن صعوبة جديدة تواجهنا على الفور. فثمة تناقض قد يبدو فى نتائج عدد من البحوث التى أجريت فى نفس الوقت أو فى أوقات متقاربة بما لا يسمح بإرجاع ذلك التناقض إلى أن ثمة تغير قد حدث فى المجتمع الأصلى موضع البحث

بمعنى أن البحوث المتآنية قد تسفر عن اتصاف السابرا بصفات قد تبدو للوهلة الأولى وكأن لاعلاقة بينها، بل حتى وكأنها متناقضة. صفتان كالانطوائية والعدوان مثلا، أو كاللامبالاه والقلق قد تبدو للوهله الأولى ــ أو للعين غير المدربه ــ كما لو كانتا صفتين على طرفى نقيض ويصبح على الباحث حيال ذلك أن يعود أولا منقبا فى تفاصيل كل بحث على حده باحثا عن تفسير ذلك التباين فى خطوات البحث نفسه.

فإذا ما أطمأن إلى اتساق وسلامة تلك الخطوات من الناحية المنهجية كان عليه أن يلجأ إلى التراث السيكلوجى بعامة محاولاً العثور على بغيته فيه. وهى فى النهاية صعوبة إضافية ثانية تفرضها طبيعة الموضوع.

(٣) : صعوبة ثالثة تفرضها أيضا طبيعة الموضوع وتتمثل فيما يمكن أن نطلق عليه تغاير معانى المصطلحات فعلم النفس علم حديث إلى حد ما وحداثته تلك قد شجعت وتشجع الكثيرين من علماء النفس والعاملين فى مجاله على الاجتراء على اصطناع المصطلحات المناسبة لما يودون فى قوله أو جتى على استخدام المصطلحات السائدة استخدامات جديدة مختلفة.

ويستطيع المرء إذا ما كان بصدد دراسة مفرده متأنية تتم عن قرب أن يضع من التعريفات الإجرائية ما يضمن تفسيراً محدداً لمصطلحاته. أما إذا كان الباحث حيال ركام هائل من البحوث التى أجرها عديد من الباحثين. فإن الاطمئنان إلى أن ما يعنيه ذلك الباحث بهذا المصطلح هو عين ما يعنيه باحث آخر بنفس المصطلح ليس بالأمر الميسور، بل أنه ليتطلب من الباحث أولاً أن يوفر لنفسه القدر الأكبر من وضوح التصور

النظرى لموضوع بحثه ولفروضه الأولية بحيث يمكنه على ضوء ذلك الوضوح أن يتبين طريقة.

(٤) : ولو استطعنا أن نتجاوز تلك الصعوبات السابقة منتهين إلى عدد من القسمات الرئيسية نراها تميز التكوين السيكلوجى للسابرا فقد يواجهنا إعتراض مؤداه : وما أدرانا أن الصفات التى تنتهى تلك البحوث إلى أنها تميز سيكلوجية السابرا هى صفاتهم حقا؟ أليس ثمة إحتمال أن نكون بشكل أو بآخر ضحية تحيزات إسرائيلية أو يهودية تحدد مسار تلك البحوث بل وتفرض نتائجها أيضاً؟.

ولا يكفى فى هذا المقام أن نركن إلى الاستبعاد المنطقى لمثل ذلك الاحتمال البعيد، بل لابد إلى جانبه من محك موضوعى يمكن أن نطمئن إليه. وليس من محك متاح لنا سوى مقارنة نتائج الدراسات المختلفة بعضها ببعض وهى دراسات شتى قام بها باحثون متعددون، ومن جنسيات مختلفة مستخدمين اساليبا شتى، وبالتالى فإن ما يتوافر من اتفاق بين نتائج تلك البحوث يمكن أن يعد محكا جيداً لصدق تلك النتائج على الأقل فى حدود اتفاقها مع بعضها البعض.

(٥) : تأتى بعد ذلك صعوبة عرض المادة المتاحة. البحوث عديده، والنتائج شتى، والاساليب المتبعة فى البحث متعددة. ويصبح الباحث والحال كذلك حيال منزلقين يتهددان وضوح عرضه بل ومفهوميته أيضاً. ويتمثل المنزلق الأول فى أن ينجذب الباحث نحو عرض أكبر قدر ممكن من التفصيلات تتضمنها البحوث التى اتيحت له، مشدوداً بما قد تتضمنه تلك التفصيلات من

جدة وتشويق، مهملاً وضع إطار نظرى يضم نتائج تلك البحوث جميعاً. ويصبح القارىء آنذاك حيال شذارات مفتتة من المعلومات لايستطيع لها جمعا. معلومات قد تكون شيقة، وقد تكون جديدة، وقد تكون صحيحه أيضا، ولكنها فى النهاية ونظراً لتفرقها لاتضيف شيئاً ذا بال لمعرفة القارىء بموضوع البحث.

أما المنزلق الثانى فيتمثل فى أن تخوف الباحث تخوفاً مبالغا فيه من الاغراق فى التفاصيل قد يؤدى به إلى أن يكتفى بالإشارة من بعيد إلى تفاصيل البحوث التى يتعرض لها بحيث يقتصر عرضه فى النهاية على مجرد فروض واستخلاصات نظرية قد لاينقصها التشويق فحسب، بل والمعنى أيضا، ومن هنا فإن وضع خطة لعرض المادة المتاحة بحيث يتجنب بها الباحث هذين المنزلقين يمثل صعوبة عملية إضافية ينبغى الإحاطة بها، والتنبه إليها، والسعى إلى تجاوزها.

(٦): إن الحديث عن الخصائص السيكلوجية المميزة للسابرا هو فى جوهره حديث فى العلم، وفى علم النفس بالتحديد وليس مجال حديثاً فى الأخلاق. والفرق كبير شاسع. العلم يبدأ بما هو كائن بالفعل، وله بعد ذلك أن ينطلق إلى المستقبل ماشاء. أما الاخلاقيات فهى تبدأ أولاً بما ينبغى أن يكون ثم لها بعد ذلك أن تعود إلى ما هو كائن مصدرة أحكامها عليه. ولذلك فإنه إذا كانت وظيفة الأخلاق هى إصدار الاحكام القيمية فإن وظيفة العلم ليست من ذلك فى شيء. وقد لايكون لمثل ذلك التحديد ضرورة بمثل ماله فى مجال علم

النفس وهو العلم الذى مازال لصيقا فى أذهان الكثيرين بالأحكام الأخلاقية، أى بما يجب ومالا يجب أما و إن موضوع بحثنا هو الإسرائيليون فإن ذلك التحديد يصبح حتما لا مفر منه وإلا فقدت نتائجنا أى معنى وأية دلاله فتراثنا الفكرى ملىء بالاحكام العرقية المطلقة على الإسرائيليين وأخشى ما نخشاه أن توضع نتائج دراستنا هذه فى اطار تلك الأحكام الأخلاقية.

بمعنى أن تصبح حكما أخلاقيا جديداً على الإسرائيليين وتأكيداً لأحكام أخلاقية سابقة تصمهم بالسوء والنداله وما إلى ذلك. وذلك بصرف النظر عن صحة أو خطأ تلك الأحكام من الناحية الواقعية.

ورب من يسائلنا هنا: ترى وما الفرق إذن؟ ما الفرق بين «البخل» كحكم قيمى أخلاقى وبين «البخل» كخاصية سلوكية، أليس البخل واحداً فى الحالتين؟ والفرق فيما نرى ليس مجرد تباين فى مبررات إطلاق الصفة فى الحالتين، أو الاساليب التى اتبعت فى التوصل إليها، بل إن الفرق يكمن أساسا فى تغير النتيجة العملية المترتبة على إطلاق الصفة المعينة كالبخل مثلا من موقع الحكم الأخلاقى واطلاقها من موقف الوصف السلوكى العلمى. والحكم الاخلاقى حكم مطلق لا يعرف النسبية، فالبخل صفة ذميمة، وليس علينا ــ بل ليس لنا ــ بعد ذلك أن نبحث فى كيف تكونت، ولماذا ومتى وبأى مقدار، وفى أية ظروف. وبذلك يصبح البخل كحكم أخلاقى نهاية لطريق المعرفة. نهاية يطمئن إليها مصدر الحكم ويمضى مردداً لها، متمسكاً بها، محاولاً تفسير سلوك البخيل بأنه تعبير عنها أو محاوله فاشلة طبعا، لنفى تلك السبة عنه.

أما البخل كخاصية سلوكية فهو حكم نسبى فى أسبابه نسبى فى نتائجه أيضاً . بمعنى أنه يضع فى اعتباره ، أو فى خلفيته الفكرية على الأقل ، الظروف المحددة لبروز تلك الخاصية ولتفاوتها بين فرد وآخر وبين مجموعة وأخرى ، وبالتالى فإن البخل كخاصية سلوكية يصبح مجرد بداية لا تستعصى على المناقشة والتفنيد ، ويمكن اخضاعها دائما للبحث من جديد .

(٧) : إن الحدود بين المرض والسواء فى علم النفس حدود بالغة الدقة ، فالانطواء والعدوان والشعور بالأثم والإنبساط وما إلى ذلك ليست أمراضا نفسية بل هى مجرد خصائص أو سمات نفسية قد توجد لدى المرضى والاسوياء على حد سواء ، والفيصل فى بلوغها حد المرض النفسى أو التزامها نطاق السواء النفسى أمر قد تختلف النظريات النفسية فى تفصيلها ، وتفضيلها أيضاً لمحكاته المختلفة ، وإن كانت تكاد تتفق جميعا على أن الفرق بين المريض والسوى بالنسبة لأى من الخصائص النفسية هو فرق كمى فى منشئه ، وإن المحك العملى الوحيد للتفرقة بينها هو قدرة الفرد على التوافق مع البيئة الاجتماعية المحيطه به بمعنى أن الدرجة التى يبلغ عندها العدوان حد المرض يختلف من جماعة إلى أخرى وفقا للمعايير السلوكية السائدة داخل كل جماعة .

وبذلك المعنى بالتحديد ، فإن الخصائص النفسية التى سوف يسفر بحثنا عن أنها تميز السابرا فى إسرائيل لايمكن بحال ، ومهما كانت طبيعتها ، اعتبارها خصائص مرضيه بالمعنى العلمى

المتعارف عليه، طالما أن المجتمع الإسرائيلى لاينظر إلى هؤلاء السابرا باعتبارهم مرضى نفسيين.

قد يكون المجتمع الإسرائيلى «مريضا» بمعنى ما وهو كذلك بالفعل فى حدود معينة، إلا أن ذلك لايعنى بحال أن السابرا مرضى نفسيون، بل إنه ليعنى على العكس أنهم أسوياء تماماً فى نطاق ذلك المجتمع «المريض» طالما أنهم متوافقون معه، وطالما أنه متقبل لهم.

وخطورة عدم التنبه إلى ذلك ليست بالتأكيد مجرد خطأ علمى منهجى فحسب، بل إنها فى المقام الأول تمثل خطراً استراتيجيا إذا صح التعبير. خطراً يكمن فى أن الانطلاق من مرضية تلك الخصائص النفسية والتسليم بالتالى باعتبار السابرا مجرد مرضى نفسيين يجعل من التصدى للقضية الفلسطينية ــ فى هذا المجال على الأقل ــ أمر منوطاً فى الأساس بعلماء النفس، بل ويكاد يكون قاصراً على علمهم حيث يجب أن يلتمس المرضى النفسيون علاجهم. ويؤدى مثل ذلك الموقف من الناحية العملية إلى إهمال علوم أخرى هى فى حقيقة الأمر الأوثق صله والأكثر تأثيراً فى الموضوع كعلوم الاقتصاد والتاريخ والسياسة.

خلاصة القول إذن أن السابرا أسوياء فى مجتمعهم وإن أقصى ما تصبوا إليه دراستنا هذه هو السعى إلى فهمهم وليس بحال الدعوة إلى علاجهم.

(٨) : الشخصية الانسانية كيان مركب وليست بالكيان البسيط على الإطلاق ولذلك فكثيراً ما يحذر أساتذة علم النفس من يدرسون

عليهم من التسرع فى إصدار الحكم على شخصية فرد معين استنادًا إلى توافر أو عدم توافر خاصية سيكلوجية معينة مهما كانت أهمية تلك الخاصية من وجهة نظر الباحث بعبارة أخرى فإنه لايمكن الحكم على شخصية الفرد من خلال تقدير مهما بلغت موضوعيته ودقته لسمه أو لخاصية سيكلوجية واحدة . ومن هنا كان تأكيد المشتغلين بالقياس السيكلوجى على مفهوم البروفيل السيكلوجى أى الصورة التخطيطية التى تجمع فى اطار واحد بين التقديرات المتاحة لعدد من القدرات العقلية والانفعالية .

وإذا كان ذلك هو الحال بالنسبة لشخصية الفرد، فالقاعدة أولى بالاتباع بمزيد من التدقيق إذا ما كنا بصدد محاوله التعرف على الخصائص السيكلوجية المشتركة لدى أفراد جماعة معينة . وتزداد أهمية الالتزام بتلك القاعدة إذا ما كانت دراستنا تندرج ضمن تلك الدراسات التى تتم عن بعد .

وفضلا عن ذلك فإن التسرع فى إصدار التقييم النهائى السيكلوجى للسابرا اعتماداً على خاصية مفرده مهما كان بروزها ، ومهما كانت أهميتها إنما يؤدى بنا أيضاً إلى الوقوع فى خطأ شائع يتهدد ذلك النوع من الدراسات عن بعد . وقد سبق أن أطلقنا على ذلك الاسلوب فى دراسة سابقة تسمية «أسلوب دراسة العنصر البارز» وتعرضنا بقدر من التفصيل لمثالبه (1) .

وعلى أى حال فإنه لاينبغى قط أن يفهم من ذلك التحديد أن المطلوب هو مجرد استخلاص عدد من الخصائص السيكلوجية

---

(1) قدرى حفنى، تجسيد الوهم، مرجع سابق، ص٣٣ ــ ٣٥.

ورصدها ثم تسجيلها جنبا إلى جنب. تلك هى بداية الطريق فحسب. فبعد ذلك الرصد والتسجيل تبدأ عملية التقييم، أعنى عملية الصياغة النظرية المتكاملة التى تربط بين تلك الخصائص السيكلوجية جميعاً فى إطار نظرى متسق داخلياً وخارجياً. بمعنى أن ذلك الاطار من الناحية الداخلية ينبغى أن يتيح إمكانية استخلاص فهم موحد من تلك الخصائص جميعا. فضلا عن أنه –من الناحية الخارجية– ينبغى أن يكون متسقا قدر الإمكان مع معطيات تلك العلوم الأخرى الاكثر إتصالاً بالموضوع كالتاريخ والاقتصاد والسياسة.

الانطوائيـــة

يمكننا ببساطة أن نعتبر الكيبوتزات الإسرائيلية سواء فى ماضيها أو حاضرها وسواء فى شكلها أو مضمونها بمثابة مؤسسات شبابية اشكنازيه . فهى تتميز من ناحية بأسلوبها الفريد فى التنشئة الاجتماعية لابنائها من الميلاد حتى النضج . وهى تتميز من ناحية أخرى بأن عضويتها تكاد أن تكون قاصرة على الاشكنازيم وابنائهم ، فضلا عن أنها كفكرة قد صدرت عن مهاجرى شرق أوروبا ، أى عن الاشكنازيم ، ثم إنها كواقع عملى قائم تخضع ـــ شأنها شأن ما فى إسرائيل جميعا ـــ لتوجيه وإشراف الاشكنازيم ، وبذلك فإن الحديث عن تجربة الكيبوتزات الإسرائيلية يدخل مباشرة فى نطاق بحثنا . بل لعله بمثابة بؤره ذلك النطاق .

ويعد العالم الانثروبولوجى الأمريكى ملفورد سبيرو واحداً من أبرز الذين كتبوا عن تجربة الكيبوتزات فى إسرائيل وتكتسب كتابات سبيرو أهمية خاصة لدينا من تأثر صاحبها بعلم النفس بعامة ، وبنظريات التحليل النفسى على وجه الخصوص مما يضفى عليه قدراً من نفاذ البصيرة والجرأة على التصدى للتفسير نفتقده لدى الكثيرين . ولقد عبر سبيرو عن قدراته تلك كأوضح ما يكون التعبير فى كتابيه الكيبوتز : مغامرة فى مدينة فاضلة [1] الصادر عام ١٩٥٦م ، وأطفال

1. Spiro, M.E. Kibbutz : Venture in Utobia op. cit.

الكيبوتز([1]) الصادر عام ١٩٥٨م. وكان سبيرو يزمع أن يضم إلى كتابيه هذين كتابا ثالثا لتكتمل بذلك ثلاثيته عن الكيبوتزات فى إسرائيل. يختص أول مجلداتها بعرض المناخ الحضارى الاجتماعى السائد فى الكيبوتزات. ويختص ثانيهما بتوضيح انعكاسات عملية التنشئة الاجتماعية على نمو الشخصية فى الكيبوتزات. ويختص ثالثهما بعرض بناء ديناميات شخصية السابرا كما تكشف عنها نتائج إختبارات الروشاخ([2]). وقد صدر من تلك الثلاثية بالفعل الكتابين المشار إليهما واعتذر سبيرو عن إصدار الكتاب الثالث فى مقدمة الطبعة الجديدة لكتابه الأخير([3]).

يورد سبيرو فى كتابه الأخير ملاحظة أبدتها أحدى الامهات الإسرائيليات على سلوك السابرا الكيبوتزيين نصها: «أن الانطواء والتعالى هما أبرز خاصيتين تميزان السابرا» ويعقب سبيرو على تلك الملاحظة واصفا إياها بأنها «تكشف عن بصيرة سيكلوجية نفاذة»([4]). ويمضى واصفا سلوك السابرا بقوله: «إنهم لا يتحاشون العلاقات الانفعالية العميقة التى على نطاق ضيق فحسب، بل إنهم يجدون ميلا للتباعد السيكلوجى حيال الكثرة كذلك.. أنهم يبدون كما لو كانوا قد أحاطوا أنفسهم بقوقعة لا تمتد شخصياتهم إلى خارجها إلا فيما ندر، فضلا عن أنها تحول دون نفاذ الآخرين إلى ما تحت سطحها الخارجى([5]).

---

1. Spiro, M.E. Children of the Kibbutz, op. cit.
2. Spiro, M.E. Op. Cit. P. XX.
3. Spiro, M.E. Op. Cit. P. XVI.
4. Spiro, M.E. Op. Cit. P. 124.
4. Ibid.

وقد يبدو للوهله الأولى أن ذلك التباعد السيكلوجى قاصر على العلاقة بين المراهق ووالديه وهو فى هذه الحالة قد لايعدو كونه صورة عابرة من صور صراع الاجيال لايقتصر وجودها على السابرا ولاحتى على الإسـرائيليين بل يكاد يشترك فيها البشر جميعا . إن سبيرو يحسم تلك القضية بتأكيده «أن الخجل والاضطراب فى حضور أعضاء الكيبوتز الآخرين يعد من الخصائص المميزة لانطوائية السابرا»(١) . فضلا عن تأكيده أن ذلك التباعد السيكلوجى إنما هو خاصية تمتد جذورها إلى ماسبق أن عاناه السابرا فى الكيبوتز من خبرات تتميز بالرفض والاهمال فى طفولتهم وبالتالى فإنها خاصية ينفرد بها هؤلاء بل إنه ليقرر إمكانية التنبوء بمظاهر ذلك التباعد من خلال دراسة طبيعة عملية التنشئة فى الكيبوتزات ، ويمضى مؤكداً «... ونعتقد إن ذلك التنبؤ ينعكس فى خاصيتين تميزان السابرا ـــ قله زياراتهم للوالدين والتباعد النفسى الذى يميز علاقاتهم بالوالدين وبالراشدين الاخرين . وقد يعتبر المظهر الأول بمثابة إنسحاب جسمى بعيداً عن مصدر الاحباط المؤلم يمكن التعبير عنه بعبارة : لأنك لاتحبنى فمن المؤلم أن أتفاعل معك كذلك فإن المظهر الثانى قد يعتبر أيضاً إنسحاباً للأنا بعيداً عن مصدر الاحباط المؤلم يمكن التعبير عنه بعبارة : لأنك لاتحبنى ، فإنه يؤلمنى أن أظل على رباط عاطفى بك»(٢) .

ويؤكد سبيرو كذلك إن إنعدام العلاقات الوثيقة مع الراشدين ، والذى لوحظ لدى السابرا لاينسحب على الشباب الإسـرائيلى بعامة مستدلاً على ذلك بأن أحد المسئولين عن حركة الشباب قال له «إنه لم

---

1. Spiro, M.E. Op. Cit.
2. Ibid.

يجد صعوبة قط فى إقامة علاقات مع مجموعة من الشباب الشرقى، كانت من بينهم مجموعة من مواليد إسرائيل»(١). بل إن ملاحظات سبيرو نفسها تبرز بوضوح أن ذلك التباعد السيكلوجى لايشمل ابناء الكيبوتز موضع الدراسة جميعا بل السابرا منهم على وجه التحديد(٢).

ويقرر سبيرو مرة أخرى فى موضع آخر من كتابه، وهو بصدد الحديث عن السابرا أن أهم الخصائص التى تميز علاقة المراهق بوالديه هى تباعده السيكلوجى فرغم أن المدرسة الثانوية لا تبعد بأكثر من خمس دقائق سيراً على الأقدام عن محل إقامة أى من الاباء، فإن تسعة فقط من التلاميذ ضمن عينه ممثلة تضم واحداً وثلاثون تلميذاً ذكروا أنهم يزورون آبائهم يوميا، وكانت أعمار هؤلاء جميعا فيما عدا اثنين تقل عن الخمسة عشر عاماً (٣). ويعلق سبيرو على ذلك بقوله: «إذا ما كان لنا أن نعتبر معدل التفاعل الاختيارى مقياسا مناسبا للتباعد النفسى، فإن لنا أن نستخلص من تلك البيانات وحدها أن التباعد السيكلوجى هو الوصف الحقيقى لاتجاه هؤلاء التلاميذ» (٤).

خلاصة ما يذهب إليه سبيرو إذن أن السابرا يتميزون ضمن ما يتميزون به بإنطوائية تكاد أن تضرب ستاراً كثيفاً يحول بينهم وبين إقامة علاقات مع بعضهم أو مع غيرهم، ويحول بين الآخرين وبين النفاذ إلى دخائلهم.

---

1. Spiro, M.E. Op. Cit. P. 425:
2. Spiro, M.E. Op. Cit. P. 428.
3. Spiro, M.E. Op. Cit. P. 337
4. Ibid.

وللقارىء بطبيعة الحال، بل ولنا أيضا، أن نتشكك فى ذلك الذى توصل إليه سبيرو رغم حرصه على توثيق كافة ملاحظاته توثيقاً تفصيليا دقيقا باسنادها إلى الملاحظات الموضوعية المضبوطه وإلى الاختبارات المقننه ما أمكن ذلك. فضلا عن حرصه على عرض تلك الملاحظات والاستخلاصات فى صورة الجداول الرياضية مما يسهل فهمها بل وتفنيدها كذلك. ورغم كل ذلك يمكننا أن نطرح شكوكنا فى صورة تساؤلين محددين :ـــ

(١): لقد خلص سبيرو إلى نتائجه تلك من دراسة أجراها على كيبوتز اسماه كيريات بيديديم خلال إقامته فى ذلك الكيبوتز إقامة استمرت احدى عشر شهراً من عام ١٩٥١م. ترى هل ما يصدق على السابرا فى ذلك الكيبوتز يصدق على ابناء الاشكنازيم جميعا؟

(ب): لقد أجريت دراسة سبيرو كما أشرنا عام ١٩٥١م، أى منذ ما يزيد عن عشرين عاماً. ترى أليس محتملاً أن يكون سابرا السبعينات أقل انطوائية وأكثر انفتاحا عن سابرا الخمسينات؟.

وللإجابة على هذين التساؤلين علينا أن ننقب فى البحوث الحديثة التى أجريت على السابرا محاولين أن نتبين ما إذا كانت خاصية الانطواء هذه قد خفتت أو تلاشت من نتائج تلك البحوث أم أنها مازالت قائمة تعبر عن نفسها فى تلك النتائج. وذلك هو ما قمنا به بالفعل وخلصنا منه إلى الملاحظات التالية :ـــ

أولاً: لم يسفر تنقيبنا فيما أمكن لنا الاطلاع عليه من بحوث تتصل بسيكلوجية السابرا عن إشارة واحده لوجود نقيض لتلك الصفة لدى السابرا. أعنى أن بحثا واحداً لم تشر نتيجته إلى أن

السابرا يتصفون بالانبساطيه أو الانفتاح الاجتماعى أو سهوله إقامة أو تبادل العلاقات مع الآخرين.

ثانيا: يشير برونو بتلهايم فى كتابه الصادر عام ١٩٦٩م وهو فى معرض حديثه عن السابرا إلى «أن هؤلاء الشباب شديدو الحياء من الغرباء، إنهم مغلقون على أنفسهم بدرجة لا تجعل فى مقدروهم الكشف عن دخائلهم إلا للأشخاص الذين تربطهم بهم علاقة وثيقة تماما» ثم يمضى عارضا لخبرته الشخصية معهم قائلاً: «إننى شخصياً قد فشلت فى استثارة أى عمق انفعالى فى الاجيال الشابة رغم إننى وجدته بشكل كاف لدى جيل المؤسسين»(١). ويكفى أن نشير إلى أن ذلك الذى فشل فى استثارة أى عمق انفعالى خلال تعامله مع السابرا محلل نفسى معروف أى أنه بحكم الحرفه متخصص فى استثارة الاعماق الانفعالية. ومن ناحية أخرى ينبغى أن نشير إلى أن دراسة بتلهايم قد أجريت على كيبوتز يختلف عن ذلك الذى أجرى عليه سبيرو دراسته سواء من حيث المكان أو الانتماء السياسى فضلا عن الوقت بطبيعة الحال.

ثالثا: ومن ناحية أخرى فإن عالم النفس الامريكى ليو الكسندر بيرو جنيكوف بالاشتراك مع اثنين من علماء النفس الإسرائيليون هما ايلاناهادار وآفنرهادار قد قدموا فى المؤتمر السنوى للجمعية النفسية الأمريكية المنعقد فى عام ١٩٧٠م. بحثا بعنوان: «الدوجماطيقية والتباعد الاجتماعى: دراسة عبر حضارية»(٢).

---

1. Bettelheim, B. Op. Cit. pp. 287-288.
2. Pirojnikoff, L.A. et. al. "Dogmatism and social distance: A cross-scultural study" Proceedings of the annual convention of the APA, Part I, No. 5, 1970, PP. 323-324.

عرضوا فيه لدراسة قاموا بها ، وقارنوا خلالها بين مجموعات أربع ـ تضم المجموعة الأولى عينه ممثلة من شباب أحد الكيبوتزات الحديثة فى إسرائيل وتضم المجموعة الثانية عينه من الشباب الإسرائيلى من غير سكان الكيبوتزات ، وتضم المجموعة الثالثة عينه من اليهود الأمريكيين ، وتضم المجموعة الرابعة والأخيرة عينه من الأمريكين من غير اليهود . وقد اعتمدت الدراسة على استخدام مقياسين سيكلوجيين إحداهما لقياس الدوجماطيقية ، والثانى لقياس التباعد الإجتماعى وهو ما يعنينا فى هذا الصدد . وقد تضمنت فروض الدراسة فرضا مؤداه «أن ابناء الكيبوتزات بمقارنتهم بغير أبناء الكيبوتزات من الإسرائيليين سوف يكونون أكثر تفهما وإقبالاً على إقامة وتبادل العلاقات الاجتماعية مع الآخرين» وبتطبيق مقياس التباعد الاجتماعى على عينات البحث اتضح العكس ، أى اتضح أن ابناء الكيبوتزات أميل للعزوف عن إقامة أو تبادل العلاقات الاجتماعية مع الآخرين .

رابعا : كذلك فإن هارى ايسرنج اليهودى الأمريكى الذى يجمع بين كونه من رجال الدين اليهودى الرسميين فى الولايات المتحدة ، وكونه واحداً من علماء النفس الامريكيين قام بالاشتراك مع ابراهام سيجال فى عام ١٩٧٠م باصدار الطبعة الجديدة المزيدة والمنقحة من كتابها : «إسرائيل اليوم» . والهدف من نشر هذا الكتاب يعبر عنه صامويل جراند مدير قسم التعليم التجريبى والوسائل السمعية والبصرية بوكالة التعليم اليهودى بالولايات المتحدة الامريكية والذى قام بكتابه مقدمته بقوله : «لقد شعرنا لسنوات طويلة أن الطلبة فى مدارسنا اليهودية الدينية

يتعلمون عن الإسرائيليات القديمة أكثر مما يتعلمون عن الإسرائيليين المعاصرين (١). فالكتاب إذن قد كتب أصلاً بهدف أن يتيح للطلبة الأمريكيين اليهود صوره معاصره للإسرائيليين عام ١٩٧٠م.

ويكفى أن نقتبس من الكتاب فقره واحده وردت تحت عنوان «أفهموا السابرا» تقول الفقرة: «قد يجد المراهقين الأمريكين السابرا لدى أول لقاء لهم بهم، باردين إلى حد ما، أن السابرا ليسوا كالأمريكيين فى سرعة إقامتهم للصداقات. إنهم يجب أن يقابلوك مرات عديدة لكى تعرفهم جيداً» (٢).

ولعلنا لسنا فى حاجة إلى أن نؤكد إن الإشارة هذه المره ليست قاصرة على ابناء كيبوتز بعينه بل هى تشمل السابرا جميعاً.

ولعلنا نستطيع بعد تلك الملاحظات أن نطمئن إلى حقيقة أن السابرا يتميزون بانطوائية كشفت عنها نتائج البحوث المتخصصة بل ولم يكن ممكنا أن تخطئها حتى العين غير الخبيرة للطلبة اليهود الأمريكيين.

---

1. Essring, H. & A. Segal, Op. Cit, P. IV.
2. Essring, H. & A. Segal, Op. Cit. P. 105.

الشعور بالدونيه

أبرز سبيرو فى كتابه المشار إليه فيما سبق أن الشعور بالدونيه يعد من الخصائص المميزة للسابرا فى إسرائيل موضحاً أن تلك الخاصيه تتضمن احساسهم بأنهم أقل من سواهم من حيث الكفاءه العقليه أو القدره على الانجاز(١).

ولم تمض أعوام قليله حتى نشر الباحث السيكلوجى الإسرائيلى أ. هاندل مقالاً بالعبرية عام ١٩٦١م تحت عنوان «مفهوم الذات لدى المراهقين فى الكيبوتز» (٢). يؤكد فيه نتائج سبيرو رغم توصله إليها بطريقة مختلفه تماماً. فقد استخدم هاندل أسلوباً يعرف فى مجال قياس الشخصيه بأسلوب ك ويقوم ببساطه على استخدام قائمه تضم عدداً من العبارات وتقدم إلى المفحوص ويطلب منه أو من آخرين يستطيعون الحكم عليه تصنيف كل من تلك العبارات إلى عدد من الفئات تمثل مدى انطباق تلك العباره عليه. بحيث تحصل كل عباره بذلك على درجه تشير إلى مدى القوه النسبية المتوافرة للسمه أو للحاجه التى تمثلها بالنسبة للفرد المفحوص وقام هاندل باستخدام ذلك الاسلوب فى دراسته التى شملت ٨١ من الشبان الإسرائيليين من سكان المدن و٧٠ من

---

1. Spiro, M.E. Op. Cit. pp. 445- 459.
2. Handel, A. self concept of the kibuts, adolecent, IN, A.I. Rabin, Kibbutz studies, 1971, 72-73.

قاطنى الكيبوتزات. وقد أسفرت الدراسه عن فروق جوهرية بين المجموعتين حيث اتضح أن المراهقين الكيبوتزيين ينظرون إلى أنفسهم باعتبار أنهم أقل قدره على مواجهة الصعاب بثقه كما أنهم أقل ثقه فى مستقبلهم، وأكثر تشاؤماً حياله، وأكثر تحقيراً لأنفسهم وإحساساً بعجزهم. إلى جانب أنهم يظنون أنفسهم أقل ذكاء، وأشد حساسية للنقد، وأكثر قلقا فى مجابهه المواقف الحرجه ومواجهه الغرباء.

ويلخص هاندل بحثه مستخدماً تعبيرات هنرى موراى فى نظريته عن الحاجات[1] مؤكداً أن شباب الكيبوتزات يتميزون بقدر أكبر من الحاجه إلى تجنب المذله، والحاجه إلى تجنب التأنيب. والمقصود بالحاجه إلى تجنب المذله وفقاً لما يقول به موراى الابتعاد عن المواقف المحرجه أو تجنب الظروف التى تؤدى إلى التصغير: الازدراء أو السخرية أو عدم المبالاة من جانب الآخرين. الكف عن العمل بسبب الخوف من الفشل[2]. كذلك فإن المقصود بالحاجه إلى تجنب التانيب وفقا لنظرية موراى «الحاجه إلى تحاشى التأنيب بكف الدفعات المرفوضة اجتماعيا، الخوف من التانيب، أو النبذ، أو العقاب. الحاجه إلى المعامله الطيبه»[3].

وترجع أهمية هاتين النتيجتين اللتين خلص إليهما هاندل إلى أنهما من ناحيه أخرى يؤكـدان ماذهب إليه سبيرو ومن ناحيه أخرى فإن التوصل إليها قد تم باسلوب موضوعى يعتمد اعتماداً مباشراً على رصد

---

(١) هول، ك و ج. لندزى، نظريات الشخصية (ترجمة فرج أحمد فرج، وقدرى حفنى، ولطفى فطيم)، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة: ١٩٧١، ص ٢٣٢.

(٢) هول، ك، المرجع السابق، نفس الموضع.

3. Blamavoidance need A comprehensive dictionary of Psychological and Psychoanalytical terms, By, Horace B : English & Ava Champney English, Longmans, U.S.A. 1958.

تصور هؤلاء السابرا لأنفسهم وليس أساساً على رصد انطباعات أو تصورات الآخرين عنهم.

وعلى أي حال، فإن مثل تلك النتائج التى توصل إليها سبيرو وهاندل هى التى يمكن أن تتيح لنا فهما معقولاً لعباره اوردها تيدبركمان فى كتاب اصدره عام ١٩٦٦ ـ بعنوان (السابرا) حيث يقول إن لدى السابرا فى الحقيقة تواضع حقيقى يجعلهم لا يستريحون لدور المنتصر(١). وواضح إن بركمان الذى يعلن صراحه أنه إنما يكتب تمجيداً للسابرا ولدورهم لحضارتهم، لم يكن أمامه إلا أن يستخدم تعبير (التواضع) وهو تعبير أخلاقى لانجد أى صعوبه ولاحرج فى استبداله بالتعبير العلمى الشائع فى الكتابات السيكلوجيه وهى «الشعور بالدونيه». أما الجزء الثانى من العباره، أى الانطلاق من أن السابرا يتصفون بالتواضع إلى اعتبار ذلك بمثابه التفسير لكونهم لا يستريحون لدور المنتصر، فإنه يتضمن مغالطة واضحة. إن عدم الارتياح لدور المنتصر وهى ظاهره سيكلوجية يتصف بها هؤلاء حقا لا ترجع إلى تواضع ولاحتى إلى الشعور بالدونية بل مرجعها مايميز التكوين السيكلوجى الإسرائيلى بعامة من احساس عميق بالاضطهاد.

وقد سبق أن أشرنا فى بحث آخر، وبشىء من التفصيل للعلاقة بين الاحساس بالاضطهاد كعنصر مميز للتكوين السيكلوجى الإسرائيلى، وبين رفض تقبل دور المنتصر(٢). وبذلك فإن ظاهرة عدم تقبل دور المنتصر ليست بالظاهرة المميزة ولا القاصرة على السابرا دون سواهم من الإسرائيلين.

---

1. Berkman, Ted Sabra Harper & Raw Publishers. U.S.A. 1969, p. 2.

(٢) قدرى حفنى، تجسيد الوهم، مرجع سابق ص١٠٣، ١٠٤.

التشاؤم والشك

تضمن بحث هاندل الذى تعرضنا له آنفا عدة اشارات إلى تشاؤم السابرا أو بعبارة أدق إلى إدراك السابراً لأنفسهم باعتبارهم أكثر تشاؤماً من سواهم (١) ترى هل ثمه بحوث أخرى تدعم نتائجها من تلك الاشارات ؟ .

لقد قام ملفورد سبيرو فى دراسته المشار إليها آنفا بتطبيق «اختبار ستيورات للاستجابة الانفعالية على ٥٤ من السابرا». والاختبار ببساطه يهدف إلى استقصاء مسببات سبعه مشاعر انفعاليه محدده لدى من يطبق عليهم الاختبار. والمشاعر الانفعاليه السبعه هى: الشعور بالسعاده، والشعور بالحزن، والشعور بالخجل، والشعور بالغضب، والشعور بالخوف ثم الشعور بأن شيئاً ما هو أفضل الاشياء، والشعور بأن شيئاً ماهو أسوأ الأشياء.

وقد أسفرت نتائج الاختبار ضمن ما أسفرت عنه فى مجال الشعور بالحزن عن أن الحرمان بشقيه المادى وغير المادى ـ يحتل المقام الأول من بين مسببات الحزن لدى السابرا. ولو اقتربنا من البيانات الوارده بالجداول الملحقه بدراسه سبيرو والمتضمنه لنتائج تطبيق إختبار ستيورات (٢) محاولين إعاده معالجتها احصائيا لاتضح لنا أن الشق

1. Handel, A. Op. Cit.

2. Spiro M.E. Op. Cit. P. 484.

المادى من استجابات الحرمان، أى الحرمان من أشياء ماديه كالنقود أو الملابس وما إلى ذلك لايمثل سوى ٢٧٪ من مجموع تلك الاستجابات فى حين أن الحرمان من أشياء غير ماديه فى مقدمتها الرحيل ــ أى الرغبه فى مغادره محل الاقامه ــ يمثل ٧٣٪ من مجموع تلك الاستجابات.

كذلك فقد أسفرت نتائج الاختبار فيما يتعلق بما هو أفضل الأشياء لدى السابرا عن أن الخبرات الشخصيه الساره تحتل المقام الأول. ولمعالجة البيانات الوارده فى الجدول المتضمن لتلك النتائج (١) يتضح أن تلك الخبرات الشخصيه الساره تنقسم إلى خمس فئات ترتيبها كما يلى وفقاً للنسب المئويه لتكرار كل فئه إلى مجموع الاستجابات المدرجه تحت «خبرات شخصيه ساره» :ــ

١) الرحيل	٣٨ر٤٥ ٪
٢) التعليم	٢٩ر٣٥٪
٣) طول العمر	٤١ر٨ ٪
٤) العمل	٨٨ر٥ ٪
٥) الامتياز الاجتماعى	٠٤ر٥ ٪

ويعلق سبيرو على تلك الأهمية التى يحتلها الرحيل لدى السابرا بقوله: «إذا كان لنا أن نسلم بأن أولئك الذين يجدون سعادتهم حيث هم لايحسون رغبه شديده فى الرحيل إلى أى مكان آخر، فإن رغبه السابرا فى الرحيل تشير بشكل ما إلى ضيقهم بالحياه فى الكيبوتز» (٢).

---

1. Spiro, M.E. Op. Cit. P. 486.
2. Spiro, M.E. Op. Cit. P. 370.

١ ـ استجابات تدل على الرغبه فى تحقيق الذات مثل «...
أكون غنياً».

٢ ـ استجابات تشير إلى الرحيل، وتتمثل فى عبارة واحده
مكررة هى.... «سوف ارحل».

وكانت النسبة المئوية للإسرائيلين الذين تندرج استجاباتهم تحت الفئة الأولى ٤٤٪ فى مقابل ٥٦٪ تندرج استجاباتهم تحت الفئة الثانية. ولعل تلك النتيجة بالتحديد تكاد تكون تكراراً لما توصل إليه سبيرو وأشرنا إليه فيما سبق رغم اختلاف العينتين والاسلوبين، بل واتجاه كل من الباحثين أيضاً.

ونستطيع أن نخلص من تلك النماذج إلى أن نتائج بحث رابين تقدم تأكيداً لما سبق أن انتهى إليه هاندل وسبيرو من أن التشاؤم والشك يعدان من الخصائص المميزة للسابرا فى إسرائيل.

العدوانيه

لم يكن قد مضى على قيام الدولة الإسرائيليه رسمياً إلا حوالى ستة سنوات حين نشرت جيرالد كابلان دراستها المعنونه «ملاحظات اكلينيكيه على الحياه الانفعاليه لاطفال المستوطنات الجماعية فى إسرائيل (١). وقد تضمنت تلك الدراسة إشارة واضحه إلى ما أبداه الأطفال الكيبوتزيين الإسرائيليين من «ضعف فى السيطرة على عدوانهم» مما ارجعته كابلان إلى إحتمال وجود «حرمان أموى» يعانى منه هؤلاء الأطفال وهو المسئول عن عدوانيتهم هذه.

وفى تلك الفترة بالتقريب قام سبيرو بدراسته المنشوره فى كتابه الذى أشرنا إليه آنفاً، والتى تضمنت العديد من الدلائل والمؤشرات التى تشير جميعاً إلى أن قدراً هائلاً من العدوانية ينتشر فى شخصيات السابرا ويكاد أن يصبغ سلوكاتهم جميعاً فى كل اتجاه، سواء نحو الغرباء عنهم، أو الراشدين من بينهم، أو حتى فى علاقات بعضهم بالبعض. وتستحق دراسه سبيرو أن نعرض لها بشىء من التفصيل :ـــ

(أ) العدوان نحو الغرباء :ـــ

يعرض سبيرو بالتفصيل لعدوانيه السابرا حيال الغرباء عنهم

---

1. Caplan, Gerald. Clinical observations on the emotional life of children in communal settlements of Israel, In : Problems of infancy and childhood : Transactions of the seventh conference, ed. by: M.S.E. Sean, Josiah Macy, Jr. Foundation, New York; 1954.

وهؤلاء «الغرباء» يشملون المدرسين، والعمال الذين يعملون بالأجر من خارج الكيبوتز وهم الشباب الشرقيين، بل إنهم يشملون بعدوانهم أيضاً زملائهم فى الدراسه وفى الكيبوتز من هؤلاء الشرقيين. بل إنه حين التحقت مجموعة من كيبوتز مجاور بنفس المدرسة فإن الطلبة من الكيبوتز محل الدراسة أبدوا كراهية شديدة تجاههم، وخاصة تجاه الفتيات منهم. فضلاً عن أنه توجد دلائل عديدة تشير إلى أنهم يعتدون بالضرب على الفتيات فى الكيبوتزات المجاورة (١).

وذلك العدوان نحو الغرباء لايعكس موقفاً ايديولوجياً واضحاً مبرراً بل إنه ـ وتلك هى خطورته ـ قد يتعارض تعارضاً صريحاً مع المظهر الايديولوجى لاقتناعات السابرا. يقول سبيرو «إن العديد من الطلبة الذين يؤيدون الهجرة إلى إسرائيل أيديولوجياً ـ يبدون حقداً شديداً تجاه أولئك المهاجرين من الشرق الأوسط، وينظرون إليهم باعتبارهم أدنى منهم مرتبه، ويطلقون عليهم تسمية : السود (٢).

ولا تقتصر عدوانية السابرا ضد الغرباء على ذلك العدوان الموجه ضد «السود» بل تمتد حتى إلى البيض ماداموا غرباء أيضاً. يقول سبيرو «إن المهاجرين الأوروبين قد يكونوا موضعاً للكراهية أيضاً. فحين قررت سلطات المدرسة أن الطلبة البولنديين المهاجرين ينبغى أن يندمجوا مع زملائهم الآخرين بدلاً من بقائهم كمجموعة منفصلة، رفض هؤلاء البولنديين

1. Spiro, M.E. Op. Cit. P. 319.

2. Ibid.

الحياة مع ابناء الكيبوتز لعدوانيتهم وهددوا بترك المدرسة إذا ما كان ثمة إصرار على فرض الدمج [1].

ويتضح ذلك الاتجاه العدوانى فى مجال العمل كذلك فقد دلت دراسة سبيرو على أن السابرا الذين يعهد إليهم بملاحظة عمل الشباب فى حدائق الكيبوتز يطلبون باستمرار شباباً من الشرقيين أكثر من طلبهم لشباب من المدرسة. وحين تقرر منح هؤلاء الشرقيين يوماً إضافياً كإجازه استشاط السابرا الملاحظون غضباً لتلك الوقاحه رغم أن ذلك سوف لايزيد من الاجازه إلا لتصبح عشرة أيام فقط فى حين أن اجازه طلبه المدرسة ثلاثة أسابيع [2].

(ب) **العدوان نحو الراشدين :ـ**

يورد سبيرو العديد من الامثله التى تؤكد أن المدرسين هم أول ضحايا عدوانيه السابرا من الراشدين [3] وقد يبدو للبعض أن السلوك العدوانى من التلاميذ تجاه مدرسيهم فى فترة المراهقة أمر شائع فى المجتمعات الحديثه جميعاً. ومسألة الشيوع هذه مسألة نسبية تماماً.

صحيح أننا قد لانعدم فى مجتمع من المجتمعات الحديثه أن نجد طالباً عدوانياً حيال مدرسيه أو مجموعة من الطلبه، أو حتى مدرسة باسرها ولكن أن تكون تلك هى القاعدة، بل والقاعده التى يخطط لها وتوضع لها البرامج فهو أمر فى حاجه إلى تأمل.

ولنكتفى بإيراد مجموعة من النماذج أوردها سبيرو [4] من واقع

1. Ibid.
2. Ibid.
3. Spiro, M. Op. Cit. P. 329.
4. Spiro, M. Op. Cit. P. 322.

ملاحظاته لعلها تتيح للقارىء صورة أقرب ماتكون إلى الواقعيه :ــ

* فتاة من الصف التاسع لاتنتبه للدرس ، ومدرسها (وهو من اعضاء الكيبوتز) يطلب منها أن تفعل ما يفعله بقية الفصل. فتقول له إنها تفعل بالدقة ما يفعله بقية الفصل: تضييع الوقت.
* بعض طلبة الصف التاسع جاءوا إلى الفصل متأخرين يغنون ، طلب منهم المدرس (وهو من غير ابناء الكيبوتز) مغادرة الفصل فاستشاطوا غضباً ، واحتدوا عليه ــ وأخيراً خرجوا من الفصل ولكن بالقفز من فوق المقاعد.. وبعد قليل عبروا أمام الغرفة وقالوا ما يحقر من شأن المدرس ، ومضوا فى طريقهم.
* طالبة تثير شغباً فى الفصل أثناء حصة اللغة الانجليزية ، فيطلّب منها المدرس أن تكف. تقول له الفتاة «لماذا» ؟ إنك لم تدرس لنا شيئاً على الاطلاق طول العام.
* مدرس فى الصف العاشر يطلب من تلاميذه الهدوء دون جدوى. يطلب من إحدى الفتيات أن تقرأ فتقول «لا» يقول المدرس «إننى أقرر لا أرجو». تقول الفتاة: وأنا كذلك لا أرجوك بل أقرر أننى لا أريد ذلك.. «يسود الاضطراب الفصل.. يوقف المدرس الدرس قائلاً إنه لاجدوى من الاستمرار طالما أن أحد لاينصت. الكل يوافقه قائلين إنه شيىء مثير للضيق تماماً يحاول أن يناقش معهم وهم يصيحون فيه كما لو كان تلميذاً منهم.

ويقرر سبيرو إن بعض المدرسين وجدوا أنه من المستحيل عليهم التدريس فى ظل مثل تلك الظروف السيكلوجية الصعبة إلى حد أنهم كثيراً ماكانوا يقدمون على الاستقالة إذا لم يكونوا أعضاء فى الكيبوتز. «قد حدث قبل وصولنا مباشرة أن استقال أحد مدرسى اللغه الانجليزية نظراً للضغط المستمر الذى يتعرض له، فالطلبه يحضرون إلى الفصل متأخرين، ويضحكون من نطقه للعبريه، وينقدون طريقته فى التدريس (١).

(جـ) العدوان نحو الاقران:ــ

يفصل سبيرو الحديث فى مجال التدليل على عدوانيه السابرا تجاه بعضهم البعض أو مايسميه بالعدوان نحو الاقران مشيراً إلى أن تطبيق إختبار ستيوارت للإستجابة الانفعالية قد أسفر عن أن ٧٠٪ من عينه السابرا التى طبق عليها الاختبار قد أشارت مباشرة أو بشكل غير مباشر إلى الاقران باعتبارهم مصدراً لاثاره إنفعال الغضب (٢).

ويحدد سبيرو سته صور من ذلك النوع من العدوان تتضح من سلوكات السابرا هى:ــ

١ ــ العدوان الجماعي نحو من يخرج على معايير الجماعه.

٢ ــ النميمه، وهى أفضل مايمضى فيه طلبه المدرسه الثانوية أوقات فراغهم.

٣ ــ السخرية والتحقير.

1. Spiro, M.E. Op. Cit. P. 323
2. Ibid.

٤ ــ الخشونة وسوء المعاملة «نادراً مايراعى السابرا أصول اللياقة إذا ماتطلبت المناسبة ذلك (١).

٥ ــ مضايقة الاصغر سنا، والاعتداء عليهم وتدبير المقالب للسخرية منهم. وإن كان ذلك لايقتصر تماماً على الاصغر بل يشمل الاقران جميعاً كذلك.

٦ ــ العدوان البدنى.

ذلك هو تصور سبيرو لعدوانية السابرا بمجالاتها الثلاثة نحو الغرباء، ونحو الراشدين، ونحو الاقران ونستطيع أن نخلص منها دون تعسف إلى أن العدوان يمكن أن يعد خاصيه مميزه لسلوك السابرا. إلا أننا بذلك قد نختلف إلى حد ما مع سبيرو رغم أنه صاحب الدراسه وجامع الملاحظات التى انبنت عليها النتائج.

يعلق سبيرو على بعض النتائج التى أسفر عنها تطبيق إختبار استيورات بقوله: إننى لعلى ثقة رغم ما يلقاه المدرسون من شغب من أن العدوان المتبادل بين الاشخاص فى صورته البدنية على الاقل، أقل كثيراً فى المدرسة عنه بين الأطفال الأصغر سنا فبينما يمثل العدوان البدنى أهم الأسباب المؤديه إلى انفعال الغضب بين ابناء المدرسة الاعداية كما يتضح من نتائج إختيار ستيورات للاستجابة الانفعاليه فإنه يعد من أقل تلك الاسباب أهمية لدى ابناء المدرسة الثانوية (٢). ويمضى سبيرو فى تعليقه

1. Spiro, M.K. Op. Cit. P. 324
2. Ibid.

موضحاً أن ثمه تفسيرين محتملين لذلك الانحدار المُفاجىء:
إما إنه يرجع إلى تأقلم مع العدوان وإما إنه يرجع إلى نقصان حقيقى فى الخبرات العدوانية.

ويختتم سبيرو تعليقه مقرراً «إن ملاحظاتنا ترجح بالفعل التفسير الأخير» (١). ترى هل هذا صحيح؟ إننا نرى أن المنطق ـ فضلا عن ملاحظات سبيرو نفسها يرجح التفسير الأول.

ولن نمضى بعيداً مستقرئين لقواعد المنطق، ولامنقبين فى ملاحظات سبيرو. ففى نفس الصفحه التى ورد فيها التعليق السابق، بل والحاقا بذلك التعليـق أورد سبيرو عبارة حرص على وضعها فى الحاشية نصها كما يلى «على أى حال فإن الدلائل المستقاه من إختبار الاستجابة الانفعاليه تبدو غامضة فيما يتعلق بالعدوان اللفظى. فرغم أن هناك تضاؤلاً فى تكرار استجابات الغضب التى يسببها العدوان، فإن هناك تزايداً فى تكرار استجابات الحزن» (٢).

ويكتفى سبيرو ـ رغم فطنته وعلمه ـ بتقرير أن ذلك أمر «غامض». ولسنا نراه من الغموض فى شىء على الاطلاق. ولنشرك معنا القارىء فى استقراء الارقام الداله على نتائج إختبار الاستجابة الانفعاليـة كما أوردها سبيرو (٣).

---

2. Ibid.

(٣) الأرقام والفئات والنسب المئوية مقتبسة كما هى ودون تعديل من الجداول الواردة فى الصفحات ٤٨٣، ٤٨٤ من كتاب ملفورد سبيرو المشار إليه آنفاً وكان تدخلنا قاصراً على طريقه العرض والتجميع حيث تصبح محققة للهدف.

العدوان كمصدر لإنفعال	الحزن			الغضب		
فئة العدوان	سنة ٦—١١	سنة ١٢—١٧	سنة ١٨ +	سنة ٦ — ١١	سنة ١٢ — ١٧	سنة ١٨ +
الاستهداف لعدوان بدنى	٥ ٪	٣ ٪	صفر ٪	٢٦ ٪	٦ ٪	صفر ٪
الاستهداف لعدوان لفظى	١٠ ٪	١٧ ٪	٥ ٪	٣٣ ٪	٢٢ ٪	٤ ٪
عدوان بدنى جماعى	٥ ٪	١ ٪	٥ ٪	—	—	—
الحرب	٢ ٪	صفر	٥ ٪	—	—	—
غضب الفرد نفسه	٢ ٪	٦ ٪	صفر	—	—	—
عدوان لفظى من الاخرين تجاه الأخرين	—	—	—	١٠ ٪	٥ ٪	صفر
المجموع	٢٤ ٪	٢٧ ٪	١٥ ٪	٦٩ ٪	٣٣ ٪	٠٤ ٪

وواضح أن سبيرو يقصر مقارنته على فئة «الاستهداف لعدوان لفظى» كما أنه يقصر تلك المقارنة على فئتى العمر الاولين لكى

يستنتج أن تلك الفئه من العدوان قد أشار إليها ١٠٪ من المستجيبين الذين تتراوح أعمارهم بين ٦ و ١١ سنة باعتبارها مصدراً لانفعال الحزن لديهم فى حين ارتفعت تلك النسبة إلى ١٧٪ لدى الذين تتروواح أعمارهم بين ١٢ و ١٧سنة. ومن ناحية أخرى فقد أشار ٣٣٪ من المستجيبين الذين تتراوح أعمارهم بين ٦، ١١سنة إلى تلك الفئة باعتبارها مصدراً لانفعال الغضب لديهم مقابل ٢٢٪ ممن تتراوح أعمارهم بين ١٢، ١٧ عاماً. وباختصار فإن ملاحظه سبيرو قد اقتصرت على أن الاستجابة للتعرض للعدوان اللفظى بالغضب قد انخفضت من ٣٣٪ إلى ٢٢٪ ثم ارتفعت الاستجابة لذلك العدوان بالحزن من ١٠٪ إلى ١٧٪.... وإن ذلك أمر غامض.

وواضح أن قصور ملاحظة سبيرو قد أسهم فى ارتباك تفسيره للظاهرة فضلا عن أن ارتباطه بما أكده فى الفقره الاصليه من تناقص الخبرات العدائية التى تصبغ سلوك السابرا قدم مزيداً من الاسهام فى ذلك الارتباك.

ولو عدنا إلى أرقام الجدول متخلصين من تلك العوامل التى اربكت تفسير سبيرو لاستطعنا أن نضع أيدينا على بعض الملاحظات :ـ

لو تخطينا اقتصار سبيرو على النظر إلى فئة العدوان اللفظى دون غيرها وعلى فئتى العمر الاولين فحسب ونظرنا إلى خانة المجموع باعتبارها معبره عن الاستجابه للعدوان بعامه، محاولين رصد ما يطرأ عليها من تغير فى فئات العمر الثلاث وبالنسبة لانفعالى الحزن والغضب لاتضح لنا شيئاً هاماً.

إن الاستجابة للعدوان بالحزن تتخذ مساراً هرمياً عبر فئات العمر الثلاث بمعنى أنها تبلغ قمتها لدى أولئك الذين تتراوح أعمارهم بين

١٢ و١٦ سنة ثم تعود للانخفاض بعد ذلك . ولو قارنا ذلك المسار الذى تتخذه الاستجابة بالحزن للعدوان بشكل عام بالمسار الذى تتخذه الاستجابه بالحزن أيضاً للعدوان اللفظى وحده لما وجدنا بين المسارين فرقاً على الاطلاق . نفس المسار الهرمى الذى تتمثل قمته فى الفئة الوسطى التى تضم أولئك الذين تتراوح أعمارهم بين ١٢ و ١٦ سنة .

ونفس الظاهرة تتكرر بالنسبة للاستجابة للعدوان بالغضب فإنها تتخذ مساراً تنازلياً مضطرداً (٦٩٪ ــ ٣٣٪ ــ ٤٪) ويتكرر نفس المسار لو اقتصرنا ــ كما فعل سبيرو ــ على النظر إلى الاستجابة بالغضب للعدوان اللفظى (٣٢٪ ــ ٢٢٪ ــ ٤٪) .

وواضح إذن أن العدوان اللفظى بالتحديد ، وكما يتضح من الارقام هو أكثر أنواع العدوان تعبيراً عن الاتجاه العام سواء بالنسبة لانفعال الغضب ، أو بالنسبة لانفعال الحزن . وعلى أى حال فإن ذلك يتفق تماماً مع ما تقول به قواعد المنطق فعلاً عن حقائق علم النفس من أن العدوان هو العدوان سواء كانت ممارسته بالفعل أو بالقول أو بالاشارة .

وهكذا يتضح أن « الجزء » الذى اختار سبيرو أن يقصر حديثه عليه هو خير الاجزاء تعبيراً عن « الكل » .

وبالتالى فما كان أجدره أن يتحدث عن « الكل » فذلك ادعى إلى الوضوح وأبعد عن احتمال الخطأ . أعنى أنه كان الاوجب على سبيرو أن يتحدث فى هذا المقام عن العدوان عامه لاعن العدوان اللفظى بالتحديد .

يمكننا إذن أن نطرح القضية من جديد على الشكل التالى : إن تكرار ورود العدوان كمصدر لانفعال الغضب يتناقص باضطراد مع

التقدم فى العمر. فى حين أن تكرار ورود العدوان كمصدر لانفعال الحزن يتزايد حتى يبلغ قمته فى فئة العمر ١٢ــ ١٧ ثم ينحدر تكراره بعد ذلك.

وقبل أن نمضى فى التعليق يجدر بنا أن نطرح تساؤلاً يبدو أنه قد غاب لسبب ما عن فطنه سبيرو وعلمه: ترى ماهى الاستجابة الطبيعية للعدوان؟ أهى الغضب أم الحزن؟ بعبارة أخرى: إذا ما تعرض إنسان سوى لنوع من أنواع العدوان، ترى هل الأكثر احتمالاً أن يغضب أم يحزن؟.

وقبل أن نشرع فى الإجابة عن التساؤل، ولكى نتجنب ما قد يثيره تفسير مصطلحات نسبية كالطبيعية و«السواء» من شبهه التعسف أو مظنه التحيز فلنحتكم إلى معجم مصطلحات علم النفس والتحليل النفسى وهو واحد من المعاجم المحترمة فى هذا المجال لنجد أنه يعرف الغضب بأنه «استجابة انفعالية تنجم عن الاعاقة أو الايذاء أو التهديد» (١).

الغضب إذن هو الاستجابة الطبيعية للعدوان بمعنى أنها الاستجابة التىلاتحتاج منا إلى تفسير خاص. فإذا مالاحظنا كما هو واضح من الارقام أن تلك الاستجابة الطبيعية تتناقص باضطراد فى حين أن الاستجابة للعدوان بالحزن لا تتخذ مثل ذلك الاتجاه المضطرد نحو النقصان حق لنا أن نتساءل ماالسبب؟ ولنرجىء التفسير مؤقتا، ولنمض فى رصد ملاحظاتنا.

فلنوسع من نظرتنا قليلاً ولننظر إلى العدوان كمصدر لمجموع

1. «Anger», English, H.B. & A.C. Eglish, Op. Cit.

الانفعالات جميعاً وليس لانفعالى الحزن والغضب ومسار ذلك عبر فئات السن الثلاث :ـــ

(١) بالنسبة للفئة الأولى أى الذين تترواح أعمارهم بين ٦ سنوات و١١ سنة :
تشير الارقام (١) إلى ورود الاستجابة للعدوان كمصدر للحزن بنسبة ٢٤٪ ، وورود الاستجابة للعدوان كمصدر للغضب بنسبة ٦٩٪ ، وورود الاستجابة للعدوان ـــ كمصدر للخجل بنسبة ٨٪ (١) وورود الاستجابة للعدوان كمصدر للخوف بنسبة ١٣٪ أى أن متوسط ورود العدوان كمصدر للانفعال بعامة فى هذه الفئة من فئات العمر تبلغ ٢٨٫٥٪ .

(٢) بالنسبة للفئة الثانية ، أى الذين تتراوح أعمارهم بين ١٢ سنة و ١٧ سنة :
تشير الارقام إلى ورود الاستجابة للعدوان كمصدر للحزن بنسبة ٢٧٪ ، وورود الاستجابة للعدوان كمصدر للغضب بنسبة ٣٣٪ ، وورود الاستجابة للعدوان كمصدر للخجل بنسبة ١٤٪ (٢) ، وورود الاستجابة للعدوان كمصدر خوف بنسبة ٥٪ . أن أن متوسط ورود العدوان كمصدر للانفعال بعامة فى هذه الفئة من فئات العمر تبلغ ١٩٫٧٥٪ .

(٣) بالنسبة للفئة الثالثة ، أى الذين تبلغ أعمارهم ١٨ سنة فأكثر:

---

(١) الأرقام الواردة فى هذه المقارنات مستقاة من الجداول الملحقة بدراسة سبيرو المشار إليها فى الصفحات من ٨٤٣ إلى ٤٨٦ ، وينحصر تدخلنا الرياضى فى حساب المتوسطات، فضلاً عن التفسيرات بطبيعة الحال.

(٢) ارجع إلى الهامش رقم (١) بالصفحة التالية.

تشير الأرقام إلى ورود الاستجابة للعدوان كمصدر للحزن بنسبة ١٥ ٪، وورود الاستجابة للعدوان كمصدر للغضب بنسبة ٤ ٪، وورود الاستجابة للعدوان ـ كمصدر للخجل بنسبة (١٩ ٪) [١]، وورود الاستجابة للعدوان كمصدر للخوف بنسبة صفر ٪. أى أن متوسط ورود العدوان كمصدر للانفعال بعامة فى هذه الفئة من فئات العمر تبلغ ٩٫٥ ٪.

ولنضع الآن تلك المتوسطات الثلاثة أمام أعيننا، راصدين لمسارها مستنتجين تفسيراً لاتجاه ذلك المسار، أن النسب الثلاث وفقاً لاتجاه العمر نحو الزيادة هى كما يلى:

٢٧٫٥ ٪ ثم ١٩٫٥ ٪ إتجاه واضح نحو النقصان. ترى مادلالته؟ مادلاله أن يتضاءل الحجم الذى يشغله العدوان كمصدر من مصادر الانفعال بعامة؟ وهل ذلك التضاؤل تضاؤل حقيقى جدير بالمناقشة؟ إن نظرة سريعة إلى مزيد من الأرقام الذى يوردها سبيرو فى دراسته كفيلة بتوضيح أن تلك الظاهرة جديرة بالمناقشة.

يتضمن إختبار ستيورات للاستجابه الانفعالية والذى أعتمد عليه سبيرو فى ذلك الجانب من دراسته، يتضمن إلى جانب انفعالات السعادة، والحزن، والخجل، والغضب، والخوف؛ مجالين أساسيين هما أن يحدد المفحوص أفضل الأشياء فى نظره وأسوأها أيضاً. فلننظر إلى ذلك المجال الأخير لنر موقع العدوان من ترتيب السابرا للاشياء حسب سوءها فى نظرهم.

---

(١) فيما يتعلق بهذه النسب الدالة على انفعال الخجل فقد كانت تجميعاً لبندين وردا فى جدول ص٤٨٤ بكتاب سبيرو المشار إليه. وقد تعمدنا الجمع بين الاقدام على العدوان والتعرض لعدوان للكشف عن حجم ظاهرة العدوان بعامه. وعلى أى حال فإن أرقام الجدول المشار إليه تبين غلبة النوع الأول.

فئة العدوان / فئة السن	٦ — ١١	١٢ — ١٧	١٨+
الاستهداف العدوان بدنى	٥ ٪	صفر	صفر
الاستهداف لعدوان لفظى	صفر	٢ ٪	صفر
ممارسة العدوان	٥ ٪	٢ ٪	٥ ٪
المجموع	١٠ ٪	٤ ٪	٥ ٪ (١)

أرقام الجدول تعنى أن ١٠ ٪ من أفراد فئة السن الأولى قد اعتبروا العدوان ضمن أسوأ الاشياء فى نظهرهم كما تشير تلك الارقام إلى تضاؤل تلك النسبة مع التقدم فى السن.

ترى مادلاله ذلك كله؟ مادلالة أن يتضاءل مع التقدم فى السن حجم العدوان كمصدر للانفعال من ناحية وأن تتضاءل من ناحية أخرى وأيضاً مع التقدم فى السن نسبة الذين يدرجون العدوان بصوره المختلفة ضمن «أسوأ الاشياء»؟.. أذلك راجع ـــ كما يقول سبيرو ـــ إلى تضاؤل حجم العدوان فى بيئة السابرا مع التقدم فى العمر؟ بعبارة أخرى هل يرجع ذلك أن مايراه السابرا ومايمارسونه من عدوان فعلى يقل مع تقدمهم فى العمر؟.

---

(١) أرقام الجدول مقتبسة كما هى من الجداول الوارده فى كتاب سبيرو المشار إليه ص ٤٨٦، وكل ما أضفناه هو الأرقام الوارده فى خانة «المجموع»

فلنناقش أولاً قضية العدوان كخاصية سيكلوجيه من الناحية النظرية الخالصة. إن حقائق علم النفس تفرق بين مفهومين محددين للعدوان كخاصية سلوكية. العدوان فى الحالة الأولى يعرفه البشر جميعاً معرفة الممارسين لا المشاهدين فحسب. فليس ثمة إنسان لم يمارس العدوان مطلقاً. قد تختلف الصور التى يمارسه بها من القتل الفعلى إلى مجرد السباب اللفظى بل حتى إلى مجرد التمنيات العدوانية، وقد يتفاوت مقدار ممارسة ذلك العدوان الموقفى من فرد إلى آخر بل ومن وقت إلى آخر. كل ذلك تبعاً لمقتضيات الموقف الخارجي ومتطلباته. ولكن إذا ماتحدثنا كمتخصصين فى علم النفس عن العدوان كخاصية سلوكية أوكسمه تميز الشخصية فأننا نتحدث حينئذ عن مجموعة من البشر وليس عن الشر جميعاً. نتحدث عن أولئك الذين تعتبر العدوانية طابعاً مميزاً لشخصياتهم وهى تتخطى بذلك حدود المواقف الخارجية ومتطلبات تلك المواقف وهؤلاء الذين نطلق عليهم صفة «العدوانيون» إنما يختلفون عمن ليسوا كذلك فى حجم عدوانهم من ناحية، وفى مدى شموله من ناحية أخرى. البشر جميعاً يمارسون العدوان كسلوك موقفى، ولكن «العدوانيين» يمارسون عدوانا أشد وأشمل. بمعنى أن الموقف الذى لايستثير عادة لدى عامة الناس سوى قدراً ضئيلاً من العدوانية قد لايتعدى مجرد اللفظ أو الإشارة يثير لدى هؤلاء «العدوانيون» قدراً هائلاً من العدوان قد يصل إلى حد القتل أحياناً. ومن ناحية أخرى فإن موقفاً قد لايستثير عدوانا على الاطلاق لدى عامة الناس فإذا بأصحابنا العدوانين يرون فى ذلك الموقف المحايد مايسمح باستثارة عدوانهم. وقد يجهد الآخرون أنفسهم فى محاولة تفحص ذلك الموقف محاولين تبين ما قد يكون خافياً عليهم من مثيرات للعدوان. ثم هم بعد ذلك قد ينقلبون إلى أصحابنا

العدوانين محاولين ما وسعهم الجهد أن يبينوا لهم (بالعقل) و(بالمنطق) إن لا مبرر على الاطلاق لعدوانهم وثورتهم فإذا بكل تلك الجهود تذهب هباء. لماذا؟ لأن العدوانية فى تلك الحالة الأخيرة لا تنبع من الموقف الخارجى وهى بالتالى لاتخضع لمنطق المناقشة. بل إنها كسمة من سمات الشخصية إنما تنبع من أعماق بعيدة ترجع إلى عمليات التنشئة الاجتماعية المبكرة التى تعرض لها هؤلاء العدوانيين فى طفولتهم الأولى.

ترى هل تلك المظاهر العدوانية التى رصدها سبيرو لم تكن تعبر إلا عن عدوان (موقفى) سرعان ماتلاشى بتلاشى الموقف المسبب له؟ لقد طبق سبيرو، إختبار ستيوارت للاستجابة الانفعالية على عينه تبدأ أعمارها من سن السادسة ولعله لم يستطع ـ لأسباب فنية تتعلق بطبيعة الاختبار ـ أن يضم إلى عينته من تقل أعمارهم عن ذلك ـ ولكن ماذا عن هؤلاء؟ ماذا عن أطفال سبيرو فيما قبل السادسة وهى سنوات التنشئة الاجتماعية الأولى التى يتحدد فيها وبشكل قاطع ما إذا كانت العدوانية سوف تستمر كاستجابة موقفية، أم أنها سوف تتحول إلى سمة سلوكية تضرب بجذورها فى شخصية الفرد وتلقى بظلالها على سلوكاته جميعاً دون اعتبار كبير لخصائص الموقف.

لقد سبق لسبيرو فى نفس كتابه المشار إليه أن قام بدراسه سلوك أطفال الكيبوتز فى سنوات العمر الأولى. وقد اعتمدت دراسته تلك على الملاحظة الموضوعية الدقيقة لمجموعات متسلسله من أطفال الكيبوتز تتراوح أعمارهم من ثلاثة عشر شهراً إلى خمس سنوات، وقد سبق لنا أن عرضنا بشىء من التفصيل لتلك الدراسة فى بحثنا المعنون «تجسيد الوهم: دراسة سيكلوجية للشخصية الإسرائيلية»، وخلصنا من عرضنا

لتلك الدراسة إلى «أن أسلوب التربية المتبع فى الكيبوتزات هو الذى يربى الأطفال على العدوان والقسوة» (١).

العدوان إذن سمه سلوكية تميز السابرا وليس سلوكاً موقفياً يختفى بإختفاء مبرراته الخارجية. ومن هنا فإن ملاحظة سبيرو -وهى صحيحة بلا شك- عن إختفاء ظاهرة للإنفعال بالعدوان لا يعكس إختفاءاً مقابلاً للعدوان نفسه بل هو يعنى بالتحديد أن العدوان لم يعد يثير انفعالا: لا بالحزن، ولا بالغضب بل ولاحتى بالخجل أو الندم. إن العدوان ببساطة لم يعد أمراً شديد السوء. كل ذلك قد أشارت إليه دراسة سبيرو وإن كنا نختلف معه فى التفسير، أو بالتحديد فإننا نرجح التفسير الذى استبعده سبيرو وهو أن يكون ذلك الاختفاء للانفعال بالعدوان تأقلما مع العدوان (٢). ذلك بالتحديد هو ما نراه: إن تضاؤل مظاهر الانفعال بالعدوان إنما تعنى أنه بالتقدم فى السن يزداد الفرد من السابرا توافقا مع بيئته العدوانية، بمعنى أن يصبح من ناحية أكثر عدوانية، ويصبح من ناحية أخرى أقل احتفالا -أو انفعالا- بالعدوان.

والتعبيرات الادبية فى هذا المجال غنية عن البيان (٣) ويكفى أن ننظر إلى الشاعر الإسرائيلى يعقوب باسار وهو يكشف بوضوح فى

---

(١) قدرى حفنى، تجسيد الوهم، مرجع سابق ص٢١٥.

(٢) قدرى حفنى، قراءة سيكلوجية لنماذج من الأدب الإسرائيلى المعاصر: دراسات اشتراكية العدد ٨ أغسطس سنة ١٩٧٢، ص١٣٧، ١٤٠.

(٣) إبراهيم البحراوى. أضواء على الأدب الصهيونى المعاصر، كتاب الهلال، العدد ٢٥٧، دار الهلال، القاهرة ١٩٧٢، ص٧٣.

قصيدته المعنونة الحرب المقبلة والتى نشرت فى أكتوبر عام ١٩٦٨م حين يقول :

الحرب المقبلة.
ننشئها .. نربيها .
ما بين حجرات
النوم .
وحجرات الأولاد
....

كذلك فإن يائيل دايان الروائية الإسرائيلية التى تنتمى هى واباها موشى دايان إلى السابرا موضع دراستنا تقدم دليلاً إضافياً فى هذا الصدد في قصتها « ولدان الموت » وهى فى معرض الحديث عن بطلها المقاتل الإسرائيلى « دانيال » إذ بها تقول « إنه لم يكن يحس بالبهجة، ولا بالكراهية حينما كان يقتل .. ولم يكن حتى يشغل باله بالمبررات الخلقية التى تجعله يضغط باصبعه على الزناد .. لقد أصبح القتل وظيفة بالنسبة له .. (١) .

---

(١) معين بسيو، نماذج من الرواية الإسرائيلية المعاصرة، الهيئة العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٧٠.

الفصل الثالث

السابرا ..... شباب عجوز

* محاولة للتفسير
* شباب عجوز
* خاتمة

محاولة للتفسير

تلك إذن هى أهم الخصائص السيكاوجية التى تميز السابرا، وهى ليست بحال كل ما يميزهم سيكلوجياً، بل إنها ليست سوى ما رأيناه نحن أكثر أهمية من غيره وقد اعتمدنا فى انتقائنا لتلك الخصائص واستبعادنا لغيرها على اساسين :ـ

أولاً : أن تكون الأبعـد جذورا فى التكوين السيكلوجى للسابرا بمعنى أن تكون بدايتها أبعد ما تكون غوراً فى التنشئة الاجتماعية البعيده للسابرا.

ثانياً : أن نرى فى الخاصيه المستبعده أنها تمثل نتاجاً للخصائص التى ذكرناها أكثر من كونها تمثل أرضية أو منطلقا لخصائص جديدة

ووفقاً لهذين المعيارين فضلنا مثلاً أن نتناول تحت عنوان منفصل خاصتين لانستطيع أن ننكر أهميتها فى التكوين السيكلوجى للسابرا وهما خاصية الشعور بالإثم (١، ٢، ٣، ٤) وخاصية اللامبالاة أو

---

1. Spiro, M. Op. Cit. pp. 415-418, 484-485.
2. Rabin, A.I. Comparison of American and Israeli Children by means of a sentence completion technique, Op. Cit.
3. Rabin, A.I. The relationship of severity of guil to intensity of identification in Kibutz and non-kibutz children, The Journal of Social Psychology, Vol. 69, 1966 pp. 159-163.
4. Luria, Zolla, Mirian Goldwasser & Adena Goldwasser, Response to transgresion in stories by Isreali children, child development, vol. 34, 1963, pp. 271-280

الجمود أو البرود الانفعالى (١، ٢، ٣، ٤).

تلك وغيرها خواص هامه لاشك فى ذلك. وعدم تناولنا لها بالتفصيل لايعنى بحال تقليلاً من أهميتها بل إنه إلتزام بالاساسين الذين أشرنا إليهما انفا فضلا عن التقيد بأنه مادام عمل واحد لايمكن أن يحوى كل شىء فلابد من اختيار أهم تلك الاشياء. وإن كان ذلك كله لاينفى فى النهاية أنه إختيار ذاتى يحكمه من ناحية إتجاه الباحث الشخصى فى مجال علم النفس ونحو موضوعاته. ويحكمه من ناحية أخرى ذلك المدى الذى أمكن للباحث أن يطلع فى حدوده على نتائج البحوث التى أجريت على المجتمع الإسرائيلى وجهة نظر سيكلوجية.

ترى هل تنتهى محاولتنا عند هذا الحد؟ أعنى عند حد رصد عدد يزيد أو يقل من الخصائص ووضعها بعضا إلى جوار بعض تحت لافتة «الخصائص السيكلوجية المميزة لجيل السابرا».

إننا بذلك لانكون قد أضفنا شيئا ذا بال للعلم ولا لاصحابه فالبحوث تتوالى، وتيارها لايتوقف، والنتائج تزداد تراكما يوماً بعد يوم.. وما أيسر أن يسفر كل ذلك عن المزيد والمزيد من تلك الخصائص المتشابهة، بل والمتنافرة فى كثير من الأحيان، دون أن يضيف كل ذلك التراكم معرفة حقيقية جديدة بسيكلوجية السابرا.

---

1. Rabin, A.I., Kibbutz children, Op. Cit.
2. Rabin, A.I. Some S. Psychosexual differences between Kibbutz and non Kibbutz Israeli boys, J. of Projective techniques, Vol. 22, 1958, pp. 328-332.
3. Spiro, M. Sabras and Zionism, Op. Cit.
4. Ziv, Avner & Hannah Shauber Contribution to a crosscultural study of manifest anxiety in children, Naman development, Vol. 12, 1969, pp. 178-191.

أعنى أننا لو وقفنا ببحثنا عند هذا الحد فإننا لن نجد له موضعاً متميزاً وسط ذلك التيار الجارف من البحوث السيكلوجية التى أجريت ومازالت تجرى على المجتمع الإسرائيلى مجرد رصد لخصائص توصل لها غيرنا، وقد يتوصلون فيما بعد أو يتوصل غيرهم إلى تأكيد لتلك الخصائص أو إلى نفى لها أو إلى خصائص أخرى جديدة تماماً. وهدف العلم ـ فيما نرى ـ ليس من ذلك فى شىء. إن هدف العلم ـ إنسانياً كان أو طبيعياً ـ ليس مجرد الوصف والرصد بل أساسا الفهم والتحليل. ولعلنا بذلك نختلف مع الكثيرين من علماء النفس المتأثرين بالفلسفة الوضعية المنطقية فى تصورهم للهدف من العلم بعامة ومن العلوم الإنسانية على وجه الخصوص.

ولا يجب لمثل ذلك الاختلاف أن يخفى عن أعيننا مافى وجهة النظر المخالفة لنا من وجاهة فى المنطق، بل وما تضفيه على الممارسة وفقاً لقواعدها من يسر وأمان. فليس أيسر من رصد الوقائع وتسجيلها. ولعل التطور التكنولوجى فى مجال بحوث العلوم الإنسانية قد بلغ بعملية الرصد والتسجيل هذه حداً من الدقة واليسر معاً لم يكن أى من علماء الإنسانيات يحلم به منذ سنوات قليلة. هذا من حيث اليسر أما من ناحية الأمان فالأمر أوضح بكثير، فشتان بين التسجيل والتفسير أو بين الرصد والتحليل. هدف التسجيل فى النهاية مهما بلغت دقته وتكنولوجيته هو بشكل أو بآخر محاكاه الواقع. إنه لايطمع فى أكثر من بلوغ صوره للواقع لايغفل فيه تفصيلاً مهما كان دقيقاً ولاعلاقة مهما كانت طفيفة وهو ـ أى التسجيل أو الرصد ـ قابل فى كل مرحلة للمراجعة الباردة المطمئنة سواء بالرجوع إلى الواقع المرصود من جديد أو بتطوير أساليب الرصد والتسجيل.

فى النهاية فإن مخافة الوقوع فى منزلق الذاتية تكون أقل ماتكون فى مجال الرصد والتسجيل. والذاتية هذه هى بمثابة الكابوس الذى يؤرق علماء الإنسانيات بالتحديد بأكثر مما يؤرق سواهم من العلماء، لاسباب لسنا فى معرض تفصيلها (١، ٢، ٣، ٤).

أما عمليات التفسير والتحليل فإنها تبدو للوهلة الأولى «إضافة ذاتية» فالواقع فى حد ذاتة لايحوى تفسيراً ولاتحليلاً، إنه ليس سوى وقائع أو مدركات قد تكون قابلة للوصف فحسب. أما التحليل والتفسير فهو إضافة دخيلة على ذلك الواقع، إضافة نابعة من الذات، أى إضافة ذاتية وعند ذلك الحد، يفزع الكثير من علماء الإنسانيات وتجف اقلامهم، وتنضب أفكارهم، وينجح كابوس الرعب من الذاتية فى شل حركتهم، وذفعهم إلى إيثار السلامة والأمان بالالتزام بحدود الوصف والتسجيل.

ولسنا نرى فى العلم نفعاً ولانرى له جدوى دون الاقدام على تفسير الظواهر وتحليلها. صحيح أن الطريق ليس بآمن. وصحيح ومنطقى كذلك أن التقدم التكنولوجى لم يضف إلى امكانيات الباحث فى التفسير والتحليل بقدر ما أضاف إلى إمكانياته فى الوصف والتسجيل. وصحيح أيضاً أن مجال الخلاف بين العلماء فى التفسير والتحليل يبقى أكثر بكثير من مجال الخلاف بينهم فى الوصف

---

(١) قدرى حفنى، رأى فى نشأة علم النفس، الفكر المعاصر ابريل ١٩٧٠، ص٤٢ــ ٥١.

(٢) قدرى حفنى، نظرة مادية إلى نشأة علم النفس، الفكر المعاصر، يونيو ١٩٧٠، ص٣٠ــ ٤١.

(٣) قدرى حفنى، علم النفس بين الطبقية والموضوعية، الفكر المعاصر، أكتوبر سنة ١٩٧٠، ص١٣ــ ٢٢.

(٤) قدرى حفنى، الدراسات النفسية بين التشابه والإختلاف، الطليعة، ديسمبر سنة ١٩٧٠، ص٨٢ــ ٨٨.

والتسجيل. ولكن الصحيح أيضاً ورغم ذلك كله إن الاقدام على التفسير رغم ما قد يكتنفه من شبهة الذاتية أمر ضروري لكي يحرز العلم بعامة تقدماً كيفيا فضلاً عما تتطلبه الضرورات الخاصة المتعلقة بطبيعة مجال بحثنا من مزيد من الشجاعة ــ ومن المجازفة ــ في الإقدام على التفسير.

فلنعد إلى ما أسفر عنه بحثنا من نتائج محاولين أن نخطو خطوه أبعد في طريق تفسيرها. ولنوجز أولاً من جديد تلك الخصائص التي أسفر بحثنا عن اتصاف السابرا بها، فلعل ادراكنا لها مما ييسر من عملية تفسيرها والربط بينها ولن نقتصر في سردنا الموجز لتلك الخصائص على ماتناولناه تحت عناوين منفصلة بل إن ذلك السرد سوف يتضمن أيضاً تلك الخصائص التي أشرنا إليها عرضاً وكذلك تلك التي لم نشر إليها مباشرة.

إن أهم الخصائص التي تميز السابرا هي دون ترتيب :ـــ

* الانطوائية * الكآبة
* التشكك * التشاؤم
* الشعور بالدونية * العدوانية
* اللامبالاة * البرود
* الاحساس بالفشل * الحساسية المفرطة للنقد
* الحاجة إلى المديح والاطراء.
* خشونة المظهر وانفعالية الاعماق.

ونستطيع أن نمضي في سرد المزيد من تلك الخصائص ولكن ترى ماهو الخيط السيكلوجي الذي يربط بين تلك الخصائص جميعاً؟ بعبارة

أخرى ما هى الصورة العامة لشخصية السابرا كجماع لتلك الخصائص كلها . ؟

إن البرت رابين عالم النفس الأمريكى الذى أشرنا إلى بعض بحوثه خلال دراستنا يقدم على شىء من هذا القبيل وهو بصدد تفسير بعض نتائج أسفرت عنها دراسة له بعنوان «نضج الشخصية لدى الأطفال الكيبوتزين ، وغير الكيبوتزين كما يعكسها الرورشاخ» (١) حين يؤكد أن ثمة نضجاً مبكراً يميز شخصيات السابرا .

وتزداد إشارة رابين وضوحاً فى مقالة له تاليه سبق أن أشرنا إليها (٢) يحاول رابين فى هذه المقالة أن يفسر ما أسفر عنه بحثه من إتصاف السابرا ببعض الخصائص السلوكية كالتشكك والتشاؤم بتعبير شامل مؤداه أنهم أكثر جديه أو أكثر نضجاً من أقرانهم أو بعبارة أخرى أنهم يسبقون سنهم .

يقول رابين : «إن الأطفال الإسرائيليين يبدون أقل تفاؤلاً إذا ماقورنوا بما هو معروف عن الأمريكيين من تفاؤل . إن عدداً أقل يرون المستقبل وردياً . ولعل ما يسود أمتهم من مخاطر وما تضفيه عليهم خبرات العمل من اتجاه واقعى يجعل حتى الطفل الذى يبلغ العاشرة أقل تفاؤلاً بالمستقبل كذلك فإن أهدافهم (كما عبرت عنها نتائج الاختبار) أقل طفلية ، ويغلب عليها أن تكون أهدافاً مهنية معبرة عن استمراريتهم فى دور الراشدين .. إن الأطفال الإسرائيليين يبدون أكثر

1. Rabin, A.I. Personality maturity of Kibbutz (Israeli Collective settlement) and rr on-Kibbutz children as reflected in Rorschach, Journal of Progective Techniques, Vol. 21, 1957, pp. 148-153.

2. Rabin, A.I. Comparison of American and Israeli children by neans of a sentence completion techique, Op. Cit.

نقداً لانفسهم، وأكثر انشغالا بخروج الآخرين على القيم الخلقية.. وربما يرجع ذلك إلى كونهم يصبحون راشدين فى فترة اسبق عن غيرهم (١).

إن رابين فيما نرى لم يجاوز الحقيقة كثيراً فى تفسيراته، وإن لم تتسع تلك التفسيرات للحقيقة كلها. فلنحاول أن نمعن النظر من جديد فى تلك التفسيرات لعلنا نستطيع من خلالها أن نستشرف من الحقيقة ما يكمل لدينا الصورة.

مامعنى أن تصف طفلاً أو إنساناً بعامة بأنه يسبق سنه؟ هل يعنى ذلك إننا حيال مجرد نضج مبكر؟ وإذا كان الأمر كذلك فبأى قدر يسبق السابرا اعمارهم؟.

لقد شدت ظاهرة النمو النفسى إهتمام المشتغلين بعلوم الإنسان منذ زمن بعيد، وكانت مجالا لعديد من دراسات علماء النفس ولقد «تطورت هذه الدراسات جميعاً حتى أصبحت علما مستقلاً يبحث فى سيكلوجية النمو بجميع مظاهرة وفى جميع مراحله واتصلت هذه المظاهر جميعاً وتداخلت مع بعضها فى اتساق منطقى علمى تجريبى، وبذلك نشأ علم النمو النفسى.. وهذا يعنى أن الخواص المختلفة لظاهرة النمو النفسى أصبحت واضحة الحدود والمعالم، وتمايزت فى خصائصها وفى اطوارها، واستقامت كميدان مستقل من ميادين علم النفس الحديث (٢).

والنمو النفسى وفقاً للتعريف العلمى المحدد «سلسلة متتابعة

---

1. Ibid.

(٢) فؤاد البهى السيد: الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة، دار الفكر العربى، القاهرة: ١٩٦٨، ص١٩، ٢٠.

متماسكة من تغيرات تهدف إلى غاية واحدة، هى اكتمال النضج ومدى استمراره وبدء انحداره. فالنمو بهذا المعنى لايحدث فجأة، ولايحدث خبط عشواء، بل يتطور بانتظام خطوة أثر خطوة، ويسفر فى تطوره هذا عن صفات عامة تحدد ميدان أبحاثه (١)... «وتخضع أطوار النمو لتتابع منتظم وتأتلف مظاهره فى سلم متعاقب الدرجات لا تتقدم فيه خطوة عن أخرى. فالطفل يقعد قبل أن يحبو، ويحبو قبل أن يقف ويقف قبل أن يمشى، ويصرخ صرخة الميلاد قبل أن يناغى، ويناغى قبل أن يتكلم، ويجيد رسم المنحنيات قبل أن يجيد رسم الخطوط المستقيمة (٢).

النمو النفسى إذن ليس سباقاً مفتوحاً، الفوز فيه لمن بلغ النضج مبكراً.صحيح أننا قد نشهد فى حياتنا اليومية طفلا يمشى قبل اقرانه، أو يتمكن من نطق الكلمات قبلهم، أو يسبقهم فى الامساك بالقلم أو فى التحكم فى عادات النظافة أو ما إلى ذلك. كل ذلك قد نشهده دون أن يثير دهشة المتخصصين من بيننا. ولكن لكل شىء حده ومقداره الذى إذا تجاوزه أثار تساؤل المتخصصين ودهشة غير المتخصصين أيضاً. ولنتصور مثلا طفلاً فى الثانية من عمره يستطيع نظم الشعر مثلاً، أو طفلا فى الخامسة من عمره يستطيع حل المعادلات الرياضية. عند ذلك الحد تنبعث الدهشة ويثار التساؤل إذ نصبح حيال ماقد يسميه العامة «طفل معجزة».

لقد تعمدنا أن نختار أمثلتنا التصويرية من مجال يندر فيه حدوث مثل تلك المعجزات، أعنى مجال «القدرات العقلية» وذلك بحكم

---

(١) فؤاد البهى السيد: مرجع سابق ص٢٢.

(٢) فؤاد البهى السيد: مرجع سابق ص٨٨.

طبيعة تلك القدرات وتركيبها، واعتماد مراحلها بعضها على البعض بشكل صارم. وقد هدفنا من سوق تلك الامثلة أن نوضح فحسب إن «النضج المبكر» قد يكون أمراً عادياً فى حدود معينة، وأنه قد يصبح شيئاً شاذاً إذا ما تخطى تلك الحدود.

والأمر بالمثل فيما يتعلق بالنضج الانفعالى، فلكل مرحله من مراحل النمو خصائصها الانفعالية التى تميزها عن سواها، والانتقال من مرحلة إلى مرحلة فى هذا المجال يحكمه مايحكم النمو عامة من قوانين وقواعد. غير أن ثمة فرقاً هاما بين المجال العقلى والمجال الانفعالى يجدر بنا الإشارة إليه. قد يكون النضج العقلى المبكر أمراً مرغوباً اجتماعياً وأخلاقياً، وسواء كان بلوغه ممكنا أو مستحيلا، بل لعل الكثيرين منا يسعون جاهدين لكى يحققوا لابنائهم ذلك السبق العقلى المبكر أو هم يتمنونه على الأقل. وبصرف النظر عما يمكن أن يحققه ذلك السعى أو التمنى من فائدة أو ضرر فمما لاشك فيه أننا وإن دهشنا لطفل يسبق اقرانه عقليا فـإن دهشتنا تلك تكون غالبا نوعاً من الانبهار بقدراته والاعجاب بها أمـا فيما يتعلق بالموقف من النضج الانفعالى المبكر فإن الأمر لايبدو على ذلك القدر من التقبل الإجتماعى والاخلاقى. ولنتصور معا طفلا لايلعب ولايثرثر، ولايضحك إلا بمقدار ولسبب معقول، يحزن إذا حزن بمقدار، ويبكى إذا بكى بمقدار، يتحدث أحاديث الكبار، وينفعل كما ينفعلون. صحيح أننا قد نعجب بمثل ذلك الطفل ولكنا حينذاك لانعجب منبهرين بل مشفقين.

خلاصة القول أنه إذا ماكان ثمة خير فى النضج العقلى إذا ما جاوز حده، فليس ثمة خير كثير فى نضج انفعالى يجاوز تلك الحدود. إننا لانصبح فى تلك الحالة الاخيرة حيال استباق لمراحل النمو، بقدر مانصبح حيال إجهاض لمرحلة أو أكثر من مراحل ذلك النمو.

ولنعد بعد ذلك الاستطراد الضرورى إلى موضوع بحثنا إلى السابرا وتلك الخصائص الانفعالية التى أسفر بحثنا عن اتصافهم بها . ترى إلى أى مرحلة من مراحل النمو تنتمى تلك الخصائص ؟ .

لقد أجرى العالم النفسى بروزيك دراسة نشرها عام ١٩٥٥م (١) على مجموعتين من الأفراد : الأولى من الشبان الراشدين ، والثانية من الكبار الذين تمتد أعمارهم من ٤٥ سنة إلى ٥٥ سنة . ومن بين الفروق الانفعالية التى أسفرت الدراسة عن أنها تميز بين المجموعتين :ــ إن الكبار لايحبون النقد ، وإنهم أقدر على إخفاء مظاهر غضبهم ، وأن انفعالاتهم أقل تواتراً فى حدوثها من انفعالات الشبان .

كذلك فإن عالم النفس المصرى فؤاد البهى السيد وهو بصدد رصده للمظاهر الانفعالية لمرحلة الشيخوخة وهى ــفى رأيهــ تبدأ منذ سن الستين يشير إلى عدد من الخصائص لاتخفى دلالتها على أحد فى مجال بحثنا ، فالشيوخ «يميلون للمديح والاطراء (٢) ... وقد يؤدى بهم القلق إلى الكآبة ... وما أكثر شكوك الشيوخ وريبتهم فى الآخرين ... (٣)

ثم يحدد فؤاد البهى ما يميز مرحلة الشيخوخة انفعالياً عن بقية المراحل فى نقاط ثمان نوردها كما هى دون تصرف (٤) .

(١) يحلو للشيوخ أحياناً أن يقفوا من البيئة المحيطة بهم موقفا سلبيا لاينفعلون لها أو معها ، وكأنهم بهذا يعبرون عن شعورهم بالهوة

---

(١) فؤاد البهى السيد : المرجع السابق ص٤٢٢ .
(٢) فؤاد البهى السيد : المرجع السابق ص٤٢٣ .
(٣) فؤاد البهى السيد : المرجع السابق ص٤٢٤ .
(٤) فؤاد البهى السيد : المرجع السابق ص ٤٢٤ــ ٤٢٥ .

السحيقة التى تفصلهم عن الاجيال الأخرى التى تضطرب بها الحياة من حولهم.

(٢) ولذا كثيراً ماتتصف انفعالاتهم بالخمول وبلادة الحس.

(٣) وقد يرجع هذا الشعور الغريب بالسلبية والبلادة إلى عدم ادراك الشيخ للمسئولية التى تواجه من يحيطون به. فهو يمضى فى حياته، ومشاكل الناس حوله تدفعه إلى ألوان مختلفة من الكفاح المرير، وهو لايشعر نحوهم ولانحو مشاكلهم بأية مسئولية تتطلب منه استجابة انفعالية محدده.

(٤) ولذلك يقل حماسهم لما يحيط بهم من مشكلات انفعالية يضطرب فيها الاخرون.

(٥) وهم عندما ينفعلون، كثيراً مايخطئون ادراك الموقف المحيط بهم. وتجيء انفعالاتهم شاذة لاتتناسب ومقومات الموقف الذى أثار فى نفوسهم ذلك الانفعال.

(٦) ويغلب على انفعالهم لون غريب من التعصب الذى لايقوم فى جوهره على أى أساس، فهم يتعصبون لجيلهم ولارائهم، ولعواطفهم، ولكل ما يمت إليهم بصلة قريبة.

(٧) وعندما لايتقبل الآخرون ذلك التعصب بروح المشاركة والولاء فإنهم يحسون فى أعماقهم بأنهم مضطهدون.

(٨) ويؤدى بهم الشعور بالاضطهاد إلى الاحساس العميق بالفشل. وقد يتخذون سلوكا معاديا فيجابهون الاضطهاد الذى يقع عليهم باضطهاد الآخرين.

ترى هل مازلنا فى حاجة للقول بأن تلك الخصائص التى أوردها فؤاد

البهى باعتبارها مميزة للشيوخ يمكننا أن نعيد قراءتها باعتبارها مميزة المسابرا دون ما حاجة إلى تعديل كبير؟

السابرا إذن ليسوا مجرد أطفال أو شباب يميزهم نضج مبكر، بل إن ذلك النضج ليمضى إلى أبعد من ذلك، إنه يمضى لهم إلى الشيخوخة إذا ما اعتبرنا أن الشيخوخة مرحلة من مراحل النضج، وهى كذلك بالفعل. إنهم من الناحية السيكوجية أطفال شيوخ أو بعبارة أخرى (شباب عجوز).

وإلى هنا ينبغى أن يقف بنا الحديث فى حدود علم النفس أو علم النمو النفسى فإذا شئنا مزيداً من التفسير، أو بعبارة أخرى إذا ماكان لدينا من الجهد والرغبة مايشدنا إلى مزيد من التوغل فى ذلك الطريق غير الآمن، طريق التفسير والتحليل والفهم، فإن علينا أن نتجاوز قليلاً حدود علم النفس منقبين فى مجالات أخرى أدخل فى نطاق علوم الاجتماع والتاريخ والاقتصاد والسياسة. محاولين فى ذلك التنقيب عن الإجابة عن عدد من التساؤلات يتمثل محورها فى تساؤل مؤداه: مادلاله أن يسعى مجتمع من المجتمعات إلى صنع ذلك النوع من «الشباب العجوز» ؟.

شباب عجوز

كما أن للبشرية علوماً أنجزتها ومازالت تعمل على إثرائها، فإنها قد عرفت عبر تاريخها الطويل الكثير من الأحلام التى كانت فى كثير من الاحيان تعبيراً عن شوق الإنسان إلى المعرفة بالكون واستباقاً بالأمانى إلى منجزات العلم الطبيعى. وكانت فى أحيان أخرى تعبيراً عن شوق الإنسان إلى العدل الاجتماعى، واستباقا بالأمانى إلى منجزات العلوم الانسانية. وتاريخ الفكر الانسانى بما يحويه من أساطير وحكايات، وما يتضمنه من مدن فاضله، يعد معينا لاينضب لمن يرغب فى التنقيب عن تلك الأحلام والرؤى التى تحقق منها ماتحقق. وبقى منها مابقى محتفظاً بقدرته على حفز البشر إلى تحقيقه. وتحطم منها ماتحطم على صخور الواقع العلمى، فاقدا قدرته على الحفز، قانعاً بدوره كحلم مستحيل ترويه الجدات العجائز لاطفالهن عند النوم، ويطمئن إليه أولئك المشتاقون إلى المعرفة أو إلى العدل الاجتماعى ممن تقعد بهم امكانياتهم أو عزائمهم عن جهد محاولة الانجاز، ويحول طموحهم وتطلعهم دون اقتناعهم باستحالة المستحيل فيلبثون فى إماكنهم، مطمئنين لاحلامهم كأشد ما يكون الاطمئنان، سعداء برؤاهم كأشد ما تكون السعاده.

وقد نجد غير هؤلاء وهؤلاء من البشر من لايكفون عن محاولة المستحيل يفشلون مرة ومرة وتتعدد مرات فشلهم وهم لايستطيعون تخليا

عن حلمهم بعد أن اطمأنوا إليه ، ورغم كل ما يشير إلى استحالته بل وإلى عدم جدوى تحقيقه أيضاً. أنهم ورغم كل شيء يمضون في محاولاتهم ، دون أن يفقدوا الأمل في وقوع المعجزة ، وتحقق المستحيل.

ويعنينا من تلك الأحلام والرؤى حلمان متميزان. عرفهما الإنسان واستحال عليه أن يحقق أيا منهما. ورغم ذلك فقد ظلا دوما يداعبان خياله. ومن حين إلى آخر يقدم الإنسان على محاولة تحقيق أيا منهما آملاً في وقوع المعجزة وتحقق المستحيل والحلمان الذين نعنيهما مرتبط أحدهما بالآخر ارتباطاً وثيقاً ، وحتى ليكادا يكونا شكلين لامنية واحدة تتمثل في محاولة الجمع في الفرد الواحد بين مزايا الشباب والشيوخ جميعاً. أو بالتحديد في محاولة أن يلبس الشيخ لباس الشباب انفعالا وعاطفة وفي محاولة أن يلبس الشاب لباس الشيوخ تعقلاً وبروداً.

واتخذت الصورة الأولى أشكالاً عديدة تطالعنا على مستوى الامنيات والاساطير والحكايات الشعبية التي تدور عن اكسير للحياة الطريق إليه شاق ، وطويل ومليء بالصعاب. ومن استطاع تحمل مشاق الطريق ، وبلغ الغاية ، ورشف من ذلك الاكسير لم تعرف الشيخوخة إليه سبيلا ، وحصل على شباب دائم ، والقصص كثيرة تجل عن الحصر. ولعل مانشهده الآن من شغف الكثيرين وتتبعهم ، بل وترقبهم ، لما يمكن أن يقدمه «العلم» في هذا الصدد من عقاقير وأدوية تعيد للشيوخ شبابهم ـــ لعل ذلك كله يمثل أشكالاً جديدة لنفس الصورة وإن كانت على مستوى محاولة الانجاز.

وفي الحقيقة فإن الصورة الثانية ، أو الحلم الثاني هو الأكثر التصاقا بموضوعنا ، أعني السعي نحو أن يصبح الشاب شيخا في حكمته وبرودة ولا يبقى له من شبابه إلا قوته وقدرته على الاحتمال.

لقد راود البشرية ذلك الحلم منذ قديم. والفكر البشرى بما فيه من أساطير وقصص شعبية ملىء بحكايات لاحصر لها عن معجزة «الطفل الحكيم» الذى لاينطق رغم صغر سنه إلا حكمة خالصة والذى يصدر فى تصرفاته عن تعقل يعجز عن مجاراته فيه الشيوخ الحكماء، وغالبا ماتنتهى مثل تلك الحكايات باقتناع الشيوخ باعجاز ذلك الطفل وإسلام قيادهم له.

وإذا كانت الأساطير الشعبية لاتعنى كثيراً بتفسير مثل تلك المعجزات ولاتنشغل بالتخطيط أو السعى لاحداثها فإن تاريخ الفكر الفلسفى والاجتماعى لايخلو من محاولات التصدى لتلك المعجزات تفسيرا وتخطيطاً بل وسعيا كذلك.

يقول آرثر شوبنهور «إذا جذبنا فجأة من سيل الرغبات المتدفق عامل خارجى، وميل داخلى، فخلصت المعرفة من استبداد الإرادة بحيث لايعود انتباهنا يتجه إلى دوافع الرغبة بل إلى تفهم الاشياء، وهى حره مما يربطها بالارادة من روابط، ثم ينظر إليها نظرة لايشوبها شىء من الهوى الشخصى والنزعة الذاتية أى ينظر إليها نظرة موضوعية خالصة. إذا ما انصرف العقل بكليته إلى الأشياء باعتبارها أفكاراً لا باعتبارها دوافع مثيرة للرغبة، عندئذ يرفرف علينا السلام الذى طالما نشدناه، والذى مافتىء يفلت فى ذلك السرداب من الرغبات»[1] ذلك هو ما قاله شوبنهور الفيلسوف الألمانى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر على وجه التقريب مؤكداً أن السعادة إنما تتحقق بانتصار

---

(١) أحمد أمين، وزكى نجيب محمود. قصة الفلسفة الحديثة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٤٩، ص٤٣٩، ٤٤٠.

العقل على الرغبة والفكر على الإراده. ولقد جسد شوبنهور فكرته فى تصوره «للعبقرى» ــ إنسانه المثالى ــ باعتباره أعلى صورة من صور هذه المعرفة اللاإرادية (١).

ويتحول الحلم من عبقرى «شوبنهور إلى «سوبرمان» نيتشه الذى يقول عنه «النشاط والعقل والكبرياء ــ هذه هى مقومات الإنسان الأعلى ولكن على أن يكون بينها انسجام واتساق، ولن تكون العواطف قوة دافعة إلا إذا وحد بينها غرض جليل يصوغ شتى الرغبات فى شخصية متزنة قوية، فويل للمفكر الذى لايقف من أفكاره وعواطفه موقف البستانى الذى يهذب ويشذب، ويقنع بأن يكون تربة ينمو فيها النبات .... إن من ينساق لعواطفه وغرائزه هو الضعيف الذى تعوزه قوة أكبر والذى ليس لديه من القوة ما يقول به لا إذا وجب قولها فاسمى ما يسموا إليه الإنسان هو أن ينظم نفسه، فإذا أردت ألا تكون نكره من غمار الناس وسوقتهم فما عليك إلا أن تعسر على نفسك فى الحساب» (٢). كان ذلك هو تصور نيتشه للسوبرمان أو للإنسان الأعلى. هو الإنسان الذى يتخذ من عواطفه موقف الكبح والرفض والتقييد.

لم يقف نيتشه عند حد طرح تصوره للسوبرمان بل إنه قد تقدم بالعديد من المقترحات والاساليب التى رآها كفيلة بخلق ذلك الإنسان الأعلى ومن بين تلك المقترحات والاساليب اقتراح محدد بإنشاء مدرسة يرى فيها نيتشه الطريق لصياغة الإنسان الأعلى. ونرى فيها نحن صورة قريبة الشبه بالكيبوتز الاسرائيلى.

---

(١) أحمد أمين، وزكى محمود. مرجع سابق ص ٤٤٠.

(٢) أحمد أمين، وزكى نجيب محمود، المرجع السابق. ص ٥٤٠ ــ ٥٤١.

يقول نيتشه فى وصف مدرسته تلك. «إنها مدرسة عنيفة قاسية تقصد بتلاميذها إلى الكمال، فتلقى عليهم بواهظ الاعباء دون أن ينعموا بكثير من أسباب الترف، ويؤخذ الجسم بالتعذيب والقسوة ليحتمل البلاء فى صمت، وتتعلم الإراده كيف تطيع وكيف تأمر»(١).

لقد سقنا هذين النموذجين كمجرد امثلة على ذلك الفكر الذى عرفته البشرية منددا بالعواطف والرغبات والانفعالات مناديا بسيادة العقل والفكر، وداعيا إلى خلق إنسان نموذجى يتجسد فيه كل ذلك. ومثل ذلك الإنسان المأمول ليس فيما نرى سوى نموذجا للشاب العجوز أو الطفل الحكيم الذى أشرنا إليه سواء اسماه شوبنهور «العبقرى» أو اسماه نيتشه «السوبرمان» أو اطلق عليه غيرهم غير ذلك من الاسماء.

إن ذلك الفكر جميعا لم يتعد على ايدى أصحابه من الفلاسفة حدود التصور وإذا تعداها فاقصى ما وصل إليه هو التخطيط ولكن على المستوى النظرى كذلك. ولكن ليت الأمر كان قاصراً على الفلاسفة وفلسفاتهم إذن لهان كثيراً. ولكن ذلك لم يحدث.

لقد وجد النظام الفاشى المتمثل فى النازية بغيته فى تلك الافكار وسرعان ما تبناها ووضعها موضع التطبيق الفعلى تعبيراً عن سعيه المقصود نحو خلق إنسان جديد متفوق يجمع بين «عبقرى» شوبنهور، و«سوبرمان» نيتشه تحت اسم جديد هو «الإنسان الآرى». لقد كان نيتشه هو الاب الفكرى للفاشية(٢).

---

(١) أحمد أمين، وزكى نجيب محمود، المرجع السابق ص٥٣٩.

2. Nathan, Peter, The psychology of Fascism, Faber & Faber, p. 107

ترى ما الذى يشبعه ذلك الفكر فى النظام الفاشى؟ هل ثمة ما يتعارض فى ذلك النظام مع الخصائص السيكلوجية للشباب بحيث يسعى إلى وأدها؟ أم إنه مجرد سعى خالص لتحقيق أسطورة «الشباب العجوز» بعيداً عن أى ملابسات اجتماعية؟.

إن العديد من الكتابات المتخصصة (١، ٢، ٣)، تشير بوضوح وبأساليب شتى إلى أن ثمة رباط وثيق يربط بين أمور ثلاث تشكل معا الطابع الاجتماعى للنظام الفاشى:ـ

(١) ظروف اقتصادية وسياسية وتاريخية معينة.

(٢) تصور فكرى يعبر عن تلك الظروف ويعد فى نفس الوقت انعكاسا ونتاجا لها وقد تمثل ذلك التصور فى الفكر العنصرى بعامة، وفى فكرة «الإنسان الآرى» على وجه الخصوص.

(٣) انعكاس تلك العوامل جميعاً الاقتصادية والسياسية والتاريخية والفكرية فى أساليب معينة للتنشئة الاجتماعية تدعم البناء الاقتصادى الاجتماعى للفاشية وتكون فى نفس الوقت انعكاس لذلك البناء، وضمان لاستمراره بكفالة أجيال جديده من الشباب الفاشى أعنى الشباب العجوز.

ويمثل الكيبوتز الاسرائيلى فيما نرى صورة جديده من صور ذلك السعى نحو شكل جديد من ذلك «الشباب العجوز» شكل يتجسد فيه «عبقرى» شوبنهور «وسوبرمان» نيتشة، بل ويتجسد فيه أيضاً

---

1. Fromm, Iric. Escape from freedom, Farras & Rinchart, Inc., New York: 1941.
2. Reich, W. The mass psychology of fascism, Orgone Institute Press, New York, 1946.
3. Adorno, T.W., K.F. Brunswik, D.J. Levinson & R.N. Sanford. The authoritarian Personality. Harper & Brothers, New York, 1950.

«الإنسان الآرى» الذى سعت إليه النازية بكل ما يميزه حتى من تعصب عنصرى. وليتخذ هذه المرة اسما جديداً هو «السابرا».

إنسان إسرائيلى جديد، يصنع له اباؤه الاشكنازيون مدرسة هى الكيبوتز تقترب فى مواصفاتها من مدرسة نيتشه ينشئونه فيها على كل ما يريدونه أن ينشأ عليه من خصائص سبق أن فصلناها قدر ما استطعنا. وإذا ماشئنا ايجازا للعملية كلها لقلنا إن الاشكنازيين الاسرائيليين ـ شأنهم شأن النازيين الألمان ـ يسعون ما وسعهم السعى إلى أن يبتكروا من أساليب التنشئة الاجتماعية ما يكفل لهم بقدر المستطاع وأداً لخصائص الشباب السيكلوجية لدى ابنائهم وغرسا وتدعيماً لخصائص الشيوخ لديهم.

ولعل تفسير ذلك السعى الإسرائيلى نحو خلق «شباب عجوز» إنما يكمن فيما بين النظام الإسرائيلى والنظام النازى من رباط أساسى يتمثل فى ذلك التقسيم العنصرى الصارم لفئات المجتمع. صحيح أن النازية كانت تسعى علانية للدفاع عن ذلك التقسيم وتدعيمه. وصحيح كذلك أن النظام الإسرائيلى ـ أعنى الحكومة الإسرائيلية ـ تسعى ما وسعها الجهد إلى القضاء على ذلك التقسيم أو على الأقل تغطيته. ورغم كل ذلك، فإنه صحيح أيضاً أن «المجتمع الإسرائيلى» و«المجتمع النازى»، مجتمعات تسودها العنصرية من الناحية العملية بصرف النظر عن نوايا الحكومات المعلنة أو الخبيئة ومادام ذلك هو الواقع الاجتماعى الفعلى فلا مناص ـ مهما بلغت النوايا من أن يترك انعكاسه واضحاً فى كافة نواحى الحياة فى ذلك المجتمع.

خاتمــة

ذلك هو تصورنا لسيكلوجية السابرا فى اسرائيل أنهم «شباب عجوز». ولعل سؤالا قد ألح على القارىء وعلينا كثيراً: وماذا عن النصف الآخر، أعنى عن شباب السفارديم الاسرائيلى؟ ما هى المكونات الرئيسية لسيكلوجيتهم.؟

والاجابة عن ذلك السؤال تقتضى ولاشك بحثا منفصلا لعلنا، أو لعل غيرنا من الباحثين يتمكن من انجازه...

مراجع البحث

أولا : المراجع الاجنبية

1- Adorno. T.W.E.F. Brunswik. D.J. Levinson & R.N. Sanford. The Authoritarian Personality Harper & Brothers, New York : 1950.

2. Alexander. Pierre some Linguistic problems of nation bulding in Negro Africa In Language problems developing nations, (eds), J. A. Fishman, C.A. Ferguson & J. Das Gupta, John Wiley & Sons inc. New York : 1968.

3- Alport, E.A. The integration of Oriental jews in Israel, The World today, Vol. 23, 1967, pp. 153-160.

4- Bakaliar - Alon, Sh. About the emotional and intellectual features of the Yemennte youth, Psychological Abstracts, No. 1898. 1953..

5- Berezin, F.M. Lectures on linguistics, Higher School pubisihing, House, Moscow : 1969.

6- Berkman, Ted, Sabra, Barper & Row publishers, New York : 1969.

7- B ettelhaim, Bruno, The children of the dream, Macmillan Company. London, 1969.

8- -------- Personality formation in the Kibbutz, American Journal of Psychoanalysis, vol. 29, 1969 pp. 3-9.

9- Blance, Haim, The Israeli Koine as an emergent national standard In Language problems of developing nations, (eds.), J.A. Fishman, C.A. Ferguson & Das Gupia, John Wiley.

10- Bondy, Ruth The Israelis, (Trans. From the Hebrew : Israel, I. Taslitt), Funk & Wagnalls, New York : 1969.

11- Brock, Jan O.M. National character in the parspective of cultural geography, The Annals, Vol. 370, 1967 pp. 5-15..

12- Chigier, E. & Mirriam chigier. Attitudes to disability of children in the multi-cultural society of Israel, Journal of Health & Social Behavior, vol. 9, 1968, PP. 310-317.

13- Das Gupta, J. & J.G. Gumperz. Language, Communication, and control in North India, In, Language problems of developing nations (eds.), J.A. Fishman, C.A. Ferguson & J. Das Gupta, John Wiley & Sons inc., New York : 1968.

14- Eisenstadt, S.N. Youth, Culture, and social structure in Israel, Brit. J. of Sociology, vol. 2, 1951.

15- English, H.B. & A.C. English. A comprehensine dicttionary of psychological and psycohoanalytical terms, Longmans, Harlow : 1958.

16- Essring, Harry & Abraham segal Israel today, Union of American Hebrew Congregations, New York : 1970.

17- Friedman, Georges. The end of the Jewish people Doubleday & company inc., New York : 1968..

18- Fromm, Eric Escape from freedom, Farrar & Rinshart, inc., New York : 1941.

19- Goldschmidt, Dietrich "Israel and the modern world", Social compass, vol. 9, 1962 pp. 215-220.

20- Handel, A. Self-concept of the kibbutz adolescent, Kibbutz atudies, IN, A.I. Rabin, Michigan State University press, Michigan : 1971 pp. 72-73.

21- Hess, J.P. Problems of adolescence from the point of view of the psychiatric clinic, psychological abstracts, No., 3997, 1968.

22- Huss, Hava. Results of a survey on 8th grade pupils in special schools, Psychological Abstracts, No. 789, 1967.

23- Luria, Zella, Miriam Goldwasser & Adena Goldwasser. Response to transgrassion in stories by Israeli Children, Child development, vol. 34, 1963 pp. 271-280.

24- Markman, Ronald A. Juvenile delinquency in Israel, Amer. J. of psychiatry vol. 123, 1966 pp. 363-469.

25- Mikes, George. The prophet motive : Israel today and tomorrow, andre Deutsch LTD., London/1959.

26- Nathan, Peter the psychology of Fascism, Faber and Faber Ltd., London (undated).

27- Ormian, H. The attitudes of Israel high-school students toward Mendelle, Psychological Abstrats, No. 7391, 1951.

28- Pirojnikoff, L.A., J. Hadar & A. Hadar. Dogmatism and social distance : Across-Cultural study, Proceedings of the annual convention of the APA, vol. 5, 1970 pp. 323-324..

29- Rabin, A.I. Personality maturity of Kibbutz and non-kibbutz children as reflected in Rorshach, Jornal of Projective Techniques, Vol. 21, 1857, pp. 148-152.

30- ——— some psychosexual differences between kibbutz and non-kibbutz Israeli boys, Journal of projective techniques, vol. 22, 1958., pp. 328-332.

31- ——— Comparison of American and Israeli children by means of a sentence completion technique, The Journal of social psycho. vo. 59, 1959. pp. 3-12.

32- ——— Kibbutz Adolescents, Amer. J. of Orthopsychiatry, vol. 31, 1961, pp. 493-504.

33- ——— & Hanna Goldman, The relationship of severity of guilt to intensity of identification in Kibutz and non-Kibbutz children, J. of Social Psychology, vol. 69, 1956, pp. 159-163.

34- Reich, W. The mass psychology of Fascism, Orgone Instute Press, New York : 1946.

35- Richardson, S.A. et al. Cultural uniformity in reaction to physical disabilities, American Sociological Reveiw, vol. 26, 1961, pp. 241-247.

36- Rubin, Morton (Review) Israel Between East and west, by Raphael Patai, American Anthropologist, Vol., 56, 1954, pp. 310-311.

37- Russcol, H. & M. Banai The first million of Sabras a portrait of the native-born Israelis, Dodd., Mead. Comp., New York: 1970

38- Shaham, Nathan La second generation, Esprit, 34, Annee, No. 352, 1966 pp. 200-206.

39- Shibutani, T. & K.M. Kwan ethnic stratification; Macmillan: New York : 1965.

40- Spiro, M.E. the sabras and zionism, social problems vol. 5, 1957, pp. 100-110.

41- -------- Children of the Kibbuts, schooken Books, New York, 1965.

42- --------- Kibbuts : Venture in Utopia, schocken Books, New York : 1967.

43- Wolman, B. The social development of Israel Youth, Psychological Absteacts, No. 5759, 950.

44- Ziv, Avener & H. Shauber contribution to a crosscultural study of manifest anxiety in children, Human development, Vol. 12, 1969, pp. 178-191.

ثانيا : المراجع العربية

٤٥ ـ ابراهيم البحراوى ـ أضواء على الادب الصهيونى المعاصر، دار الهلال، القاهرة، ١٩٧٢.

٤٦ ـ أحمد أمين، وزكى نجيب محمود ـ قصة الفلسفة الحديثه، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة: ١٩٤٩.

٤٧ ـ دويتشر، اسحق، دراسات فى المسألة اليهودية، ترجمة مصطفى الحسينى، دار الحقيقة، بيروت: ١٩٧١.

٤٨ ـ ستالين، ج، حول الماركسية فى علم اللغة، دار ابن سينا، بيروت: (تاريخ النشر غير معلن).

٤٩ ـ فؤاد البهى السيد. الاسس النفسية للنمو: من الطفولة إلى الشيخوخة، دار الفكر العربى، القاهرة: ١٩٦٨.

٥٠ ـ قدرى حفنى: رأى فى نشأة علم النفس، الفكر المعاصر القاهرة: ابريل ١٩٧٠، ص ٣٠ ـ ٤٢ ـ ٥١.

٥١ ـ ــــــــــ: نظرة مادية إلى نشأة علم النفس، الفكر المعاصر، القاهرة يونية ١٩٧٠، ص ٣٠ ـ ٤١.

٥٢ ـ ــــــــــ: علم النفس بين الطبقية والموضوعية، الفكر المعاصر، القاهرة اكتوبر ١٩٧٠، ص ٨٢ ـ ٨٨.

٥٣ ــ ــــــــــ : الدراسات النفسية بين التشابة والاختلاف الطليعه، القاهرة، ديسمبر سنة. ١٩٧٠ ص ٨٢ ــ ٨٨.

٥٤ ــ تجسيد الوهم: دراسات سيكلوجية للشخصية الاسرائيلية مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية، مؤسسة الاهرام، القاهرة: ١٩٧١.

٥٥ ــ ــــــــــ : قراءة سيكلوجية لنماذج من الادب الاسرائيلى المعاصر. دراسات اشتراكية. القاهرة: اغسطس سنة ١٩٧٢، ص ١٣٧، ١٤٠.

٥٦ ــ معين بسيسو. نماذج من الرواية الاسرائيلية المعاصرة الهيئة العامة للتأليف والنشر: القاهرة ١٩٧٠.

٥٧ ــ هل، ك. وج. لنذرى ــ نظريات الشخصية، (ترجمة: د. فرج أحمد فرج، وقدرى حفنى، ولطفى فطيم ومراجعة: د. لويس كامل مليكة) الهيئة العامة للتأليف والنشر، القاهرة: ١٩٧١.

الباب الرابع

التكوين السيكلوجى الاسرائيلى
وقضايا الحرب والسلام

تم اعداد هذا المقال فى منتصف عام ١٩٧٧ .

* تجمع اسرائيلى فى مؤسسة عسكرية
* وجهتا نظر
* أى حرب نعنى؟ وأى سلام نستهدف
* خفوت التهديد
* افتقاد الأمن
* الاثار النفسية لحرب أكتوبر

تجمع اسرائيل فى مؤسسة عسكرية

رغم الحداثه النسبية لتعبير «المؤسسة العسكرية» فإن وجود مثل تلك المؤسسات أيا كان تعريفنا لها يكون أمراً حتمياً وطبيعياً فى كافة المجتمعات البشرية. فالمؤسسة العسكرية هى التنظيم الاجتماعى الذى يتحدد دوره فى السعى إلى تحقيق أهداف متمثلة فى الدولة إذا ما تطلب بلوغ هذه الأهداف استخدام القوة.

ويعلمنا التاريخ أن الأرض والبشر هما البداية. ومن خلال تفاعل جماعة بشرية معينة، فوق بقعة من الأرض، وعبر مراحل تاريخية متشابكة. ينشأ المجتمع وتتبلور العلاقات المتبادلة بين ابناء المجتمع بمختلف فئاتهم لتحدد طبيعة السلطة وشكل الدولة فى هذا المجتمع، وأبعادها السياسية والايديولوجية. وتتحدد بالتالى التنظيمات السياسية المناسبة لتلك الأبعاد، وأخيراً تتشكل المؤسسات العسكرية وفقا لتلك المقتضيات جميعاً. صحيح أن بعض تلك الخطوات قد يتانى أو يتشابك ولكن لا يمكن أن يسبق بعضها البعض.

هكذا تسير الأمور فى المجتمعات «الطبيعية» أما بالنسبة للتجمع الإسرائيلى ومؤسساته العسكرية فقد اتخذ الأمر عكس هذا المسار التاريخى الطبيعى تماماً. فخلال القرن التاسع عشر، بدأ النشاط العملى للصهيونية فى أوروبا مستهدفاً الفصل بين الأرض «والبشر»

عنصرى البداية التاريخية الأولى. لقد سعت إلى الفصل بين الفلسطينين و« الأرض العربية » مستهدفة فى النهاية انتزاع اليهود من أرضهم، واستنباتهم فى أرض جديدة. ولم يكن بد والأمر كذلك من أن يكون الهدف العملى الأول للصهيونية على الأرض العربية هو إخلائها من أصحابها واعدادها لاستقبال النبت الغريب. ولم يكن ممكنا أن تتم عملية الاخلاء هذه بهدوء وسلام، بل كان على الصهيونية أن تعد عدتها لانتزاع أصحاب الأرض من أرضهم انتزاعاً. ومن ثم فقد كان « طبيعيا » والأمر كذلك أن تتمثل البداية الأولى للتجمع الإسرائيلى على أرض فلسطين فى صورة « مؤسسة عسكرية » وكان على المؤسسة العسكرية الصهيونية أن تنشىء الدولة ثم أن تصطنع ذلك « مجتمعاً ».

لقد نشأت أولى التنظيمات المسلحه الصهيونية على أرض فلسطين فى أواخر القرن التاسع عشر متمثلة فى منظمة الهاشومير وتعنى الحرس اليهودى. والتى وضع بذرتها صهاينة قدموا من وسط أوروبا إلى فلسطين حيث أنشأوا مستعمره بتاح تكفاه بداية حركات النزوح الصهيونى. وقد اتخذت منظمة الهاشومير شكلها المحدد حوالى عام ١٩٠٧م. واستمرت كذلك إلى أن تحولت على أثر وعد بلفور عام ١٩١٧م إلى المنظمة للمعروفة باسم منظمة الهاجاناه، أى الدفاع، وفى عام ١٩٣٦م حصلت منظمة الهاجاناه من بريطانيا على اعتراف فُعلى بها كمنظمة للدفاع عن المستعمرات. ومن خلال منظمة الهاجاناه وبترتيب من القياده البريطانية، تشكلت منظمة البالماخ، أى القصائل المهاجمة. وكان على رأس منظمة البالماخ عند تشكيلها عام ١٩٤٢م ايجال آلون.

وفى عام ١٩٣٧ تأسست إلى جانب الهاجاناه منظمة عسكرية أخرى هى منظمة ارجون زفناى ليومى أى المنظمة العسكرية لشعب إسرائيل. وهى تعبير عن انشقاق قام به بعض الصهيانية المتطرفون وعلى رأسهم جابوتنسكى على سياسة الدكتور حاييم وايزمان بدعوى أنه يتبع اساليبا متهاونة. وقد تركز نشاط الارجون فى البداية فى تنظيم عمليات واسعة لتهجير اليهود من أوروبا إلى فلسطين. ثم لم تلبث بعد ذلك أن اتخذت طابعها العسكرى وكان ممن تولوا رئاستها مناحم بيجين الذى تولى رئاسة الحكومة الإسرائيلية فيما بعد.

وشهد عام ١٩٤٠م تأسيس منظمة عسكرية أخرى هى منظمة شتيرن. وقد أسس هذه المنظمة ابراهام شتيرن أثر إنشقاقه على منظمة الأرجون لرفضه قرارها بضرورة عقد اتفاق ودى وهدنه مع بريطانيا مادامت حربها قائمة ضد ألمانيا النازية. وقد ظلت كافة تلك التنظيمات العسكرية الصهيونية قائمة على هذه الصورة، إلى أن أعلن بن جوريون عشيه قيام الدولة الإسرائيلية عام ١٩٤٨م قراره بحلها جميعا وادماجها فى جيش نظامى واحد، واطلق عليه اسم «جيش الدفاع الإسرائيلى».

تلك نظره عجلى إلى تاريخ المؤسسات العسكرية الإسرائيلية على أرض فلسطين (١) ونود أن نؤكد أن حديثنا عن ظهور هذه المؤسسات على أرض فلسطين لايعنى بحال أنها انبثقت من تفاعل أبنائها يهوداً كانوا أو غير يهود. إن كلا من تلك المنظمات العسكرية كانت بمثابة الجناح العسكرى لحزب إسرائيلى سياسى صهيونى أوروبى المنبت

---

(١) هيثم الكيلانى: المذهب العسكرى الإسرائيلى دمشق، ١٩٦٩.

والنشأة. ومن هنا نستطيع أن نفهم الرابطة بين حزب حيروت ومنظمة الارجون زفاى ليومى. وبين حزب المابام ومنظمة البالماخ. بين حزب الماباى ومنظمة الهاجاناه.

وليس غريبا والأمر كذلك أن نجد للمؤسسه العسكرية الصهيونية دوراً يختلف عن دور المؤسسات العسكرية فى أى مكان آخر. فالعسكريون فى إسرائيل هم منشئوا الدولة وصانعوا سياستها وفكرها.

لقد قام جورج فريدمان مؤسس مركز دراسة وسائل الاتصال الجماهيرية التابع لجامعة السوربون بزيارتين لإسرائيل فى عامى ١٩٦٣م، ١٩٦٤م على التوالى، وكتب من وحى هاتين الزيارتين كتاباً، اختار له عنواناً بالغ الدلالة وهو «أهى نهاية الشعب اليهودى؟». ويقول فريدمان فى هذا الكتاب «لقد تم بالفعل تسخير مؤسسات البلاد من أجل تشكيل الشباب. وتعريفهم بمشاكل الوطن وصراعاته، وما يتعرض له من مخاطر، وتنشئتهم كمواطنين يكرسون ولائهم لإسرائيل. ومن أكثر تلك المؤسسات أهمية منظمة الناحال (الشباب الطليعى المقاتل) وهى من الناحية الشكلية فرع من قوات الدفاع أى الجيش ـــ ويتم التجنيد لها عن طريق التطوع الاختيارى شأنها شأن القوات الجوية والبحرية. ولكن من الناحية العملية، تقوم منظمات الشباب فى المدارس الثانوية وفى مواقع العمل بخلق النواة التى يتجمع حولها الجارينيم (شبان تحت العشرين يعدون لحياة الكيبوتزات). وعند وصول شباب الناحال إلى سن الالزام فإنهم يقضون عدة أسابيع فى التعاونيات الزراعية، ويألفون حياة الكيبوتز. ويعد تدريبهم العسكرى فيما بين الرابعة عشر والثامنة عشر بمثابة تلمذة مهنية فى الزراعة وفى حياة الحالوتس (الرواد الاوائل) ويتولى مسئولية

ذلك وزارتا الدفاع والتعليم معا .. إن دور الجيش ككل فى التدريب المدنى لايقل أهمية عن دوره العسكرى»(1) ثم لا يلبث فريدمان أن يمضى مؤكداً إن المهمة الشاقة التى تواجه إسرائيل، وهى مهمة الدمج بين الاشكنازيم والسفارديم إنما تقع أساساً على عاتق مجالين هما :ـ الجيش، ونشر اللغة العبرية(2) .

وعلى أى حال فإننا لن نمضى طويلا فى تعداد أوجه الانشطه العامة التى تقوم بها المؤسسات العسكرية الصهيونية والتى تجل عن الحصر، والتى تؤكد فى النهاية أن محاولة الفصل بين ما هو مدنى وما هو عسكرى داخل المجتمع الإسرائيلى ليست بالمهمة الميسوره على الاطلاق .

1. Friedman, G. The end of Jewish people ? Doubleday, 1968 pp. 26-28.
2. Op. Cit. p. 31.

وجهتا نظر

لقد اختلفت الاراء، ومازالت تختلف، حول تأثير الحرب على التجمع الإسرائيلى بما يميزه من طابع عسكرى استيطانى. ويشير استمرار هذا الخلاف وحدته، رغم تكرار المواجهات العسكرية بين العرب والتجمع الإسرائيلى إلى أنه يمس أمراً يتصل بصميم مستقبل المواجهة العربية الصهيونية، أو بعبارة أخرى فإنه يمس جوهر الاستراتيجيه العربية حيال العدو.

ونستطيع أن نجمل تلك الاراء المتصارعة فى وجهتى نظر اساسيتين :ـــ

أولا: ثمة وجهة نظر ترى أن الحرب توفر للتجمع الإسرائيلى المناخ الامثل لوجوده وازدهاره. وتستند وجهة النظر هذه إلى العديد من المؤشرات المستمدة من واقع التجمع الإسرائيلى خلال فترات القتال وفترات الهدوء.

ترى وجهة النظر هذه أن انغماس التجمع الإسرائيلى فى الحرب يجذب إليه المزيد من المهاجرين اليهود. وخاصة من بين الشباب القادر على القتال كذلك فإن مناخ الحرب يكسب التجمع الإسرائيلى مزيداً من التعاطف اليهودى وما يؤدى إليه ذلك من تزايد تدفق المعونات والهبات. كذلك فإن مناخ

الحرب يتيح لقوى الامبرياليه. العالمية المسانده للتجمع الاسرائيلى أفضل الظروف لضرب القوى الوطنية العربية من خلال العسكرية الإسرائيلية، أو على الأقل استنزاف امكانيات التنمية العربية من خلال أعباء النفقات العسكرية ــ وفضلا عن كل ذلك فإن الحرب ــ وفقا لوجهة النظر هذه ــ تجعل المستوطنين الإسرائيليين على اختلاف اصولهم وتباينها، أكثر اتحاداً وتماسكاً، وأشد عدوانية وعداء للعرب.

ومن ناحية أخرى، ترى وجهة النظر هذه أن السلام ــ حتى ولو كان مفروضاً على التجمع الإسرائيلى إنما يعنى دفع تناقضاته الداخلية إلى التفاقم. ويضعف من حافز المهاجرين للهجرة إليه. كما يضعف أيضا من حدة التعاطف اليهودى ــ بل والعالمى ــ معه ــ وبالتالى فإنه يؤثر على حجم المعونات والهبات الواردة إليه ــ فضلا عن أن مناخ السلام هو المناخ الانسب لازدهار القوى الوطنية العربية، وتوجيه جهودها إلى نشاطات التنمية.

خلاصة ماتراه وجهة النظر هذه أن مقتل التجمع الإسرائيلى إنما يكمن فى السلام، وإن بقاءه مرهون بالحرب.

ثانيا ثمة وجهة نظر أخرى ترى ــ على العكس ــ من وجهة النظر السابقة أن السلام هو الذى يمكن أن يوفر للتجمع الإسرائيلى المناخ الأمثل لوجوده وازدهاره وتستند وجهة النظر هذه بدورها إلى العديد من المؤشرات المستمدة من الواقع الإسرائيلى خلال فترات القتال وفترات الهدوء.

ترى وجهة النظر هذه أن اليهودى، شأنه شأن غيره، إذا ماقدم على الهجرة فإنه إنما يستهدف ضمن ما يستهدفه الاستقرار فى

مكان آمن. ومن ثم فإن مناخ السلام هو الذى يمكن أن يجتذب ـ على المدى البعيد أعداداً أكبر من المهاجرين وخاصة من بين أصحاب الأسر وهم الأقدر على الاستقرار والرسوخ وهم الأنسب بالتالى لمد جذور التجمع الإسرائيلى فى أرض فلسطين.

كذلك ترى وجهة النظر هذه أن السلام هو الذى يمكن أن يؤدى حقا وعلى المدى البعيد إلى مزيد من التعاطف والتماسك بين يهود العالم والتجمع الإسرائيلى، وذلك باعتبار، أن مناخ السلام هو الذى يتيح للصهيونية أن تبرز التجمع الإسرائيلى باعتباره وطنا آمناً لليهود، نجح فى أن يحقق الحلم اليهودى بالفعل، وذلك أدعى للتعاطف معه والحفاظ عليه.

وترى وجهة النظر هذه أن السلام هو الذى يكفل حقاً المزيد من تدفق رؤوس الأموال الاستثماريه على التجمع الإسرائيلى. فرأس المال ـ أيا كانت جنسيته ـ يبحث عن المناخ الافضل للاستثمار. وليس أنسب من السلام والاستقرار مناخا فى هذا الصدد.

وترى وجهة النظر هذه أن السلام إنما يعنى إتاحة فرصة أكبر للقيادة الإسرائيلية الاشكنازيه للعمل فى هدوء وأناة على تخطيط عمليه صهر المواطنين الإسرائيلين على اختلاف وتباين أصولهم الحضارية.

ومن ناحية أخرى فإن وجهة النظر هذه ترى أن الحرب هى السبيل الحقيقى لكشف تناقضات التجمع الإسرائيلى ودفعها إلى التفاقم. وأنه إذا كانت الحرب بما تتضمنه من ضغوط اقتصاديه واجتماعية قد تسهم فى تماسك أى مجتمع «طبيعى»

فإن ذلك لايمكن أن يصدق على التجمع الإسرائيلى المصطنع وما يتميز به من تباين حضارى وقومى واضح.

وترى وجهة النظر هذه أيضا أن الحرب هى السبيل الحقيقى لتقليل حجم الهجرة إلى التجمع الإسرائيلى أو وقفها. ففضلا عن سعى المهاجر عامة إلى القاس الأمن، فإن مناخ الحرب والتوتر يساعد على زيادة حجم الهجرة المضاده من داخل التجمع الإسرائيلى.

كذلك ترى وجهة النظر هذه أن الحرب هى السبيل الأمثل لوقف أو تقليل تدفق رؤوس الاموال الاستثماريه على التجمع الإسرائيلى فضلا عن أن الحرب بما تقتضيه من نفقات باهظة تسهم فى خلق نوع من التململ لدى موارد العون الامبريالى للتجمع الإسرائيلى.

وفضلا عن ذلك كله، فإن الحرب من وجهة النظر هذه، إنما هى السبيل الوحيد لانهاء الحلم الصهيونى ولعودة الشعب الفلسطينى إلى دولة فسلطينية تقوم على أرض فلسطينية.

خلاصة ماتراه وجهة النظر هذه، أن الحرب ــ أيا كان أسلوبها هى فى النهاية مكمن النهاية بالنسبة للتجمع الإسرائيلى، فى حين أن حياة وازدهار هذا التجمع رهينة بأن يتوفر له مناخ مستقر من السلام الهادىء.

إن أيا من وجهتى النظر هاتين لا تعدم الانصار والمدافعين. والصراع بينهما لم يتوقف، بل لعله أخذ فى التزايد. والحسم بينهما لصالح احداهما ليس بالأمر الميسور لأسباب عديدة لعل أهمها أن كلا منهما ترتبط بموقف معين من طبيعة ومستقبل التجمع الإسرائيلى. وأن هذا الموقف إنما هو نتاج لشبكة

معقده من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والايديولوجية التى تضرب بجذورها عميقاً فى عالمنا العربى. بل وقد تمتد بجذورها هذه بعيداً بعيداً إلى ما وراء حدود العالم العربى بكثير. ومما يزيد فى صعوبة الأمر، أن كلا من وجتهى النظر، تستند إلى مشاهدات صحيحه فى جزئياتها لواقع التجمع الإسرائيلى، رغم تناقض تلك المشاهدات منطقا ونتيجة.

أى حرب نعنى؟ وأى سلام نستهدف؟

قد يبدو للوهله الأولى، وكأننا نطرح تساؤلا ساذجا، مسرفاً فى سذاجته، فالأمر يبدو واضحا لايحتاج إلى تساؤل «الحرب نوع من أنواع الصراع يحاول فيه كل من الاطراف المتصارعه أن يحقق أهدافه باستخدام القوة» هذا هو التعريف المحدد للحرب. أما عن أنواع الحروب وتصنيفاتها فهى تجل عن الحصر. فثمة حروب محلية وعالمية. ودفاعيه وهجومية ووطنية واستعمارية. وشعبيه ونظامية. ومحدوده وشامله وكيميائية وذريه والكترونية وتقليدية وما إلى ذلك من تصنيفات قد تعنى أهل الاختصاص فى العلوم العسكرية أما ما يعنينا نحن فيما يتصل بموضوعنا فأمر آخر يختلف تماما.

إن فترة القتال الفعلى طالت أو قصرت هى فترة مؤقتة. قد يستمر الاشتباك المسلح عدة سنوات متصلة وقد لايستغرق أياما أو ساعات معدودة. ولكنه لابد منه بشكل ما، وقد تتمثل النهاية فى انتصار أحد الفريقين المتصارعين وتمكنه من بلوغ أهدافه، أو فى تدخل قوى أخرى تجبر اطراف الصراع على ايقاف القتال عند مرحلة معينة أو فى فشل كلا الطرفين فى بلوغ أهدافه. ومن ثم اضطرارهما إلى تأجيل القتال أو الاقلاع كليا عن القتال كأسلوب لتصارعهما. وتساؤلنا عن الحرب التى نعنيها ينصب فحسب على نوعية نهايتها. وليس بحال على تفاصيلها

الفنية . أهى حرب خاطفة يتمكن فيها التجمع الإسرائيلى من الحاق هزيمة ساحقة بالجيوش العربية ؟ أم أنها حرب مفاجئة مدروسة تدفع بالجيش الإسرائيلى إلى التراجع عن أرض عربية ثبت اقدامه فوقها بقوة السلاح ؟ أهى حرب تؤدى إلى اقنـــاع إسرائيل وحلفائها بأن الأرض المحتلة مهما اتسعت رقعتها لا تكفل لها أمنا دائما ؟ أم أنها حرب تـؤكـد بهـا إسرائيل لنا ولغيرنا أنه مازالت لها اليد الطولى فى المنطقة ؟ أهى حرب استنزافية تؤدى إلى إنهاك التجمع الإسرائيلى بشريا واقتصاديا ؟ أم أنها حرب وقائية تتمكن بها إسرائيل من إجهاض أية قوة عسكرية عربية متنامية ؟ .

ليس ثمة حرب مطلقة . ومن ثم ، فإن تأثيرات الحرب ــ اجتماعيا أو نفسيا أو سياسيا أو اقتصاديا ــ إنما تتوقف فى المقام الأول على نهايتها ــ بعبارة أخرى فإن تلك التأثيرات تختلف لدى الطرف المنتصر، عنها لدى الطرف المهزوم . وإن هذا الاختلاف اختلاف نوعى اساسى .

وكذلك الحال بالنسبة للسلام . فقد يبدو للوهله الأولى أن السلام إنما يعنى بالتحديد انتهاء ــ أو إنهاء ــ حالة الحرب ، وهذا صحيح ، ولكنه ليس كل شىء ، أو على الاقل فانه ليس ما نعنيه بتساؤلنا عن السلام الذى نستهدفه . إن قتالا قد ينشب بين فريقين ، وينتهى بنجاح أحدهما فى هزيمة الآخر، فيسود سلام . وقد ينتهى بنهاية معاكسه بأن ينهزم المنتصر وينتصر المهزوم، فيسود سلام أيضا . وقد ينتهى بتدخل طرف ثالث يفرض على الفريقين المقاتلين إيقاف القتال ، فيسود سلام كذلك .

والسؤال هو: هل « السلام » يعنى شيئاً واحداً فى تلك الأحوال

جميعا ؟ هل تأثير السلام على الطرف المنتصر، يشبه تأثيره على الطرف المهزوم ، وهل هو يشبه سلاما مفروضا على الطرفين ؟ .

لقد استمرت «حالة الحرب» العربية الإسرائيلية ما يزيد عن ربع القرن. تشتعل جذوتها أحيانا ، وتخفت أحيانا أخرى ـــ وتراوحت اشكال الاشتعال بين العمل الفدائى العسكرى ، والتظاهرات العنيفه ، والغارات العسكرية بأنواعها ، كذلك الحروب النظامية . ولعل محاولة تقصى مدى تأثر الكيان الإسرائيلى بكل شكل من هذه الاشكال هى السبيل الموضوعى لتمحيص وجهتى النظر المشار إليهما وبطبيعة الحال فإن مثل هذه المحاولة لكى تتم على الوجه الاكمل ينبغى أن تشمل أوجه تأثر التجمع الإسرائيلى فى كافة المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلى آخره ، وهو ما يقصر الجهد الفردى دون بلوغه . ولذلك فسوف نركز محاولتنا هذه على مجال واحد من هذه المجالات ، هو المجال السيكلوجى الاجتماعى .

ترى ماهو المناخ السيكلوجى الاجتماعى الأمثل لازدهار التكوين السيكلوجى السائد فى التجمع الإسرائيلى بخصائصه التى نعرفها ؟ وماهى الظروف الاجتماعية التى يسعى إلى توفيرها قادة التجمع الإسرائيلى بحيث تدفع باصحاب هذا التكوين السيكلوجى إلى استثمار خصائص تكوينهم على الوجه الافضل ؟ ولسوف نبدأ أولا باستقراء المنهج لنصل إلى فرضية نظرية ، ثم نمتحن بعد ذلك فرضيتنا هذه لنرى مدى اتفاقها أو اختلافها مع الواقع .

لعلنا لسنا فى حاجة لعميق تخصص فى علم النفس ، أو فى العلوم الإنسانية بعامة ، لكى نضع ايدينا على حقيقة علمية بسيطة مؤداها : أن شدة الاستجابة العدوانية تتناسب تناسبا طرديا مع شدة الاحباط أو

التهديد. ولكن هذه الحقيقة ليست صحيحة على اطلاقها، فعند بلوغ التهديد أو الاحباط حدا معينا من الشدة تنغلق عنده السبل أمام التعبير المباشر عن الاستجابة العدوانية، فإن تلك الاستجابة تتغير كيفيا، بعبارة أخرى، حين يواجه الكائن الحى تهديداً لأمنه أو عائقا يحول بينه وبين بغيته، فإنه يسعى لاستجماع طاقته وتوجيهها للقضاء على مصدر هذا التهديد ولازاحة العائق عن طريقه. وكلما تزايد حجم هذا التهديد، كان الكائن أكثر حرصا على توفير القدر الأكبر من طاقته لمواجهته. أما إذا مابلغ هذا التهديد حدا بدا معه للكائن ألا طاقة له بمواجهته، فإنه لابد له فى هذه الحالة من أن يلتمس لطاقته منصرفا غير المواجهة، ذلك قانون عام يسرى على الكائنات الحيه جميعا. تدعمه الملاحظات العامة غير المتخصصة لسلوك البشر فضلا عن نتائج تجارب علم النفس على الحيوان والإنسان على حد سواء.

لو كان الأمر كذلك، وتصورنا ـــ على المستوى النظرى ـــ أننا نريد أن نفجر فى كائن ما أقصى قدر من طاقاته العدوانية، فما هى مكونات الموقف الذى ينبغى أن نضعه فيه؟ ينبغى أولا أن يتضمن هذا الموقف مصدراً لتهديد الكائن أو احباطه. وينبغى ثانيا أن يكون هذا الكائن مدركا لما يواجهه من تهديد أو احباط. وينبغى ثالثا أن يكون مصدر هذا التهديد مستمراً وإلا تمكن الكائن من القضاء عليه وخفتت بالتالى طاقاته العدوانية بفقدانها مبرر وجودها. وينبغى رابعا ألا يتضمن مصدر التهديد ما يمكن أن يقضى بالفعل على حياة الكائن. أى أن علينا إذا ما انخفض مستوى التهديد عن مستوى معين أن نرفع منه. وعلينا أيضاً إذا ما تجاوز التهديد مستوى معينا أن نخفض منه. وغنى عن البيان أن تحديد المستوى «المناسب» الذى لاينبغى لحجم التهديد أن يتجاوزه ولا أن ينخفض عنه، إنما هو أمر يختلف باختلاف

طبيعة الموقف ، وطبيعة الكائن أيضا ترى ماذا لو حاولنا أن نطبق هذا المخطط العام على مانحن بصدده ؟.

ان الموقف الأمثل —فيما نرى— لازدهار التكوين السيكلوجى الاشكنازى الإسرائيلى هو موقف يكفل أمنا مضمونا ويتضمن فى نفس الوقت تهديداً محدوداً. بعبارة أخرى فهو ذلك الموقف الذى يحمل قدراً محدوداً من التهديد العربى يسمح بتفجير أقصى طاقات العدوان. ويحمل فى نفس الوقت ضمانا كافيا للقدره على إلزام هذا التهديد حدا لايتجاوزه. تلك —فيما نرى— هى المعادلة الدقيقة التى تجسد ما يمكن أن نطلق عليه «الاستراتيجيه» السيكلوجيه للتجمع الإسرائيلى. ولكى تتحقق المحافظة على هذا التوازن فلابد للقيادة الإسرائيلية من توفير أمرين :—

(١) تأكيد وجود التهديد العربى للتجمع الإسرائيلى والسعى لتحقيقه فعلا وإبراز هذا التفوق بكافة الوسائل.

(٢) تأكيد التفوق العسكرى الإسرائيلى والسعى لتحقيقه فعلا وإبراز هذا التهديد بكافة الوسائل أيضا.

ولعله ليس غريبا والأمر كذلك أن يحرص أصحاب السلطة فى التجمع الإسرائيلى وبشكل دائم على إبراز صورتين تبدوان للوهله الأولى على طرفى نقيض. فهم يحرصون دائما على إبراز صورة التجمع الإسرائيلى «جزيرة يحيط بها طوفان من الكراهية العربية». ثلاثة ملايين من اليهود يواجهون مائة مليون عربى إلى آخره. وهم يحرصون دائما وفى نفس الوقت على إبراز صوره «الجيش الإسرائيلى الذى لايقهر» الجيش الاسرائيلى يستطيع دق عظام العرب فى أى وقت يشاء... إلخ.

وعلى أى حال، فقد حدث بالفعل أن اختل التوازن الدقيق للمعادله السابقة مرتين وبصورتين مختلفتين. أختل مره بخفوت «التهديد» العربى إلى اقصى حد أثر حرب يونيو سنة ١٩٦٧م. واختل مره ثانية باهتزاز التفوق الإسرائيلى أثر حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م. والمتوقع وفقا لفرضيتنا النظرية أن نلمس جهوداً إسرائيلية مكثفة لاستعادة التوازن المطلوب، فهل حدث هذا حقا؟ سوف نحاول أن نتقصى ماحدث فى المرتين معتمدين ما أمكن على البحوث السيكلوجية المتخصصة المنشورة، فضلا عما أمكن الاحاطه به مما تضمنته الجرائد الإسرائيلية والكتب متعلقا بهذا الموضوع.

خفوت التهديد

في منتصف مايو ١٩٤٨م، وعلى أرض فلسطين وقف دافيد بن جوريون معلنا قيام «دولة اسرائيل» وكان ذلك يعنى عمليا أن التنظيمات العسكرية الإسرائيلية قد تمكنت من الحاق الهزيمة بالجيوش العربية التى تصدت لها. والتزمت النظم العربية منذ ذلك الوقت ــ ومن الناحية العملية أيضا ــ بعدم اختراق «الحدود الإسرائيلية عسكريا» لقد خفت حجم التهديد العربى دون شك، فكيف كان رد الفعل إسرائيلياً ؟.

سوف نستشهد فى هذا الصدد برسالة تقدم بها الباحث الأمريكى بارى بليخمان عام ١٩٧٠م للحصول على درجة الدكتوراه فى الآداب من جامعة جورج تاون الامريكية. وقد اختار لرسالته هذه العنوان التالى: «الأثار المترتبه على الانتقامات الإسرائيلية: محاولة للتقييم»[1] ولقد أفرد الباحث جانبا كبيراً من دراسته لتناول الانتقامات الاسرائيلية فى الفترة الممتدة من ١٩٤٨ حتى قبيل ١٩٦٧، متبعا فى تناوله اسلوبا احصائيا مدققا، وتقدم الجداول الإحصائية المرفقة بالدراسة تتبعا لتلك الانتقامات من حيث تتابعها تاريخيا، ومضمون

1. Blechman, B.M. «The consequences of the Israeli reprisals: An assessment», Unpublished dissertation, 1971.

التصريحات **الإسرائيلية التى صاحبت كل** عملية انتقامية مفسره لاسبابها ولما تستهدفه، وطبيعة كل عملية من حيث موقعها وحجمها، وطبيعة الآثار العملية والاعلامية المترتبة عليها لدى الجانب العربى. وانتهى بليخمان من دراسته التفصيلية إلى ما سوف نوجزه فيما يلى :ـ

يصف بليخمان ما أطلق عليه تعبير الانتقام الإسرائيلى بانه «سلوك قومى إسرائيلى» (١) ويمضى مفسراً ذلك بقوله «أن إسرائيل ـ فيما عدا بعض الاستثناءات لا تولى انتباها جاداً إلى شروط الشرعية سواء من حيث الواقع أو من حيث المظهر. إنها تعتبر الانتقام صوره شرعية من صور السلوك القومى» (٢).

ويبرز بليخمان سمه هامه من سمات العدوانية الإسرائيلية وهى سمة الشمولية وعدم الاهتمام كثيراً بتمييز هدف الانتقام تمييزاً حاسما. يقول بليخمان «إن عدداً كبيراً من الانتقامات الإسرائيلية، وخاصة تلك التى وجهت إلى الاردن قبل عام ١٩٥٦م، وكانت بمثابة العمليات المخططة لإيقاع الدمار بالقرى التى يعتقد أن الهجمات العربية داخل إسرائيل تنطلق منها. وفى كثير من تلك الحالات كان يستحيل على الإسرائيليين التميز بين أولئك الذين يقدمون عونا ماديا للمتسللين وغيرهم ممن يقبلون مجرد وجودهم **فحسب وفى الحقيقة فإن هذا التميز لم يكن بالأمر البالغ الاهمية بالنسبة لإسرائيل» (٣) ***

لقد حاول بليخمان طوال بحثه أن يلتمس تفسيراً خارجيا مقنعا لتلك الانتقامات الإسرائيلية، ولكن دون جدوى. لقد اتضح أن

1. Op. Cit. p. 32.
2. Op. Cit. p. 45.
3. Op. Cit. p. 49.

(*) التأكيد من لدينا.

الانتقامات الإسرائيلية تعد عنصراً ثابتا فى السلوك الإسرائيلى تجاه الامم العربية «كذا» المجاوره منذ السنوات المبكرة التى تلت الاستقلال (كذا) ([1]).

«... لقد أسفر تحليل مضمون التصريحات الإسرائيلية التى صاحبت الانتقامات الإسرائيلية خلال العشرون عاما الماضية عن أن تلك الانتقامات إنما كانت تهدف إلى أمرين أولاً: تقليل الاعتداءات التى يشنها العرب على إسرائيل ثانياً: المساهمة فى إجبار الحكومات العربية على السلوك بشكل أكثر تعاونية حيال إسرائيل. ودفعهم فى النهاية إلى القبول بحل سلمى للصراع» ([2]).

ذلك فيما يتعلق بمجمل ما ظل المسئولون الإسرائيليون يعلنونه كأهداف لما يشنونه من هجمات عسكرية على العرب طوال عشرون عاماً. ولقد حاول بليخمان أن يتبين مدى تحقق هذه الأهداف عمليا من خلال رصد ود الفعل العربى حيال كل هجمه عسكرية إسرائيلية، وقد انتهى بليخمان فى هذا الصدد إلى النتائج الثلاث التالية :ـــ

أولا: «رغم ما قد يلحظه المرء أحيانا من انخفاض ملحوظ فى إقدام العرب على المبادأة بالصراع فى الفترات التى تلى الانتقامات، فإن تلك الفترات لم تكن تدوم طويلا. وسرعان ما كانت مبادأة العرب بالصراع تعود إلى مستواها الأول. أو تفوقه. وكانت فترة الفعالية هذه (أى فعالية تأثير الانتقام) لا تزيد عن الثلاثين يوما ...» ([3]).

1. Op. Cit. p. 273.
2. Op. Cit. p. 275
3. Op. Cit. p. 277

ثانيا: لم تؤد الانتقامات إلى تزايد رغبة العرب فى تسوية علاقاتهم بإسرائيل، أو فى الوصول إلى اتفاق سلام شامل (١).

ثالثا: بالنسبة للآثار المترتبة على الانتقامات الإسرائيلية فى مجال العلاقات بين الأمم العربية (كذا) فإن ما أسفر عنه البحث من نتائج يميل إلى تدعيم وجهة نظر الجانب الإسرائيلى.. لقد اقتصر التضامن العربى على الافعال التى لا تتضمن مخاطره مثل إرسال برقيات التأييد أو تحريك القوات داخل الحدود الآمنة للدوله المعنية أو ما إلى ذلك.. (فضلا عن إن) الانتقامات قد أشعلت التوترات القائمة داخل العالم العربى، وبالتالى فقد أعاقت من تحقيق الوحده العربية..

..... غير أنه ينبغى ملاحظة أن ذلك التأثير أيضاً تأثير موقوت..

.... إن الانتقام الإسرائيلى الذى وجه إلى قريه السموع الاردنية لم تكن قد مضت عليه سبعة شهور، حين طار الملك حسين إلى عبدالناصر عشية حرب يونيو سنة ١٩٦٧م... (٢).

ويخلص بليخمان من نتائج الجانب الاحصائى لدراسته إلى أنه «فى ضوء الاعتبارات السابقة يصعب فهم استمرار تمسك إسرائيل بسياسة الانتقام... لقد اخفقت الانتقامات على الأقل كوسائل لتهدئة صراع الحدود... وعلى الأكثر من خلال تأثيرها الواضح على النظم السياسية العربية وعلى الأطر العقلية للافراد العرب من حيث صدهم أو عدم حفزهم إلى المشاركة فى السياسة المعادية لإسرائيل. لقد أدت

---

1 Ibid.

2. Op. Cit. pp. 280-281.

الانتقامات الإسرائيلية إلى تدعيم الصراع، وتصعيد النشاط العسكرى وإذا ما كان معروفا أن القيادة الإسرائيلية تسلم بهذا التقييم على الأقل فى نطاق أفكارها الخاصة، فإن استمرار التمسك بسياسة الانتقام يصبح أمراً لامعنى له (١).

ولقد حاول بليخمان أن يلتمس بعيداً عن جداوله الاحصائية تفسيراً لما عجزت هذه الجداول عن تفسيره، وهو «التمسك الإسرائيلى ـ بسياسه الانتقام» ويكاد بليخمان أن يضع يده على تفسير لذلك حين يقول «ثمة جو من الاحباط قد تكون فى إسرائيل، وهو ما يدركه صانعو السياسة الاسرائيليون. وتبدو الانتقامات كوسيلة لتنفيس هذا الاحباط (٢) ولكن بليخمان لم يستطع أن يمضى إلى تقرير أن الإسرائيليين لايدركون هذا الجو الاحباطى فحسب، بل يحرصون على بقائه وتدعيمه أيضاً.

وعلى أى حال، فلقد أصاب بليخمان جانبا لايستهان به من الحقيقه فى محاولته توصيف العدوانية الإسرائيلية، وكذلك فى محاولته تلمس اسبابها داخل النسيج السيكلوجى الاجتماعى للتجمع الإسرائيلى.

يضع بليخمان يده على خاصيه هامه من خواص العدوانية الإسرائيلية. فبعد أن يعرض الباحث لمعاناة إسرائيل من تزايد نشاط منظمة فتح داخل القطاع الشمالى للأرض المحتلة خلال عام ١٩٦٦م، وقناعه الإسرائيليين بدعم الحكومة السورية لهذا النشاط الفدائى، يلاحظ أن الانتقام الإسرائيلى قد اتجه إلى قرية السموع الاردنية

---

1. Op. Cit. pp. 283-284.
2. Op. Cit. pp. 230.

ويعلق الباحث على ذلك قائلاً : «إن النتيجة النهائية على أى حال كانت إزاحة إسرائيل لاحباطها إلى الاردن ، وهى الدولة التى تعلم إسرائيل أنها ليست مسئوله عن علميات فتح فضلا عن أنها لا تستطيع السيطرة تماما على هذه العمليات . إن إزاحة الاحباط ظاهرة شائعة بالتأكيد فى السلوك الفردى . ويبدو أن اسرائيل قد سلكت فى هذه الحالة سلوكا مطابقا لذلك تماما (١) ونحن بالإضافة إلى تحفظنا منهجيا على محاولات استخدام قوانين السلوك الفردى فى تفسير السلوك الجماعى (٢) . فإننا نرى أن توجيه العدوان الإسرائيلى إلى قرية السموع الاردنية بدلا من الحدود السورية ، إنما يؤكد من جديد أنه لايمكن الاقتصار فى تفسير العدوانية الإسرائيلية على المثيرات الخارجية الموضوعية فحسب ، بل لابد من تقصى جذورها الضاربة فى التكوين النفسى الاجتماعى السائد فى التجمع الإسرائيلى .

ويكاد بليخمان أن يضع يده للمره الثانية على سمة أخرى تميز الاعتداءات الإسرائيلية . وذلك حين يشير إلى أن التصريحات الإسرائيلية المصاحبة لتلك الاعتداءات تتضمن نغمة مشتركة متكررة وهى تأكيد أن هذه الانتقامات « واجب » و« التزام » و« أن زاحال (المؤسسة العسكرية الإسرائيلية) كانت مجبرة على التحرك » و« إنه لم يكن ثمة اختيار» و« إنه لا توجد بدائل أخرى» ويخلص بليخمان من ذلك إلى قوله ... «وتشير هذه النغمة إلى أن الانتقامات إنما تتم ـــ جزئيا ـــ لأن القيادة السياسية تخشى النتائج المترتبة على عدم الانتقام فى المجال المدنى» ومرة أخرى فإن بليخمان لايستطيع

---

1. Op. Cit. p. 233.

(٢) انظر: قدرى حفنى «حول التفسير النفسى للتاريخ»، الفكر المعاصر (القاهرة) فبراير ١٩٧٠ ص ٢٤ ـــ ٣٤.

التوصل إلى حقيقة أن القيادة السياسية لاتخشى نتائج عدم الانتقام بقدر حرصها على استثمار نتائجه وذلك رغم ما يقرره بوضوح بعد صفحات من أن دور المؤسسه العسكرية فى التجمع الإسرائيلى لا يقتصر بحال على المجال العسكرى إذ «يتخذ تأثير زاحال صورتين: الأولى باعتباره قوه من قوى التنشئه الاجتماعية تؤثر على كل إسرائيلى تقريبا والثانية باعتباره قوة تنظيمة مؤثرة فى مجال اتخاذ القرار.. وعلى أى حال فإن وجود قادة الجيش المسرحين فى مناصب حكومية هامه، مثل دايان، وآلون، ورابين.. إلى آخره، يعد دليلا على انتشار تأثير الجيش» (١).

ويخلص بليخمان فى نهاية بحثه إلى أن يقرر «لقد اختارت إسرائيل تقبل مختلف النتائج السلبية البعيدة المدى للانتقامات فى مقابل ما تحققه من فوائد ذات طبيعه سيكلوجيه داخل النظام السياسى الإسرائيلى، فضلا عما تحققه تكتيكيا من فوائد قصيره المدى فى تقليل الاعتداءات العربية... وفيما يتعلق بالمستقبل فإنه لايبدو مختلفا كثيراً عما كان قائما فى الماضى. وما هو قائم حاليا.... فليس من بادره تشير إلى أن القيادة الإسرائيلية قد أعادت تقييم كفاءة تلك الانتقامات أو حتى أنها بصدد مثل ذلك التقييم» (٢).

ويمضى بليخمان فى استقرائه للمستقبل مقرراً «أن نزوع الإسرائيليين إلى استخدام الانتقامات لايبدو قابلا للتغيير طالما ظل الاتجاه العام الذى يدعم سياسه العنف فى إسرائيل قوياً ومنتشراً. ومن ناحية أخرى فإن ذلك الاتجاه العام بدوره لايبدو قابلاً للتغيير تغيراً

1. Op. Cit. p. 233.
2. Op. Cit. p. 289

له دلاله طالما ظل زاحال متفوقاً على مناوئيه، وطالما ظل الحل العام للصراع العربى الإسرائيلى بعيداً عن التحقق» (١).

وبالفعل فإن شيئاً لم يتغير حتى جاءت حرب يونيو ١٩٦٧م لتزيد «التهديد العربى» خفوتاً. فلقد تمكنت اسرائيل فى هذه الحرب، ونتيجة لعوامل عديده متشابكة لسنا فى مجال للتعرض لها. من أن تنزل بالجيوش العربية هزيمة ساحقة، ومازال العالم العربى يعانى من آثارها لقد تأكد اختلال المعادلة التى أشرنا إليها، بخفوت التهديد العربى كثيراً عن الحد المطلوب إسرائيلياً، فكيف كان رد الفعل ؟.

لقد نشر الباحث الإسرائيلى بنجامين شاليت، وهو من السيكلوجيين الإسرائيليين العاملين فى قيادة القوات البحرية الإسرائيلية، مقالا بعنوان «العداوه البيئية والعداوه فى التخييل» (٢) ولقد استغل الباحث فى دراسته هذا الموقف المحيط بمعارك ١٩٦٧م كما انعكس على أفراد الجيش الإسرائيلى وقد قامت الدراسة على فرض نظرى مؤداه أن المشاركة المباشرة فى نشاطات عدائية موجهة لعدو، تقلل من العداوه التى يتضمنها التخييل، وذلك باعتبار أن التخييل العدائى إنما يخدم نفس الوظيفة الدينامية التى يخدمها الفعل العدوانى ولكن بدرجة أقل. ولنا أن نتوقع إذن وفقا لنظرية تخفيف الدافع أن تؤدى المشاركة فى الافعال العدائية والتوحد بها إلى تقليل التخييل العدائى (٣). ولقد كانت فترة معارك يونيو ١٩٦٧م فترة «نشاط عدائى واضح وشديد، لقد سبقت الحرب فترة من التهديد الشديد لوجود

---

1. Op. Cit. p. 290-291.
2. Shalit, B. «Environmental hostility and hostility in fantasy», J. Personality and social Psychology, 15, 1970, 171.
3. Op. Cit.

إسرائيل تهديداً بلغ من شدته أنه ترك أثره فى أعمق انفعالات سكانها جميعاً » (١) .

إن نظام عملية التجنيد العسكرى الإسرائيلى يتطلب تطبيق بعض الاختبارات النفسية الاسقاطية (٢) التى تتضمن ضمن ما تتضمنه عدة مؤشرات على العداء والقلق وقد كان فى استطاعة شاليت أن يحصل على تلك البيانات، وهو ما حدث بالفعل. واعتمد شاليت على الدرجات التى حصل عليها الجنود الإسرائيليون بالنسبة لتلك المؤشرات، مقارنا بين الدرجات التى حصلت عليها مجموعات من المجندين قبل نشوب المعارك بعام واحد، وتلك التى حصلوا عليها بعد المعارك مباشرة، وتلك التى حصلوا عليها بعد مضى عام على تلك المعارك. وذلك لتبين ما إذا كان المضمون العدائى للتخييل سوف يقل بعد الحرب مباشرة.

ويؤكد الباحث منذ البداية أن الموقف التجريبى الذى اقام عليه بحثه يكفل توافر أمور ثلاثة هى :ـــ

(١) إن تلك الحرب لم ترتبط بأية مشاعر أثم.

(٢) كان لتلك الحرب مبررها الاجتماعى الكامل من وجهة النظر الإسرائيلية باعتبارها ضرورة للحفاظ على البقاء.

(٣) لم يشارك الافراد المختبرين مشاركة مباشرة فى أعمال القتال، وإن كان توحدهم النفسى بتلك العمليات لاشك فى توافره.

---

1. Op. Cit.

(٢) الاختبارات الاسقاطية نوع من الاختبارات النفسية تستهدف التعرف على الجانب الانفعالى للشخصية بشكل غير مباشر، أى دون أن يطلب من الفرد أن يصف حالته الانفعالية بل بأن يقدم له موقف أقرب إلى الغموض أو عدم الاكتمال ويطلب منه اكماله أو تقديم تفسير له، ومن خلال استجابته لهذا الموقف يتمكن الأخصائى النفسى من بلوغ غايته.

وقد قام الباحث باختيار عينه عشوائية تضم مائتى مجند من بين المجموعات التى استدعيت للخدمه العسكرية فى شهر أغسطس من أعوام ١٩٦٦م، ١٩٦٧م، ١٩٦٨م وهم جميعا من المجندين الجدد الذين تتراوح أعمارهم بين ١٧٫٥ عاما و١٨٫٥ عاما ومستوى ذكاؤهم لايقل عن المتوسط. ويتمتعون بلياقة بدنية مناسبة. وتضم مجموعة الاختبارات التى يطبقها الجيش الإسرائيلى على مجنديه خلال الأيام التالية مباشرة على استدعائهم للخدمة العسكرية اختبار هولزمان (١). واختبار تفهم الموضوع (٢)،.

وخلاصة ما انتهى إليه شاليت من دراسته أن القلق يقل على المستوى التخييلى خلال الممارسه العدوانية، ولكنه لايلبث بعد انتهاء تلك الممارسة أن يعاود الارتفاع إلى ما يجاوز مستواه السابق كثيراً. كذلك فإن العدوان يقل على المستوى التخييلى خلال الممارسة العدوانية، ثم لايلبث بعد انتهاء تلك الممارسة أن يعود إلى مستواه السابق ولكنه لايتجاوزه.

ولم يحاول شاليت أن يقدم تفسيراً لأى من هاتين الظاهرتين. وتفسيرهما ــ فيما نرى ــ ليس بالمهمة الصعبة إن عودة العدوانية إلى مستواها الأول إنما يعنى أن مصدر هذه العدوانية لايتمثل فى الموقف الخارجى بحال، بل إنه ينبع من المناخ السيكلوجى الاجتماعى السائد داخل التجمع الإسرائيلى.

---

(١) اختبار نفسى اسقاطى يتكون من عدة بطاقات تحتوى كل بطاقة على شكل غامض أشبه ببقعة الحبر، يطلب من الفرد أن يحدد ما تشبه هذه البقعة.

(٢) اختبار نفسى اسقاطى يتكون من عدد من البطاقات تحتوى كل بطاقة على صورة تضم أشخاصاً، ولكنها غير محددة المعالم، ويطلب من الفرد أن يروى قصة تدور حول أشخاص الصورة.

أما عودة مشاعر القلق إلى ما يفوق مستواها الاول ، فإنه يعد ظاهرة كان ينبغي لشاليت ـ كمتخصص فى علم النفس ـ أن يقف أمامها طويلا . ولكن يبدو أن إسرائيليته قد حالت دون ذلك . أن الأمر المنطقى المتوقع هو أن يخفت القلق بخفوت مصادر التهديد . أما أن يؤدى افتقاد التهديد إلى تجاوز القلق للمستوى الذى كان عليه خلال وجود مصادر التهديد ، فهو ما يؤكد بشكل قاطع مدى اهمية توازن تلك المعادلة الدقيقة التى أشرنا إليها فيما سبق .

لقد قامت التنشئة الاجتماعية لهؤلاء الأفراد على التسليم بوجود خطر داهم يهدد وجودهم بشكل مستمر . ومن ثم فقد تشكل تكوينهم السيكلوجى على أساس حشد أكبر قدر من العدوانية لمواجهة هذا الخطر ، وأكبر قدر من التوجس حياله . ولذلك فإن ما أسفرت عنه خبرتهم المباشرة من تأكيد زوال هذا الخطر ، ومايعنيه ذلك من اختلال تكوينهم السيكلوجى الذى الفوه ، كان لابد أن يثير لديهم من القلق قدراً يجاوز ما كان يثيره لديهم تسليمهم بوجود هذا الخطر الداهم الذى يتهددهم .

وفى عام ١٩٦٨م نشر الطبيب العقلى الأمريكى ليو الكسندر مقالا بعنوان « الطب العقلى العسكرى ، والاحتلال ، ومشكلات اللاجئين فى إسرائيل » (١) وهو المقال الذى ألقاه المؤلف فى الاجتماع السنوى لجمعيه بوسطن للطب العقلى والنيورولوجيا الذى عقد فى ٢١ ديسمبر ١٩٦٧م . وكان المقال نتاجا لزيارة قام بها المؤلف لإسرائيل عقب معارك يونيو مباشرة فى الفترة من ١١ إلى ٢٧ يوليو ١٩٦٧م .

---

1. Alexander, L. «Military Psychiatry, occupation, and refugee problems in Israel» Military Medicine, 133, 1968, 265.

وأول ما يلحظه الكسندر هو انخفاض نسبه الانهيارات النفسية بين أفراد الجيش الإسرائيلى نتيجة للحرب، وهو يرجع ذلك للاسباب التالية :ــ

(١) قصر مدة الحرب بحيث كانت الفترة السابقة على الاشتباكات الفعلية أشد إثاره للقلق من فترة القتال نفسها.

(٢) كان كل جندى ومدنى فى إسرائيل واعيا بأنه ليس من بديل شريف أو حتى بديل يكفل استمرار الحياة سوى الثبات على أرض المعركة. وإلا فليس سوى مواجهة الفناء على أيدى الامم العربية (كذا).

(٣) يؤدى التدريب الميدانى الفعلى، والذى يستمر لمدة شهر كامل سنويا، إلى توثيق روابط العلاقة الأخوية بين اعضاء الوحدة العسكرية.

(٤) الفحص السيكياترى الدقيق لأفراد الجيش الإسرائيلى.

أما الظاهرة الثانية التى استوقفت إنتباه الكسندر ورآها ــ وبحق ــ جديره بالاشارة فهى «تلك الندرة العامة فى احتفالات النصر، وحتى بين وحدات الجيش التى تربط بين أفرادها علاقات وثيقة. وفى بعض المناسبات التى احتفلت فيها وحدات قليله، لم يحضر القادة تلك الاحتفالات..... إن إسرائيل نفسها لم تشهد احتفالا يمكن أن يضاهى مثلا ذلك الاحتفال الذى جرى فى كاتدرائية برن بسويسرا بنفس هذه المناسبة فى الثانى عشر من يوليو، والذى دعى الحاخام المحلى للحديث فيه».

ولقد اكتفى الكسندر فى تعليقه على هذه الظاهرة بالإشارة إلى

تفسير أحد علماء النفس الإسرائيليين لها باعتبار أنها ترجع إلى ما كان يستشعره الجنود والضباط الإسرائيليين من أسى لمن فقدوهم من أحبائهم فى الحرب. ولعل سطحية مثل هذا التفسير تبدو واضحة إذا ما وضعنا فى الاعتبار ضآلة حجم الخسائر الإسرائيليه فى حرب يونيو إذا ما قورنت بحجم الانتصار الإسرائيلى الساحق. وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا أيضا حقيقة أن الخسائر البشرية أيا كان حجمها لاتحول دون فرحه المقاتلين بالانتصار. ويكفى أن نشير على سبيل المثال إلى أفراح المقاتلين من جيوش الحلفاء أثر الانتصار على النازية فى الحرب العالمية الثانية، رغم فداحه ما تكبدوه من خسائر.

ترى لماذا إذن لم يطلق الجنود والضباط الإسرائيليون العنان لفرحتهم بانتصارهم؟ الأمر فيما نرى يمثل ظاهرة نفسيه فريده فى مجال سلوك الجماعات. ظاهره تعكس جوهر التكوين السيكلوجى السائد فى التجمع الإسرائيلى. لقد اختلت المعادلة اختلالا واضحا وخفت التهديد العربى كثيراً عن حده المطلوب إسرائيليا. فكانت الاستجابة التلقائية المباشرة غير المخططه هى القلق والعجز عن إبداء الفرحه بالانتصار فالانتصار إنما يعنى انتفاء التهديد، وبالتالى إنتفاء الشعور بالاضطهاد. وإذا ما انتفى شعور الاشكنازى الإسرائيلى بالاضطهاد اختلت تركيبته السيكلوجية التى ألفها، وكاد معين عدوانيته أن ينضب.

لذلك فسرعان ما بذلت القيادة الإسرائيلية جهدها لاعادة التوازن إلى المعادلة من جديد. وبدأ التركيز على أن التهديد العربى مازال قائما مستمراً: المقاطعة الاقتصادية مازالت قائمة، ومازال العرب يرفضون للتفاوض، والدعم العربى لنشاطات المخربين الفلسطينين «يتزايد» والاصرار على عدم الاعتراف بإسرائيل مازال قائما والاسلحة مازالت تتدفق.

افتقاد الامن

فلنحاول أن نختزل ما حدث فى أكتوبر ١٩٧٣م إلى أبسط صوره ممكنه: لقد تمت مواجهة عسكرية مباشرة بين القوات المسلحة الإسرائيلية وقوات مسلحة عربية. واسفرت هذه المواجهة ــ ضمن ما أسفرت عنه ــ عن اضطرار القوات المسلحة الإسرائيلية، تحت الضغط العسكرى العربى، ولأول مرة من نشأة الكيان الصهيونى إلى التراجع عن أرض سبق أن احتلتها بالقوة المسلحة، كما أسفرت هذه المواجهة العسكرية أيضاً عن وقوع أكبر قدر من الخسائر البشرية عرفه التجمع الإسرائيلى منذ اقامته.

إن الهزيمة ــ شأنها شأن النصر ــ من الأمور التى عرفتها الأمم والدول والجماعات منذ كانت البشرية ــ بحيث لانكاد نجد دولة أو أمه لم تعرف فى تاريخها قط خبرة الهزيمة والاحتلال والخسائر البشرية. ولو حاولنا أن نقارن بين ما واجهه التجمع الإسرائيلى فى أكتوبر ١٩٧٣م بما واجه الدول والأمم والشعوب من هزائم لوجدنا أنه لم يواجه إلا أقل القليل. لقد واجه الشعب الفرنسى مثلاً ــ فى الحرب العالمية الثانية هزيمة عسكرية ساحقة اجتاحت معها جحافل الجيش النازى أرضه، واسقطت نظامه، واخضعته للاحتلال. ولم يواجه الكيان الإسرائيلى شيئاً يقارن بذلك على الاطلاق. فالأرض التى «فقدها» أرض عربية

لاشك فى عروبتها من وجهه النظر الإسـرائيليه الرسمية المعلنه . ودولته مازالت قائمة على الأرض الفلسطينية ومستوطناته ومدنه لم تشهد دمارا كذلك الذى شهدته ـــ ومازالت ـــ مدينة القنيطرة السوريه أو السموع الاردنية أو العزية اللبنانيه أو السويس المصرية . ورغم كل ذلك فإن رد الفعل الإسـرائيلى لما حدث قد فاق كل حد . وكان ذلك أمراً تحتمه طبيعة التكوين الاجتماعى النفسى للتجمع الإسرائيلى . ذلك التكوين الذى يستند إلى دعامتين أساسيتين هما : المؤسسه العسكرية ، والايديولوجيه الصهيونية ، وقد اهتزت كلتا هاتين الدعامتين فى اكتوبر ١٩٧٣م ـــ واختل مع اهتزازهما توازن المعادلة السيكلوجية الدقيقة التى أشرنا إليها . لقد حدث للمره الثانية اختلال لهذه المعادلة ، ولكنه اختلال لطرفها الآخر هذه المره . لقد تجاوز التهديد العربى حده « المطلوب » إسرائيليا .

ولنحاول قبل أن نمضى فى تبين دلاله ما حدث أن ننظر إلى التقييم الإسـرائيلى لحجم ذلك الذى حدث . لقد صدرت ـــ ومازالت تصدر كتبا كثيره عن حرب أكتوبر. ولعل من أهم هذه الكتب ذلك الذى صدر فى إسـرائيل أثر الحرب مباشرة تحت عنوان « التقصير» [1] .

يقول الكتاب « يوم الاحد ٧ تشرين الأول ١٩٧٣م ، خيم ظل نكبة على دولة إسـرائيل . ومنذ طلوع فجر ذلك اليوم حتى غروب شمسه ، كان مصير إسـرائيل كدوله ، متوقفا على قدرة الصد . ولم

(١) يشعيا هو بن ـــ فورات (وزملائه) التقصير، (مترجم) مؤسسة الدراسات الفلسطينية (بيروت) ١٩٧٤ .
التأكيد من لدينا . (*)

تتعرض إسرائيل منذ أصبحت دولة مستقلة وذات سيادة وخلال خمس وعشرين سنة منذ قيامها لخطر الدمار بصورة ملموسه كما حدث فى ذلك اليوم المصيرى ... فى تلك الساعات من يوم السابع من تشرين الأول هدد إسرائيل خطر الهزيمة العسكرية الساحقة ، ولم يكن لمثل هذه الهزيمة فى المعطيات الخاصة لدولة إسرائيل * ، سوى معنى واحد لا احتلال ، ولا فقدان للاستقلال ، بل محو للشعب ولدولته من الخريطة (١) .

لقد صدر هذا التقدير الإسرائيلى لحجم ما حدث فى أكتوبر ١٩٧٣م ولم تمض على الحرب شهور قليله . وقد يبدو للوهله الأولى أن الكتابه عن الاحداث الساخنه تجعل الميل إلى تضخيمها أمراً طبيعيا متوقعا . وعلى أى حال ، فلنحاول تتبع الأمر بعد انقشاع غبار المعارك بفترة .

لقد احتفل الكيان الإسرائيلى فى منتصف مارس عام ١٩٧٥م بالذكرى السابعة والعشرين لقيام «دولة إسرائيل» . وقد وصف مراسل جريدة ها آرتس الإسرائيلية مظاهر هذه الاحتفالات بيوم الاستقلال السابع والعشرين لدولة إسرائيل هذا العام بانخفاض عدد المحتفلين فى شوارع المدن ، وبرز غياب الاحتفالات الترفيهيه التقليدية ، بينما ظهرت دوريات عسكرية بكثرة فى شوارع المدن الكبيرة (٢) .

وتربط صحيفة دافار بوضوح بين هذا المناخ السائد وبين حرب اكتوبر حين تقول فى مقالها الافتتاحى يوم ١٥/ ٤/ ١٩٧٥م يبدو أن مزاج الشعب الإســـرائيلى قد تغير فحتى اليوم لم نعد إلى تماسكنا

---

(١) المرجع السابق ص٢٠ ــ ٢١ .

(٢) نشره مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١/ ٥/ ١٩٧٥ ص٢٧ .

عقب صدمه الذهول التى احدثتها المفاجأة. لقد وضعت حرب تشرين الأول خطا مميزاً بين الفترة السابقة لها ـ فترة هدوء وثقه بالنفس مبالغ فيها، وبين الفترة التى أعقبتها ـ فترة غم وشكوك ـ وينبغى أن نقول لأنفسنا اليوم: كما لم يكن هناك أساس من الصحة لذلك الاحساس السابق لحرب يوم الغفران، كذلك الحال بالنسبة إلى المزاج القومى المتسم بالكآبة والمفتقر إلى الإيمان، فهو ليس عقيما ومبددا للطاقات فحسب، بل لا أساس له أيضا (١).

وتحدثت صحيفة هاعولام هازية فى ١٥/٤/١٩٧٥م عن جو الاحباط والشك والتشاؤم السائد وقالت أن إحساس الدولة بالأمن أخذ بالتلاشى وسيحتفل بيوم الاستقلال السابع والعشرين فى جو من الكآبة والاحباط والتشاؤم والشك، ولم يحدث أبداً أن ساءل إسرئيليون بهذه الكثره وبصوت عال إلى هذا الحد «ما إذا كانت هناك فرصة أمام الدولة لكى تبقى على مدى الأيام» ثم لم تلبث الصحيفه أن أضافت «قد يبدو أن جو الشك الذى ساد فى الدولة لا ينبع من حسابات عسكرية واقتصادية وإنما من جذور نفسية أكثر عمقاً... وإن من يرى مستقبل إسرائيل كمنظر جبلى تمتد الحروب عبره كسلاسل الجبال، واحدة بعد أخرى، حتى الافق وما بعده يجد نفسه يائسا بالضرورة. وهذا منظر رهيب بالنسبة إلى أم لها أطفال» (٢).

ويحاول يهودا غوتهيلف في عدد صحيفه دافار الصادر يوم ١٨/٤/١٩٧٥م أن يفسر ظاهرة «اللامبالاة» التى ابدتها أوساط

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٧٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٠، ٢٧١.

إسرائيلية ازاء الاحتفالات فيقول «يمكن أن يكون الابتعاد عن فرحه الأمة ناجما عن الخوف مما يخبئه المستقبل لأن إسرائيل ـــ على خلاف ما وعد به مؤسسوها الصهيونيون ـــ ليست ملجأ آمنا» (١).

أما الكاتب يرمياهوموفال فى مقاله المنشور فى هاآرتس يوم ١٥/٤/١٩٧٥م تحت عنوان «**الاستقلال كقيد ذاتى**» فإنه يمضى خطوه أبعد وأكثر إفصاحاً إذ يقول «.... وكما أن شعب إسرائيل ليس كسائر الشعوب، كذلك فإن دولة إسرائيل ليست كسائر الدول. لا لكونها تقف عزلاء فى منطقة تتنكر لها من الناحيتين السياسية والحضارية، ولا لكونها تعتبر نفسها كوطن لليهود فى جميع أنحاء العالم فقط، بل لأنها أيضا لم تحظ بعد بالقدر الضرورى من الاستقرار والشرعية الدولية اللذين نحتاجهما، لكى يكون فى وسعنا القول دون تردد، أن دولة إسرائيل المستقلة قائمة بالفعل. إن الحربين الاخيرتين قد أثرتا فى شرعية إسرائيل. لقد أدت حرب الايام الستة إلى قطع علاقاتنا بالعالم الشيوعى. ورافق حرب يوم الغفران قطع علاقاتنا بما يسمى بالعالم الثالث... وأكثر من ذلك ـــ وربما أسوأ ـــ فقد تشوهت علاقاتنا، عقب هذه الحرب، بأوروبا الغربية، واصبحنا معتمدين على الولايات المتحدة بصورة تكاد تكون مطلقة (٢).

ولم تمضى على هذه الكتابات خمسة شهور إلا وأطلت ذكرى مرور عامين على حرب أكتوبر. وكتبت صحيفة دافار بهذه المناسبة فى ١٤/٩/١٩٧٥م إن محنة حرب يوم الغفران ١٩٧٣م، لن تزول من نفوس الشعب لايام كثيرة. ومفاجأة الهجوم المصرى السورى...

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٧١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٣، ٢٧٤.

والنجاحات الأولى التى لم تحطم الخطوط الدفاعية فحسب، بل أيضاً الكثير من الاوهام الإسرائيلية، والخسائر الفادحة فى الارواح التى لم نعرف لها مثيلا منذ حرب الاستقلال، كل هذه تجعل حرب يوم الغفران ذكرى مؤلمة، حفرت ندوبا فى نفوس ابناء الشعب فى إسرائيل (١).

وتحت عنوان «جرح مفتوح» كتب، موشيه شامير مقالا فى معاريف فى ١٤/٩/١٩٧٥م، ذكر فيه أن إسرائيل خرجت من جميع حروبها أكثر قوة ما عدا حرب أكتوبر... كانت حرب يوم الغفران هى الحرب الأولى التى خرجنا منها ضعفاء.. ومنذ أواخر تشرين الأول ١٩٧٣م ونحن نسير فى عملية مستمرة من ازدياد الوهن وفقدان المواقع. وجميع مسارات التعاظم التى اعتدناها بعد كل واحدة من المعارك العسكرية السابقة غيرت اتجاهها، واصبحت مسارات وهن. ويسير التدهور السياسى سوية مع الوهن الاقتصادى، وجمود الاستيطان ومع مظاهر الفساد الاجتماعى، وتقلص الهجرة، وازدياد النزوح، ولنكن صرحاء مع أنفسنا، ولو كان ذلك قاسيا لقد أصبحت حرب الغفران، فى وعينا القومى، جرحا مفتوحا.

تلك هى أهم ملامح التقييم الإسرائيلى لحجم ما حدث فى أكتوبر ١٩٧٣م. ولنعد إلى تساؤلنا :ـ ترى هل لو واجهت جماعة أخرى ـ دولة كانت أو أمة أو شعبا ـ ما واجهه التجمع الإسرائيلى فى أكتوبر ١٩٧٣م، سوف تبدى هذا الحجم الهائل من رد الفعل؟ إن ضخامة الأثر الذى خلفته حرب أكتوبر على التجمع الإسرائيلى، لا يرجع فيما نرى، إلى فعالية الانجاز العربى فى هذه الحرب، وقد كان

(١) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٠/١٠ ـ ١٦/١١/ ١٩٧٥، ص.٥٣٩ ـ ٥٤٠.

إنجازاً رائعاً حقا، بل إنه يرجع بالإضافة إلى ذلك إلى ما تعنيه نتائج هذه الحرب بالنسبة لخصائص النوعية المميزة لبنيان التجمع الإسرائيلى، وبالتحديد بالنسبة للدور المميز الذى تلعبه المؤسسه العسكرية فى هذا البنيان.

إن المؤسسة العسكرية الإسرائيلية ـ بالإضافة إلى الدور العسكرى التقليدى تقوم بأربعة أدوار أساسية أخرى هى :ـ

أ ـ على المستوى الاجتماعى، تقوم المؤسسة العسكرية بدور اساسى فى صهر شتات المهاجرين الذين يضمهم التجمع الإسرائيلى.

ب ـ على المستوى الايديولوجى، تقوم المؤسسة العسكرية بدورها فى تجسيد العنف الصهيونى باعتبارها الاداة العملية لاستعادة أرض الميعاد وتحقيق رسالة شعب الله المختار فضلا عن نجاحها فى إقامة وحماية الدولة الصهيونية.

جـ ـ على المستوى السياسى، تقوم المؤسسة العسكرية بكفالة الأمن الإسرائيلى مؤكدة صورة الجيش الإسرائيلى الذى لايقهر والذى لا يكفل أمن أولئك الذين يضمهم التجمع الاسرائيلى فحسب بل أيضا أمن يهود العالم المدعوين للهجرة إلى فلسطين.

د ـ أما على المستوى السيكلوجى فإن المؤسسة العسكرية تقوم بدورين متكاملين. فهى بما تخلقه وتدعمه من طابع عسكرى يسود التجمع الإسرائيلى تكفل مصدراً لاينضب لتضخيم مشاعر الاضطهاد وتوقع الخطر، وما إلى ذلك من مصادر لتفجير أقصى قدر من الطاقة العدوانية ثم إنها من ناحية أخرى تقوم بدور الضابط والموجه لتلك الطاقات العدوانية إلى أهدافها المطلوبة.

ومن هنا ، فإن اضطرار الجيش الإسرائيلى إلى التراجع تحت ضغط عسكرى عن أرض سبق أن احتلها ، وتحمله لخسائر بشرية كثيفة من جراء ذلك ، إنما يعنى تهديداً خطيراً لكفاءة تلك الادوار الموكولة إلى المؤسسة العسكرية الإسرائيلية وبالتالى فإنه يعنى تهديداً لجوهر الكيان الإسرائيلى تماماً .

إن تخلخل صورة الاشكنازى المحارب المنتصر دائما يؤدى من الناحية الاجتماعية إلى مزيد من احتمالات فشل عملية الصهر الاجتماعى بما تستهدفه من ضمان سيادة الطابع الاشكنازى على ابناء التجمع الإسرائيلى .

كذلك فإن التراجع عن جزء تم الاستيلاء عليه من «أرض الميعاد» يعد من الناحية الايديولوجية سابقة لها دلالتها الخطيرة . فهى تعنى أن العنف الصهيونى لا يمثل الحصان الرابح دائما . وإن تفوق ابناء «شعب الله المختار» أمر قابل للمناقشة . وبالتالى فإن الدلالة التاريخية لإقامة دولة إسرائيل كتجسيد للحلم الصهيونى تصبح بدورها عرضة للاهتزاز .

ومن الناحية السياسية فإن اضطرار الجيش الإسرائيلى إلى التراجع فضلا عن خسائره البشرية الجسيمة ، إنما يعنى تهديداً لصورة الجيش الذى لا يقهر، وبالتالى لما تمثله المؤسسة العسكرية ليهود إسرائيل ، وليهود العالم ، من ضمان أكيد للأمن .

أما من الناحية السيكلوجية فإن ما حدث يكتسب دلالتين متكاملتين ، فهو يعنى من ناحية تهديداً لمشاعر الامتياز والتفوق الحاسم ، ويعنى من ناحية أخرى تأكيداً لمشاعر الاضطهاد والتعرض للمخاطر ، أو بعبارة أخرى فإنه يعنى خفوتاً —عن الحد المقبول— لصورة

« إسرائيل الكبرى القوية القادرة » ، وبروزا ــ عن الحد المقبول أيضاً لصورة « إسرائيل الصغيرة المهددة العزلاء » .

إن هذه الخصائص النوعية المميزة لبنية التجمع الإسرائيلى ، هى وحدها التى يمكن أن تفسر تفاقم الازمة التى يعيشها التجمع الإسرائيلى منذ أكتوبر ١٩٧٣م . إنها لم تكن مجرد هزيمة لحقت بجيش ، بل كانت صدمة تعرضت لها الأركان الاساسية للتجمع الإسرائيلى . وسببت ومازالت تسبب له ارتباكا شديداً . ترى كيف بدأ رد الفعل الإسرائيلى لحرب أكتوبر ١٩٧٣م ، وكيف تطور ؟

أولا : رفض الواقع :

لقد أصبحت فكرة انتقائية الادراك من الافكار الكلاسيكية فى علم النفس . وأصبح من المسلم به أن المرء لا يدرك كل ما يقع على حواسه من مؤثرات ، بل أنه لينتقى منها أشياء ويترك أخرى . ونستطيع أن نقول ـ تبسيطاً ـ أن المرء يدرك ما يريد أن يدركه . ويرفض ـ أو بالأحرى يعجز عن إدراك مالا يود ادراكه . ذلك هو شأن البشر جميعا رغم تفاوت درجات انتقائيتهم هذه من فرد إلى آخر ومن موقف إلى آخر .

ولنضف إلى تلك الصفة العامة التى يشترك فيها البشر جميعاً ، صفة أخرى تميز الشخصية الإسرائيلية الاشكنازية ، وهى خاصية الجمود . إن البحوث العلمية المتخصصة التى أجريت فى مجال دراسة الشخصية الإسرائيلية وتعرضت بالفحص السيكلوجى لتواجد هذه الخاصية ، تكاد تجمع على تأكيد إتصاف الاشكنازيين الإسرائيليين ضمن ما يتصفون به بخاصية الجمود . وقد سبق أن أشرنا إلى جانب من هذه الدراسات . ورغم تعدد تعريفات الجمود فى التراث السيكلوجى العام ،

فإن تلك التعريفات جميعاً تكاد تتفق رغم تنوعها على أن الجمود يعنى ضمن ما يعنيه العجز عن إدراك التغيرات الجديدة التى تطرأ على موقف معين.

ترى ما هى ملامح التصور الإسرائيلى للعرب قبل أكتوبر ١٩٧٣م؟ لقد نشر يوشانان بيريز مدرس علم الاجتماع بمعهد كابلان بالجامعة العبرية بالاشتراك مع زميلته زيبوراه ليفى عام ١٩٦٩م، دراسة بعنوان «اليهود والعرب ـ أنماط جماعية أثنية فى إسرائيل»(١)وقد استهدفت الدراسة تبين ملامح تصور اليهود الإسرائيليون الاشكنازيون لانفسهم وكذلك للعرب المقيمين فى التجمع الإسرائيلى. وأيضا تصور هؤلاء العرب لأنفسهم وتصورهم لليهود. وتشير نتائج هذه الدراسة ضمن ما تشير إليه إلى سمة هامة ميزت نظرة اليهود إلى أولئك العرب الذين يعايشونهم، إذ يقرر المقال... «ويؤكد المفحوصون اليهود دونية جماعة الاقلية (أى العرب) خاصة فى مجال القدرة العقلية. ويحسون احساسا بالغاً يتفوقهم هم» ومن الأقوال التى ذكرها اليهود فى معرض وصفهم لأنفسهم العبارات التالية:

- يتحدث اليهودى باستمرار عن الجيش، معبرا عن ثقته فى أنه ما من دولة تستطيع هزيمة إسرائيل.
- يتميز اليهودى بشعور غريب بالاحترام نحو مفاهيم مجرده كالدين والتراث اليهودى.
- يرى اليهودى أن السماح للعرب بدخول الجامعة إنما يعنى أننا نخدع أنفسنا.

1. Peres, Y. and Z. Levy "Jews and Arabs : ethnic group Stereotypes in Israel", Race, 10, 1969, 479.

يشعر اليهودى بالتفوق على يهود الدياسبوراه (الموجودين خارج إسرائيل) ويرى أنهم يرسلون النقود فحسب بينما نتولى نحن المحافظة على الأرض من أجلهم.

وإذا كانت تلك هى ملامح تصور الإسرائيليين للأقلية العربية المقيمة فى التجمع الإسرائيلى، فإن تصورهم للعرب بعامة لا يختلف كثيراً. لقد نشرت مجلة التايمز الأمريكية فى عددها الصادر فى ١٢/٤/١٩٧١م نتائج قياس الرأى العام الإسرائيلى تجاه مسائل الحرب والسلام. وقد تضمن هذا القياس سؤال الإسرائيليين الذين شملهم البحث عما إذا كانوا يوافقون على عدد من العبارات المقدمة إليهم. وكانت النتائج كما يلى مرتبة تنازليا حسب درجة تقبلها:

العبارة	أوافق	لا أوافق
العرب أقل شجاعة من الإسرائيليين	٨٠٪	١٢٪
العرب أشد قسوة من الإسرائيليين	٧٥٪	١٧٪
العرب أقل ذكاء من الإسرائيليين	٧٤٪	١٩٪
يكره العرب إسرائيل كراهية عمياء	٦٨٪	٢٦٪
العرب أدنى من الإسرائيليين	٦٧٪	٢٣٪
العرب أقل أمانة من الإسرائيليين	٦٦٪	٢٠٪
العرب أكثر كسلاً من الإسرائيليين	٥٣٪	٣٦٪

هكذا كانت صورة العرب لدى الإسرائيليين قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣م، صورة المنهزمين المتخلفين، الكسالى، ضعاف الحيلة، الذين مزقتهم خلافاتهم وصراعاتهم، ومخاوفهم من بعضهم البعض، والذين قد يتحدثون جيداً وكثيراً ولكنهم لايصنعون شيئاً، أو يقدرون على صنع شيء مجد(١). وكان منطقيا أن تلقى هذه الصورة هوى لاحد له لدى أصحاب السلطة فى التجمع الإسرائيلى فهى تجمع بين طرفى المعادلة المنشودة فى توازن لا مثيل له: فالعرب يكرهون إسرائيل كراهية عمياء، وهم أشد قسوة من الإسرائيليين، ولذلك فهم يمثلون تهديداً ينبغى التوجس منه، والتهيؤ لمواجهته ولكنهم ــ أى العرب ــ فى نفس الوقت أقل ذكاء، وأقل أمانة أيضا من الإسرائيليين وذلك ضمان لبقاء التهديد العربى فى حدوده كتهديد فحسب لا يتجاوزها ليصبح خطراً حقيقياً.

وبدأت استعدادات القتال، أو بتعبير سيكلوجى، بدأت معطيات الموقف الادراكى فى التغير. ولم يعد هناك من يشك الآن ــ عربيا كان أو إسرائيليا ــ فى أن المعلومات التى كانت متوافرة لدى القيادة الإسرائيلية قبيل نشوب القتال، وفى الساعات الأولى من نشوبه كانت تنطق بما لا يدع مجالا للشك فى أن العرب يعتزمون القتال.

---

1. Beit-Hallahmi, B. «Some psychosocial and cultural factors in the Arab-Israeli conflict», The Journal of Conflict Resolution, 16, 1972, 269.
   - ---- «Some uses of religion in the Arab - Israel - Iconflict», Unpnblished, 1973.
   - Hong, S. «Arab National character and Middle East conflict», The Jerusalem Post, 18 Oct., 1970.
   - Harkabi, Y. «Basic factors in the Arab collapse during the six day war» Orbis, II, 1967, 677.
   - ---- Arab attitules toward Israel, (Translated by: M. Iouvish), Hart, 1972.

يقول يشعيا هوبن ــ فورات وزملائه «لقد شكل الرئيس السادات في ٢٥/٣/١٩٧٣م وزارة جديدة. وأعلن أن مهمتها هي أعداد مصر للحرب القريبة... ومنذ ذلك التاريخ، لم يمر يوم واحد تقريبا إلا ونشرت فيه صحيفة من صحف العالم خبرا أو تقريراً يتعلق بالحرب القريبة التي تنوي مصر شنها على إسرائيل(١)..

ومع ذلك فقد ظل العقل الاشكنازي الإسرائيلي في البداية لائذا بجموده، محتميا به، رافضا ــ رغم كل ما لديه من معلومات ــ أن يسلم أن العرب يستعدون بالفعل للقتال. بل لقد استمر حتى البداية الفعلية للقتال عاجزاً رغم كل امكانياته وقدراته ــ عن الفكاك من اسار ما اطمأن إليه من أفكار قديمة. لقد ظل العقل الاشكنازي الإسرائيلي متمسكاً ــ رغم كل ما يراه أمام عينيه ــ بأن التهديد العربي لا يعدو أن يكون تهديداً فحسب، وأن القدرة الإسرائيلية العسكرية لا يمكن إلا أن تكون قادرة على إلزام هذا التهديد حدوده المرسومة. لقد كانوا على حد تعبيرهم وبحق «لهم عيون ولا يبصرون» (٢).

ويقول حاييم هرزوج في كتابه حرب الغفران «إن تحليل الأحداث التي أدت إلى حرب يوم كيبور يشير إلى خطأين رئيسيين: الأول هو ذلك الخطأ القاتل في تقييمات أجهزة المخابرات. والفشل على مستوى القادة العسكريين والوزراء في تقييم دلالة التطورات المتوازية على الجبهات المصرية والسورية. فمن الحقائق الراسخة لتلك الفترة أنه لم يحدث في أي مرحلة وعلى أي مستوى.. أن أقدم أحد

---

(١) يشعيا هوبن ــ فورات (وزملائه)، مرجع سابق، ص ٣٠.

(٢) يشعيا هوبن ــ فورات (وزملائه)، مرجع سابق، ص ٣٠.

على الربط بين التجهيزات السورية فى الشمال... وبين النشاط والتمركز المصرى غير العادى فى الجنوب... يبدو كما لو أن الاعتقاد بأن الجيوش العربية لا تستطيع الحرب ولن تقدم عليها، قد سبب اعتاما عقليا كاملا.. *

وعلى أى حال فلم يمض وقت طويل، إلا وأقر بهذه الحقيقة المسئولون الإسرائيليون. فبمناسبة مرور عامين على حرب أكتوبر، وفى الفترة ما بين ١٣ ـــ ١٨ أكتوبر ١٩٧٥م، عقدت فى القدس المحتلة ندوة عسكرية عالمية لمناقشة نتائج الحرب و«النواحى العسكرية للنزاع العربى الإسرائيلى» وقد تحدث فى الجلسة الافتتاحية للندوة شمعون بيريز، وزير الدفاع الإسرائيلى، فقال «لقد ارتكبنا خطأ قبل يوم الغفران، عندما فضلنا تقديرات مفعمة بالأمل، على واقع غير سار. وعلينا تجنب هذا الخطأ والحيلولة دون تكراره[١].

إن العجز عن ملاحقة تغير الواقع، خاصة إذا ما كان هذا التغير يؤدى إلى اختلال التوازن المطلوب، يعد سمة تميز رد الفعل الإسرائيلى بعامة. فلقد حدث أن قامت منظمة التحرير الفلسطينية بعملية فدائية فى الأرض المحتلة هاجموا خلالها فندق سافوى فى تل أبيب، وذلك ليلة السادس من مارس ١٩٧٥م. ولقد كان رد الفعل الإسرائيلى حيال هذه العملية الفدائية، يكاد يكون نموذجاً مصغراً ومجسداً لرد الفعل حيال حرب اكتوبر ١٩٧٣م.

لقد روى مراسل صحيفة هاآرتس فى العدد الصادر فى ١٢/٣/١٩٧٥م تفاصيل الساعات الأولى للعملية منذ وصول الفدائيين

---

(١) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٠/١٠ــ ١٦/١١/ ١٩٧٥، ص٥٤٥.
(*) التأكيد من لدينا.

ونستطيع لو أمعنا النظر قليلاً أن نعدل من تفسير سبيرو لتلك الرغبه العارمه فى الرحيل التى لاحظها لدى السابرا أن الضيق بالحاضر فى حد ذاته لايكفى لتبرير رغبه الإنسان فى الرحيل، بل يشترط لبلوغ تلك النتيجه أن يصحب ذلك الضيق بالحاضر تشكك فى المستقبل وتشاؤم فيما يتوقع أن يأتى به. قد يضيق المرء بحاضره أشد الضيق، ومع ذلك فإنه يظل يسعى ماوسعه السعى إلى تغيير ذلك الواقع إلى واقع آخر يرضاه مادامت لديه بارقه أمل فى المستقبل، أما إذا ـــ انطفأت تلك البارقه من الأمل، فليس أمامه إلا الرحيل أمنية أو فعلاً، وهما أو حقيقة. وعلى أى حال فلعل فى بحث البرت رابين الذى سوف نعرض له على الفور مايمكن أن يلقى الضوء على تلك القضيه.

نشر عالم النفس الامريكى ألبرت أ. رابين، وهو رئيس قسم علم النفس فى جامعه ميتشجان،.نشر عام ١٩٥٩ مقالاً بعنوان «مقارنة بين الاطفال الأمريكيين والإسرائيليين باستخدام أسلوب تكميل الجمل»(١).

وقد استخدم رابين فى هذا البحث قائمة من الجمل الناقصة، هى عبارة عن صورة معدلة من اختبار ساكس وليفى وقد أسفر البحث ضمن ما أسفر عنه عن النتائج التاليه:ـــ

(أ) تضمنت القائمه الجملة التاليه «عندما لاأكون موجوداً مع أصدقائى فإنهم....» والمطلوب من المفحوص أن يكمل الجمله. بعبارة أخرى فإن المطلوب منه هو تبيان توقعه لسلوك أصدقائه فى غيبته. وقد قام رابين بتصنيف استجابات العينة الإسرائيليه إلى فئتين:ـــ

1. Rabin, A.I. Comparison of American and Israeli Children by means of a sentence completion technique, The Journal of Social psychology, V. 59. 1959, pp. 3-12.

١ ــ استجابات سلبيه مليئه بالشك، ومن أبرز نماذجها إكمال المفحوص للجمله على الوجه التالى: «عندما لا أكون موجوداً مع أصدقائى فإنهم يسبوننى».

٢ ــ استجابات أخرى متنوعة من نماذجها: «... لايصنعون شيئاً» أو... يبحثون عنى».

وكانت النسبة المئوية للإسرائليين الذين تندرج استجاباتهم تحت الفئه الأولى ٦٠٪ مقابل ٤٠٪ تندرج أستجاباتهم تحت الفئه الثانية.

(ب) تضمنت القائمه كذلك الجمله الناقصه التاليه «يبدو المستقبل بالنسبه لى..» وقد ميز رابين أيضاً بين فئتين من الاستجابات فيما يتعلق بإكمال هذه الجمله:

١ ــ استجابات إيجابيه مثل: «.... مشرق» أو «..... جميل جداً».

٢ ــ استجابات أخرى متنوعة مثل: «.. غريباً أو..... مجهولاً.. أو... غير صحيح أو.. كالحاضر».

وكانت النسبه المئوية للإسرائيليين الذين تندرج استجاباتهم تحت الفئه الأولى ٤٢٪ فى مقابل ٥٨٪ تندرج استجاباتهم تحت الفئه الثانيه.

(جـ) وتضمنت القائمة أيضاً الجملة الناقصة التالية: «فى يوم ما سوف....» وقد ميز رابين بين فئتين فيما يتعلق بإكمال هذه الجملة أيضاً:ــ

إلى شاطىء تل أبيب موضحاً أنه في تمام الساعة السابعة مساءاً، أنزل زورق إلى الماء بواسطة رافعة في السفينة الأم، وركبه ثمانية فدائيين اتجهوا إلى الشاطىء مسترشدين باضواء المدينة وببوصلة كانت في حوزتهم، فوصلوا إليه الساعة ١٠،٤٥ ... وإن الفدائيين اضطروا إلى تغيير أهدافهم الأصلية. بسبب اطلاق النار عليهم من قبل دورية للشرطة كانت تبحث عن المومسات في هذه المنطقة، فركضوا باتجاه دار للسينما واطلقوا النار عليها. وقد أبلغت هذه الدورية باللاسلكي قائد دورية أخرى كان على مقربة من مكان الحادث، **وكانت أول فكرة خطرت له، طبعا، إن ما يدور هناك هو حرب عصابات بين زعماء عالم الاجرام حول تقاسم السلطة...**(١).

ولم يكن ذلك الارتباك قاصرا على قادة دوريات الشرطة وحدهم. لقد تطرقت صحيفة هاعولام هازية في عددها الصادر في ١٢/٣/١٩٧٥م إلى هذا الارتباك بقولها «إن البلبلة الشديدة التي سادت بين القادة، والتعليمات المتناقضة تعليمات الاركان العامة، ورئيس الحكومة، ووزير الدفاع ووزير الشرطة، أدت إلى تأجيل العملية مرتين (تقصد عملية التصدى للفدائيين) فجاء نجاحها أقل مما كان ممكناً (٢).

لقد أسفرت العلمية عن استشهاد الفدائيين الثمانية وعن مصرع احدى عشر إسرائيلى من بينهم ثلاثة عسكريين ولكن اصداءها في التجمع الإسرائيلى قد تجاوزت ذلك الحجم بكثير.

---

(١) المرجع السابق، ص١٨٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٨٩.

تقول صحيفة هاعولام هازية فى عددها المشار إليه والصادر فى ١٢/٣/١٩٧٥م لقد أثبتت عملية سافوى .... أن جهاز الأمن لم يشف بعد من الأمراض التى اصابته منذ حرب الأيام الستة، والتى أدت إلى نتائج سيئة جداً فى يوم الغفران. وقد أظهرت هذه العملية من جديد جميع أعراض تلك الأمراض، على نطاق ضيق ومحلى. **وكانت ليلة سافوى من ناحية معينة بمثابة يوم غفران مصغر**(١)*. وتمضى الصحيفة محددة «أعراض تلك الأمراض» فتشير إلى «عدم فاعلية جهاز الانذار والوقاية. انعدام الخيال فى تقدير خطوات العدو المتوقعة ... جو الفوضى الذى أخذ طابع الارتجال. وقف العملية قبل نهايتها الحقيقة لسبب الجو العام من الرضى عن النفس، ونشوة النصر، وتجزئة المسئولية والبلبلة فى مجال الاختصاصات، والسعى وراء النشر والثرثرة» وتخلص الصحيفة فى نهاية عرضها إلى القول: «لو حدث كل ذلك فى معركة عسكرية كبرى لادت هذه الظواهر إلى كارثة عسكرية أخرى، كما أدت فى يوم الغفران، من هذه الناحية يجب أن تكون عملية سافوى بمثابة إنذار: عيوب يوم الغفران لم تقوم بعد»(٢).

وأورد يوئيل ماركوس فى مقال له بصحيفة هاآرتس يوم ١٠/٣/١٩٧٥م ما يراه من تقصيرات إسرائيلية فى صورة التساؤلات التالية .... كيف حدث إنه لم تكن هناك معلومات أو على الأقل، لم يكن هناك توقع إمكان حدوث عملية من البحر ضد تل أبيب، عشية زيارة كسينجر؟. كيف لم يتم اكتشاف السفينة الأم، وزورقى الكوماندوز، وهى فى طريقها إلى الهدف؟ وإذا لم يجر اكتشافها قبل

---

(١) المرجع السابق، ص١٨٩.
(٢) المرجع السابق، ص١٨٩.
(*) التأكيد من لدينا.

فوات الأوان، لماذا لم تكن قوات الأمن مستعدة، بحيث تتمكن من التحرك الفعال والعمل السريع، لإحباط خطة السيطرة على الفندق؟ وإذا كانوا (الفدائيين) قد سيطروا على المبنى، فلماذا مر وقت طويل حتى عرف المبنى الذى يسيطرون عليه؟ وأين كان الحرس المدنى الذى يفاخر بالـ٦٠٠٠٠ر٦٠متطوع العاملين فيه؟... لقد كان من المحتمل قيام الفدائيين بعملية كعملية سافوى عشية جولة كيسنجر الاخيرة.. إننى لا أتحدث عن ضرورة أن تكون بيد الاستخبارات الإسرائيلية المعلومات حول عملية مبرمجة ومعقدة بهذه الدرجة ضد هدف فى تل أبيب ولكن حتى لو لم تصل معلومات كهذه، كان يكفى استخدام الدماغ للتوصل إلى استنتاج (١) أما زئيف شيف فى مقاله المنشور فى هاآرتس فى ١٩٧٥/٣/٧م فقد مضى بعيداً فى تحليله لاهداف العملية حيث لم يستبعد كونها جزءاً من مخطط الهاء وتمويه وتغطية على الاستعدادات العسكرية لخوض حرب جديدة كما حدث فى الفترة التى سبقت حرب السادس من تشرين (٢).

ذلك هو رد الفعل الإسرائيلى لكل ما من شأنه أن يحول التهديد العربى إلى خطر واقعى. سرعان ما يؤدى ذلك إلى «بلبلة» العقل الإسرائيلى الاشكنازى و«مفاجأته»، ورفضه أن يصدق ما يجرى مهما كان الواقع الجديد متوقعا.

ثانيا: تحجيم صورة الواقع:

لم يكن فى مقدور العقل الإسرائيلى الاشكنازى مهما كان جموده،

---

(١) المرجع السابق، ص١٨٩.
(٢) المرجع السابق، ص١٩١.

ومهما كانت مفاجأته أن يظل على رفضه للواقع، كان عليه مضطراً أن يتعامل معه حتى ولو لم يسلم بأبعاده الحقيقية.

وكان رد الفعل الأول على لسان جولداً مائير رئيسة الوزراء آنذاك، التى أذاعت فى مساء السادس من أكتوبر بيانا جاء فيه: «أن الجيش الإسرائيلى كان مستعداً وهو يصد الهجوم.. لقد اعتقد المهاجمون أننا لن نكون فى يوم الغفران متأهبين للرد على الحرب بأشد منها ولكنا لم نفاجأ» ([1]) ولكن لم تلبث الاحداث أن تتالت، ولم تكن فى صالح الإسرائيليين. وأصبحت صورة الواقع واضحة لدى المسئولين فى التجمع الاسرائيلى. ولكنهم لم يستطيعوا ـ ولم يكونوا ليستطيعوا ـ مواجهة جمهورهم بحقيقة ما يجرى دفعة واحدة بل لجأت أجهزة الاعلام الرسمية الإسرائيلية إلى الحفاظ على الصورة الاسطورية للمؤسسة العسكرية الإسرائيلية.

يقول يشعيا هوبن ـ فورات: «... عندما صفع الواقع المرير الإسرائيليين اخذوا بأسلوب إخفاء الحقيقة المفجعة. إنهم (مواطنو إسرائيل) لم يعرفوا بسقوط موقع جبل الشيخ ـ مثلا ـ الذى احتله السوريون منذ الساعات الأولى للحرب إلا فى اليوم الأخير من الحرب بعد أن أعادت قوات الجيش الإسرئيلى إحتلال الموقع والأدهى من ذلك أن وسائل الاعلام الإسرائيلية اضطرت طوال أيام الحرب، بناء على تعليمات من أعلى، إلى أن ترسم للمواطنين صورة معقمة للحرب. فالخسائر الجسيمة، والقتلى والجرحى، هم من نصيب العدو فقط. ودبابات العدو وطائراته هى وحدها التى تصاب وتدمر والعدو وحده يتراجع» ([2]).

---

(١) يشعيا هوبن ـ فورات، مرجع سابق، ص ٢١.

(٢) يشعيا هوبن ـ فورات (وزملائه)، مرجع سابق، ص٣١٨ ـ ٣١٩.

ولم يكن ممكنا لمثل هذا الموقف الانكارى أن يستمر بالنسبة لبقية تفاصيل وقائع القتال. وكان على القيادة الإسرائيلية أن تلتمس تفسيراً تقدمه لما حدث على جبهات القتال. ولقد وجدت هذه القيادة ضالتها فى فكرة بدت لها نموذجية وهى فكرة «المفاجأة العربية». ليس باعتبار أن الانجاز العربى فى أكتوبر ١٩٧٣م قد تضمن فيما تضمنه خطة لمفاجأة العدو، ولكن باعتبار أن «المفاجأة» هى كل ما أنجزه العرب. لا أكثر ولا أقل. ولقد كانت هذه الفكرة بالتحديد هى الأنسب والأكثر ملائمة للتكوين السيكلوجى الاشكنازى الإسرائيلى فهى تتيح من ناحية إبراز «النوايا» العدوانية العربية، كما إنها تكفل من ناحية أخرى تأكيد إن إنجاز السادس من أكتوبر ليس سوى الاستثناء العارض، وإن القاعدة هو ما حدث خلال يونيو ١٩٦٧م.

وفى حقيقة الأمر، فإن عبور القوات المصرية لقناة السويس كان احتمالاً وارادا لدى القيادة الإسرائيلية منذ نهاية حرب ١٩٦٧م مباشرة. ويكفى أن نشير تأكيداً لذلك إلى ما أورده حاييم هرتزوج فى كتابه حرب الغفران إذ يقول «فى مناورات الجيش الإسرائيلى عام ١٩٦٨م قام جافيتشى بقيادة القوات الإسرائيلية، فى حين قام الجنرال موردخاى جور ـــ الذى عين رئيسا للأركان بعد حرب الكيبور ـــ بدور قائد القوات المصرية. واقدم جور خلال تلك المناورات على العبور بقواته على طول الجبهة الإسرائيلية تماماً كما كان على قوات الرئيس السادات أن تفعل بعد خمس سنوات. وهكذا فإن فكرة إمكان هجوم مصرى كانت واردة فى الاعتبار بالفعل منذ عام ١٩٦٨م لدى اعضاء القيادة الإسرائيلية» (١).

---

1. Herzug, H. op. cit.

ترى فيم كانت مفاجأة الإسرائيليين إذن فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣م ، لقد أعلن مناحم بيجين فى بيان صدر عن كتلة ليكود فى ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣م إن الحكومة الإسرائيلية قد فشلت فشلا ذريعا فى اتخاذ اجراءات للردع فى فترة الاعياد المقدسة وذلك قبل الهجوم العربى . وذلك على الرغم من أنه قد توفر لديها معلومات موثوق بها عن حشود لقوات العدو فى الشمال والجنوب (١) .

ولقد نشرت صحيفة دافار فى ١٧/١٠/١٩٧٥م نص المحاضرة التى ألقاها دافيد العازار، رئيس هيئة الاركان الإسرائيلى السابق ، فى الندوة التى عقدت بمناسبة مرور عامين على حرب أكتوبر. وقد اختار العازار لمحاضرته عنوان « دروس حرب يوم الغفران » ويقول فيها : « .... تعلمنا أن المشكلة الأساسية ليست جمع المعلومات وتعقب ما يجرى لدى العدو فمن خلال نظرة إلى الوراء ، كانت لدى الاستخبارات الإسرائيلية فى تشرين الأول ١٩٧٣م المعلومات التى كان يمكن أن تعرف من خلالها ما يجرى لدى جيوش مصر وسوريا . وإذا كانت المفاجأة ممكنة ، على الرغم من توفر هذه المعلومات لدى جهاز الاستخبارات ، فإن السبب فى ذلك يمكن فى عدم سبر أغوار هذه المعلومات وتفسيرها تفسيراً سليما أن **عدم معرفة نوايا العدو من جهة والاسوأ من ذلك ـ التفسير غير الصحيح لنوايا العدو من جهة أخرى هما** السببان الاساسيان اللذان اتاحا المفاجأة » (٢) * .

لم تكن مفاجأة الإسرائيليين نقصا فى المعلومات بقدر ما كانت عجزا عن تقبل إمكانية إقدام العرب على القتال وهو العجز الذى لم

(١) جريدة الأهرام ، (القاهرة) ، ٢٥/١٠/١٩٧٣ .
(٢) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٦/١١/١٩٧٥ ، ص ٥٥١ .
(*) التأكيد من لدينا .

يستطيعوا رغم إقرارهم به عمليا، أن يقدموا له أى تفسير، حتى ولو لم يكن مقنعا. فالكتابات الإسرائيلية عن أكتوبر ــ رغم كثرتها ــ لم تحاول أن تقترب مطلقا من السؤال الأساسى: لماذا كانت المفاجأة؟

وعلى أى حال فقد مضت أجهزة الإعلام الإسرائيلى فى الالحاح على فكرة المفاجأة هذه. محاولة بذلك أن تخفى حقيقة بسيطة واضحة، هى أن ما أنجزه العرب فى أكتوبر ١٩٧٣م إنما يعبر بصدق ودقة عن حقيقة ميزان القوى بينهم وبين العدو. تلك هى الحقيقة التى سعى ــ ويسعى ــ الإسرائيليون جاهدين لطمسها أو على الأقل لتحجيمها.

لقد نشرت صحيفة يديعوت احرونوت فى عددها الصادر فى ١٦/١٠/١٩٧٥م جانبا مما قاله اللواء شلومو غازيت رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية فى الجيش الإسرائيلى، فى الندوة العسكرية التى أشرنا إليها آنفا. وقد أكد غازيت فى حديثه بالنسبة للإنجاز العربى فى أكتوبر ١٩٧٣م، إن ما حققه العرب «... لم يكن إلى حد ما، نتيجة ما فعلوه، وإنما نتيجة ما اخفقنا نحن فى القيام به» (١).

أما دافيد اليعازار فقد حرص فى محاضراته التى القاها فى نفس الندوة على إبراز إن ما حدث فى اكتوبر ١٩٧٣م لا يعبر بحال عن تغير جوهرى فى مستوى كفاءة الجيوش العربية. بل إنه يمضى فى سبيل إثبات ذلك إلى حد الاشادة بالقتال العربى عام ١٩٦٧م، حيث يقول «.... إننى لأذكر عدة معارك لا بأس بها، خضناها ضد جيوش مصر وسوريا والاردن.. وقد تطلبت منا جهوداً كبيرة، واستنفاذا لكل حنكة

---

(١) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٠/١٠ــ ١٦/١١/ ١٩٧٥، ص٥٤٨.

الحرب، للانتصار فيها. كما أننى لا أشارك فى المبالغة فى وصف الجيوش العربية، وكأنها حققت ثورة نوعية متطرفة فى حرب ١٩٧٣م. والحقيقة أنه حدث تحسن معين فى الجيوش العربية بين الحربين ٦٧، ٧٣م سواء من ناحية التخطيط أو التنفيذ، بيد أن المستوى لا يزال متدنيا كثيراً عن مستوى الجيش الإسرائيلى» (١).

ثالثا: الوعيد والتنمر:

تكتمل حلقات محاولة الاحتواء العقلانى الإسرائيلى لما حدث بصورة الوعيد: إن هذا الإنجاز الهين والاستثنائى الذى حققه العرب فى أكتوبر ١٩٧٣م لسوف تسحقه على الفور القوة الإسرائيلية التى لا تقهر، لتعيد نتائج القتال إلى التعبير عن حقيقة توازن القوى بين الأطراف المتحاربة.

لقد صرح موشيه ديان خلال الساعات الأولى للقتال قائلا «سنضربهم ضرباً مبرحاً» (٢)، وكتب زئيف شيف المعلق المراسل العسكرى لصحيفة هاآرتس فى ٨/ ١٠/ ١٩٧٣م قائلا «إن لتفاؤل السيدة جولدا مائير رئيسة الحكومة، والسيد موشيه ديان وزير الدفاع أساسا يعتمد عليه. ليس هناك شك فى انتصار الجيش الإسرائيلى فى هذه الحرب الجديدة التى فرضت عليه الآن (٣) ويمضى دان شيفطان الباحث فى معهد شيلواخ فى مقاله المنشور فى هاآرتس فى ٩/ ١٠/ ١٩٧٣م خطوة أبعد من ذلك مقرراً... «إن هزيمة القوات المهاجمة أو إصابة الجهاز العسكرى اصابة كبيرة لا تكفيان... على

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٥١.
(٢) يشعيا هوبن ــ فورات (وزملائه)، مرجع سابق، ص ٢١.
(٣) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، العدد ٢٠، ٦/ ١١/ ١٩٧٥، ص ٦٢٨.

إسرائيل أن تسعى لاكثر من ذلك كثيراً. فالجيوش يمكن إعادة بنائها... يجب أن تترك الحرب آثار جروح تبقى وتوجع العرب، مثل فقدان المناطق فى حزيران ١٩٦٧م... إن أحدى الطرق للوصول إلى أثر كهذا هى التوجه نحو تدمير مخطط للقاعدة الصناعية، ووسائل النقل، وضرب أماكن استغلال الثروات الطبيعية. فمثلا فى مصر، يمكن ضرب المجمع الصناعى الكبير فى حلوان، واشعال حقول النقط وفى سوريا يجب أن نحاول بالإضافة إلى ذلك توسيع الرقعة المحتلة لخلق تهديد دائم لدمشق ضمن مدى المدفعية (١).

وقد يبدو للوهلة الأولى إن ما سبق لايعدو أن يكون من قبيل التشجيع لقوم يحاربون. دون أن يعكس بالضرورة «وعيداً» أو «تنمراً» يضرب بجذوره عميقا فى التكوين السيكلوجى الاجتماعى الإسرائيلى. ولعل الصورة تزداد وضوحا إذا تبين استمرار هذه النغمة، بل وارتفاعها، بعد انتهاء أحداث حرب أكتوبر ١٩٧٣م.

لقد خلص الكاتب الإسرائيلى موشيه شامير فى مقال له نشر فى صحيفة معاريف فى ١٤/٩/١٩٧٥م تحت عنوان «جرح مفتوح» إلى أن العبرة الاساسية من الحرب التى وقعت منذ سنتين، هى «أن على إسرائيل» وشعبها فى المنفى وما تبقى من الدول التى تريد حقا استمرار دولة إسرائيل البقاء فى حالة يقظة وحذر دائمين خصوصاً وإن شعارات التملق الكاذبة، بأننا نقف على عتبة احتمال التسوية، أو التقدم نحو السلام مع الدول العربية، تسبب لنا ضرراً فى كل خطوة نخطوها» (٢).

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٣٤، ٦٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٤٠.

لقد كان الموقف السيكلوجي الإسرائيلي الذى أسفرت عنه حرب ١٩٧٣م، يكاد يمثل انعكاسا دقيقا لموقف القوة العسكرية الإسرائيلية: قوة عسكرية عدوانية، تعرضت لضربة قوية حقا، ولكنها ـ لظروف عديدة ـ لم تقضى عليها تماما. سيكلوجية عدوانية تقوم أساساً على تضخيم الشعور بالاضطهاد تلقت ضربة قوية لم تتمكن من احتوائها تهوينا أو تبريراً أو وعيداً. وفى نفس الوقت فإن هذه الضربة وحدها لم تكن كافية للإجهاز تماماً على السبل العدوانية المتاحة للتعبير عن الشعور بالاضطهاد.

الآثار النفسية لحرب أكتوبر

لقد عقدت الجمعية الدولية لعلماء النفس اجتماعها السنوى العام ١٩٧٥م فى تل أبيب، فى الفترة من ٦ إلى ١٠ يناير. وكان الموضوع الرئيسى لهذا الاجتماع هو الضغوط النفسية، والتوافق النفسى فى الحرب والسلام وكان من بين المتحدثين الرئيسيين فى هذا المؤتمر عالم النفس الاجتماعى الشهير ريتشارد لازاروس الذى اختار موضوعاً لخطابه إلى المؤتمرين: «سيكلوجية المواقف العصيبة ومواجهتها مع إشارة خاصة إلى إسرائيل» (١).

ويحدد لازاروس موقعه منذ البداية قائلاً: «اننى اخاطبكم اليوم من موقعين أولا، كواحد من علماء النفس تركزت بحوثه وإسهاماته النظرية فى مجال دراسة المواقف العصيبة، والتصرف حيالها، ثانيا، كأمريكى يهودى فى اواسط العمر يشعر ــ شأن غالبية أمثاله ــ بتوحد كامل مع نضال إسرائيل القومى من أجل خلق وتأمين مكان ليهود العالم فى مجتمع إنسانى متسامح».

ثم يعرض لازاروس لرؤيته السيكلوجية للإسرائيليين مقررا إن

---

1. Lazarus, R.S. «The psychology of stress and coping, with particular reference to Israel» Adress given at international conference on psychological stress and adjustment in times of war and peace, Tel Aviv, Israel, January, 6-10, 1975, Unpublished paper.

الإسرائيليين كأفراد يواجهون ما يواجهه البشر عامة من أضرار ومخاطر. ويبدون حيال ذلك ما يبديه غيرهم من تصرفات. ولكن الإسرائيليين ــ بالإضافة إلى ذلك ــ يعيشون فى ظل توقع القتل أو فقدان الأحبة أو الأصدقاء نتيجة للحرب أو للأعمال الارهابية. ثمة خطر مستمر لهجوم معاد قد يسبقه نذير وقد يكون مفاجئا... ويعانى الإسرائيليون أيضاً إحساساً مستمراً بالوحدة فى عالم كاره أو غير مبال... ولابد أن هذا الإحساس قد تزايد بحدة فى الخريف الماضى حين تراجعت إحدى الحكومات عن مواقفها المؤيدة السابقة نتيجة القدرة الجديدة للدول العربية المنتجة للبترول على التحكم فى أسعار وكميات تلك المادة الحيوية بالنسبة للعالم الصناعى، هذا بالإضافة إلى ما لاقاه ياسر عرفات من ترحيب حار فى الأمم المتحدة وما تقرر بشأن طرد إسرائيل من اليونسكو، وكلا الأمرين نتيجة لسيطرة العالم الثالث على التصويت فى هذه المؤسسات...

ويمضى لازاروس مبرزا لآثار حرب أكتوبر على الفعل الإسرائيلى قائلا: «لقد أدت حرب يوم الكيبور بنتائجها غير الحاسمة، وخسائرها الكبيرة إلى تغير التقييمات الإسرائيلية السابقة تغيراً جذرياً. وقد حدد لى بعض أصدقائى وزملائى الإسرائيليين عدداً من المسلمات والافتراضات الشائعة التى انهارت نتيجة لهذه الخبرة. ومنها على سبيل المثال إن العرب لن يتحدوا أبداً ضد إسرائيل. إنهم لن يحاربوا بشجاعة أبداً. إن قوات الدفاع الإسرائيلية على درجة عالية من الكفاءة، وأن المخابرات الإسرائيلية تضمن انتصاراً دائماً بأقل قدر من الخسائر. إن لدى قيادة الدولة من الحكمة والخبرة ما يسمح بترك كل شيء لتصرفها. إن الرأى العالمى سوف يبقى مؤيداً لإسرائيل إن

الوقت فى صالحنا ... «ويؤكد لازاروس» ... أن الجمهور الإسرائيلى كان على ثقة فى بداية حرب الكيبور من القدرة على التصدى لما يواجه الأمة من مصاعب، ولم يفقد الثقة كثيراًفى القدرة القتالية لقوات الدفاع الإسرائيلية فى البداية إلا إن مسار الحرب بعد ذلك قد تطلب تعديلات أساسياً لتقييم طبيعة ومدى التهديدات، وكيف ينبغى مواجهتها.

ويستشهد لازاروس بما نشرته إحدى الصحف الإسرائيلية بعد مضى عام على الحرب، حيث قالت: «ثمة شىء ما قد تحطم فى حرب يوم الكيبور فى العام الماضى. لقد انقذت الدولة حقا، ولكن ايماننا قد تداعى، ويقيننا قد تحطم وقلوبنا قد تمزقت حتى الاعماق وفقدنا ما يقرب من جيل كامل».

ويشير لازاروس إلى ما لاحظه من انتشار اللامبالاة لدى العديد من الإسرائيليين قائلاً: «... إن العديد من الإسرائيليين الذين كانوا يدمنون الاستماع إلى نشرات الأخبار فى الإذاعة وقراءة الجرائد. قد بدأوا فى تحاشى ذلك قدر الإمكان، مما يشير من الناحية السيكلوجية إلى مدى تدهور الموقف من وجهة نظرهم ..».

ويبرز لازاروس الفرق بين حرب أكتوبر وبقية الحروب التى خاضتها إسرائيل قائلاً: «... ورغم إن الحروب مع العالم العربى كانت بمثابة النمط السائد منذ البداية إلا إنها كانت لحسن الحظ حروباً قصيرة. وكان كل انفجار للعنف يترك إسرائيل أكثر قوة، بل واتساعاً إلى حد ما لقد كانت النتائج إيجابية دائما، حتى مؤخراً. فرغم إن الحروب المستمرة قد كبدت إسرائيل الكثير، إلا أنها لم تعان أبداً من هزيمة كبيرة ...» وبعد أن يعرض لازاروس لأثر حرب أكتوبر فى

كشف زيف الاعتقاد بأن إسرائيل تسيطر تماما على ميدان الصراع ، وتضمن فرض النتيجة التى تريدها على العرب ، يقول بوضوح « ... لقد كانت حرب يوم الكيبور كارثة سيكلوجية ، بمعنى أنها قد هددت أو دمرت هذه العقيدة . ولسنا نعرف على وجه اليقين ما الذى حل أو سوف يحل محلها ، والخطر الأعظم هو أنها يمكن أن تستبدل بتعاظم الاحساس بالتهديد ، وانعدام الحياة ... » .

ولا يفوت لازاروس قبل أن ينهى خطابه أمام المؤتمر أن يقدم نصائحه وتحذيراته للإسرائيليين مقرراً أنه « ينبغى على الإسرائيليين إيجاد اسلوب عمل جديد للتصدى للخطر العربى المستمر سواء على المستوى الفردى أو على المستوى الجماعى » . ويمضى لازاروس محدداً ملامح هذا الاسلوب المقترح ناصحا الاجيال الشابة من الإسرائيليين بتمثل الخبرة التى اكتسبها يهود الدياسبورا فى ظروف العزلة والاضطهاد وذلك لأن حرب الكيبور ، والموقف السياسى العالمى المؤيد للعرب والذى تبلور بعد هذه الحرب سوف يحيى الصورة القديمة لليهودى كعاجز معزول ، لا يستطيع الاعتماد على نفسه بل على معونة الآخرين ... لذلك فإنه لمن الضرورى تماماً تقوية وتدعيم وتشجيع الروابط السيكلوجية بين الإسرائيليين الجدد واسلافهم ، وكذلك بينهم بين يهود الاقطار الأخرى .

ويمضى لازاروس فى تقديم المزيد من النصائح قائلا : « لقد كان المطلوب أولاً فى فترة ما بعد حرب يوم الكيبور هو التفكير والتخطيط بعيد المدى ، وطرح أفكار جديدة قائمة على اعادة التقييم الواقعى للموقف . ولست أعنى بذلك إنه لم يكن هناك تخطيط فيما قبل حرب الكيبور ، ولكن ما اعنيه هو أن التخطيط كان مرتكزاً على مسلمات

وتقييمات خاطئة ... ويبدو من الضرورى حاليا توفير الجهد الأكبر لمراجعة المشكلة ككل. واعداد الترتيبات لنضال طويل المدى مع العالم العربى والبحث عن طريقة جديدة للتصدى لما يفرضه العداء العربى من تهديد مستمر.

لقد كشف هذا الخطاب الذى القاه ريتشارد لازاروس عن عدة آثار هامة خلفتها حرب أكتوبر على السيكلوجية الإسرائيلية الاشكنازية. لقد تزايد الاحساس بالخطر وتزايد الشعور بالعزلة. وانهارت لدى الإسرائيليين مسلمات عديدة تتعلق بقدرة إسرائيل المطلقة.. وكفاءة قيادتها وتفوقها على العرب. وتقدم لازاروس عالم النفس الاجتماعى ناصحا الإسرائيليين بمزيد من شحذ عدوانيتهم، بل وصهيونيتهم أيضاً. ولقد أخذ الإسرائيليون بنصيحته، وما زالوا.

أما فكتور صنوع، وهو عالم نفس يهودى أمريكى صريح فى صهيونيته وفى عدائه للعرب، فقد نشر فى الفترة من ديسمبر ١٩٧٣م حتى اغسطس ١٩٧٤م سلسلة من المقالات فى إحدى المجلات العلمية المتخصصة فى علم النفس تحت عنوان «الآثار النفسية لحرب يوم الكيبور» (١). وقد أورد صنوع فى مقالاته هذه أن نسبة المصابين بصدمة نفسية من بين المصابين الإسرائيليين فى حرب أكتوبر قد تراوحت بين ٥٪ إلى ١٠٪ وهى نسبة عاليه تماما، جيث أن عدد مثل هؤلاء المصابين فى الحروب السابقة لم يكن ليذكر ويرجع صنوع ارتفاع هذه النسبة إلى «المفاجأة العربية للجيش الإسرائيلى فى يوم الكيبور أقدس الاعياد اليهودية».

---

1. Sanua, V.D., «The psychological effects of the yom Kppur war», New york state psychologist, Dec. 1973, June 1974, Aug. 1974.

ويشير صنوع إلى أنه «قد ظهرت خلال حرب يوم الكيبور العديد من مظاهر الاعتماد على التفكير السحرى أو الخرافى لدى اولئك الذين قتل أو فقد ابناؤهم أو أزواجهن. لقد استأجرت بعض الأسر الثكلى الوسطاء الروحانيين لمعرفة ما إذا كان احباؤهم المفقودون ما زالوا أحياء... كما اشترك بعض الأرامل والأباء الثكالى تحت وطأة يأسهم فى جلسات تحضير الارواح للاتصال بالموتى. وقد لوحظ انتشار هذا السلوك حتى بين جماعات الشباب المثقفين اللامعين».

ولقد نشر صنوع عام ١٩٧٤م بالعبرية مقالا بعنوان «هل السلام الدائم فى الشرق الاوسط، أمر ممكن؟ (١) يقرر فيه «أن قراءتنا للمواد الصادرة عن الدول العربية تقنعنا بأن شيئاً أساسياً لم يتغير فى نوايا العرب... إننا نشعر أن خطتهم لتدمير إسرائيل ما زالت قوية - إن لم تكن أقوى- فى عام ١٩٧٤... وحتى إذا ما افترضنا أن الحكومات العربية راغبة فى التوصل إلى اتفاق سلام مع إسرائيل، فلسوف يظل على إسرائيل التصدى للمنظمات الارهابية».

1. Sanua, V.D. «Is lasting pease possible in the Middle East ?» Bamaaracha, No. 159, 1974 (In Hebrew).

محتويات الكتاب

الباب الأول

الباب الثانى

الباب الثالث

الباب الرابع

رقم الايداع : ٢٢٧٦/ ٨٩
ترقيم دولى : ٦ــ ١٢٥ــ ١٣٣ــ ٩٧٧